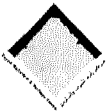
الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج

في الفترة ما بين ١٥٠٧ - ١٥٢٥ م

تأليف: محمد حميد السلمان



مركز زايد للتراث والتاريخ

الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج
في الفترة ما بين ١٥٠٧ - ١٥٢٥ م



مركز زايد للتراث والتاريخ
ZAYED CENTRE FOR HERITAGE AND HISTORY

ص.ب: ٢٣٨٨٨ العين - الإمارات العربية المتحدة - هاتف: ٧٦١٥١٦٦ - ٣ - ٩٧١ ، فاكس: ٧٦١٥١٧٧ - ٣ - ٩٧١
P.O.Box: 23888 Al Ain - U.A.E. Tel: 971 - 3 - 7615166 Fax: 971 - 3 - 7615177



الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج

في الفترة ما بين ١٥٠٧ - ١٥٢٥ م

تأليف: محمد حميد السلمان



مركز زايد للتراث والتاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المركز

تحتاج المكتبة العربية إلى العديد من كتب التاريخ التي تتناول سيرة البرتغاليين في المشرق العربي الإسلامي فالموضوع محوري عام يجب أن يظل في دائرة الضوء على الدوام لما يمثّله من أهمية سياسية وبُعد حضاري.

فالبرتغاليون هم رأس الرمح في قناة الاستعمار العالمي الحديث فهم أول الوافدين الغربيين إلى الشرق بأساطيلهم ومدافعهم وقضهم وقضيضهم، وما كانت مياه الشرق وطرقه البحرية تعرف قبل وصولهم إلى هذه المناطق الصراع العسكري إنّما كان التعامل تجارياً سلمياً حضارياً تتبادل فيه المراكز والمدن التجارية السلع دون نزاعات تُذكر.

حدد البرتغاليون هدفهم من استعمار الشرق قبل القيام بخطوات تنفيذية، واستقر هذا الهدف على دق عصب اقتصاد العالم الإسلامي لتحقيق هزيمة الإسلام وقيام حركة تنصيرية تودي بما يمكن أن يتبقّى للمسلمين. وعمل البرتغاليون لتحقيق هذا الهدف بالاعتماد معنوياً على الكنيسة والظفر بتأييد البابا، والاعتماد مادياً على حركة علمية قامت فيها مراكز البحوث بتطوير معارف العرب في الملاحة والسلاح.

وفد البرتغاليون إلى بحار الشرق فواجههم المماليك الذين كانوا يحكمون في مصر والشام والحجاز وملحقاتهم ولكنهم انشغلوا بعدئذ بمحاربة العثمانيين دون البرتغاليين، ثم سقطت دولتهم للعثمانيين الذين كانوا قد انتصروا لتوّهم على الصفويين في إيران. وهكذا أدى تخاصم القوى الرئيسة الثلاث في المنطقة إلى انصرافها للاقتتال فيما بينها ولم يقاتلوا عدوهم المشترك، بل إن بعض تلك القوى عمل على التحالف مع العدو الوافد ضد شركاء الدين والحضارة. وهكذا حلت الهزيمة بالجميع! ولم يكن حال القوى الإقليمية في شرق أفريقيا والخليج العربي وسواحل الهند بأحسن من حال القوى الرئيسة فقد اعتمدت في كثير من الأحيان التحالف مع البرتغاليين ضد بعضها البعض فأضرت بمنافسيها ونفسها بعدئذٍ. ولم تؤد كل هذه الحركات في النهاية إلا لتثبيت الاستعمار البرتغالي الذي اختط سياسة فرق تسد منهجاً للقوى الاستعمارية الأخرى التي سارت بعدئذٍ في إثره.

والمركز إذ يقدم شكره للأستاذ محمد حميد السلمان على هذا الجهد المثمر يتطلع إلى نشر المزيد من مثل هذه الموضوعات الجادة توثيقاً لتاريخ الخليج والوطن العربي الإسلامي الكبير.

والله ولي التوفيق،،،

المقدمة

كانت العبارات التي تكتب على زجاجات الأدوية في الممالك والأقاليم الأوروبية خلال البواكير الأولى لعصر النهضة مثل «وارد من بلاد الهند أو وارد من بلاد العرب»، تلهب حماس الكثيرين خصوصاً من المغامرين والباحثين عن الثراء، وتدفعهم للتساؤل والبحث والسفر لاكتشاف موطن تلك الثروة من المواد الطبيعية كالتوابل والعطور القادمة من الشرق.

وقد عبّر أحد الباحثين المحدثين في موضوع الكشوف الجغرافية وأهدافها عن الأهمية الاقتصادية الكبرى لأهم عنصر في التوابل وهو (الفلفل) في تلك الفترة، أصدق تعبير حيث قال: «لعله ليس للفلفل الآن أهمية كبيرة في التجارة، بيد أنه كان في ذلك العصر (عصر الكشوف الجغرافية الأوروبية) يقف على قدم المساواة مع الأحجار الكريمة، فإنّ الناس كانوا يجابهون مخاطر البحار ويقاتلون ويموتون في سبيل الحصول على الفلفل»(١). بل إنّ أحد الكتاب الهنود قال مبالغاً عن أهمية الفلفل: «إنّ السبب الخفي وراء جميع الحروب التي نشبت في بلاد الروم هو فلفل مليبار وحُب السيطرة على أسواقه، فقد استطاعت هذه الحبة السوداء الصغيرة أن تجذب إليها أنظار العالم كله إبان العصور الأولى للميلاد»(٢).

والحقيقة الأخرى الماثلة أمامنا بخصوص التوابل في العصور الوسطى الأوروبية والتي اصطلح على تسميتها (عصور الظلام)، أن الاعتقاد السائد آنذاك بوجه عام لدى المواطن الأوروبي هو أن مصدر

---

(١) — Panikkar, K.M, Asia and Western Dominance. (London, 1959), p.22.

(٢) محيي الدين الألواني، «مليبار – كيرله»، مجلة ثقافة الهند، المجلد السابع، العددين ١-٢، (بومباي، ١٩٥٩)، ص٣٢.

التوابل والأحجار الكريمة «جنة عدن»، تحملها إلى الدنيا أربعة أنهار تنبعث منها. وكان الجغرافيون يوضحون موقعها على خرائطهم برسم دائرة أو نصف دائرة يكتبون إلى جانبها في ثقة تامة «هنا موضع الجنة»!!، واعتقدوا أنها تقع في الشرق، في مكان عالٍ مرتفع جداً؛ حتى أنها تكاد لتلامس القمر، وتحيط بها أسوار شامخة تكسوها أوراق الأشجار الخضراء وتقوم من حولها الحصون»(١).

ولسنا ندري ما هو السبب وراء هذه الأسطورة، فلربما كان الرواج التجاري؛ فقد أدى ذلك فعلاً بسبب هذه الصورة الأدبية الخيالية، لارتفاع أسعار التوابل والأحجار الكريمة بشكل كبير، حتى صار المثل الشائع في بعض المدن الأوروبية إبان العصور الوسطى هو «غالٍ كالفلفل». وكان من العادات الشائعة بين رؤساء الكنيسة الفرنسية آنذاك أن يتقاضوا نصيب الكنيسة من ضرائب الأرض أو الزكاة «توابلاً»، وكان على الأرقاء مثلاً أو الأتباع الذين يرغبون في شراء حريتهم أن يدفعوا لرئيس الكنيسة «رطلاً من الفلفل»!!، ومن ناحية أخرى كانت كميات محددة من الفلفل في العصر الإقطاعي الأوروبي تدفع كإيجار للأراضي الزراعية(٢).

وقد أضافت قصص السندباد البحري العربية من خلال حكايات ألف ليلة وليلة الكثير من الخيال والإبهار والخرافات حول موطن التوابل وتجارتها والمغامرات العديدة من أجل الوصول إليها في الشرق. ومن هنا كانت تجارة التوابل هي منشأ العلاقات بين تلك الأمم، ومنها تكونت حلقات الاتصال بين فترات التاريخ في العصور الوسطى، وإليها أيضاً يعود الفضل في إيجاد الاتصال بين الشرق

---

(١) Boies, Penrose, Travel and Discovery in the Renaissance. (1402 - 1692), (U.K.,1960) p.II.

(٢) سونيا. ي.هاو، في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، (القاهرة، ١٩٥٧)، ص١٣.

والغرب بصورة مستمرة، ذلك أن الطرق التي سلكتها القوافل المحملة بتوابل الشرق لم تلبث أن أصبحت أهم شرايين الاتصال في آسيا وأفريقيا، وصارت تلك السلع ذات الرائحة الطيبة والمذاق الحلو تتركز في كلمة «العطارة»، واستمرت لقرون عديدة كأهم ما كان يتبادله الشرق والغرب من سلع.

هذه السلع بقدر ما كانت مصدر ثراء لبلاد الشرق ولكل بلد وميناء تمر به، إلاّ أنها صارت مصدر متاعب ونقمة لموطن إنتاجها وتجارتها. وقد بدأت تلك المتاعب منذ أن صاح البابا «أريان الثاني» عام ١٠٩٥ قائلاً: «هذه هي إرادة اللّه» أمام الجماهير المحتشدة في مدينة «كليرمونت» وقام بدعوة شعوب الغرب الأوروبي لحمل الصليب والاستعداد للاستيلاء على الأراضي المقدسة وانتزاعها من أيدي المسلمين. وبدأت الحروب الصليبية الأوروبية ضد البلاد العربية الإسلامية، ثم ما لقيته تلك الدعوة والحروب من تأييد من نصارى الغرب فبادروا إلى حمل شارة الصليب ورددوا صيحة البابا «أريان الثاني»، فكانت شعارهم لتلك الحروب التي بدأت عصر التوسع الصليبي الأوروبي في العالم العربي الإسلامي في القرن الحادي عشر للميلاد، هذه الحروب التي فتحت، في الوقت نفسه، آفاقاً واسعة للتوسع التجاري. وكما يقول المفكر ول ديورانت: «لقد سارت التجارة وراء الصليب، أو لعلّ التجارة هي التي قادت الصليب في الحروب الصليبية التي امتدت حوالي قرنين من الزمان ووسعت سبل التجارة مع بلاد الشرق»(١).

فمن قلب تلك الحروب بدأت الجمهوريات البحرية الإيطالية

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ٤، مج٤ (١٥) عصر الإيمان (بيروت، ١٩٨٨)، ص٦٧.

ولاسيما جنوة والبندقية بالاستحواذ على تجارة منتجات بلاد الشرق عن طريق الشام وهو من الطرق التقليدية لتلك التجارة، وقامت أساطيل البندقية باستيراد المحاصيل من الشرق إلى أوروبا، كما قامت من ناحية أخرى بنقل المحاربين والمؤن والحجاج الأوروبيين إلى بلاد الشام، مما أوجد انتعاشاً كبيراً في التجارة والنقل البحري لم يكن له نظير منذ أيام الإمبراطورية الرومانية. وامتلأت متاجر الأسواق الأوروبية بكميات كبيرة من الأقمشة الحريرية والسكر والتوابل مثل الفلفل والزنجبيل والقرنفل والقرفة وغيرها، وصارت هذه السلع من مواد الترف النادرة في أوروبا القرن الحادي عشر(١). إلاّ أنه بعد موقعة(حطين) الشهيرة عام ١١٨٧م (٥٨٣هـ)(٢)، وسقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين، ثم سقوط عكا أيضاً عام ١٢٩٠م، وطرد الصليبيين بعد ذلك من سائر بلاد الشام تدريجياً في عهد المماليك الذي جاء بعد الأيوبيين مباشرة، أدى كل ذلك لتأثر الوضع الاقتصادي في الجمهوريات الإيطالية بل وأدى لإفلاس بعض بيوتاتها التجارية الهامة(٣). ومن هنا فكرت جنوة بالتعاون مع المغول في فارس، بنهاية القرن الثالث عشر، في جلب التوابل براً من الهند إلى الخليج العربي ثم إلى موانىء شرق البحر المتوسط، ورغم أن هذا الاقتراح لم ينفذ، إلاّ أنه يعد مما زاد الرغبة لدى حكومة جنوة في اكتشاف طريق جديد للوصول إلى موطن التوابل، تلك المنافسة التي توجت بحروب متعددة بين البندقية وجنوة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، والتي خسرت فيها جنوة الكثير من مكتسباتها الاقتصادية مع موانىء

(١) المرجع السابق، ص٦٨.

(٢) في نفس العام الذي سقطت فيه بيت المقدس في يد صلاح الدين الأيوبي، سجل التاريخ في الجانب الآخر من البحر المتوسط (غرباً) ميلاد مملكة البرتغال عام ١١٨٧م.

(٣) رينيه كلوزييه، تطور الفكر الجغرافي، ترجمة عبد الرحمن حميدة (دمشق، ١٩٨٢) ص٥١.

التجارة في البحر المتوسط(١).

أما البندقية فقد عوضت ما خسرته في الشام بعد الحروب الصليبية بالاتجاه نحو المدن التجارية الأخرى التي تمر بها تجارة الشرق، وهي القاهرة والإسكندرية، حيث صارت هاتان المدينتان من أهم نقاط تجارة «العبور» العالمية القادمة من الهند والصين وملقا والجزر الأندونيسية في طريقها إلى أوروبا وظهرت أهميتهما بشكل واضح منذ عهد الدولة الفاطمية. ووطدت البندقية علاقتها بعد ذلك بسلاطين المماليك في مصر والشام والحجاز واحتكرت تجارة السلع الشرقية الواردة عن طريق البحر الأحمر والخليج العربي. وأنشأت البندقية لهذا الغرض ستة أساطيل بحرية، جنت من ورائها، خلال القرن الخامس عشر، أرباحاً خيالية دعمت من قوة تلك الجمهورية وسيادتها في حوض البحر المتوسط(٢).

ومن هنا صار تجار البندقية وجنوة يخضعون لوساطة التجار المسلمين في أسواق القاهرة والإسكندرية والشام، وصاروا بذلك تجار توزيع يدفعون الضرائب التي تفرضها حكومة المماليك في مصر والشام على التجارة الشرقية التي تمر عبر بلادهم(٣)، وكانت تلك الضرائب تصل أحياناً إلى ثلاثة أضعاف الثمن الأساسي لتلك السلع. ولذا أصبح هدف أوروبا القرن الخامس عشر هو الوصول إلى موطن التوابل مباشرة دون المرور عبر وسطاء التجارة من العرب والمسلمين بالذات.

---

(١) Panikkar, K.M. Op. Cit., p. 23

(٢) فاروق أباظة، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، (القاهرة، ١٩٨٦)، ص٢٧.

(٣) رينيه كلوزييه، مرجع سابق، ص٥١.

وقد بدأت حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية قبل ذلك القرن أيضاً برحلات ومغامرات استكشافية فردية منها الرحلة التي قام بها ماركو بولو الإيطالي مثلا(١)، وتلك الرحلة الأخرى التي قام بها الأخوان «جيوندو ويوجوليو فيفالدو» عام ١٢٩١م، من جنوة عن طريق جبل طارق إلى ساحل شرق أفريقيا بهدف الوصول إلى الهند، ولكن لم تعرف نتائج نهاية الرحلة بعد ذلك(٢). ثم تنافست الدول للفوز بأراضي التوابل والذهب، مع دخول عامل مساعد في تلك الكشوف، وهو قيام النهضة الأوروبية خلال الفترة من ١٣٠٠ - ١٥٠٠م، فيما سمي في أوروبا وقتها بالمولد الجديد أو (البعث الجديد)، وخصوصاً عندما أفرزت تلك النهضة طبقة الرأسماليين في المدن المهمة، حيث ساهمت في تطور الاقتصاد الأوروبي. ومن باب تبادل المنافع، دفعت تلك الطبقة البعوث الكشفية الجغرافية إلى الأمام دائماً حيث بدا أن المجهول يحمل معه الثروات. أضف إلى ذلك، تأثير الحضارات الإسلامية في النهضة الأوروبية عبر مراكز الإشعاع الحضاري الإسلامي المعروفة في أوروبا العصور الوسطى وهي:

- شبه جزيرة إيبيريا (الأندلس).
- جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا.
- بلاد الشرق العربي (الشام ومصر) إبان الحروب الصليبية(٣).

وبما أن المدن الإيطالية البحرية مثل البندقية وجنوة هي التي تمتعت برخاء اقتصادي كبير نتيجة اشتغالها بالتجارة المشرقية واحتكار توزيعها في أوروبا دون غيرها، فقد بدأت بوادر النهضة الأوروبية بها

(١) Boles Penrose, Op. Cit., pp. 10,11.

(٢) Panikkare, K.M. Op. Cit., p.23; Boles Penrose, Op. Cit. p.17.

(٣) عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، جزءان، (القاهرة، ١٩٥٩) جـ، ص٢٠١.

ويبعض المدن الإيطالية الأخرى كفلورنسا. وقد اكتسبت هذه المدن من حضارة المشرق العربي الإسلامي الشيء الكثير مما أدى لازدهار حركة العلم والعلماء فيها، ولذا سبقت غيرها من مدن وممالك أوروبا الأخرى في مجال الحضارة.

وقد هاجر علماء هذ المدن الإيطالية وبالذات جنوة، بعد تدهور أوضاعها الاقتصادية في القرن الرابع عشر، إلى كل من أسبانيا والبرتغال في شبه الجزيرة الأيبيرية. وكانت هاتان المملكتان آنذاك في قمة حروب طرد المسلمين من أسبانيا ومواجهة الممالك الإسلامية في محاولة لإزالة الوجود الإسلامي نهائياً من شبه الجزيرة، والتفكير جدياً في قطع الشريان الاقتصادي التجاري الذي يرفد تلك الممالك الإسلامية من شمال أفريقيا والمشرق العربي(١). وقد ساعد انخراط هؤلاء العلماء في دفع حركة الكشوف الجغرافية قدماً بما نقلوه معهم من أفكار جغرافية وفلكية اقتبسوها بدورهم من منابع الحضارة الإسلامية السالفة الذكر، مما أدى لتكوين فكر جغرافي مستنير بأحوال البر والبحر وكروية الأرض وشروحات حول طرق السفر والترحال، حتى غدا من المعروف في مطلع العصور الأوروبية الحديثة (٢)، أن السفر إلى أقصى شرق آسيا ينتهي إلى الصين واليابان وجزر البهار(٣).

وقد كانت البهارات والتوابل تشغل فكر وحياة الأوروبيين فعلاً مع نهاية العصور الوسطي وبداية العصور الحديثة. والسبب يعود للحاجة

---

(١) فيجي. جي. دي، تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة وتعليق السيد يوسف نصر (القاهرة، ١٩٨٢) ص١٠٧.

(٢) حسب المفهوم الأوروبي للعصور الحديثة، فإنها تبدأ من سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين عام ١٤٥٣م (٨٥٧هـ) وبداية الزحف الإسلامي العثماني على شرق أوروبا.

(٣) هـ.أ.ل.فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة مصطفى زيادة وآخرون، (مصر، ١٩٥٧) القسم الثاني، ص٤٦٣.

الشديدة لتلك التوابل في حفظ اللحوم في زمن لم تكن الثلاجات والمبردات الكبيرة معروفة، ولأن حياة الترف الأوروبية آنذاك صارت لا تقبل على طعام لم يمزج بالتوابل الشرقية(١). أضف إلى ذلك استعمال القرنفل والزنجبيل مثلاً في العقاقير الطبية. واشتدت حاجة النساء الأوروبيات للمسك والعنبر وماء الورد وشاركتهن الكنائس أيضاً في ذلك وفي الحاجة إلى البخور والعطور والعقاقير الهندية كالأفيون والكافور وغيرهما، بينما أضحت سلع أخرى مثل البن والأحجار الكريمة والعاج والسجاجيد والأقمشة الحريرية، مُدعاة للفخر والثراء في المجتمع الأوروبي(٢).

ومما ساعد فعلياً على التفكير في خوض مغامرات البحث عن موطن التوابل وبدء حركة الكشوف الجغرافية، ما أفرزته النهضة الأوروبية - التي ذكرناها - من إيجابيات حضارية مهمة مثل إنشاء مؤسسات علمية (أكاديميات ومكتبات ومدارس) ترعى الدراسات الإغريقية واللاتينية وتعتني بعلم الاثار والتاريخ، وظهور مخترعات جديدة مثل الطباعة واكتشاف البارود وما نجم عنه من ثورة في النظم الحربية، والاهتداء إلى عدة آلات فلكية كان لها دور كبير في علم البحار، مثل الإسطرلاب والبوصلة والدفة المتحركة وغيرها. كل هذا ساهم في توسيع مفهوم الملاحة ونبذ الأفكار والخرافات القديمة وتسهيل الطريق للبدء بارتياد المجهول في حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية ووصول البرتغاليين إلى المياه الشرقية.

---

(١) من أهم التوابل الشرقية شيوعاً في تلك الفترة، الفلفل والذي ينتج في جزر الهند الشرقية وساحل المليبار بغرب الهند، والدارسين من سيلان، وجوز الطيب من جزر الهند الشرقية، والقرنفل ويأتي من جزر ملوك Molucca. وللتدليل على الثراء الذي جناه تجار هذه السلع، يكفي أن نعرف أن قنطار الفلفل يبلغ ثمنه الأصلي في كاليكوت (٣ بندقيات) بينما يُباع في الإسكندرية بـ٨٠ بندقياً.
للمزيد أنظر: شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر (القاهرة، ١٩٤٨) ص١٤٦.

(٢) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ص٨٤.

الفصل الأول
الاستعمار البرتغالي
في بحار الشرق ودوافعه

- الكشوف الجغرافية وطرق التجارة العالمية في العصور الوسطى.
- الكشوف البرتغالية وأهدافها.
- اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.
- حملة فاسكو داجاما وبداية الاستعمار البرتغالي لبحار الشرق.
- الإمبراطورية البرتغالية في الشرق.

الاستعمار البرتغالي في بحار الشرق ودوافعه

الكشوف الجغرافية وطرق التجارة الدولية في العصور الوسطى

عندما يتعرض الباحث لموضوع الكشوف الجغرافية البرتغالية البحرية وما رافقها من رحلات كشفية برية أيضاً، لابد وأن يقف عند أهم حافز جعل هذه الكشوف تسير حثيثاً نحو أهدافها، ألا وهو الرغبة في السيطرة على الطرق التجارية العالمية في العصور الوسطى وتحويلها هي وتجارتها لتصب في الأراضي البرتغالية ومنها إلى أوروبا. ولذا لابد من استعراض تلك الطرق القديمة للتجارة العالمية.

لقد كانت التجارة العالمية بين الشرق والغرب تسلك عدة طرق برية وبحرية بين مصادرها الأصلية في بلاد الشرق، والتي يطل معظمها على المحيطين الهندي والهادي، وبين أسواقها في العالم العربي وأوروبا، حيث كان الحجم الأكبر من هذه التجارة يسير عبر الطرق التالية:

١ – طريق الخليج العربي – بلاد الشام:

تأتي السلع الشرقية عبر السفن إلى هذا الطريق بحراً حتى تصل إلى الخليج العربي ثم البصرة على رأس الخليج حيث تحملها القوافل براً إلى بغداد أو عبر نهر الفرات ثم إلى حلب ومنها إلى ثغور الشام غرباً، وهناك تكون سفن تجار البندقية وجنوة في انتظارها لتحملها إلى الأسواق الأوروبية(١). وكان هذا الطريق يُطلق عليه (الطريق الأوسط) وهو الأوفر حظاً في بلوغ البضائع الهندية وغيرها من البضائع الشرقية إلى المستهلك الأوروبي، بسبب الموقع الجغرافي المتميز لهذا الطريق والمقابل لمسار السفن القادمة من الهند مباشرة، من هذا

(١) - Boies Penrose, Op. Cit., pp. 16,17.

الطريق استفادت المدن الإيطالية أثناء الحروب الصليبية في المشرق العربي.

٢ – طريق البحر الأحمر – مصر:

يبدأ هذا الطريق من مركز تجميع السلع الشرقية وغيرها في عدن جنوباً ثم تنقل السلع بعدئذ بحراً حتى السويس أو (عيذاب والقصير) على الساحل الغربي للبحر الأحمر ثم على ظهور القوافل إلى القاهرة ثم الإسكندرية وأحياناً دمياط، ومن هناك تنقلها سفن البندقية وجنوة إلى أوروبا حيث المستهلكين بعد أن تمر تلك السلع في أيدي تجار التجزئة الأوروبيين(١).

ولما كان سلاطين المماليك يحكمون مصر والشام والحجاز وبعض أجزاء من اليمن في نهاية العصور الوسطى وحتى مطلع العصور الحديثة بين (١٢٥٠ – ١٥١٧م)، فقد كان هذان الطريقان في قبضة هؤلاء المماليك وبذلك جنوا فوائد وأرباح مادية عظيمة بسبب الضرائب الكثيرة والمتنوعة التي كانت تفرض على مرور هذه التجارة في أراضيهم(٢).

وقد حرص هؤلاء السلاطين المماليك على أن يبقى سر تجارة التوابل المربحة وقفاً عليهم وحدهم فقط، ولذا فقد اتخذوا عدة احتياطات منها، أنهم حرموا على أي مراكب غير إسلامية أن تمخر عباب البحر الأحمر بحجة أن هذا البحر يؤدي للأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز. وأوقعوا أشد العقوبات على من يحاول كسر هذا الحصار أو الإفصاح عن

---

(١) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، (القاهرة، ٩٧٣) ، ص١٢٤.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عهد دولة سلاطين المماليك البحرية، (القاهرة، ١٩٦٢)، ص٢٠٨.

شيء يتعلق بمصادر التجارة الشرقية وطرقها(١).

وبخلاف الطريقين اللتين ذكرناهما واللتين كانتا الأساس في تجارة التوابل الشرقية وغيرها من السلع، فقد كان هناك طريق ثالث ولكنه بري، وتشوبه بعض المخاطر، لأنه ينطلق من «المليبار» عبر جبال الهند الداخلية ويصعد شمالاً في طرق وعرة ملتوية قاصداً نهر «جيحون» ليبلغ الطريق القادم من الصين ثم بخارى ثم يتفرع إلى فرعين:

أ – فرع يتجه نحو بحر قزوين ثم نهر الفولجا الروسي.

ب – فرع يتجه نحو البحر الأسود ليبلغ طرابزون ثم القسطنطينية.

وقد حدثت عراقيل عديدة في هذا الطريق مع ظهور الدولة العثمانية وحروبها التوسعية في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الميلادي(٢).

وقد كانت الخلافات والمشكلات السياسية التي غالباً ما تنشب بين الأطراف المتنازعة تؤدي إلى إغلاق أحد الطريقين الرئيسيين اللذين يمران في الأراضي العربية الإسلامية، أو كليهما معاً، مما كان يتسبب في نقص أو انقطاع مدد البضائع الشرقية عن أوروبا، وذلك الأمر يضطر التجار إلى سلوك الطريق البري الثالث، رغم أنه غير مأمون العواقب بامتداده الواسع عبر آسيا الوسطى(٣).

وقد شهد الجزء الأخير من القرون الوسطى تطوراً مهماً، وهو أن جميع مراكز إنتاج التوابل وطرقها قد وقعت في أيدي المسلمين خلال النصف

---

(١) شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، (القاهرة، ١٩٧١)، ص٦٠. وكان هذا التقليد البحري الذي صار قانوناً للبحر الأحمر قد وضع في عهد صلاح الدين الأيوبي بعد حملة «أرناط» على البحر الأحمر.

(٢) إسماعيل نور الربيعي، «المرحلة الثانية من التنافس بين طريق رأس الرجاء الصالح وطرق القوافل التقليدية»، مجلة الوثيقة، العدد ٢٩، السنة ١٥، (البحرين، ١٩٩٦)، ص٨٩.

(٣) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج (القسم التاريخي)، ترجمة ديوان حاكم قطر، (الدوحة، ١٩٦٧)، ج١، ص٩.

الثاني من القرن الخامس عشر، حيث ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمناطق الدول الإسلامية كالأفغانية والمغولية في الهند، والممالك الإسلامية في ملقا والخليج العربي، ودولة المماليك في مصر والشام والحجاز، والإمارات الإسلامية في شرق أفريقيا. وعلى ذلك فإن أوروبا صارت بكاملها تتطلع لتحقيق وسيلة ما تخرج بها من طوق الهيمنة التجارية الإسلامية وخاصة بعد اكتساح العثمانيين المسلمين للأناضول واحتلال عاصمة أوروبا الشرقية «القسطنطينية» عام ١٤٥٣م.

ولا شك أن امتداد العثمانيين إلى أوربا الشرقية قد دفع البابوية في روما لإطلاق النداء إثر النداء من جديد لملوك أوروبا للقيام بحرب صليبية ثانية ضد المسلمين(١). وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السبب الأول للاكتشافات الجغرافية في بداية العصور الحديثة هو تقدم الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى والحوض الشرقي للبحر المتوسط وقطعهم طرق التجارة القديمة التي تصل بين الهند والغرب، وظهور صعوبات في الحصول على التوابل من الشرق، ومن هنا ظهرت الحاجة الماسة للبحث عن طريق جديد ومباشر للوصول إلى موطن تلك السلع. إلاّ أن المؤرخ الفرنسي «رولان موسينيه» يدحض هذا الرأي ويرد عليه بقوله: «لا شك أن حروب الأتراك قد شوشت التجارة أحياناً، ولكن الأتراك أنفسهم لم يقفوا موقفاً عدائياً من التجارة مع الغربيين، فقد جددوا تكراراً وبكامل رضاهم؛ المعاهدات التجارية مع حكومتي البندقية وجنوة، وتقيدوا بما كانت تنص عليه وحافظوا على حرية طرق القوافل المارة في بلاد فارس والطرق البحرية في الخليج العربي والبحر الأحمر. وما أن فتح سليم الأول مصر عام ١٥١٧م، حتى بادر إلى تجديد المعاهدات التي كان المماليك قد عقدوها مع البندقية، وقام بتخفيض الرسوم التي فرضها المماليك على

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جزءان، (القاهرة، ١٩٩٠)، الجزء الثاني، ص٩٨٩.

تجارة الأفاوية أيضاً»(١).

إلاّ أننا نستطيع القول بأن غزوات الأتراك العثمانيين لأوروبا قد لعبت - ربما دوراً سيكولوجياً معينا - عندما نجح الإسلام مرة أخرى في هجومه على أوروبا الشرقية بالذات، بعد أن كاد ينتهي قبل عام ١٤٥٣م، من جهات أوروبا الجنوبية والغربية في الأندلس. ومما زاد ذلك الوضع السيكولوجي تأكيداً، اتخاذ السلطان العثماني محمد الفاتح من القسطنطينية - مقر الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية - عاصمة للدولة العثمانية وسماها دار الإسلام (إسلامبول)(٢).

كل هذا ولّد في كافة العالم النصراني خوفاً وذعراً جماعياً من المد الإسلامي الجديد. وقد استغلت كنيسة روما «الكاثوليكية» هذا الذعر في فرض زعامتها الروحية على العالم النصراني (الغربي والشرقي) بعد سقوط القسطنطينية والكنيسة الشرقية فيها، خصوصاً وأن العداء الذي كان يتأجج تحت الرماد بين الكنيستين النصرانيتين الشرقية والغربية في أوروبا لم ينته منذ عام ١٠٥٤م حين وصل للقطيعة الشاملة بينهما(٣). ومن هنا برزت علاقة كنيسة روما الحميمة بالممالك النصرانية في الأندلس التي أخذت على عاتقها شن الحروب الصليبية الثانية - إنْ صح التعبير - على الوجود والكيان الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، وتشجيع الكنيسة وباباواتها -

---

(١) رولان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، القرنان ١٦، ١٧، تعريب يوسف داغر وفريد داغر، (لبنان، ١٩٨٧م)، الجزء الرابع، ص٤٢٢.

(٢) عبد العزيز الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، بحوث مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية، (قطر، ١٩٧٦م) الجزء الثاني، ص٦١٨، وقد استغل البابا كاليكستوس الثالث سقوط القسطنطينية بأن ابتدع في الدين النصراني صلاة جديدة، وقد أمر النصارى بتأديتها وسماها «صلاة التبشير»، كان يطلب خلالها الدعاء بالنصر على الأتراك العثمانيين خاصة. وقد بذل هذا البابا قصارى جهده لتأليب الأوروبيين ضد المسلمين في كل مكان. انظر أيضاً: نوال حمزة الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، (الرياض، ١٩٨٣)، ص٧٠.

(٣) عبد القادر أحمد اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب (القرنين الحادي عشر والخامس عشر)، (بيروت، ١٩٦٩)، ص٣٩.

لتلك الممالك – على دحر الإسلام ودولته من الغرب الأوروبي؛ لتظفر الكنيسة بالزعامة الروحية والسياسة في العالم النصراني كله. ولهذا شجعت الكنيسة الرومانية وبابواتها البحث الدؤوب الذي قامت به البرتغال واسبانيا للوصول إلى طريق تجارية أخرى جديدة لضرب المسلمين في معاقلهم، وذلك بالالتفاف عليهم من خلف بلادهم وسحقهم بشكل نهائي واستلاب الثروة التجارية منهم، وبذلك امتزجت العوامل الاقتصادية (البحث عن موطن التوابل مباشرة للتهرب من ضرائبها المرتفعة، بالعوامل الدينية (محاولة ضرب المسلمين من الخلف وتدمير العالم الإسلامي) في حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية.

أسباب الكشوف الجغرافية الأوروبية:

بناءً على ما سبق، وبحثاً عن أسباب الكشوف الجغرافية التي قامت بها أوروبا لارتياد مناطق كانت مكتشفة ومعروفة أساساً في الشرق، ومناطق لم تكن معروفة في العالم الجديد، فإنه يمكن القول بأنه يستحيل على الباحث في تاريخ أوروبا العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، أن يفصل الدين عن السياسة في كل توجهاتها، ذلك أن الدين كان الموجه والملون لكل الفعاليات والتحركات السياسية آنذاك. فقد كانت الكنيسة تتدخل في كل شيء، حتى مظاهر الحياة اليومية كانت مشبعة بالدين. وعليه فقد قامت الكشوف الجغرافية الأوروبية في عصر كانت فيه السلطة السياسية والسلطة الدينية تشكل وجهين لعمله واحدة في أوروبا. ويمكن بيان أسبابها على النحو التالي:

أولاً: الإنجيل أم الذهب: يذكر «رولان موسينيه» أن بواعث الكشوف البرتغالية والأسبانية هي (الإنجيل – المجد – الذهب). وقد وضع موسينيه (الإنجيل) في بداية الأهداف، لأن الحرب الصليبية – كما يقول

– قد عودت النصارى الأوروبيين على تصور نشر الدين النصراني عن طريق الحرب وإفناء غير المؤمنين أو إخضاعهم(١).

ولكن الاحتمال الأرجح أن يكون «رولان» قد قلب المثلث فوضع الذهب في القاعدة أو أسفل المثلث بدلاً من القمة، بدليل أننا نجد هذا الكاتب يرد على نفسه مرة أخرى ويضع البحث عن الثروة والذهب بالذات في المقدمة القمة حين يقول متحدثاً عن روايات الفروسية والمخيلات الأسطورية في أوروبا التي ألهبت خيال المغامرين للبحث عن الثروة والمجد في ذلك العصر، وأن هذا السعي وراء الثروة كان من الدوافع الرئيسية للاكتشافات الكبرى ولتأسيس إمبراطوريات شاسعة جداً توسعت توسعاً مطرداً بالسيف، وأن الذهب هو شغل الأوروبيين الشاغل، حتى أطفأ التكالب على الذهب عند بعض الأوروبيين كل عاطفة أخرى»(٢).

ثانياً: شن الحرب ضد المسلمين لهزيمتهم في أفريقيا وآسيا:

وكان هذا السبب تعبيراً عن الروح الصليبية العميقة ضد الإسلام التي صورتها أبدع تصوير الحروب الصليبية إبان العصور الوسطى وحروب اخراج المسلمين من اسبانيا بزعامة (قشتالة وأرجون) ثم البرتغال بعد قيام دولتها، وبدء طرد المسلمين من شبه جزيرة إيبيريا(٣).

واتخذت حروب اخراج المسلمين من أسبانيا هذه – التي انتقلت لمطاردة المسلمين في أفريقيا بعد ذلك – صفة الحرب المقدسة، حيث وجدت فيها البابوية فرصة ذهبية تحقق بها سياستها الهادفة لبسط

---

(١) رولان موسينيه، مرجع سابق، ص٤٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤٢٦.

(٣) عبد الملك عودة، السياسة والحكم في أفريقيا، (مصر – ١٩٥٩م)، ص٦٠، نقلاً عن علال الفاسي (حماية إسبانيا في مراكش)، ص٥١٤، ويضيف الكاتب أن الأسبان يستمدون دورهم من وصية الملكة إيزابيلا الكاثوليكية التي صرحت بأن تحرير إسبانيا لا يتم إلا بفتح أفريقيا وجهاد أبنائها الكافرين في سبيل العقيدة النصرانية.

نفوذها دينياً، ودنيوياً على العالم النصراني الأوروبي، والتخلص من مناوأة رجال الإقطاع للكنيسة والبابوية بإشراكهم في تلك الحروب المقدسة ووعدهم بغفران خطايا من يقتل أثناء القتال، وغير ذلك من المميزات الروحية والمادية التي منحتها الكنيسة لهم، خصوصاً عندما بدأت الكشوف الجغرافية تصل إلى آسيا ومجاهل العالم الجديد(١).

ثالثاً: الأزمات الاقتصادية الخانقة في أوروبا:

خلق القرن الرابع عشر الدوافع الأولى للكشوف الجغرافية الأوروبية باعتباره قرن الأزمات الخانقة بحق، تلك الأزمات التي فرضت على أوروبا رفع راية التحدي والبحث عن حلول للمشكلات القائمة وكانت تتجلّى في أزمتين حادتين هما:

أ – وباء الطاعون الأسود (٤٨ – ١٣٤٩م) الذي حصد خلال ثلاث سنوات فقط نصف سكان أوروبا. ولم تكن تلك القارة في مطلع القرن الخامس عشر تضم إلاّ إلى ٦٠٪ من أعداد السكان الذين كانت تتوافر عليهم عام ١٣٣٠م(٢). وبذلك أصبحت دول أوروبا – وبالذات ممالك شبه جزيرة إيبيريا التي اتسعت أراضيها مع تزايد عمليات حروب اخراج المسلمين – في أمسّ الحاجة إلى الأيدي العاملة، ومن هنا بدأ غزو شمال وغرب أفريقيا وجلب العبيد من هناك. ولم يصل عدد سكان البرتغال إلى مليون نسمة من بعد الطاعون الأسود إلاّ بعد عام ١٤٥٠م(٣).

ب – الأزمة النقدية: كانت أوروبا القرن الرابع عشر منقسمة في ميدان العملة إلى قسمين: قسم أوسط وشمالي يعتمد على الفضة لتوفرها

---

(١) جوزيف نسيم يوسف، في تاريخ الحركة الصليبية، (مصر – ١٩٨٩)، ص٤٤.

(٢) Boies Penrose, Op. Cit., p.15.

(٣) Boxer, C.R. The Portuguese Seaborne Empire 1415 - 1828, (London, 1977), p.4 -

بمناجم أوروبا الوسطى، وقسم جنوبي يعتمد على ذهب السودان الذي يتم الحصول عليه من سواحل المغرب العربي. وكان المغرب العربي آنذاك يلعب دور الوسيط الأساسي بين بلاد السودان الغربي وممالك الغابات جنوب السودان، حيث كان الذهب يعتبر «المعدن المقدس»، وبين أوروبا في قسمها الجنوبي المتعطش للذهب. وللحصول على ذلك الذهب الأفريقي تزايد إقبال التجار الإيطاليين والفرنسيين والبرتغاليين على السواحل المغربية منذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادي(١). إلاّ أنّ المغرب العربي صار عاجزاً خلال القرن التالي عن تغطية كل الطلب الأوروبي من هذه السلعة لأنه كان يعاني من مشكلات اقتصاديةوسياسية عديدة. ولهذا عانى أيضاً القسم الجنوبي من أوروبا في القرن الرابع عشر ما يمكن تسميته «مجاعة نقدية» لم يسبق أن عرفتها أوروبا، مما دفعه إلى ارتياد مناطق إنتاج الذهب - المجهولة بالنسبة له - في أفريقيا، بهدف الحصول عليه مباشرة دون وسطاء. ومن هنا ظل حديث المكتشفين البرتغاليين الأوائل عن وجود نهر للذهب في غرب أفريقيا، وعندما وصلوا إلى مناطق إنتاج الذهب وتصديره في غرب القارة، سموها «ساحل الذهب»(٢).

رابعاً: الرغبة في التخلص من الرسوم الجمركية والوسطاء التجاريين:

أضحى التخلص من دفع الرسوم الجمركية العالية والضرائب المتنوعة التي تفرض على السلع الشرقية في كل الموانىء، وخصوصاً الإسلامية منها، هدف الحكومات والرأسمالية الصناعية الأوروبية مع مطلع العصور الحديثة وبدايات النهضة الأوروبية الشاملة، وهذا مما شجع

(١) اشتهرت تجارة تونس مثلاً بأنها كانت توفر للأوروبيين ما بين ٢٠ - ٦٠ ألف دينار ذهب سنوياً، بالإضافة لما يرد من الممالك الإسلامية في الأندلس.
(٢) - Bloes Penrose, Op. Cit., p.13.

بعض التجار وأصحاب رؤوس الأموال من غير أهالي جنوة والبندقية، للنزول إلى الميدان والبحث عن التجارة الشرقية من مصادرها الأصلية والحصول على أرباحها الوفيرة مباشرة(١)، لدرجة أن بعض البنوك الأوروبية من جنوة دخلت مرحلة الكشوف الجغرافية الاقتصادية بشكل مبكر عام ١٤٤٧م، بهدف فتح طريق بري نحو مصدر التوابل الآسيوية عن طريق آسيا عبر الأراضي الروسية(٢).

وقد استغلت البابوية هذا الجانب أيضاً بتشجيع من حكام إسبانيا والبرتغال، وأعلنت بشكل صريح أنه كي يتم إضعاف العالم الإسلامي وهزيمته نهائياً، يجب انتزاع طريق التجارة الشرقية من بين يديه وحرمانه من أرباحها الكبيرة(٣). وهذا ما نلمسه في سياسات وخطابات القادة العسكريين البرتغاليين حين غزوهم للمشرق الإسلامي، أمثال «البوكيرك» الذي صاح برجاله ليحرضهم على غزو المملكة الإسلامية في ملقا قائلاً: «إنّ إبعاد العرب عن تجارة الأفاوية، هو الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليين إضعاف قوة الإسلام»(٤).

خامساً - نشر العقيدة النصرانية:

أفرزت كنيسة بيزنطة العديد من الأفكار المعادية للإسلام خاصة فيما يتصل بشخص الرسول (ﷺ) ، ومن هنا تعرفت أوروبا الشرقية والغربية على حد سواء على المؤلفات الدينية والكلامية المعادية للإسلام في

---

(١) - Serjeant, R.B. The Portugese Off The South Arabian Coast, (London, 1963) p.2'
- Panikkar, Op. Cit., p.22.

(٢) ج.ت. نياني (إشراف)، تاريخ أفريقيا العام، (اليونسكو، بيروت، ١٩٨٨)، مج٤، ص٦٦٦.

(٣) بالغ بعض البابوات في حقدهم على الإسلام لدرجة وصفه بأنه طاعون (The Plague of Islam) وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق المكتشفة في أفريقيا أو التي سوف تكتشف والحيلولة بينهم وبين إصابتهم بطاعون الإسلام.

(٤) - Frederick Charles Danvers, The Portuguese In India, 2 Vol s, (London, 1966) Vol. I, p.226.

نموذجها البيزنطي بالدرجة الأولى. ولذلك هيمن على الإدراك والوعي الأوروبي في القرون الوسطى ذاك الموقف الصريح من العداء ضد الإسلام، ومن هنا ظل رجال الدين الأوروبيون يبثون في مخيلة الناس أن من واجبهم - إذا رغبوا في التقرب إلى اللّه - أن يوسعوا من دائرة إخوانهم في الدين، وأن عليهم القيام بعبء التنصير في المناطق الإسلامية لزيادة أعداد المنضوين تحت النصرانية باستمرار وخصوصاً في أوساط المسلمين العرب الذين كانوا يُنعتون بالكفرة والهراطقة اعتماداً على نظريات النصرانية الشرقية.

أضف إلى ذلك أنه قد شاعت في أوروبا منذ عصر الحروب الصليبية فكرة أسطورية عن وجود مملكة نصرانية كبيرة في قلب العالم الإسلامي تقع بين الصين وأفريقيا!!، وقد حاول البرتغاليون جاهدين منذ بداية الكشوف الجغرافية الوصول إلى هذه المملكة وإقامة تحالف معها لضرب العالم الإسلامي ونشر العقيدة النَصرانية في أرجائه، واعتقدوا أنّ هذه المملكة يحكمها نصراني يدعى «القديس أو القس جون Prester John (١).

---

(١) Encyclopedia Britanica, (London, William Benton Publisher, 1962,), vol. 18 "Prester Jhon", pp. 458 - 460.

مملكة برستر جون: وقد انتشرت في أوروبا منذ مطلع القرن الثاني عشر الميلادي أسطورة (القديس يوحنا أو برستر جون)، وهي أسطورة أدبية أحاطها الرحالة الإنجليزي (جون مانديفيل) Sir John Mandeville، بحكايات شبه واقعية في منتصف القرن الرابع عشر، وقد جرى الاعتقاد في أن هذا الملك النصراني أو (البطريرك) الذي يفترض وجوده حياً بين شعوب وثنية هو صاحب إمبراطورية نصرانية كبرى في الشرق ويحكم الهند والصين والحبشة ويسيطر على عدد لا يحصى من ملوك أقل منه مرتبة ويلقب بـ(صاحب مملكة التوابل)، وقد يحدث اكتشافه أهمية وخطورة تؤدي إلى السعي الحثيث للتحالف مع هذا الملك ذي القوة والسلطان الذي سيؤدي في النهاية للقضاء على زعامة المسلمين في غرب آسيا وخاصة في الأراضي المقدسة. وقد انتشرت هذه القصص إبان نهايات الحروب الصليبية في المشرق العربي تعويضاً عن الفشل الذي أصاب المخيلة الأوروبية الصليبية في انتقامها من المسلمين، وبما أن الأوروبيين في العصور الوسطي كانوا يعتقدون أن الحبشة جزء من أرض الهند فإن مشكلة برسترجون، ازدادت تعقيدا، حين وصلت إلى أوروبا في عام ١٢٠٣ معلومات على لسان بعض الرهبان الإيطاليين سمعوها من راهب أثيوبي، تفيد بأن ملك الحبشة هو بعينه «القس يوحنا». ومن هنا ارتبط البحث عن هذه المملكة في أفريقيا والهند بالكشوف الجغرافية الأوروبية وصار أحد أسبابها الدينية.

للمزيد أيضاً حول هذه الأسطورة أنظر. سونيا. هاو، مرجع سابق، ص ص٦٤ - ٦٨؛ Boles Penrosc, Op. Cit., pp. 12,13.

سادساً: الرغبة في اكتشاف المجهول وزيادة المعرفة الجغرافية:

ويقصد بالمجهول هنا، ذلك العالم الشرقي الساحر بأساطيره وثرائه وحياته، وقد وصلت أخباره عبر تلك الرحلات الطويلة التي قام بها بعض المغامرين الأوروبيين في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين إلى بلاد الشرق وما نقلوه شفاهة أو من خلال كتبهم عن تلك المناطق. وقد أثار هذا الوصف مخيلة وشهوة الناس في أوروبا لحب الاستطلاع ومعرفة بلاد الشرق وخصوصاً بعد الاطلاع على كتب الرحالة الإيطالي (ماركو بولو) عام ١٢٩٩م وما كتبه عن رحلاته إلى الصين وبلاد الشرق في آسيا عبر سبعة عشر عاماً من التجوال(١). وقد أحدثت كتابات ماركو بولو ثورة فكرية في أوروبا – كما يقول فيشر – لا تقل في أهميتها وأثرها عن الدهشة التي أثارها اكتشاف كولومبس للقارة الأمريكية أواخر القرن الخامس عشر الميلادي(٢).

إلا أن السؤال الأهم في الكشوف الجغرافية هو، لماذا ورثت البرتغال، تلك الدولة الصغيرة حجماً وسكاناً والقابعة على شاطىء المحيط الأطلنطي، جهود غيرها في هذا المجال وبخاصة (جنوة)، حتى تمكنت أخيراً في فترة الكشوف الجغرافية من الوصول إلى أهدافها بسرعة غير متوقعة وبشكل أذهل كل أوروبا؟؟

مملكة البرتغال:

كانت البرتغال – كمساحة جغرافية من الأرض – جزءاً لا يتجزأ من

(١) رحلات ماركو بولو، الترجمة للإنجليزية وليم مارسون، الترجمة للعربية، عبد العزيز جاويد، ثلاثة أجزاء (القاهرة، ١٩٩٥).

(٢) فيشر، مرجع سابق، ص٤٦٥، ويذكر المؤلف أنه في عام ١٤٢٨م اشترى (دوم بدرو) من البندقية نسخة من كتاب «رحلات ماركو بولو» وأهداها إلى أخيه هنري الملاح في لشبونة، ولابد أنه استفاد من معلوماتها أثناء الإعداد لخطة الكشوف البرتغالية والوصول إلى موطن الثروات الشرقية.

الدولة الإسلامية في الأندلس حتى بداية القرن الحادي عشر للميلاد، وقد سجل لنا التاريخ شهادة ميلاد البرتغال كولاية صغيرة في عهد «فرديناند الأول» ملك قشتالة وليون (١٠٣٥ – ١٠٦٥م)، وأطلق عليها آنذاك (كونتية البرتغال)، وذلك عندما نجح هذا الملك في استرداد أراضي إقليم «لوزيتانيا Lusitania من المسلمين، التي كانت تقع بين نهري «دويرو ومنديجو»، وجعل من هذه المنطقة ولاية مستقلة تحت اسم (البرتغال). إلاّ أنها ظلت في الوقت نفسه تابعة لقشتالة (١).

وقد ساعد على قيام «مملكة البرتغال»(٢) سريعاً تفاعل مجموعة من العوامل السياسية والجغرافية معاً، كان في مقدمتها الوضع السيىء لملوك الطوائف المسلمين في الأندلس، حيث بلغ التنافس والنزاع الحربي بينها أشده خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. وطغت الخلافات المستمرة بين أولئك الملوك على فترات السلم القصيرة، مما كان سبباً مهماً ومشجعاً للقوى النصرانية لبدء حلقة جديدة في تاريخ حركة طرد المسلمين وكذلك لتطورات سياسية كبيرة جاءت لصالح القوى العسكرية الإسبانية والبرتغالية على حد سواء.

وفي عام ١٠٩٥م وضمن حلقة الصراع النصراني الإسلامي في الأندلس، استطاع أحد الفرسان الصليبيين ويدعي «هنري البورجاندي»، استرداد إحدى المقاطعات جنوب نهر (منديجو) في الشمال الغربي من

---

(١) A.H.De. Oliveira Marques, History of Portugal, 3 Vols., (U.S.A, 1972) Vol. I,pp. 16,21.; Encycpopedia Britancica, (Portugal), Op. Cit., P.275.-

وأُنظر أيضاً: محمد محمود النشار، وتأسيس مملكة البرتغال، (القاهرة، ١٩٩٥)، ص٩.

(٢) يرجع اسم البرتغال، لعاصمة إقليم لوزيتانيا، التي كان يسميها العرب برتغال أو بورتوُد، وتكون اسم البرتغال فيما بعد من ُد وهو اسم المدينة التي تقع على مصب نهر دويرو Cayah أو Caia, وهو اسم لإحدى القلاع المهمة في لوزيتانيا، ودمج الإسمان معاً وأصبح (Portucle) مع مرور الزمن، وأطلق بعد ذلك على كل الأراضي التي عُرفت باسم أراضي البرتغاليين. أنظر: محمد محمود النشار، المرجع السابق، ص ص ٩ – ٤٣.

شبه جزيرة إيبيريا، وطرد المسلمين منها نهائياً وضمها للأراضي التي أطلق عليها اسم «البرتغال»(١).

وجاء بعده ابنه الفونسو الأول هريكوس (١١٢٨ – ١١٨٥م)، حيث بدأ من المناطق البرتغالية حروبه الشرسة ضد المسلمين في قلب الأندلس بكل ما ورثه من حقد والده ضد الإسلام(٢). ولذا يعتبره المؤرخون الأوروبيون المؤسس الحقيقي لمملكة البرتغال الكبرى، فقد حوّلها من مجرد إمارة إلى مملكة مستقلة بذاتها في شبه جزيرة إيبيريا، خاصة بعد أن احتل مدينة لشبونة وانتزعها من يد المسلمين وجعلها عاصمة لمملكته منذ عام ١١٤٧م.

وبدت الأجواء مناسبة تماماً لهنريكوس، فكلما ازدادت الصراعات بين ملوك الطوائف وضعفت إمكاناتهم العسكرية، كلما ازداد اتساع المملكة البرتغالية، حتى لم يبق في منطقة البرتغال إلاّ جيوب إسلامية صغيرة في الموانىء الجنوبية، تم القضاء عليها بعدئذ نهائياً.

وبدأت عملية ملاحقة المسلمين إلى الساحل الغربي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر فيما عُرف «بالحروب الصليبية الثانية» في المغرب الأقصى والتي استمرت من عام ١٤١٥ حتى عام ١٥١٥(٣) وشاركت فيها اسبانيا، لاسيما بعد زواج ملكي أرجون وقشتالة عام ١٤٦٩م وظهور المملكة الاسبانية واسقاط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس في عام ١٤٩٢م.

---

(١) ول ديورانت، مرجع سابق، المجلد الخامس، جزء ٢، ص٢٥٠.

(٢) Charles E. Nowell, Portugal, (U.S.A., 1973), Pp. 26,27.

(٣) أحمد محمود عامر، حملات البرتغاليين الصليبية على المغرب الأقصى أواخر العصور الوسطى، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة أسيوط، ١٩٩٣) المقدمة وما بعدها.

الكشوف البرتغالية وأهدافها:

تعتبر حركة الكشوف البرتغالية فاتحة الاستعمار الأوروبي لقارتي أفريقيا وآسيا تحديداً خلال القرن الخامس عشر الميلادي، وقد بدأتها البرتغال لأسباب عديدة منها:

- الظروف الطبيعية الجغرافية هي التي حددت تاريخ البرتغال الكشفي في البحار القريبة منها بعد تكوينها. فموقع البرتغال الجغرافي المميز على المحيط الأطلنطي، قد أكسبها أهمية استراتيجية ووفر لها مؤهلات الريادة البحرية. فهي تقع في الطرف الجنوبي الغربي من أوروبا، وتواجه أفريقيا مباشرة، ولها سواحل طويلة على المحيط الأطلنطي. أضف إلى ذلك أن «لشبونة» صارت منذ القرن الرابع عشر مخزناً للتجارة الأفريقية المنقولة إلى أوروبا ومنها الذهب والعبيد، مما وفر لها خبرة أكثر من غيرها بأفريقيا والمحيط الأطلنطي(١).

- لقد نتج عن انعدام الذهب في البرتغال، توقف سك العملة الذهبية منذ عام ١٣٨٥م، واستمر الوضع كذلك لمدة ٥٠ سنة تقريباً حتى ١٤٣٥م(٢)، مما أدى إلى حدوث أزمة اقتصادية واجتماعية حادة أضرت بالتجار والدولة وبالطبقات العالية كالنبلاء والكنيسة كذلك، الأمر الذي جعل تلك الفئات الاجتماعية البرتغالية تتبنى عملية الغزو وركوب البحر بحثاً عن سند لعملة البلاد المتدهورة، وجاء استغلال شعار الحرب الصليبية ضد المغاربة المسلمين ليضفي بُعداً آخر على هذا الوضع.

---

(١) عبد الملك عودة، مرجع سابق، ص٦٤؛ أنظر أيضاً..
Panikkar, Op. Cit., P.24 -- C.f. Boxer, Op. Cit., p.5
(٢) Boxer, C.R. Op. Cit., p.23.

- ورثت البرتغال جراء حروب طرد المسلمين من الأندلس سلطة مركزية قوية استطاعت توحيد البلاد، كما ورثت عنها عداءً مميزاً للإسلام يغلّفه خوف من فتح إسلامي جديد لأراضيها، مما وفر لها محركاً ضرورياً دفع شعبها للمساهمة في الغزو والتوسع وتحمل جزء من تكاليفه. ولذا يمكن تفسير غزو (سبتة) عام ١٤١٥م، وبقية مناطق المغرب بعد ذلك، بأنه استمرار لحروب النصرانية ضد الإسلام، في حين يفسر النزول على طول سواحل أفريقيا بأنه ضمن المحاولات الدؤوبة لضرب الإسلام من الخلف.

- شكّل وصول أسرة (أفيز) إلى الحكم في البرتغال بداية التخطيط والتنظيم والتأسيس لبداية الكشوف والتوسع في ضم الأراضي بالقوة. وقد ارتبطت هذه الأسرة وحكامها بالمال. وبما أن الرأسمالية الخاصة كانت ضعيفة آنذاك، فإنّ الوضع ألزم الدولة بالتدخل، ونظراً لفقر البلاد فقد عمل حكامها من هذه الأسرة على رفع مواردها بالاهتمام بالتجارة والتخطيط للسيطرة على طرقها ومواردها في أفريقيا أولاً ثم في مناطق الشرق الإسلامية(١). وبما أن التجارة كانت تتطلب عدداً كبيراً من السفن ذات الحمولات الكبيرة، فقد ارتبط بناء السفن بالتوسع الاقتصادي مباشرة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر(٢).

- استفادت الملاحة البرتغالية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر من علوم العرب الفلكية والبحرية والخرائط والأدوات الملاحية، مما كان له أثر كبير في السبق الذي حققه البحارة البرتغاليون في مجال الكشوف الجغرافية. وتؤكد المصادر والمراجع التاريخية، عربية كانت

---

(١) أحمد بو شرب، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور، (الدار البيضاء، ١٩٨٤)، ص١٥٢.

(٢) ج.ت.نياني، تاريخ أفريقيا العام، مرجع سابق، مج ٤، ص ٦٥٩.

أو أوروبيـة، فضـل البحـارة والفلكيين العرب في تطور فن البحرية البرتغالية. فقد ساهم بها الملاحون العرب أيضاً من سكان الممالك العربية في الأندلس وشمال أفريقيا. وقد أورد المستشرق الفرنسي (نمابريل فران) والمؤرخ الهندي (بانيكار) هذا التأكيد، حيث ذكر الأخير بأن تزويد السفن بالأشرعة المثلثة كان في الواقع من المستحدثات العربية التي نقلها عنهم البرتغاليون، ذلك أن العرب قد أدخلوا التعديل على الأشرعة المستخدمة في السفن قبل ذلك(١). ويضاف إلى ذلك إفادة البرتغاليين ملاحياً باتصالهم بالمدينتين التجاريتين في إيطاليا (البندقية وجنوة) وخصوصاً وأن أهل جنوة، الخبراء بشئون البحر، قدموا العمالة الماهرة في مجال صناعة السفن والمهن البحرية عامة للبرتغال(٢). بالإضافة لاكتساب البحارة البرتغاليين الخبرة من تعاملهم مع بعض موانىء المحيط الأطلنطي وبحر الشمال. وقد أدى هذا بدوره لتعودهم على الرياح والتيارات البحرية والإبحار في ظروف ملاحية صعبة بعيداً عن الساحل الإيبيري في وقت مبكر من القرن الخامس عشر خصوصاً بعد اكتشاف جزر الآزور وماديرا وكناري، مما فتح المجال لهم للتغلب فيما بعد على أهوال (بحر الظلمات).

- سادت الروح الصليبية الشعب البرتغالي بعد طرد المسلمين من منطقة الجرف نهائياً قبل غيرها من مناطق شبه جزيرة إيبيريا، مما أعطى المملكةالبرتغالية الناشئة زعامة العالم النصراني سياسياً في غرب أوروبا. ومن هنا بدأت هذه الدولة التعاون الصريح مع الكنيسة الكاثوليكية، وكانت تلك الكنيسة بدورها في أمسّ الحاجة مع بداية

---

(١) - Panikkar, Op. Cit., p.34.

(٢) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، «دور المسلمين في تشكيل اقتصاد إمبراطوريتي جنوة والبندقية في القرنين ١٦ – ١٧م»، المجلة التاريخية المغربية، العددان ٤٣، ٤٤، السنة ١٣، (تونس، ١٩٨٦) ص١٧٠.

القرن الخامس عشر لمن يأخذ بيدها ويدعم موقفها المتدهور إزاء نجاحات العثمانيين الإسلامية في شرق أوروبا. ومن هنا أيضاً أسلمت الكنيسة القيادة إلى الزعامة الجديدة من أسرة أفيز البرتغالية ذات الطابع النصراني المتشدد والمخلص من وجهة نظرها للصليب والعقيدة النصرانية، ويذكر أحد المؤرخين، إنه بينما لم يكن الإسلام في نظر دول الغرب الأوروبي إلاّ شبحاً بعيداً لتهديد شاسع، فإنه كان بالنسبة لشعوب شبه الجزيرة الإيبيرية، وبالذات قشتالة وأرجون والبرتغال، يمثل قوة على الأبواب تهدد بالثبور. ولذا صار الإيبري محارباً صليبياً بحكم الضرورة الملحة بشكل يومي، ويعد القتال ضد المسلمين ضرورة ماسة، ويراه خليطاً يجمع على حدٍ سواء بين الواجب الديني والضرورات الوطنية(١).

وقد تلاقت مصالح البرتغال مع تصورات البابا نيقولا الخامس في روما (١٤٢٧ – ١٤٥٥م) الذي أرسل ما سمى وقتها (خطةالهند) إلى ملك البرتغال. وقد هدفت هذه الخطة إلى ضرب المسلمين ضربة أخيرة – كما تصورها البابا – والقضاء على الإسلام قضاءً تاماً بالتعاون مع الملوك النصارى في أفريقيا وآسيا(٢). وهنا نجح البلاط البرتغالي في تسخير العامل الديني لتحقيق الأهداف الاقتصادية بالدرجة الأولى.

كذلك تلاقت هذه المصالح مرة أخرى في تلك القرارات الدينية التي أصدرتها الكنيسة في صالح الكشوف الجغرافية البرتغالية بالذات(٣).

(١) – Panikkar, Op. Cit., p.24.

(٢) عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مرجع سابق، ص١١٣.

(٣) أحمد بو شرب «مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي»، مجلة الوثيقة، العدد ١٠، السنة ٥، (البحرين، ١٩٨٧م)، ص١٧٣.

ولمعرفة المزيد عن القرارات البابوية (Les Bulle Spontificales) التي كانت تمنح للملوك البرتغاليين امتيازات مالية وجبائية مهمة جداً قصد تشجيعهم على الاستمرار في محاربة الإسلام والمسلمين وغزو أراضيهم، يمكن الرجوع إلى بحث الدكتور أحمد بو شرب المغربي الذي يذكر أن آخر عمل أنجز حول هذه =

وأخيراً، إذا كانت العوامل الاقتصادية والتجارية بالذات هي السبب الرئيسي في ركوب البرتغاليين البحر والسيطرة على السواحل الأفريقية والآسيوية فيما بعد وعلى مضائق التجارة وطرقها، فإنّ التبريرات الدينية التي تغلّفت بها قد وجدت آذاناً صاغية لدى الرأي العام البرتغالي بشكل خاص والأوروبي بشكل عام، حيث أن الأمر كان يتعلق بالدرجة الأولى بصراع إسلامي نصراني، وفي وقت كانت ماتزال فيه العقلية النصرانية للعصور الوسطى مسيطرة على تفكير الناس في أوربا.

الكشوف البرتغالية في القرن الخامس عشر:

يعتبر الأمير هنري الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠م) ابن الملك «جون الأول» البرتغالي أشهر اسم في بداية الكشوف الجغرافية البرتغالية البحرية. وقد ارتبط لقب الملاح به بسبب تشجيعه ودفعه للمحاولات البرتغالية الأولى لاستكشاف سواحل أفريقيا الشمالية والغربية وجزر المحيط الأطلنطي القريبة من شبه جزيرة إيبيريا(١).

وتعتبر اكتشافات ربابنة وسفن هنري الملاح أعظم إنجازات الملاحة البرتغالية وهي التي سهلت الدوران حول القارة الأفريقية بعد ذلك بقيادة

= القرارات كان على يد الراهب البلجيكي (Ch. Writte) الذي جمع ودرس ٦٧ قراراً بابوياً متعلقاً بالحروب البرتغالية التي دارت بالمغرب ودور البابوية في توفير شروط النجاح لها، وإلى بعض المراسلات التي تبودلت ما بين الملوك وبعض المسئولين السياسيين والدينيين في البرتغال لأخذ فكرة عن مدى طغيان الروح الدينية على تلك المراسلات ومدى صدق محرريها فيما كتبوه.
كذلك يمكن الرجوع إلى تصريح الملك يوحنا الأول البرتغالي حيث قال: «بأن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد البيت المالك الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين في المغرب، وأنه سيمنح أكبر وسام في بلاده وهو وسام السيد الأعظم لمن يجاهد في هذا الميدان»، شوقي الجمل، مرجع سابق، ص١٥٤.
كذلك يمكن الرجوع لرسالة البابا نيقولا الخامس إلى هنري الملاح والتي يشكره فيها على أنه «أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة». أنظر: عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مرجع سابق، ص ص٩٠، ٩١.

(١) Manuel De Farlay Sousa, The History of the Discovery and Conquest of India by Portugues. Trans. by John Stevens, (W. Germany, 1971), Vol.1.p.2,3. -

بارثلميو دياز وفاسكو داجاما حتى صار بذلك شق الطريق إلى الهند أمراً ممكناً وحقيقياً(١).

وبسبب حركة الكشوف تلك، وخصوصاً بعد وصول المكتشف البرتغالي دياز عام ١٤٨٧م إلى رأس الرجاء الصالح لأول مرة(٢)، واكتشاف كولومبس لأمريكا الشمالية (العالم الجديد) عام ١٤٩٢م، شبت المنافسة الحادة بين اسبانيا والبرتغال وكادت أن تؤدي إلى حرب ضروس بينهما على استعمار العالم المكتشف لولا تدخل البابوية وعقد معاهدة (ترورديسيلاس) المعروفة عام ١٤٩٤م. وتعتبر هذه المعاهدة بحق أغرب معاهدة في التاريخ الحديث، إذ أكدت ورسخت فكرة الاستعمار وامتلاك أراضي الغير بالقوة تحت نظر وتأييد الكنيسة في أوروبا. فقد تم بموجبها تحديد نقطة تقع إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر بحوالي ١٥٠٠ ميل، وعند هذه النقطة تم رسم خط من الشمال إلى الجنوب بموجبه يصبح كل ما هو غرب الخط لاسبانيا، وكل ما هو شرقه للبرتغال(٣).

الكشوف البرتغالية السرية وأهدافها:

ساندت حركةالكشوف البرتغالية البحرية على سواحل أفريقيا الغربية حركة أخرى لا تقل عنها أهمية اتسمت بالسرية فيما أطلق عليها (بعثات التجسس البرتغالية)، وكانت تهدف بشكل أساسي إلى جمع كافة

---

(١) Marques, Op. Cit., P. 151; Panikkar, Op. Cit., pp. 25,26.

(٢) The New Cambridge Modern History, Vol. II, The reassurance 1493 - .1520 (Cambridge Univ. Press, 1964) p. 424; Sousa, Wp. Cit., Vol.I,p.27.

وقد أطلق دياز على رأس جنوب أفريقيا رأس العواصف (Cabo Tormentoso) بينما سمّاه الملك جون الثاني تفاؤلاً به «رأس الرجاء الصالح Cabo de Buena Esperanca)، ويعتبر اكتشاف هذا الرأس والممر المائي جنوب أفريقيا هو الإنجاز الرئيسي للبرتغاليين في العالم.

(٣) جوزيف برجر، مكتشفو العالم الجديد، ترجمة السيد يوسف نصر (الإسكندرية، ١٩٩١) ص٢٧.
وللمزيد حول هذه الاتفاقية أنظر:

- Encyclopedia Britanica, Op. Cit., P.B.277.

المعلومات عن مصادر ثروة الشرق من التوابل وغيرها. وقد حدثت هذه الرحلات التجسسية في عهد الملك جون الثاني (١٤٨١ - ١٤٩٥م) الذي حصل على خريطة لأفريقيا تم رسم مملكة (القس يوحنا) في شرقها. ومن هنا بدأت تراود هذا الملك الطموح آمال التوسع في أفريقيا للوصول إلى الهند (١)، والتحالف مع القس يوحنا ضد المسلمين.

وبينما كان بارثلميو دياز يستعد لرحلته البحرية نحو الجنوب الأفريقي، قام الملك بإرسال رجلين يجيدان العربية وهما من يهود لشبونة للقيام برحلة تجسسية سرية هدفها الوصول إلى موطن التوابل ومملكة (برسترجون)، فأرسل كل من جون بيدرو داكوفيلهام Covilham Pedro J.، ومساعده الفونسو دي بايفا Alfonso de Payva عام ١٤٨٧م(٢) في مهمة سرية إلى الشرق.

أبحر هذان الجاسوسان في مايو ١٤٨٧م من البرتغال إلى فلسطين ثم إلى رودس، وتخفيا في زي تجار مسلمين وانطلقا إلى القاهرة واندسا بين جماعة من التجار المغاربة المتوجهين إلى ميناء الطور على البحر الأحمر وأبحرا نحو سواكن وعدن(٣).

وفي عدن انفصل كوفيلهام عن بايفا واتفقا على أن يقوم الأول بالبحث عن التوابل ومصدرها في مناطق الهند، والثاني عليه مهمة البحث عن مملكة القديس يوحنا في أفريقيا، لكن بايفا مات بعد مدة في أفريقيا(٤).

وقد وصل كوفيلهام إلى كاليكوت بالهند، حيث شاهد - كما يقول -

---

(١) ج.ج. لوريمر، مصدر سابق، ص٩.
كذلك أنظر: - Edgar Prestage, The Portuguese Pioneers, (London, 1933), P.27.
(٢) Serjeant, Op. Cit., P.4 -
(٣) Arnold T. Wilson, The Persian Gulf, (Oxford, 1928) p.111. -
(٤) Sousa, Op. Cit., Vol. I, P.27 -

حوالي ألف سفينة راسية بمينائها، كما عرف أن تجارة كاليكوت الخارجية في أيدي التجار المسلمين. وجمع كوفيلهام معلومات عديدة عن التوابل ومصادرها الأساسية وأنواعها(١). وفي الوقت نفسه اتضح لكوفيلهام أن البحث عن مملكة القديس يوحنا في آسيا مضيعة للوقت فهي ليست إلاّ وهم زائف(٢).

ووصل كوفيلهام إلى هرمز وكانت آنذاك مركز مستودعات تجارة الشرق القادمة من ملقا واندونيسيا وكاليكوت والمليبار وشرق أفريقيا، ومركز تجارة الخيول العربية أيضاً. وبعد أن جمع كل المعلومات عن التجارة الشرقية وموانئها المهمة زار موانيء شرق أفريقيا الإسلامية وحصل على معلومات مهمة عن مناجم الذهب في سفالة وتجارتها وطرقها، وكانت تلك المنطقة من شرق أفريقيا في أوج ازدهارها في نهاية القرن الخامس عشر على يد العرب المسلمين(٣).

وبعد أن استوعب الرحالة البرتغالي تماماً طبيعة النشاط التجاري في مياه الشرق وأنواعه، وثبت المواقع التي زارها على الخريطة التي معه، كتب تقريره الخاص للملك وعاد إلى القاهرة عام ١٤٩٠م، وأرسله من هناك مع أحد اليهود البرتغاليين إلى لشبونة(٤). ثم أكمل هو رحلته في شقها الثاني – بحسب الأوامر الملكية الجديدة – إلى أفريقيا في إصرار عجيب للبحث عن مملكة القديس يوحنا والتحالف معها ضد المسلمين. وعندما توغل كوفيلهام في أراضي الحبشة وقابل ملكها «النجاشي» أبقاه

---

(١) طارق الحمداني، «الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي»، مجلة الوثيقة، العدد ١٥، السنة ٨، (البحرين، ١٩٨٩م) ص.١٦٠، وكذلك أنظر:- E. Prestage, Op. Cit., pp. 217, 218.

(٢) سونيا هاو، مرجع سابق، ص١٤٩.

(٣) صباح إبراهيم الشيخلي، «ابن ماجد وشرق أفريقيا»، مجلة الوثيقة، العدد ٢٣، السنة ١١ (البحرين، ١٩٩٣)، ص١٧٢.

(٤) – Wilson, Op. Cit., p.111; Sousa, op. Cit., Vol., P.28.

عـنـده وحـكـم عليـه أن يظل هـنـاك طيلـة حيـاتـه، بل وزوّجـه من إحدى النصرانيات وأعطاه أرضاً يعيش منها ولم يسمح له بالمغادرة، وذلك طبقاً لخطة الحذر الحبشية تجاه من يزورها من الأجانب. ولم يعد يعلم عنه شيء بعد ذلك حتى عثرت عليه بعثة التنصير البرتغالية بعد قيام الكشوف الجغرافية البرتغالية البحرية في شرق أفريقيا فيما بين أعوام ١٥٢٠ – ١٥٢٦م، وكانت تلك البعثة بقيادة «رودريجو دي ليما Lima Rodrigo de)، وهو أول سفير برتغالي إلى بلاط الحبشة(١).

وتأتي أهمية هذه الرحلات التجسسية المصاحبة للكشوف الجغرافية في أنها مهدت للسيطرة البرتغالية في بحار الشرق و بالذات شرق أفريقيا والهند والخليج والجنوب العربي، حيث كان كوفيلهام أول برتغالي تطأ قدماه أرض الهند قبل داجاما، وأول من شاهد مملكة القديس يوحنا في الحبشة كما كان يعتقد آنذاك.

في الطريق إلى الهند:

في عهد أحد ملوك البرتغال ويدعى «أمانويل الأول Emmannuel 1» الذي عرف بلقب السعيد أو المحظوظ، والذي حكم ما بين ١٤٩٥ – ١٥٢٠م(٢)، قام المكتشف البرتغالي «فاسكو داجاما V.Dagama» عام ١٤٩٧م برحلة من لشبونة إلى كاليكوت وعاد عام ١٤٩٩م يحمل معه ما يزيد على ستين طناً من التوابل الشرقية وبعض الأسرى الهنود والأفارقة المسلمين. واستُقبل هذا القائد في بلاده استقبال الفاتحين العظام، فكيف حدث ذلك؟؟

تعتبر الفترة التي خرج فيها داجاما في أول رحلة برتغالية نحو المياه

(١) – Vasco Graca Moura (Prest), Portugal and the Discoverics, (Laspon, 1992), pp. 127 - 128.
(٢) - Nowell, Op. Cit., pp. 50,51.

الشرقية، وهي الفترة التي وقعت بين نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، عصر السيادة البحرية والاستعمار الأوروبي الحديث، كما أطلق عليها في العلاقات الدولية، ولذا اعتبرت رحلة داجاما في عام ١٤٩٧م هي بداية عهد الاستعمار البرتغالي في المحيط الهندي وشرق أفريقيا.

وقد خرج فاسكو داجاما وبحارته وربابنته على ظهر أسطول مكون من أربع سفن على أكثر التقديرات(١)، تحمل حوالي عشرين مدفعاً ضخماً لم يسبق أن رأت مثلها تلك البلاد التي وطأها داجاما لأول مرة أيضاً في المشرق الإسلامي. كما رفعت سفن داجاما على صواريها أعلام نقشت عليها شارة الصليب تنفيذاً لرغبة البابا اسكندر السادس، بالإضافة لوصيته برسم الصلبان على ملابس المشاركين في الحملة، مع إطلاق اسم (جنود المسيح) على البحارة لتشجيعهم على المشاركة في تلك الحملة الكشفية وإبعاد الخوف والرهبة من قلوبهم، وقد وعدهم البابا – شخصياً – بدخولهم الجنة ثواباً على حُسن أعمالهم وخدمتهم في سبيل المسيح(٢).

وحين انطلقت سفن داجاما من لشبونة اتخذت من نفس مسار سلفه دياز طريقاً لها في المحيط الأطلنطي حتى جنوب أفريقيا حيث استطاعت حملة داجاما عبور رأس الرجاء الصالح بعد عدة صعوبات، وكان ذلك في نوفمبر عام ١٤٩٧م. واعتبر داجاما بهذا أول ملاح برتغالي يعبر رأس

(١) هناك اختلاف في عدد سفن داجاما خلال رحلته الأولى كما هو الاختلاف في عدد بحارته وفي عدد من عاد منهم سالماً، فالمؤرخ البرتغالي (Sousa) يذكر بأن عدد البحارة هو ١٦٠ رجلاً وعدد السفن ثلاثة فقط، بينما يذكر (Serjeant) أن سفن داجاما ما بين ثلاث أو أربع، في الوقت الذي يذكر فيه (Danvers) أن عدد السفن ثلاث وينقل عن دي باروس أن هناك سفينة رابعة للمؤن فقط، إلا أن (A.F.G. Bell) يرجح أن عدد البحارة مع داجاما كان ١٧٠ رجلاً. أنظر.. Sousa, Op. Cit., P.36; Serjeant, Op. Cit., p.4; Danvers, Op. Cit., p42: A.F.G. - Bell, Portuguesc Portraits, (U.S.A. 1961) p.66.

(٢) عبد العزيز الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص٦١٨.

الرجاء الصالح ويصل إلى المياه الشرقية(١).

وبعد رحلة استمرت ثمانية أشهر منذ انطلق داجاما من لشبونة، وصل إلى مدينة سفالة sofala أول المدن الإسلامية التي شاهدها داجاما وآخر المدن الإسلامية - موقعاً - في ساحل شرق أفريقيا. وفي تلك المدينة انبهر البرتغاليون بما شاهدوه من معالم حضارة راقية تفوق حضارتهم في الكثير من المظاهر، واسترعى انتباه داجاما ما رآه من وفرة التوابل بجميع أنواعها في هذه المدينة التي كانت عامرة أيضاً بتجارة الذهب (٢).

ثم أبحر البرتغاليون شمالاً حتى وصلوا إلى «موزمبيق»(٣) في مارس عام ١٤٨٩م. وقبل أن تدخل سفن داجاما ميناء هذه المدينة، شاهد بحارته مركباً يُطلق عليه «سمبوك»(٤)، رماه حظه العاثر أمام سفن البرتغاليين وعلى ظهره تاجراً يتحدث العربية ويدعى (تايبو أو دافانا) فأحضروه إلى ظهر سفينة داجاما. ولما حادثه المترجم «اليهودي» الذي كان مع سفن البرتغاليين، وجده يتحدث الأفريقية السواحلية والهندية،

---

(١) يذكر المستشرق الروسي «إغناطيوس كراتشكوفسكي» في دراسته عن تاريخ الأدب الجغرافي العربي أن فاسكو داجاما ليس أول من عبر رأس الرجاء الصالح، فقد أوضح فرامورو Framuro في مصوره الجغرافي عام ١٤٥٧م، أن ملاحاً عربياً قد أبحر حوالي عام ١٤٢٠م من المحيط الهندي حول القارة الأفريقية فظهر في المحيط الأطلنطي.- أنظر تاريخ الأدب الجغرافي، أغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين هاشم، (بيروت، ١٩٨٧م) ص٦٠٨ - بينما يذكر المؤرخ Panikkar بأن ذلك الملاح كان هندياً!!، وتجدر الإشارة هنا أيضاً إلى الرواية التي أوردها هيردوتس الإغريقي ومفادها أن ملك مصر الفرعوني (نيخاو الثاني ٦١٠ - ٥٩٥ ق.م) قد أرسل بعثة من البحارة الفينقيين للدوران حول القارة الأفريقية انطلاقاً من البحر الأحمر في اتجاه الجنوب وعادوا بعد عامين إلى مصر. انظر حول هذا الموضوع: علي غنام، «كيف نجحت دولة أوروبية صغيرة في استعمار بلدان كبيرة»، مجلة الخليج العربي، العدد ١، المجلد ١٩، (البصرة، ١٩٨٧) ص ص ٢٠ - ٢١.

(٢) محمود محمد الحويري، ساحل شرق أفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي، (القاهرة، ١٩٨٦) ص٧٦.

(٣) موزمبيق: تقع على الساحل الشرقي لأفريقيا بين سفالة وكلوة في مواجهة جزيرة مدغشقر، وهي ثاني المدن الإسلامية المهمة في هذا الساحل، وقد رأى بها داجاما سفناً إسلامية كثيرة وسلع تجارية شرقية. أنظر للمزيد:- Sousa. Op. Cit., P.39.

(٤) سمبوك: أو سمبوق، نوع من الزوارق الصغيرة كان يستخدم في الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر، وما زالت بعض أنواعه موجودة في الخليج، أنظر درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم (الإسكندرية، ١٩٧٩)، ص ص٧٠ - ٧١.

فرغبوا في أن يكون دليلهم في مياه شرق أفريقيا والهند، فوافق على ذلك(١). وفي موزمبيق علم داجاما أنها مجرد مقاطعة تابعة لسلطنة (كلوة Clwa) وهي أشهر موانيء ساحل شرق أفريقيا، وأن السفن المختلفة تأتيها من بلاد الهند محملة بالبضائع العديدة(٢). يصف كاتب تاريخ «السلوة في أخبار كلوة» اقتراب فاسكو داجاما من بلاده بهذه الكلمات أثناء دولة الفضيل الذي تولى في عام ٩٠١هـ، وصل خبر يقول بأنه ظهر قوم من بلاد الفرنج وهم في ثلاثة مراكب، واسم نواخذهم المرتي (الميرانتي)، ثم بعد أيام بلغهم أنهم مروا على كلوة ولم يدخلوها، فقصدوا منفسه (ممباساً)(٣) ففرح صاحبها بهم ظانين أنهم من أهل الخير والصلاح، وحقق لهم بعض السكان ممن يعرفهم أنهم أهل فساد، وما وصلوا إلاّ لينظروا البلاد متجسسين حتى يخربوها، فعند ذلك احتالوا عليهم في قطع أناجرهم(٤)، ليأتوا إلى البر كي يهلكوا أو يكونوا غنيمة للمسلمين، فعرفوا ذلك وسافروا إلى جهة ملندي»(٥).

---

(١) سونيا هاو، مرجع سابق، ص١٩٢؛ Danver, Op. Cit, Vol. I, P.46.

(٢) جمال زكريا قاسم، الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوروبي في القرن الخامس عشر، في كتاب العلاقات العربية الأفريقية، (القاهرة، ١٩٧٧)، ص٦٤.

(٣) ممباسا: من المدن المهمة على ساحل أفريقيا الشرقي، ويرجع أن الذي بناها هو «الحسن بن علي الشيرازي» حين نزل مع رجاله في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على الساحل الأفريقي الشرقي، وقد وصف ابن بطوطة ممباسة في عام ١٣٣١م وبشكل دقيق في زيارته لها. وقد رفض حكام هذا البلد الخضوع للبرتغاليين، فخرّبها البرتغاليون بمدافعهم وعاثوا فيها فساداً وسلباً واستولوا على كميات الذهب والفضة الوفيرة بها. للمزيد: ارجع إلى، شوقي الجمل، «المراكز العربية على ساحل أفريقيا الشرقي والجزر القريبة منه»، الوثيقة، العدد ٢٩، السنة ١٥ (البحرين، ١٩٩٦)، ص ص ١٠٩، ١١٣.

(٤) مفردها (أنجرة) وهي مرساة السفينة في اصطلاح أهل تلك المناطق.

(٥) عبد الله بن مصبح الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، تحقيق محمد علي الصليبي (عُمان، ١٩٨٥)، ص ص٩، ١٠، وقد كانت كلوة تشتهر بتجارة الذهب الذي يأتيها من سفالة، حتى أضحت هذه السلطنة من أغنى السلطنات العربية الإسلامية في شرق أفريقيا وصارت كامبراطورية صغيرة فرضت سيادتها على مدن ساحلية عديدة في شرق القارة. للمزيد: أنظر صلاح العقاد وجمال زكريا، زنجبار، (القاهرة، ١٩٥٩)، ص٨.

ولابد من الإشارة إلى أن الصورة التي كانت في ذهن البرتغاليين قبل وصولهم إلى شرق أفريقيا أنهم كانوا سيجدون هناك أقواماً عُراة يخصفون عليهم من ورق الشجر ما يكاد يستر عوراتهم، ومن هنا ظهرت علامات الدهشة والاستغراب على وجوه بحارة حملة داجاما ومعهم قائدهم نفسه من مشاهد الحضارة الزاهرة التي أقامها العرب المسلمون في تلك النواحي من شرق أفريقيا. وزاد استغراب داجاما وبحارته عندما وجدوا سفناً عربية كبيرة شمال موزمبيق في بداية دخولهم المياه الشرقية، وقد كان ربابنتها يحملون «بوصلات لتوجيه السفن وآلات للرصد وخرائط بحرية متطورة»، كما ذكر داجاما في يومياته(١).

ويصف الرحالة البرتغالي (Barbosa) مدن الساحل الشرقي لأفريقيا وحضارتها قائلاً: «منذ بداية القرن الرابع عشر كانت قلاع الإسلام تمتد بطول الساحل الشرقي للقارة على شكل خيط طويل من اللآلىء، وكان هذا الساحل يعج بالتجار ورجال البحر والقوافل التي تتاجر في العاج والتوابل والصمغ والرقيق والذهب»(٢).

وقد كانت الإمارات الإسلامية في شرق أفريقيا عند وصول داجاما في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي هي (ماليندي، كلوة، بات، ممباسا) بالإضافة إلى بعض المراكز التجارية الصغرى في زنجبار وبمبا وكليجي وجزيرة موزمبيق وسفالة وجزر القُمر وغيرها(٣).

وتبين لداجاما من محاولاته المتكررة للرسو في موانىء شرق أفريقيا،

---

(١) على ظهر إحدى السفن العربية شمال موزمبيق عثر فاسكو داجاما – بعد أن أسر بحارتها – على مخطوطات عربية أخذها عنوة وبعث بها إلى ملكه في لشبونة، ويعتبر هذا أول سطو برتغالي على تراث وثقافة المسلمين البحرية في الشرق في بداية الكشوف. أنظر: كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ص٥٦٤.

(٢) The Book of Duarte Barbosa. Trans. and Edited by M. I. Dames, (London, 1918), P. 28. –

(٣) جيمس دفي، الاستعمار البرتغالي في أفريقيا، ترجمة الدسوقي حسنين المراكبي، (القاهرة، د.ت)، ص٧٩.

أن إمارات هذا الساحل الإسلامي يدين معظمها بالولاء للحكام العرب في جنوب شبه الجزيرة العربية أو لحكام مصر من المماليك في ذلك الوقت(١).

وأخيراً في ١٥ مارس ١٤٩٨م وصلت سفن داجاما الثلاثة إلى ميناء ماليندي(٢)، حيث رحب بهم حاكم المدينة العجوز، اعتقاداً منه بأنه إذا فعل ذلك وأظهر للبرتغاليين حسن الضيافة وقدم لهم كل الخدمات التي يطلبونها، سوف يجعل من هؤلاء الأقوام الغرباء الوافدين أصدقاء له وسيساعدونه في التخلص من سيطرة حاكم «ممباسا». وهذا ما شجع البرتغاليين بدورهم على استغلال هذا الاعتقاد لدى حاكم ماليندي وانتهاز فرصة الخلاف الذي كان ناشباً آنذاك بين ماليندي وممباسا ليؤيدوا حاكم الأولى ضد منافسه شيخ ممباسا(٣). ولهذا قبل حاكم ماليندي أن يزود سفن داجاما بمرشد بحري يعرف جيداً منطقة ساحل المليبار بغرب الهند وكيفية الوصول إلى مدينة كاليكوت بالذات وهي أهم مناطق تجارة الفلفل وبقية السلع الشرقية في الهند(٤).

وكان ذلك المرشد البحري الكفؤ الذي دار حوله لغط ونقاش كثير لم يهدأ حتى الآن يدعى (ماليمو كانا الكجراتي (Cana of Guzarat Melemo(٥)، بينما يذكر (Danvers) في كتابه أن الذي أرشد داجاما إلى

(١) صلاح العقاد وجمال زكريا، مرجع سابق، ص١٩.

(٢) أحمد بن ماجد، ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق ونشر ثيودور شوموفسكي، ترجمة وتعليق محمد منير مرسي، (القاهرة، ١٩٦٩)، ص٨٦.

– ماليندي: جزيرة في أرخبيل (لامو) بشرق أفريقيا، كانت لها تجارة واسعة مع شبه الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي والصين والهند، ذكرها أبو الفداء وأشار إلى أنها مدينة بأرض الزنج، وازدهرت كثيراً في القرن الخامس عشر الميلادي. وقد وصفها المؤرخ البرتغالي (Sousa) بأنها محاطة بأشجار النخيل وبساتين الفاكهة والمباني العظيمة والآمنة، وأن معظم تجارها من أهل كجرات بالهند، وأن ملك ماليندي مسلم. انظر: Sousa, Op. Cit., pp. 41, 42.

(٣) جمال زكريا، مرجع سابق، ص٦٤؛ Vasco Graca Moura, Op. Cit., P. 137.

(٤) - Danvers, Op. Cit., P. 47.

(٥) أحمد بن ماجد، ثلاث أزهار في معرفة البحار، مصدر سابق، ص٨٦.

الهند كانا اثنان من خيرة البحارة في معرفة الطرق البحرية بالمنطقة أحدهما يدعى (ماليمو كانا)(١).

إلاّ أننا نقرأ في سجلات رحلة فاسكو داجاما هذه العبارة التي يقول كاتبها بالحرف «لقد تركنا ماليندي في الثلاثاء من الشهر – يقصد ابريل – قاصدين مدينة اسمها فاليكيت – كاليكوت – مع المرشد الذي أعطاه لنا الملك»(٢) ولكنه لا يذكر اسم ذلك المرشد.

ولا نريد أن نتوقف طويلاً هنا عند المناقشات التي ما زالت دائرةفي كتب التاريخ حول من الذي أرشد فاسكو داجاما إلى الهند صراحة، وكأنها جريمة العصر التي لا تغتفر، مع أن واقع الأحداث والكشوف يقول بأن فاسكو داجاما أو غيره كان سيكتشف طريق الهند إنْ عاجلاً أم آجلاً طالما وصلت سفنه المياه الشرقية حتى ولو بالصدفة، كما حدث لكولومبس في اكتشافه لأمريكا ثم ماجلان للفليبين وغيرهم.

إلاّ أنه لابد من ذكر أن المصادر البرتغالية المعاصرة والتي كتبها كل من جويز وباروس وكاستنهيدا، على الرغم من أنها أشارت إلى أن ملاحاً عربياً قاد سفينة داجاما إلى الهند، إلاّ أنها لا تذكر الاسم صراحة وإنما تردد أسماء غير واضحة لهذا الملاح مثل (ماليمو كاناكا أو كانا) أو عربي من الكجرات. وبالرجوع أيضاً إلى مؤلفات سليمان المهري، وهو ملاح عربي عاش بعد ابن ماجد بسبعين سنة، لا نجد في كتاباته أية إشارة إلى هذا الحادث(٣). وأيضاً الملاح والقائد العثماني «سيدي علي ريس» والذي

---

(١) - .Danvers, Op. Cit, Vol. I, p.48 ويؤكد أحد الكتاب الهنود أن الملاح الذي أرشد داجاما إلى ساحل كاليكوت كان من الهند وليس عربيا كما هو متداول. انظر للمزيد:
Chaudhurik. N., Trade and Civilisation in the Indian Ocean, (U.K.1985), P.63.

(٢) حسام الخادم، «ابن ماجد ودوره في اكتشاف طريق الهند البحري ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته»، مجلة الوثيقة، العدد ١٢، السنة ٦، (البحرين، ١٩٨٨)، ص٢٨ نقلاً عن:
- .Dagama, Vasco, A Journal of the First Voyage (1497 - 1499) (London, 1898), P.46

(٣) جمال زكريا، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، (القاهرة، ١٩٧٥)، ص٨٧.

أتى بعد هؤلاء واعتمد اعتماداً كبيراً على مصنفات «ابن ماجد» في صياغة مؤلفه «محيط» لم يتطرق إلى أن «ابن ماجد» قاد سفن البرتغاليين إلى الهند(١). وهذا ما دفع بكاتب مثل علي التاجر من سكان الإمارات العربية المتحدة والتي ينتسب ملاحنا ابن ماجد إلى إحدى إماراتها (جلفار - رأس الخيمة) أن يورد بحثاً ضمن ندوة «مناقشات حول ابن ماجد «يذكر فيه أن المورخين من أمثال باروس وجويز وكاستنهيدا، يصوغون اسم ذلك الملاح صيغة برتغالية، فيسمونه على التوالي، معلمو كانا، أو معلمو كاناكا، بدون أية تفاصيل مفسرة أخرى سوى إنه كان مسلماً من كجرات»(٢).

ومن المعروف تاريخياً أن فاسكو داجاما لم يكتب مذكرات رحلته الأولى عام ١٤٩٧م بخط يده، كما إنه من المعلوم أيضا - وهنا بيت القصيد - أن زلزالاً عظيماً ضرب البرتغال عام ١٧٥٥م، دمر جانباً كبيراً من (قصر الهند) في لشبونة. وكان ذلك المبنى يحوي كل وثائق الشرق، وتسبب في حريق

---

(١) أُنظر مقدمة كتاب: The Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis, Trans. by A. Vambery, (Pakistan, 1975). -

(٢) علي التاجر، أنا وابن ماجد وآخرون، بحث ضمن الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية - مركز الوثائق والدراسات (أبوظبي، ١٩٧٩)، ص١٨٠.

* أول من ذكر أن أحمد بن ماجد هو المرشد الذي تتكلم عنه المصادر البرتغالية هو أحمد زكي باشا عام ١٩١٢، وذكر إن إرشاده لداجاما للوصول إلى الهند يعتبر آخر أعماله الملاحية الكبرى، والثاني هو المستشرق الفرنسي (فران) الذي نشر بحثاً عام ١٩٢٢ استقصى فرضية أن ابن ماجد أرشد داجاما إلى الهند من حكاية الشيخ محمد بن أحمد النهر والي في كتابه «البرق اليماني في الفتح العثماني» الذي كتبه في أواخر القرن العاشر الهجري حوالي ١٥٧٠م.

- وللمزيد حول الآراء التي وردت في الموضوع ونتائجها، أُنظر: ثلاثة أزهار في معرفة البحار، شوموفسكي، حسام الخادم (ابن ماجد ودوره في اكتشاف طريق الهند البحري)، رأفت الشيخ (البرتغاليون بين رأس الخيمة والهند أوائل القرن ١٦م)، محمد قطب الدين النهر والي (البرق اليماني)، وندل فيليبس (تاريخ عُمان)، نوال حمزة الصيرفي (النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرنين العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي)، كراتكشكوموفسكي (تاريخ الأدب الجغرافي)، جمال زكريا، (الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية)، أنور عبد العليم (الملاحة وعلوم البحار عند العرب)، خالد سالم محمد (ربابنة الخليج ومصنفاتهم الملاحية)، وغيرها.

هائل فقدت بسببه الكثير من الوثائق الأصلية والخرائط التي كانت محفوظة في أرشيف المستعمرات البرتغالية. ومن هنا بالتأكيد وقع اللبس والخلط في اختلاف الروايات حول تفاصيل رحلة داجاما الأولى إلى الهند، ليس فقط في اسم الريان المسلم الذي قادها من ماليندي إلى كاليكوت بالهند، بل وحول عدد السفن والبحارة وأيام وأشهر وسنوات الوصول إلى مناطق شرق أفريقيا والهند وكذلك في عدد من عاد من بحارته أحياء وأعداد من توفى منهم في الطريق(١).

ولختام هذه القضية نذكر هنا رواية المؤرخ البرتغالي (باروس) التي كتبها في القرن السادس عشر، حول ظروف وصول داجاما إلى الهند، وهي على كل حال تتشابه مع بقية الروايات البرتغالية الأخرى عدا بعض التفاصيل الجانبية التي لا تؤثر على صلب الحكاية ذاتها مثار النقاش.

يقول باروس: «أثناء وجود فاسكو داجاما في ماليندي كان معه جماعة من الهنود توجهوا إلى ظهر السفينة، وكان يوجد أحد البربر من الجوزرات يدعى «ماليمو كانا». ولإرضاء ملك ماليندي الذي كان يبحث عن ملاح للبرتغاليين، قبل المعلم المسلم أن يتوجه معهم إلى السفينة، ورضي داجاما كل الرضا عن معلوماته بعد التحدث معه وخصوصاً بعد أن عرض عليه خريطة لكل الشواطىء الهندية مرسومة كما هي عند العرب عامة بخطوط الطول والعرض وفي غاية الوضوح. وقد اتضح أن تلك الخريطة في منتهى الدقة. وعندما اطلع داجاما مرشده المسلم على اسطرلاب من الخشب كان قد أحضره معه من البرتغال وبعض الاسطرلابات المدنية لقياس ارتفاع الشمس والنجوم لم يبد المرشد أي

---

(١) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، سلسلة عالم المعرفة(١٣) (الكويت، ١٩٧٩م)، ص١٢٧ وما بعدها.

اندهاش أو استغراب بل قال أن الملاحين العرب في البحر الأحمر يستخدمون أجهزة مثلثه ومربعة الشكل لقياس ارتفاع النجوم وخصوصاً النجم القطبي. وبعد هذا الحديث مع الملاح حصل داجاما على انطباع مفاده أنه وجد في هذا الشخص ثروة كبيرة. وحتى لا يفقده أمر رجاله على الفور بالإبحار إلى الهند. وفي يوم ٢٤ إبريل اتجه داجاما شرقا ووصل إلى كاليكوت في ٢٠ مايو من نفس العام(١)، أي في أقل من شهر. وأرسل ماليمو كانا إلى اليابسة ليبلغ ملك البلاد بوصول البعثة البرتغالية»(٢).

ولابد من تسجيل ملاحظة مهمة هنا، وهي أن أغلب المصادر البرتغالية تقرر أن الربان المرشد موضع الخلاف كان مسلماً من منطقة الكجرات على الساحل، بينما ابن ماجد – كما هو معروف – عربي مسلم من شبه الجزيرة العربية(٣)، واسمه سهل النطق والحفظ. فلو كان هو نفسه المرشد فلماذا تغفله تلك المصادر بهذا الشكل وباتفاق غريب بينها؟!؟

---

(١) تختلف المصادر البرتغالية في تحديد وصول داجاما إلى الهند فبعضهم يقول ١٨ مايو والبعض يقول إنه كان في ٢٠ أو ٢١ مايو ١٤٩٨م، والسبب في ذلك كما يبدو أن وصوله إلى أول نقطة قرب ساحل الهند ربما في أنجاديفا كان في ١٨ مايو، ونزوله كاليكوت كان في ٢٠ أو ٢١ مايو، حول وصول داجاما إلى الهند أنظر: Bell, Op. Cit., P.68. Danvers, Op. Cit., P.49
Portugal Discovers,Op. Cit., p.37 ¢USousa, Op. Cit., P.42 -

(٢) شوموفسكي، مرجع سابق، ص ص ٨٥ – ٨٦؛ أنور عبد العليم، مرجع سابق، ص١٢٦.

(٣) ابن ماجد: هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن فضل الدويك بن يوسف بن حسن بن حسين أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي. وقد تربى في جلفار وعاش بها «رأس الخيمة حالياً»، وقد تلقب بالمعلم وأسد البحر والسائح ماجد، وهو من كبار ربابنة العرب في البحر الأحمر وخليج عُمان والمحيط الهندي وخليج البنغال في شرق الهند وبحر الصين، ومن علماء فن الملاحة، ولد حوالي عام ٨٣٥هـ (١٤٣٢م)، ويعتقد أنه عاش حتى بعد عام ٩٠٤هـ (١٤٩٨م) وهو عام وصول داجاما إلى الهند، كما يذكر ذلك خير الدين الزركلي في كتاب الأعلام، (بيروت، ١٩٩٠) الجزء الأول، ص ص٢٠٠، ٢٠١، وغالباً حتى عام ١٥٠١م، كما تدل على ذلك أرجوزته الأخيرة المسماة «السفالية» وهي الوحيدة التي جاء ذكر البرتغاليين بها حيث ورد اسمهم ١٤ مرة، ويقول فيها:

جازتها في عام تسعماية　　　مراكب الإفرنج يا خاية
فيها ومالوا الهند باليقين

فاسكو داجاما في الهند:

يصف لنا الشيخ أحمد زين الدين المليباري وصول البرتغاليين إلى الهند بقوله: «ابتدأ وصول البرتغال إلى مليبار كان سنة أربع وتسعمائة من الهجرة النبوية، وصلوا إلى فندرينه في ثلاث مسماريات(١)، وسبب وصولهم على ما يُحكى عنهم، هو طلب بلاد الفلفل لتختص تجارته بهم»(٢).

وعند وصول البرتغاليين في مايو ١٤٩٨م إلى كاليكوت شاهد داجاما العديد من العرب وكانوا من تجار من القاهرة وشبه الجزيرة واليمن ومعهم بضائع من مكة جاءوا ليقايضوها بالفلفل والحبوب ثم يحولوا هذه التوابل إلى مصر والشام ومنها إلى العالم النصراني الأوروبي(٣).

كان يحكم كاليكوت وقتذاك أهم زعيم في ساحل غرب الهند وهو الزامورين أو (الساموري)، وكان يُعرف بأنه ملك عظيم يلقب بسيد الجبال والبحر(٤). ومع أن رقعة مملكته كانت صغيرة إلا أنه كان هو المسيطر على ممالك هذا الساحل من واقع قوته الاقتصادية النابعة من أهمية ميناء مملكته، حيث امتدت سلطته من كاليكوت إلى كوشين وكنانور(٥). وتقع تحت سيطرته المباشرة مركز تجارة التوابل في الهند وتلك المنقولة من جزر المحيط

---

(١) مسماريات: نوع من المراكب البحرية تستعمل فيها المسامير لتثبيت ألواحها، ذلك بخلاف سفن بحر الهند آنذاك، فقد كانت تستخدم الألياف في ربط ألواحها، ويُطلق عليها في الهند (Jonque) وهو اللفظ الذي استعمله ابن بطوطة وعرّبه إلى (جنك) وجمعها «أجناك».

(٢) أحمد زين الدين المعبري المليباري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تقديم وتحقيق محمد سعيد الطريحي، (بيروت، د.ت) ص ص ٢٤٥، ٢٤٦.

(٣) - Danveres, Op. Cit., p.48.

(٤) كان يطلق على حاكم كاليكوت (Zamorin - Samuri) وهو راجا هندوكي، وينحدر من أصل عربي. أُنظر للمزيد:

- Stephens Mores, H. Portogal, (London. 1908), p.190: Panikkar, Op. Cit., p.36.

(٥) - Mores, Loc. Cit.

الهندي مثل «ملقا» والتي تمر ببلاده في طريقها إلى أوروبا. ولذا فقد كان لتجار السلع في الخليج والبحر الأحمر ومصر مراكز تجارية ووكلاء في كاليكوت بشكل خاص(١). وبما أن غالبية هؤلاء التجار كانوا العرب المسلمين الذين كانوا يتعاملون وفقاً لأصول وثوابت تجارية قديمة العهد مع الزامورنيات تعود لحوالي ٦٠٠ سنة قبل مجيء البرتغاليين، فإنّ المجتمعات التجارية العربية وبيوتاتها المالية كانت تتحكم في تجارة ساحل المليبار وكاليكوت بصفة خاصة. ومن هنا كان للتجار العرب نفوذ مؤثر وفعال في هذه المدينة مقارنة بغيرهم بل وحتى بالنسبة للتجار الهنود، وهذا ما شجع على نمو علاقات خاصة جداً بين حاكم كاليكوت «الزامورين الهندوكي» والعرب المسلمين الذين لم يكونوا يشكلون أية خطر على السلطات الهندوكية في هذا الميناء وفي ساحل المليبار إذ لم تكن لهم أية سلطة سياسية في تلك المنطقة(٢). وعندما تلاقت مصالح الطرفين الهندوسي والمسلم في التجارة قام الزامورين بتشجيع التجار العرب المسلمين على التجارة مع بلاده، وبفضلهم صارت كاليكوت غنية ومزدهرة. كما اشتهرت «كوشين» بأنها أعظم ميناء لتجارة الفلفل(٣). ومن هنا أصبح الزامورين عظيماً وغنياً وهذا ما دعاه لاحترام وتقدير هؤلاء التجار العرب في مملكته.

بالإضافة إلى السلطة الاقتصادية الرئيسية في «كاليكوت»، فقد كان ساحل المليبار الهندي يعج بالممالك الإسلامية التجارية، ولكنها كانت كممالك الطوائف فى الأندلس. فعند وصول البرتغاليين، كانت تلك الممالك في صراع دائم بين بعضها البعض أو ضد الممالك الهندوسية المجاورة لها. ويجدر الاشارة إلى أن تلك الممالك أو السلطنات كانت في الأصل منفصلة عن

---

(١) - Mores, Op. Cit., P. 190.

(٢) - Ibid.

(٣) -Serjeant, Op. Cit., P.12

المملكة الأم وهي مملكة الدكن البهمنية الإسلامية عندما بدأت في الضعف والانهيار منذ عام ١٤٨٢م في عهد السلطان محمود بن محمد شاه البهمني(١).

وعندما تم اللقاء مع البرتغاليين في قصر الزامورين في كاليكوت، دهش داجاما مرة أخرى مما شاهده في لباس حاكم كاليكوت المطعم بالجواهر واللآلىء، في الوقت الذي وجده لم يحفل بهداياه التي جلبها له، بل وأصابته خيبة أمل فيها(٢). وحين سأل الزامورين داجاما عن سبب مجيئه للهند، أجاب الأخير باختصار شديد ومؤثر (النصرانية ثم البهارات)، ثم أردف ذلك بقصة كاذبة - خوفاً على نفسه ورجاله - مدعياً بأنه أضاع سفنه الأخرى التي كانت معه وانها انفصلت عنه وتاهت وجاء إلى هنا للبحث عنها(٣)، وذلك كي يوهم الزامورين ويزرع في قلبه الرعب من وصول أسطول كبير يهدد مملكته. ثم اتبع داجاما مع الزامورين أسلوباً وسياسة شبه مسالمة ولم يستخدم العنف مع المدن الهندية في ساحل المليبار حتى أنه لم يعارض الزامورين حين باعه أنواعاً رديئة من التوابل(٤)، وبالأسعار العالية التي حددها له الزامورين، حتى ينفي ما أشيع عنه كعدو أو جاسوس أجنبي(٥). ثم سلم داجاما الزامورين رسالة من الملك «أمانويل الأول» حول الرغبة في التجارة مع بلاده، وقد رد عليها الزامورين قبل سفر داجاما إلى بلاده وكان بها شبه

---

(١) عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، (مصر، ١٩٩٠)، ص ص ١٥٢ - ١٥٥.

(٢) كانت هدايا داجاما للزامورين عبارة عن قليل من المرجان والسكر والعسل وبعض الأقمشة الملونة، أنظر: زين الدين المليباري، مصدر سابق، ص٢٢٦؛ - The New Cambridge History, Op. Cit., p.426.

(٣) سونيا هاو، مرجع سابق، ص١٩٩؛ - Danvers, Op. Cit., Vo.l. I, p.50.

(٤) كانت التوابل تباع آنذاك بالأردب وهو عبارة عن ١٠ - ١٤ رطلاً.

(٥) سونيا هاو، مرجع سابق، ص٢٠٠؛ - Serjeant, Op. Cit., P.2.

موافقة على التبادل التجاري بين البرتغال وكاليكوت(١).

وعندما سمع التجار المسلمون في كاليكوت بما حدث بين داجاما والزامورين، وهو أول لقاء برتغالي هندي يكون محوره النواحي الاقتصادية التجارية، توجسوا خيفة من موافقة الحاكم على تزويد البرتغاليين بالتوابل. وضع هؤلاء التجار في اعتبارهم أن هؤلاء الأوروبيين الطارئين إذا دخلوا المنطقة منذ البداية كتجار فلن يقيدوا أنفسهم بميناء كاليكوت فقط، بل سيوسعون تجارتهم لتشمل كل المناطق الهندية، وهذا ما سيسبب بالطبع خسارة التجار المسلمين في كل سواحل الهند الغربية، وسيظل الخطر ماثلاً – ما دام هؤلاء في المياه الشرقية – على حركة تصدير التوابل الهندية إلى أوروبا عبر بلاد المشرق العربي أوصلوا توجساتهم هذه إلى الزامورين(٢). ولهذا أخفق داجاما بعد ثلاثة أشهر في كاليكوت في عقد معاهدة تجارية مع حاكم المدينة، كما رفض الزامورين طلبه بإنشاء مركز تجاري للبرتغاليين في المدينة(٣). وبدأ داجاما بالبحث عن مدن تجارية هندية أخرى أكثر ترحيبا في الساحل فوصل إلى كنانور وهناك لاقى ترحيباً كبيراً من حاكمها الهندوسي. وكذلك فعل حاكم جوا – نكاية بالزامورين في كاليكوت.

وفي طريق عودة داجاما من الهند إلى شرق أفريقيا توقف في ماليندي مرة أخرى حيث زوده حاكمها ببعض المرشدين البحريين كما أرسل معه سفيراً من قبله إلى ملك البرتغال حاملاً معه عروض الصداقة اللامحدودة والولاء التام للتاج البرتغالي. ومنذ تلك اللحظة صارت هذه الإمارة

(١) وهذه فحوى رسالة الزامورين كما وردت في كتاب In my land there is much cinnamon, and much Vasco Graca Moura, (Pres), Op. Cit. P. 139. clove, and ginger, and peper, and many precious stones. And what want from your land is gold, and silver, and coral and scarlat cloth Veasco da Gama, A Noble man of your house, came to me and I received him gladly..

(٢) سونيا هاو، مرجع سابق، ص ٢٠٠؛ - Danvers, Op. Cit., Vol. I,pp,50,51

(٣) - Panikkar, Op. Cit., p.33.

الإسلامية في شرق أفريقيا الحليف الوحيد والدائم للبرتغاليين(١).

وصل داجاما أخيراً في سبتمبر عام ١٤٩٩م إلى لشبونة، وقد فقد من بحارته حوالي الثلثين وسفينتين أيضا وقد قضى في رحلته ٢٦ شهراً، إلاّ أنه عاد بأرباح بلغت ٦٠ مرة ضعف تكاليف الرحلة الأولى إلى الهند.

وكم كان فرح واغتباط الملك أمانويل بعودة داجاما وفتح الطريق إلى الهند لأول مرة أمام البرتغاليين عظيما فقد حقق أهدافه في التخلص من السيطرة العربية الإسلامية على التجارة الشرقية(٢). ولذا أقام الملك الاحتفالات الرسمية والشعبية كما حدث في اسبانيا عند عودة كولومبس من أمريكا.

وقد أحدثت أخبار كشف البرتغاليين لطريق جديد يؤدي إلى الهند وتوابل الشرق مباشرة، ثورة في التجارة الأوروبية، كان لها دوي عظيم في أوساط المجتمعات الأوروبية. وقد بدأ نجم السياسية البرتغالية وبلاط لشبونةيرتفع عالياً، مما جعل الملك يطلق على نفسه بكل ثقة وفخر لقب «سيد الفتح والملاحة وتجارة الحبشة وجزيرة العرب وفارس والهند»(٣). وقبل أن تتلاشى أصداء هذا الاكتشاف والاحتفالات بعودة فاسكو داجاما ظافراً من الهند، وتحت شعار «اطرق الحديد وهو ساخن» عقد الملك أمانويل العزم على استثمار نتائج الرحلة الأولى بأقصى سرعة ممكنة. فتم إعداد الحملة البرتغالية الثانية إلى بحار الشرق في أقل من ستة أشهر، وذلك كي لا يُترك مجالاً ومتنفساً لأهالي البلاد المكتشفة لتنظيم أنفسهم

---

(١) جيمس دفي، مرجع سابق، ص٧٩؛ جمال زكريا قاسم، العلاقات العربية الأفريقية، مرجع سابق، ص٦٤.

(٢) - Danvers, Op. Cit., p.64.

(٣) هذا اللقب هو اختصار للقلب المطول وهو:

King of Portogal and of the Algarves, of Near and over Seas Lands in Africa, Lord of Guinea and of the Conquest, and of Navigation and Trade in Ethiopia, Arabia, Persia and India Mores, Op. Cit., p.191.; Encyclopedia Britanica, Op. Cit., p.276. ¢Danvers. Op. Cit., p.64

والاستعداد للدفاع عن بلادهم. وحددت هذه الحملة أهدافها بضرب القوى العربية الإسلامية في المحيط الهندي وانتزاع التجارة العالمية منها، وإنشاء مراكز تجارية في ساحل المليبار حتى تضخ منها ثروات الشرق إلى موانىء البرتغال ومخازنها، وإقامة قاعدة حربية للسفن البرتغالية. وقد طلب الملك ضرورة أن يتم ذلك الأمر سواء بالمفاوضات أم بالقوة المسلحة لتثبيت النفوذ البرتغالي في تلك المناطق، خصوصاً المناطق الإسلامية منها(١).

وصل كابرال إلى الهند في سبتمبر من عام ١٥٠٠م ورسا بسفنه أمام ميناء كاليكوت. وعندما شاهد التجار المسلمون أسطولاً برتغالياً ثانياً أمام كاليكوت شعروا بقلق كبير وتيقنوا من جدية خطورة المنافسة القادمة إليهم من وراء البحار من هؤلاء البرتغاليين بالذات. وبمجرد أن وصل كابرال إلى قبالة مدينة كاليكوت الساحلية أخذت تصرفاته تتسم بالعجرفة وقبل أن تطأ أقدامه اليابسة أخذ يقوم بأساليب استفزازية وعدائية للمدينة وضد سفن التجار المسلمين في الميناء(٢).

ويصف الشيخ المليباري ذلك الوضع قائلاً: «دخلوا كاليكوت على هيئة التجار، واشتغلوا بالتجارة وقالوا للسامري ينبغي منع المسلمين من تجارتهم، ومن السفر إلى بر العرب والفوائد الحاصلة منهم يحصل منا أضعافها، ثم تعدوا على المسلمين في المعاملات، فأمر السامري بقتالهم فقتل منهم نحو سبعين أو ستين رجلاً وهرب الباقون وركبوا في مراكبهم

---

(١) زين الدين المليباري، مصدر سابق، ص٣٧؛ سونيا هاو، مرجع سابق، ص٢٠٨؛ Op. Cit., p192 Mores,

(٢) The Voyag of Pedro A. Cabral, Op. Cit., pp. 83-85.

ويذكر مترجم الكتاب أن كابرال استولى عشر سفن إسلامية كبيرة أمام ميناء كاليكوت وقتل جميع ركابها وكانوا ما بين ٥٠٠ – ٦٠٠ بحار، ثم قام بسلب ونهب السفن بما فيها من بضائع وقتلوا ثلاثة أفيال وجدوها بها أيضاً ثم أضرموا النيران في كل السفن.

ورموا بالمدافع على أهل البر وأهل كاليكوت ردوا عليهم»(١).

ولم يبق كابرال طويلاً في الهند، فقد عاد إلى لشبونة في يوليو عام ١٥٠١،(٢)، وقد فشل في تحقيق أهدافه الأساسية من الحملة وهي إقامة مركز تجاري أو قلعة حربية في كاليكوت للسيطرة على تجارة التوابل في المنطقة.

ولمواصلة سياسة طرق الحديد وهو ساخن وقبل أن يفيق الشرق من صدمة الحملات البرتغالية الأولى، سارع الملك أمانويل بإرسال داجاما مرة أخرى باعتباره فاتح الهند، ومعه أسطول ضخم ضم ما بين عشرين إلى ثلاثة وعشرين مركباً كبيراً، وذلك عام ١٥٠٢م، وزوده الملك بتعليمات شديدة وصارمة أساسها العمل على احتكار تجارة الشرق وكل منتجاته للبرتغال فقط. ولهذا أعطى الملك قائده داجاما هذه المرة كافة الصلاحيات بأن يفعل «كل شيء» من أجل هذا الهدف الكبير، وتحويل التجارة تلك بعد ذلك إلى طريق واحد فقط تحت سيطرة الأساطيل البرتغالية دون غيرها وهو طريق رأس الرجاء الصالح. وأضيف إلى ذلك الهدف أيضاً، رغبة الملك في سد المنافذ التجارية البحرية أمام التجارة العربية الإسلامية في الخليج العربي والبحر الأحمر، ومنع أية سفينة من دخول البحر الأحمر بالذات أو الخروج منه، وتدميرها إنْ لزم الأمر لإضعاف القوى الإسلامية في كل مناطق الشرق(٣).

وقد نفذ داجاما تعليمات سيده بدقة تامة متبعاً أسلوباً مختلفاً عما اتّبعه في رحلته الأولى. تميز هذا الأسلوب بالبشاعة والقسوة والتمثيل بالبشر بصلبهم أو جدع أنوفهم وتقطيع أعضائهم، وسرقة البضائع من

(١) زين الدين المليباري، مصدر سابق، ص٢٤٧.

(٢) - The Voyage of Pedro Cabral, O. Cit. pp. 90,91: Danvers, Op. Cit., p.71

(٣) - Sousa, Op. Cit., p.63.

السفن والموانىء وتدميرها، بالإضافة لسرقة الأطفال العرب والمسلمين من أسرهم وتنصيرهم، وما قصة السفينة «مريم» إلاّ شاهد واحد فقط من عدة شهود على هذه القضية(١).

وبعد أن وضع داجاما أسس السيطرة العسكرية الاستعمارية البرتغالية في سواحل المحيط الهندي بين شرق أفريقيا وساحل المليبار الهندي بالعنف والتدمير والارهاب المتعمد، وقبل عودته إلى بلاده، ترك حوالي خمس أو ست سفن من أسطوله تحت قيادة أحد ضباطه ويدعى «فسنت سودري» Vicente Sodre لتجوب المحيط الهندي للقيام بأعمال القرصنة البحرية ومهاجمة السفن العربية الإسلامية وكافة السفن التي تمخر مياه تلك المنطقة ما عدا سفن كناثور وكوشين وكويليون التي كانت تحمل إذنا من ممثل البرتغال في كناثور(٢). كذلك أمره داجاما بإغلاق مدخل البحر الأحمر أمام السفن العربية الداخلة والخارجة منه(٣).

ويذكر موريس، أن الضابط «سودري» كان يقوم بالقرصنة قبالة ساحل عُمان في بحر العرب منذ عام ١٥٠٣م حيث قام باصطياد السفن الإسلامية وسرقتها، وبذلك اعتبر أول القراصنة الذين حيكت عنهم القصص في هذه المنطقة(٤). إلاّ أن ذلك القائد قتل بعد ذلك في ظروف غامضة عند رأس الغضروفي، ولم تعرف أخبار سفنه أيضاً.

---

(١) أُنظر حول هذه الحادثة.. - Sousa, Op. Cit., pp.65,66; Danvers, Op. Cit.,p.77;
وكذلك وندل فيليبس، مرجع سابق، ص ص٤٠ – ٤٣. وقد قتل داجاما في حادثة السفينة مريم ما بين ٣٠٠ إلى ٣٨٠ حاجاً وهم قادمين من مكة إلى كاليكوت، أحرقهم وهم أحياء في السفينة، كما يضيف إلى ذلك رجل من أسطول داجاما قائلاً: «لقد أخذت النيران تلتهم مريم ومن على ظهرها من الركاب، وكانت النسوة وهنّ يحملن أطفالهن يصرخن ويستغثن ولكن دون جدوى بينما القائد داجاما يمتع نظره بهذا المشهد وهو يضحك».

(٢) - Danvers, Op. Cit., p.83.

(٣) - Serfent, Op. Cit., p.42; Danvers, Op. Cit., p.83: Vasco Groca Moura. Op. Cl.t., P. 157.

(٤) - Mores, Op. Cit., P.193.

ثم مضت حكومة الملك السعيد (إمانويل) في تنفيذ سياستها الاستعمارية الجديدة بعد اكتشاف طريق الهند وذلك بهدف السيطرة النهائية عليه وإقفاله أمام أية منافسة أوروبية أخرى. وصدرت عدة قوانين وقرارات في هذا المجال ظنت حكومة البرتغال أنها بإصدارها قد حرمت استخدام طريق رأس الرجاء الصالح على الآخرين. وزيادة في الحرص لإبعاد المنافسة حتى من قبل المماليك بمصر، فقد قام إمانويل بإرسال رسالة للبابا يوليوس الثاني عام ١٥٠٥م قال فيها «إنه ليس عازماً على المضي في قتل التجارة المملوكية فقط، بل إنه سيجاهد في سبيل النصرانية حتى يجعل من مكة هدفاً لمدافعه وجنوده»(١).

ولتثبيت الوجود البرتغالي الاستعماري في الشرق سياسياً، جرى استحداث منصب «نائب الملك البرتغالي في الهند» وكان أول قائد تولاه هو «فرانسيسكو دي الميدا Francisco de Almeda عام ١٥٠٥(٢). وبذلك تكون البرتغال أول دولة استعمارية أوروبية أنشأت مثل هذا المنصب في الهند لحماية مصالحها التجارية. وقد تمثلت أهم أهداف مهمة الميدا فيما يلي:

- إغلاق كل الطرق المؤدية إلى الهند وأسواقها في وجه العرب والمسلمين بشكل خاص.
- العمل على استئصال شأفة الوجود العربي الإسلامي التجاري من جذوره في المحيط الهندي والحرص على التحالف مع أي ملك من ملوك الهند شريطة ألا يكون مسلماً(٣).

---

(١) محمد محمود السروجي، «المقاومة العربية الإسلامية للبرتغاليين في الخليج العربي»، مجلة الوثيقة، العدد ١٧، السنة ٩، (البحرين، ١٩٩٠م)، ص٥٩.

(٢) - Danvers, Op. Cit., P.118.

(٣) - Serjeant., Op. Cit., p.14.

وقد كان وصول الميدا إلى الهند كتائب عن ملك البرتغال، إيذاناً بتحول الصراع بين البرتغاليين والقوى العربية والهندية إلى طور جديد تمثل في بناء القلاع والحصون الحربية البرتغالية لقمع ثورات وتمرد القوى الإسلامية في المنطقة، بالإضافة لاستحداث قوانين وإجراءات اقتصادية برتغالية عديدة للحد من النشاط العربي الإسلامي أو إيقافه نهائياً. وقد تمثلت تلك الاجراءات في إصدار قانون (Cartazes) الذي ألزم فيه «الميدا» كل المراكب والسفن التي تقوم بالتجارة للحصول على تصاريح خاصة مقابل أداء مبالغ معينة. وكان لهذا القانون التزامات حقوق وواجبات لم تُصان أبداً من قبل البرتغاليين أنفسهم خصوصاً فيما يخص السفن العربية الإسلامية(١).

تم تضييق الخناق على الملاحة العربية الإسلامية في سواحل المليبار، باصدار هذه التصاريح وتنفيذها مما جعل التجار المسلمين يتحايلون عليه باللجوء إلى كل من ملقا وسومطرة، والهروب بعيداً عن مراقبة السفن الحربية البرتغالية حتى قام البوكيرك عام ١٥١١م باحتلال ملقا ليضع حداً للتجارة الإسلامية مع موانىء الشرق الأقصى حيث كان يتم استبدال البضائع العربية بالسلع الصينية في هذا الميناء والحصول على التوابل للأسواق العالمية.

ودعمت حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية بقوة مالية ضخمة، عندما صار ملك البرتغال هو السيد الأول في التجارة الشرقية وأصبح كل شيء باسمه وشاركته بعض البيوتات الرأسمالية الأوروبية والبرتغالية التي وقفت وراء الكشوف في أهدافها الاقتصادية منذ البداية، خصوصاً بيت «أنتورب» المالي وغيره(٢).

(١) - Boxer, Op cit., p.48.
(٢) - Ibid.

واستمر الإعصار الاستعماري البرتغالي يعصف بالسفن التجارية العربية وبمراكز الحضارة الشرقية في سواحل المحيط الهندي حيث كانت لمسة البرتغاليين لأي من تلك المراكز تعني الموت والدمار في ذلك الوقت. وبما أن عدن وهرمز كانتا المنفذين الإسلاميين الوحيدين اللذين تتسرب منهما السلع الشرقية إلى أوروبا عن طريق الأسواق في منطقة المشرق العربي، فقد وصل ذلك الإعصار البرتغالي إلى مشارف البحر الأحمر والجنوب والخليج العربي عندما جاءت عام ١٥٠٦م إلى المنطقة عمارة بحرية برتغالية مكونة من أربع عشرة سفينة بقيادة «تريستان دي كونها Tristan de Cunhaa وكان بقيادة القائد البرتغالي الذي روّع سكان الجنوب العربي وسواحل عُمان والخليج ألا وهو أفونسوا دا البوكيرك(١).

وكان أول ظهور لألبوكيرك في البحار الشرقية عام ١٥٠٣م، عندما أرسله الملك أمانويل الأول مع فرانسيسكو البوكيرك لبناء قلعة في كوشين على ساحل المليبار بالهند. وبعد عدة مواجهات مع مسلمي الهند وغيرهم استطاع هذان القائدان من عائلة البوكيرك بناء القلعة، وكانت أول قلعة للبرتغاليين تقام في سواحل بحار الشرق(٢).

وفي عام ١٥٠٩م عندما تولى أفونسو البوكيرك منصب نائب الملك في الهند، زاد من تركيز سيطرته على سواحل الهند والشرق الأقصى والخليج والجنوب العربي. وقام البوكيرك بتعقب السفن التجارية العربية أينما وجدها في مياه المحيط الهندي وبحر العرب وسواحل الخليج العربي، وأسرها وإحراقها أو إغراقها مع بحارتها بكل قسوة، ونهب بضاعتها

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I, pp. 111, 112.
(٢) - The Commentaries of the Great Afonso Da Lboquerqeu, Trans. By Walter. Degray Birch (London, 1774), Vol. I, p.2.

وقتل ربابنتها(١)، وعمل البوكيرك على أن يؤمن لنفسه وللأسطول البرتغالي قاعدة منيعة في ساحل المليبار بالهند تكون قريبة لمخططاته في الخليج والجنوب العربي والبحر الأحمر. ولما كانت قلعة كوشين بالنسبة له قد أصبحت غير صالحة لمآربه، فقد وجه اهتمامه لاستبدالها بمدينة كلكيوت العظيمة لبناء قاعدة حربية ضخمة بها، إلاّ أنه فشل في احتلالها، بل وكاد يقتل عندما اقتحمها بجنوده(٢). فقرر البوكيرك احتلال مدينة (جوا) وكانت تابعة لمملكة بيجابور الإسلامية الضعيفة آنذاك، ونجح بعد محاولات في احتلالها في نوفمبر من عام ١٥١٠م بمساعدة الهندوس في تلك المنطقة(٣).

وبعد تنفيذ خططه تلك في الهند وجعل (جوا) عاصمة البرتغاليين الرئيسية ومركزهم التجاري والحربي والسياسي والديني، بدأ البوكيرك في تطبيق سياسة أخرى تقوم على احتلال المضائق البحرية الرئيسية التي تتصل بتجارة الهند وأهمها (ملقا، عدن وباب المندب، هرمز) كما عمل على الاستمرار في بناء القلاع والحصون على السواحل في مناطق المحيط الهندي. وفي نفس الوقت أيضاً، عمل البوكيرك بشكل حثيث للحصول على حلفاء محليين لتحقيق أغراضه العدوانية على البلاد العربية الإسلامية، وذلك من خلال إقامة علاقات مع البلاط الحبشي في أثيوبيا(٤)، وأيضاً مع البلاط الفارسي في عهد الشاه إسماعيل الصفوي بعد إخضاع هرمز بشكل نهائي عام ١٥١٥م.

وعندما جاء «دي سكويرا» في منصب نائب الملك في الهند بعد و فاة

(١) شارل ديل، مرجع سابق، ص١٤٩؛ -Serjeant, Op. Cit., p.110.
(٢) - Bell, Op. Cit., p.113.
(٣) - Panikkar, Op. Cit., p.39.
(٤) - Serjeant., Op. Cit., pp.110 - 112.

البوكيرك عام ١٥١٥م قام بتأمين الحماية للسفن البرتغالية التجارية ضد القوى المناهضة لها في المحيط الهندي. وقد زاد هذا القائد في أعداد السفن وجعلها تتمادى في أعمالها الحربية ضد السفن الإسلامية، فتحولت من سفن تجارية إلى سفن قرصنة بحرية وضاعت قيم ومبادىء التجارة العربية الإسلامية التي طالما حافظت عليها تلك الدول في المحيط الهندي لسنين طويلة(١).

(١) بشير حمود كاظم، «التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر»، أبحاث ندوة رأس الخيمة، (دولة الإمارات العربية، ١٩٨٧) الجزء الثاني، ص١٠٧، نقلاً عن: جوادي باروس، الوثائق البرتغالية العشارية الثانية، القسم الأول، ص١.

الفصل الثاني

الأوضاع السياسية في مشرق العالم الإسلامي عند مجيء البرتغاليين

- محاولات الدولة المملوكية التصدي للغزو البرتغالي في مطلع القرن السادس عشر.
- الصراع بين الدول الإسلامية الكبرى على زعامة العالم الإسلامي وأثره في الأوضاع السياسية أثناء الغزو البرتغالي للمنطقة.

الأوضاع السياسية في مشرق العالم الإسلامي
عند مجيء البرتغاليين

كانت الدول الإسلامية التي تتحكم في مجرى الأحداث في مشرق العالم الإسلامي عند مطلع القرن السادس عشر الميلادي هي ثلاث دول رئيسية حكامها من غير العرب، وتحتل هذه الدول المساحة الأعظم في وسط المنطقة التي تسمى اليوم في الاصطلاح الأوروبي (الشرق الأوسط)، وهذه الدول هي:

- الدولة الصفوية في معظم بلاد فارس (إيران) وأجزاء كبيرة من العراق.
- الدولة العثمانية في آسيا الصغرى (الأناضول) وأجزاء كبيرة من شرق أوروبا.
- الدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز وبعض النفوذ في اليمن.

وكانت هناك دولة إسلامية رابعة تعيش في الجزء الجنوبي من الهند وهي مملكة الدكن البهمنية التي تأسست عام ١٣٤٧م، إلاّ أنها بدأت تحتضر أواخر القرن الخامس عشر وتقوم على أشلائها خمس ممالك مستقلة، حتى جاء «بابرشاه» المغولي وأسس الدولة المغولية التيمورية في الهند منذ عام ١٥٢٦م تلك الدولة التي استمرت حتى عام ١٨٥٧م.

وسنركز على الدول الإسلامية الثلاث الكبرى لارتباطها بمجرى الأحداث التي وقعت عند مجيء الغزو البرتغالي للمنطقة ضمن حدود المساحة الجغرافية التي قصدها البرتغاليون في حروبهم الاقتصادية الصليبية بعد الكشوف الجغرافية.

محاولات الدولة المملوكية التصدي للغزو البرتغالي
في مطلع القرن السادس عشر الميلادي

بينما لم تكن للعثمانيين علاقة مباشرة بالتجارة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط وعندما كان همهم الشاغل انتهاز الفرص للتوسع شرقاً وغرباً وجنوباً حتى على حساب جيرانهم المسلمين، كان للمماليك اهتمام خاص بما يجري في المحيط الهندي والبحر الأحمر، وخصوصاً بخطوط التجارة العالمية في تلك المناطق، حيث ارتبطت بها الدولة المملوكية ارتباطاً تاماً بعد أن قلّ الاهتمام بالزراعة وتصدير منتجاتها من مصر بسبب الفوضى وعدم الاستقرار السياسي في النصف الثاني من فترة دولة المماليك الجراكسة. ولذا كانت دولة المماليك أكثر الدول الإسلامية الثلاث في المشرق إدراكاً لخطورة نجاح البرتغاليين في الوصول إلى الهند بحراً وضررهم البالغ بالمصالح الاقتصادية للدولة. ومن هنا جاءت أسبقية هذه الدولة في البدء بمشاريع التصدي للبرتغاليين عسكرياً في المحيط الهندي(١). إلاّ أنه تصادف أن تعرضت دولة المماليك لفترة عصيبة من الاضطرابات الداخلية الدامية عشية وصول البرتغاليين للمياه الهندية عام ١٤٩٨م، نتيجة للتناحر المتواصل على الحكم الذي اتسم به تاريخ المماليك منذ استولوا على السلطة وذلك بسبب ضعف شخصية السلاطين والتنافس بين الأمراء وتمرد المماليك (الجلبان) ونزوعهم إلى الاستبداد والنهب. وقد انعكست هذه الاضطرابات على عرش السلطنة وتعرض بعض السلاطين للقتل، واهتز مركز الدولة اهتزازاً شديداً، حتى أنه تعاقب على عرش السلطنة خلال ثلاث سنوات من ١٤٩٨ حتى ١٥٠١م، أي منذ وصول البرتغاليين

---

(١) عبد العزيز الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق شبه الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص٦٤٣.

إلى المحيط الهندي حتى تولي السلطان قانصوه الغوري العرش أربعة سلاطين هم على التوالي:

- الناصر محمد بن قايتباي (في سلطنته الثانية) ١٤٩٧ - ١٤٩٨م.
- الظاهر قانصوه الأشرفي (١٤٩٨ - ١٥٠٠م).
- جانبلاط (١٥٠٠ - ١٤٠١م).
- العادل طومان باي (١٥٠١)(١).

لم يكن المماليك في صراعاتهم تلك وفي غمار الفوضى التي عمت البلاد يتابعون تطورات العالم الخارجي وخصوصاً الأوروبي في محاولته البحث عن طريق تجاري آخر لبضائع الشرق الهندية وغيرها وبالتالي لم يعلموا بقيام حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية ولم يجد سلاطين المماليك الضعاف متسعاً من الوقت لتوجيه جهود الدولة للتصدي للوجود البرتغالي في المحيط الهندي وسواحله. وكيف كان يمكن لذلك أن يتم ومعظم السلاطين الذين تولوا السلطنة في تلك السنوات انتهى أمرهم إما بالقتل أو بالسجن أو الخنق، مما جعل كبار أمراء المماليك لا يرغبون في اعتلاء عرش السلطنة الذي صار ملطخاً بالدماء. ولهذا تمنع الغوري - رغم كونه أقوى الأمراء - عن قبول المنصب، بل أنه أخذ يبكي - كما يقول ابن إياس - إلاّ أنه قبل تولي المنصب أخيراً بعد أن «سحبوه وأجلسوه بالقوة»، ولكنه اشترط على أمراء المماليك الجراكسة ألا يقتلوه وقال «أقبل بشرط ألاّ تقتلوني، بل إذا أردتم خلعي وافقتكم»(٢).

(١) عبد العزيز الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغاليين، مرجع سابق، ص٦٩٦، وطومان باي هذا ليس هو الذي قتله سليم الأول عندما فتح مصر ١٥١٧م، وقبل هؤلاء لم يثبت على كرسي العرش مثل (قانصوه خمسمائة) سوى ثلاثة أيام فقط، وعُزل مثل: السلطان عثمان بن جمقمق بعد شهر ونصف عام ١٤٥٣م على يد الأمراء والجند. أنظر ابن تغري بردي، أبي المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة، ١٩٧٢)، جـ١٦، ص ص ٣٨ - ٥٦.

(٢) ابن إياس، مصدر سابق، جـ٤، ص ص ٣ - ٥. وقد اتهم الناس الغوري بأنه صرف أموال الضرائب على فخامة بلاطه وعظمة مظهره، فأصبحت مماليكه الخاصة وخيوله وجواهره، ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال، وجمع تلك الأموال العظيمة التي تدخل عليه ليصرفها في عمائر ليس بها نفع للمسلمين ويزخرف بها الحيطان والسقوف بالذهب.

ولكن الغوري الذي تولى السلطنة عام ٩٠٦هـ (١٥٠١م) والعدو البرتغالي على أبواب الهند التي كان يدكها - كابرال - بمدافعه ويهدد الوجود العربي الإسلامي هناك، واجهته منذ اليوم الأول لتوليته نفس الأزمات السابقة. فقد طالبه الجنود بنفقة البيعة كما تعودوا عند تنصيب كل سلطان، وأحدثوا الشغب وهاجموا بيوت القادة وكبار المسئولين وأحرقوها ونهبوا ما فيها من أموال(١). وحاول الغوري تهدئتهم بالوعود، ولكن شغبهم ظل يتجدد مرة تلو أخرى لفراغ الخزانة ولشح الغوري نفسه وسوء تدبيره. ولذا فرض ضرائب جديدة على الناس والتجار ولم يفته أحد من أعيان التجار، كما يذكر ابن إياس، حتى صادره وأخذ أمواله، وصادر حتى أمير المؤمنين الخليفة العباسي وأخذ منه مالاً(٢).

في هذه الأجواء العاصفة من أزمات الدولة المملوكية طرقت أبواب القاهرة أنباء الغزو البرتغالي للمياه العربية في المحيط الهندي بعد خمس سنوات من نجاح رحلة فاسكو داجاما. ورغم مشكلات الدولة والسلطان الجديد، إلاّ أن حكومة الغوري حاولت أولاً معالجة الموقف الخطير هذا بالوسائل السلمية الدبلوماسية من جهة بينما كانت تشرع في إعداد الوسائل الحربية لمواجهة الغزو من جهة أخرى(٣).

ولا أدل على الضرر الذي أصاب المماليك والبنادقة جراء تحويل طرق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح واحتكارها من قبل لشبونة، أنه في نفس العام ١٥٠٢م عادت سفن البندقية المرسلة إلى بيروت بأربع بالات من الفلفل فقط، وفي الإسكندرية لم تزد الكميات التي أفلتت من البرتغاليين

---

(١) ابن إياس، مصدر سابق، جـ٤، ص ص ٥ - ٨.

(٢) المصدر السابق، جـ٤، ص ص ٩٠، ٩١.

(٣) علي التاجر، «الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي في القرن السادس عشر»، مجلة العروبة، العدد ٥ (البحرين، ١٩٩٢)، ص٥٣.

بالإضافة إلى المخزون منها والمتبقي من العام السابق عن حمولة سفينتين أو ثلاث من خمس سفن، بينما في عام ١٥٠٤م عادت سفن البندقية من مصر خالية تماماً، وهو أمر لم يحدث من قبل(١).

ورغم مساعدة البندقية للمماليك ببعض الأخشاب والخبراء الفنيين لبناء أسطول مصري يصلح للقتال في البحار العالية والمحيطات(٢)، ورغم تفكير البندقية في مشروع لشق قناة بين السويس والبحر المتوسط، إلاّ أنها في النهاية وتحت ضغط تدفق الثروات الشرقية على مخازن لشبونة، اضطرت للإنسياق وراء التيار العام وراحت – كبقية بلاد الغرب – تشتري التوابل من أسواق لشبونة(٣)، مما جعل الغوري يعتمد على إمكاناته الذاتية أولاً ومساعدة الدولة العثمانية أيام السلطان بايزيد الثاني والحكام المسلمين بالهند ثانياً.

ولجأ الغوري بالإضافة إلى ذلك لبعض الأساليب السياسية والتهديد، فوجه نداءً إلى البابوية في روما يطلب منها منع البرتغاليين والإسبان من التعرض بسوء للمسلمين في المشرق والمغرب، وهدد بحرمانهم من زيارة كنيسة القيامة في القدس وإغلاقها في وجوههم والقبض على رجالها وبعض النصارى في مصر والشام. ولكن يبدو أن القوى الأوروبية والبابوية لم تتأثر بذلك التهديد الأجوف آنذاك، لأنهم كانوا يعرفون قوة السلطان وضعف بلاده اقتصادياً(٤). وقد كان هذا الواقع فعلاً هو ما أخر الغوري في بدء الاستعدادات العسكرية لطرد البرتغاليين من البحار الشرقية وحماية طرق التجارة عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر.

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٥١، ١٥٢.
(٢) عبد العزيز الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي، مرجع سابق، ص٦٤٤.
(٣) شارل ديل، مرجع سابق، ص١٥٣.
(٤) سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، مرجع سابق، ص١٩١.

ومن هنا اعتمد الغوري بداية على ثلاث مصادر للأخشاب، من الشام وجبالها وغاباتها، والبندقية وصناعاتها الخشبية، والدولة العثمانية. وبينما كان الغوري يستعد لبناء أسطوله الحربي للخروج به إلى المحيط الهندي لأول مرة، وصلته استغاثات من سلطان كجرات (محمود بيكر مظفر شاه) الذي سبق أن طلب أيضاً معونة الزامورين في كاليكوت ضد البرتغاليين(١)، ووصلت أيضاً تحذيرات من حكام اليمن الطاهريين تشير إلى اقتراب البرتغاليين من سواحل بلادهم عندما قام القائد البرتغالي «فسنت سودري» بعمليات القرصنة في الجنوب العربي، وقرب جزيرة سوقطرة، وقد وصلوا عام ٩٠٨هـ (١٥٠٣م) إلى سواحل عدن ونهبوا سبعة مراكب وقتلوا أهلها(٢). وفي هذا يقول ابن الديبع: «قويت شوكة المفسدين في قطع طرق المسلمين في البحر بطريق الهند وهرمن، وكان أعظمهم ضرراً طائفة الإفرنج البرتغاليون فإنهم فعلوا بالمسلمين الأفاعيل وأخذوا كل سفينة غصباً واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ونسائهم وأولادهم واستمروا على ذلك زمناً فبعث أهل مدينة عدن الخبر إلى السلطان الغوري يستطيعونه على الفرنج»(٣). فبعث الغوري بدوره – كما يقول ابن إياس – في حوادث سنة ٩١٦هـ الطواشي (بشير)، موفداً من قبله إلى السلطات الإسلامية في الهند يطالبهم بوحدة الصف الإسلامي «وأن يكونوا في عونه على قتال الفرنج الذين صاروا يتعبثون بسواحل بلاد الهند، وقد كثر منهم الفساد هناك وبلغت عدة المراكب التي يتعبثون بها في السواحل

---

(١) أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، جزءان (القاهرة، ١٩٥٧)، الجزء الأول، ص٢١١. أنظر أيضاً: زين الدين المليباري، مصدر سابق، ص٤٠؛ محمد قطب الدين النهر والي البرق اليماني في الفتح العثماني – (الرياض، ١٩٦٧)، ص١٩.

(٢) أحمد فضل بن علي محسن العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك الحج وعدن، (بيروت، ١٩٨٠م)، ص٩١.

(٣) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلحد، (صنعاء، د.ت)، ص٢٠٣.

نحواً من خمسين مركباً»(١).

أراد المماليك الدخول في معركة حاسمة مع البرتغاليين لإثبات وجودهم في البحر الأحمر والمحيط الهندي ولحماية طرق التجارة الشرقية، عصب الحياة لدولتهم. وهنا أدرك المماليك أنه لابد لهم من مراكز تجارية وعسكرية لتعزيز حملاتهم العسكرية ضد خصومهم البرتغاليين، ولذا فكروا بالاهتمام بتحصين ميناء جدة التجاري والتركيز على حماية ميناء عدن الاستراتيجي في مدخل البحر الأحمر(٢).

خرجت حملة الهند المملوكية في نوفمبر ١٥٠٥م (جمادى الآخرة ٩١١هـ)، وكان العسكر الذي خرج في هذه التجريدة ملفقاً ما بين أولاد الناس (المصريين) وبعض مماليك سلطانية والغالب منهم مغاربة وعبيد سود رماة، وتراكمة وغير ذلك. وأرسل السلطان بصحبتهم جماعة كثيرة من البنائين والنجارين والعمال وذلك لحماية تلك الأبراج التي أنشأها السلطان في جدة ولإنشاء السور حولها لحمايتها من الغزو الأجنبي، «فكان باش المماليك الذين توجهوا في المراكب إلى جدة والتركمان والعبيد بها حسين المشرف، توجهوا نحو السويس ونزلوا هناك. وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح وغير ذلك»(٣).

وسنذكر تفاصيل هذه الحملة المملوكية باعتبارها أول حملة بحرية إسلامية خرجت من السويس إلى الهند لمساعدة سلاطين المسلمين بها على حرب البرتغاليين ولطردهم من البحار الشرقية، ولأنها الحملة

---

(١) ابن إياس، مصدر سابق، جـ٤، ص١٨٥.

(٢) محمد عبد المحسن الحلي، «عدن والمطامع البرتغالية في القرن السادس عشر»، من أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، (الإمارات العربية المتحدة، ١٩٨٧)، جـ٢، ص٩٦.

(٣) ابن إياس، مصدر سابق، جـ٤، ص ص ٨٤، ٨٥.

الوحيدة التي قامت بمهمتها خير قيام من بين جميع الحملات التي تلتها – حتى العثمانية منها – ذلك على الرغم من هزيمتها في المعركة الثانية ضد البرتغاليين.

فقد وصل حسين الملقب بالكردي لأصله العرقي، ومعه مراكبه، كما يذكر نجم الدين اليمني(١) «في ثلاث برشات(٢)، وثلاثة أغربة(٣)، من جدة إلى الجهات اليمانية ولم يعلم أحد مقصوده حتى مرَّ بباب المندب فلما قرب من عدن، أنزل سنبوقاً فيه قاصد من قبله إلى الأمير مرجان الظافري (حاكم عدن) يستأذنه في الدخول إلى حُقّات فاذن له، فدخل في غاية ما يكون من الأدب؟ لم يضرب نفطاً (مدفع) ولا دق طبلاً ولا شوش ولا غلوش، فلما استقر بالبندر، أرسل إليه الأمير مرجان يسأله قبول ضيافته، فرد عليه بأنه لولا أني مأخوذ عليّ من قبل السلطان قانصوه ألاّ أدخل عدن لدخلت إليك ومثلت بين يديك، ولكن لا يمكن مخالفة أوامر السلطان، واستأذنه في شحن ما يحتاج إليه من الماء والحطب وغير ذلك لأنه متوجه إلى الهند، فأذن له الأمير مرجان بذلك، وتوجه حسين

---

(١) نجم الدين عمارة بن علي اليمني، المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن علي الأكوع، (القاهرة، ١٩٦٧)، ص ص ٣٠٥، ٣٠٦.

وهنا اختلفت المصادر اليمنية في تحديد عدد قطع الأسطول المصري المملوكي، فابن الديبع يذكر أنها ثلاث بريشات وثلاثة أغربة بقيادة الكردي، وأنه مرت قبلها خمس سفن في محرم ٩١٣هـ (مايو ١٥٠٧)، وهنا اختلط الأمر على بن الديبع فاعتبر هذه المجموعة من السفن المملوكية هاربة وخارجة عن طاعة السلطان إذ قال «وفي الشهر المذكور (محرم ٩١٣هـ) هرب جماعة من الروم (الجراكسة) من بندر جده في برشتين وثلاثة أغربة ومعهم عدة عظيمة وبارود ومدافع وغير ذلك، فوصلوا إلى جازان وأخذوا طعاماً من أهلها ثم ساروا إلى كمران ودخلوها ثم المخا وإلى عدن، ثم ارتفعوا إلى ساحل أبين، ثم قدم آخرون في ثلاث برشات وثلاثة أعزبة، ولم يدركوا الأولين وكان فيهم الأمير حسين»، أنظر محمد عبد العال، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، (القاهرة، ١٩٨٠م)، ص١٠٢.

(٢) البرشة: تعود تسميتها إلى الأصل الإيطالي (BARCA) وهي من نوع القوارب الشراعية الصغيرة وذات شكل انسيابي طويل وتعمل بالمجاديف.

(٣) الأغربة: مفردها «غراب» وهي من أقدم السفن الحربية وعرفت بهذا الاسم لطولها وسوادها نتيجة لطلائها بأنواع الطلاء المانعة للماء مثل القار، فصارت بلونها الأسود تشبه الغراب في شكلها.

المصري وعساكره إلى بندر الديو بسبب قتال الإفرنج الذين ظهروا في البحر وقطعوا طريق المسلمين».

وقد كانت رحلة حسين الكردي بتلك السفن الصغيرة والقليلة العدد، تعتبر مغامرة مملوكية جريئة ضد البرتغاليين آنذاك. ومع ذلك فقد وصلت تلك الحملة المملوكية بسلام إلى الهند، وهذا يدل على أن السيطرة البرتغالية لم تكن قد اشتدت كثيراً في جنوب شبه الجزيرة العربية والطريق إلى الهند.

وعندما وصلت السفن المملوكية انضمت إليها في الحال مراكب حاكم جزيرة الديو «مالك أيان»(١)، وبعض القطع البحرية التابعة للممالك الإسلامية في الهند مثل سلطنة الكجرات وبعض قوارب الزامورين حاكم كاليكوت، ووصل عدد هذه القطع البحرية إلى حوالي مائة سفينة صغيرة وكبيرة(٢). وتولى قيادة هذه المجموعة البحرية المملوكية والهندية القائد حسين الكردي ومالك أياز بهدف القضاء على الوجود البرتغالي العسكري في ساحل المليبار نهائياً(٣). وقد قرر حسين الكردي أن يتخذ من جزيرة ديو قاعدة دائمة لهجومه ضد البرتغاليين في المياه الهندية. وتصادف في تلك الفترةوجود ابن نائب الملك البرتغالي في الهند (لورانزو دالميدا) في المياه الهندية القريبة من ديو ومعه أسطول برتغالي مسلح، فتحرك فوراً بعد تلقيه تعليمات من والده (فرانسسكو دالميدا) لملاقاة هذا الخطر الإسلامي الجديد.

---

(١) مالك أياز Malik Ayyas: وفقا لرواية دي باروس البرتغالي، فإنّ هذا الحاكم من أصل روسي، وقد وقع أسيرا في أيدي الأتراك في شبابه، وتم بيعه إلى ملك الكجرات، وترقى هناك حتى صار وزيراً في السلطنة الإسلامية، ثم عُيِّن حاكماً لجزيرة «ديو» التابعة للكجرات، وتعتبر ديو ميناءً تجارياً لها، أنظر:

The Book of Barbosa, Op. Cit., p.64. -

(٢) - Morse, Op. Cit., p197.

(٣) - The Book of Barbosa, Op. Cit., p.61.

التقى الأسطولان البرتغالي والإسلامي المتحالف عند ميناء (شيول فو) جنوب سلطنة الكجرات عام ٩١٣هـ (١٥٠٨م)، ودخل الطرفان في معركة كانت في جملتها كما يذكر (Panikkar) حرب مدفعية بين السفن. وقد حاول البرتغاليون بقيادة لورانزو، وتحت ستار من القصف المدفعي، القيام بمحاولة إنزال على ظهر الأسطول المصري بالذات، إلاّ أنهم فشلوا. واستمرت المعركة المتقطعة – كما يبدو – يومين أو ثلاثة، حتى عزم البرتغاليون على الفرار خوفاً من الهزيمة، إلاّ أن قذيفة مصرية ذكية أصابت سفينة القيادة البرتغالية، فقتل ابن نائب الملك «لورانزو» وقتل معه حوالي مائة برتغالي.

وقد انتهت معركة «شيول» بتدمير معظم سفن الأسطول البرتغالي ما عدا سفينتين استطاعتا الهرب تحت ستار النيران ولجأتا إلى «كوشين» وأخطرتا فرانسيسكو دالميدا بمقتل ولده وهزيمة الأسطول البرتغالي على يد الأمير حسين الكردي المملوكي. فغضب دالميدا وأرسل رسالة إلى الملك أمانويل يخبره بما حدث وقرر الانتقام، واعتبر حسين الكردي هو المسئول الأول عن هذه الكارثة التي حلت بالبرتغاليين في المياه الهندية لأول مرة(١)، وذاقوا مرارة الهزيمة التي لم يتعودوها بعد في هذه المنطقة، ذلك لأن عدواً مسلماً يكافئهم في العتاد ويفوقهم في المهارة الحربية قد برز لهم في المياه الهندية(٢). وعاد بعد هذه المعركة حسين الكردي والمتحالفين معه إلى بندر الديو حيث أقام فيه شهوراً أثناء فصل المطر لإصلاح العطب الذي أصاب بعض سفنه من جراء قصف المدفعية البرتغالية. وأثناء ذلك وعندما سمع الزامورين بأخبار الانتصار أرسل إلى

---

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I, pp. 135 - 137.

(٢) - Painkkar, Op. Cit., p.37.

الكردي من كاليكوت أربعين غراباً صغيراً كمساعدة أخرى له ضد البرتغاليين(١).

وقد تملك دالميدا الغضب وشهوة الانتقام لمقتل ابنه على يد الأسطول المملوكي لدرجة أنه رفض تسليم منصبه كنائب للملك في الهند للقائد أفونسو دا البو كيرك الذي أطلعه على رسالة بهذا الخصوص من الملك أمانويل الأول ودعم هذا الكلام رسالة أخرى جاء بها أسطول برتغالي مكون من خمس عشرة إلى سبع عشرة سفينة حربية بعث بها الملك كدعم للأسطول البرتغالي في الهند بعد سماعه أنباء هزيمة الديو وخوفه من أن يتحول حلمه في البحار الشرقية إلى كابوس رهيب، رفض دالميدا تنفيذ الأمر الملكي بالعودة إلى لشبونة على ظهر أقرب سفينة تجارية برتغالية قادمة من الهند، إلاّ بعد الانتقام لمقتل ابنه لورانزو من الأسطول المصري(٢).

أعد دالميدا أسطوله البرتغالي وأضاف إليه بعض القطع التي قدمت من البرتغال فحصل بذلك على مدد جيد جعل تحت يده حوالي تسع عشرة سفينة حربية مجهزة بالمدفعية وأكثر من ألف ومائتي جندي، فخرج يريد الأسطول المصري واستولى في طريقه على «الديبل» وسلبها، ثم هاجم سلطنة «كجرات» من الساحل انتقاماً لمقتل ابنه ومساعدتهم للكردي(٣).

وعندما بلغ الأمير حسين نبأ وصولهم، خرج بسفنه دونما استعداد تام ومعه بعض سفن المليباريين ومالك بن أياز واشتبك أسطول دالميدا مع الأسطول الإسلامي المتحالف عند ميناء ديو في الثالث من فبراير عام ١٥٠٩م(٤)، ويذكر (Serjeant) أن المؤرخين البرتغاليين باروس

(١) زين الدين المليباري، مصدر سابق، ص ٢٥٣.
(٢) Sousa, Op. Cit., Vol. I,pp.135, 139, 140 -
(٣) Serjeant, Op. Cit., p.144. -
(٤) زين الدين المليباري، مصدر سابق، ص٢٥٣.

وكاستنهيدا اتفقا على أن الحاكم العام للهند دالميدا لم يهاجم ديو، بل قام باتصالات سرية مع حاكمها مالك أيان.

وعندما بدأ القتال بين المماليك والبرتغاليين لم تكن للمعركة نتيجة فورية حاسمة، ولم يستطع أي من الطرفين ادعاء النصر لنفسه. بيد أن الأسطول المملوكي أحبطته خيانة حاكم الديو، فقرر الانسحاب(١)، ولجأ حسين الكردي مع ما تبقى من أسطوله إلى سلطنة الكجرات، واعتبر المؤرخون ذلك هزيمة له، ومن هنا وصلت الأخبار إلى القاهرة في صفر عام ٩١٥هـ (مايو ١٥٠٩م) «بهزيمة الأسطول المصري في الهند وتعرضه «لكسرة فاحشة» وقتل العسكر المصري عن آخره»(٢).

بهزيمة الأسطول المصري ثم رحيله عن المياه الهندية بعد عام ١٥٠٩م، يمكن القول بأن البرتغاليين قد ثبتوا ادعاءهم بأنهم سادة الملاحة في البحار الشرقية، وصارت منذ ذلك الوقت تجارة المياه الهندية تحت رحمتهم مدة تربو على قرن ونصف القرن من الزمان(٣).

والسؤال الذي يفرض نفسه عقب هذه المعركة المصيرية في تاريخ الصراع الإسلامي - البرتغالي الأوروبي في بحار الشرق هو: ما هي أسباب انتصار الأسطول المملوكي في شيول ١٥٠٨م، وهزيمته السريعة في ديو ١٥٠٩م، في نفس المياه الهندية؟؟ وما يتفرع من هذا السؤال أيضاً، لماذا بقي أسطول حسين الكردي أكثر من سنة في المياه الهندية بعد انتصاره في المعركة الأولى ولم يبادر بمتابعة انتصاره بمعركة أخرى ضد البرتغاليين ويعمل على تصفية وجودهم الهزيل في الهند؟؟ بل أتاح بذلك لهم الاستعداد التام للانتقام من المصريين بعد أكثر من عام،

(١) - Panikkar, Op. Cit., p.37.
(٢) ابن إياس، مصدر سابق، جـ٤، ص١٥٦.
(٣) - Panikkar, Op. Cit., pp.37, 38.

بينما كان مجال الانسحاب على – سبيل المثال – أمام الأسطول مفتوحاً للعودة إلى عدن أو البحر الأحمر أو السويس؟ ثم كيف استطاع هذا الأسطول الصغير المكون من عشر سفن – كما جاء في بعض المصادر – الوقوف والثبات في وجه فرانسيسكو دالميدا عندما هاجمه بعد أكثر من سنة والخروج من المعركة لا غالب ولا مغلوب كما ذكر (Panikkar)، على الرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدها كل منهما والاستعدادات الجيدة التي اتخذها دالميدا قبل المعركة والإمدادات التي جاءته من البرتغال، أما الجانب الآخر المملوكي فلم يتلق بالمقابل أي مدد من القاهرة بل على العكس فإن اتصالاته بالقاهرة كانت مقطوعة قبيل المعركة(١).

والقضية الشائكة الأخرى في هذا السياق، هي موقف مالك أياز من حسين الكردي أثناء المعركة، فما الذي حدث أثناء فترة توقف القتال لمدة عام واستراحة الأسطول المملوكي في الديو بين حاكم الجزيرة والأمير حسين مما جعله ينقلب عليه بهذا الشكل ويقف مع البرتغاليين ويسلمهم الأسرى ويمدهم بالمؤنة؟؟ هل هو الخوف فعلاً من انتقام هؤلاء الصليبيين الجدد فيما لو رفض مساعدتهم كما يذكر (Serjeant)، ثم كيف علم مالك أياز بأن البرتغاليين سوف ينتصرون إذا ما بدأت المعركة وهل تمت المساعدة فعلاً قبل المعركة وأثناءها أم بعدها؟ فاعتمادنا على معلومة المحادثات السرية بين أياز ودالميدا تعود لمصادر برتغالية أساساً!! والأرجح أنه حدث خلاف بين الرجلين – أياز والكردي – وهذا ما يتضح عندما رفض الأمير حسين الاستماع لنصيحة حاكم الديو بالبقاء في الجزيرة لحماية ظهره أثناء نشوب القتال، فتولدت كما يبدو حالة عدم ثقة بين الرجلين، وكلاهما مملوك أصلاً، مع أن بعض المصادر الأوروبية تعزو خروج الأمير حسين لعرض البحر لمنازلة دالميدا، لغروره والاعتداد

(١) على التاجر، مرجع سابق، ص٥٧.

بقوته والاستهانة بقوة خصومه البرتغاليين، ثم ما هي قصة إرسال لشخص يدعى (سيد علي) للتفاوض مع دالميدا من قبل الأمير حسين، كما يذكر المؤرخ البرتغالي (Sousa?)(١) وما هي نتيجة تلك المفاوضات، ولماذا انسحب الأسطول المصري إلى الكجرات؟؟

كل تلك التساؤلات والنقاط الغامضة في هذا الحدث تحتاج إلى أجوبة دقيقة تعتمد بدورها على مصادر حقيقية لمعرفة سبب هزيمة الأسطول المصري بقيادة حسين الكردي وانسحابه إلى الكجرات وبقائه هناك مدة من الوقت حتى طلب منه سلطانها مغادرة السلطنة بطريقة دبلوماسية، حيث شحنوا له سفنه الثلاث التي بقيت من أسطوله بالتوابل والأقمشة وغيرها من البضائع لكي يستعمل ثمنها في تحصين ميناء جدة والدفاع عنه ضد البرتغاليين، ورافقته إلى الحجاز بعض السفن الكجراتية، ولعلها صحبته لتتأكد من مغادرته نهائياً(٢).

حملة الهند الثانية:

يبدو أن السلطان الغوري قد استلم رسالة من الأمير حسين، كما يذكر ابن إياس، في شعبان عام ٩١٤هـ. وربما كانت تلك هي الرسالة الوحيدة التي بعث بها الكردي من الهند إثر انتصاره الأول على الأسطول البرتغالي بعد معركة شيول عام ١٥٠٨م. وقد طلب حسين في رسالته عسكراً ثانياً حتى يتقوى به على من بقي من عسكر الفرنج كما طلب سفناً جديدة تعوضه عمّا فقده من سفن(٣). ومن هنا نجد السلطان وقد شرع في إعداد حملة جديدة في السويس سميت أيضاً بتجريده الهند، ويمكن أن نعتبرها الثانية حيث يحدثنا ابن إياس عنها قائلاً: «إنّ علاء الدين ناظر الخاص،

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,pp. 135, 146, 147.

(٢) علي التاجر، مرجع سابق، العدد ٧، (البحرين، ١٩٩٤) جـ٢، ص٧٥.

(٣) ابن إياس، مصدر سابق، جـ٤، ص١٤٢.

خرج في المحرم سنة ٩١٥هـ، وتوجه إلى نحو الطور لأجل عمارة المراكب التي أنشأها السلطان هناك بسبب تجريدة الهند»(١). والتاريخ المذكور هنا سابق على تاريخ وصول الأنباء بانكسار الأسطول المصري في الهند (٢٦ صفر ٩١٥هـ) بما يقرب من شهر ونصف الشهر، أي أن اهتمام الغوري بإنشاء أسطوله الجديد في السويس لم يأتِ نتيجة لانسحاب الأسطول المصري من المياه الهندية.

وقد أخذ الغوري يواصل إنشاء أسطوله لحملة الهند الثانية رغم عودة حسين الكردي مهزوماً من المياه الهندية، وذلك لازدياد هواجس السلطان من الأنباء التي وصلت لمسامعه القائلة بأن البرتغاليين عازمون على الاستيلاء على الحجاز وتدمير الأماكن الإسلامية المقدسة فيه. وكان مما أكد له هذه الهواجس، بالإضافة للحروب الكلامية التي بدأتها حكومة لشبونة آنذاك، أن الشريف بركات أمير مكة أرسل للغوري في شهر جمادى الأولى ٩١٦هـ (أغسطس – سبتمبر ١٥١٠م) رسالة يذكر فيها أنه قبض على ثلاثة أشخاص تسللوا إلى داخل مكة متظاهرين بأنهم مسلمون، فارتاب فيهم رغم زيهم التركي، وعندما كشف عن ملابسهم وجدهم بغير ختان!! وبذلك تأكد له بأنهم غير مسلمين ومن النصارى «وأنهم دواسيس (جواسيس) من عند بعض ملوك الفرنج فقبض عليهم ووضعهم في الحديد وبعث بهم إلى السلطان الغوري»(٢).

ولم ييأس السلطان الغوري وسط الظروف الصعبة التي كانت تعيشها دولة المماليك آنذاك. فرغم الأزمات الحادة والخانقة التي تحيط به والتي لا حصر لها فقد قام بتوفير الأموال من جديد من أجل بناء أسطول الحملة الثانية للهند، وقد تكبد الشعب المصري الأمرين حتى تم تجهيز الحملة

---

(١) المصدر نفسه، ص١٥١.

(٢) ابن إياس، مصدر سابق، جـ٤، ص١٩١.

حيث دفع أموال الضرائب بشكل متزايد ولم يبخل على جيش المماليك الذي أُعِد للذهاب مع الحملة الثانية. وقد استغل الغوري أيضاً حالة الوئام التي كانت تعيشها الدولتان العثمانية والمملوكية في تلك الفترة من حكمه، فأرسل يطلب العون من جارته المسلمة الكبرى، بعد اعتذار شريكته في التجارة – البندقية – منعاً للإحراج الذي كانت تشعر به أمام حكومات أوروبا وشعوبها النصرانية حين تقدم مساعداتها للمسلمين(١).

إلاّ أن الحملة المملوكية للهند تأخر خروجها حتى عام ٩٢١هـ لأسباب عديدة مرت بها القاهرة في تلك الأثناء منها قلة الموارد الاقتصادية للدولة مع ازدياد الحصار البرتغالي لطرق التجارة الشرقية التي كانت تصب في خزينة الدولة المملوكية، ولانشغال الغوري نفسه في إخماد حركات العصيان بين صفوف جنوده في القاهرة، حيث قام المماليك الأجلاب بنهب بيوت الأمراء وأسواق القاهرة وإحراق البيوت(٢).

ويبدو أن أخبار هذه الاستعدادات المصرية وصلت إلى نائب الملك في الهند آنذاك أفونسودي البوكيرك عام ١٥١٢م، فأخذ يعد العدة لتوجيه حملة إلى البحر الأحمر. وهذا ما كتبه إلى سيده أمانويل الأول بتاريخ ١ إبريل ١٥١٢م «إن أعظم ما يتهدد جوا من الكوارث هي الأنباء الملحة المتواصلة عن مجيء الروم (المصريين)، إنها مصدر خطر عظيم على الهند، وتسبب للمواطنين والنصارى على السواء كثيراً من القلق وعدم الاستقرار، وما لم نذهب إلى البحر الأحمر ونثبت لهؤلاء الناس، أنه لا

---

(١) عبد العزيز الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي، مرجع سابق، ص٦٥٠، ويذكر أن ملك البرتغال قد أرسل عام ١٥٠٩م إلى دوق البندقية احتجاجاً شديد اللهجة وتهديداً بالقضاء على جمهورية البندقية إذا استمرت في تقديم مساعدات عسكرية للمماليك، كما فعل ملك فرنسا عام ١٥٠١م نفس الشيء.

(٢) ابن إياس، مصدر سابق، جـ٤، ص٣٦٩، وقد كان وجه الخطورة في تلك الأحداث أن المماليك الجلبان هؤلاء لم يقدروا الخطر الذي كان قادما في الطريق إليهم من البحار الشرقية على يد البرتغاليين، ثم بعد ذلك على يد الدولة العثمانية.

يوجد من المخلوقات ما يسمى بالروم فلن يشعر رعاياكم بالسلام في هذه الأطراف»(١).

ولم ينتظر البوكيرك بعد هذه الرسالة طويلاً، فقد انطلق عام ٩١٩هـ (١٥١٣م) على رأس حملة بحرية كبيرة ليستولي على عدن ويغلق مدخل البحر الأحمر في وجه التجارة المملوكية ويوقف الحملة المزمع ارسالها إلى الهند من السويس.

وعندما علم الغوري بوصول البوكيرك إلى البحر الأحمر رغم هزيمته أمام أسوار مدينة عدن، أرسل على الفور قائده البحري حسين الكردي ومعه جماعة من الجند ليتوجه إلى جدة ويستقر في نيابتها على عادته وعين أميراً آخر ليسافر أيضاً معه تكون مهمته كشف أخبار الفرنج وحماية الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأمره بالبقاء هناك إلى أن يتم تجهيز «حملة الهند» بكاملها، ذلك على الرغم من أن أوضاع القاهرة كانت تسير من سيىء إلى أسوأ(٢).

ويبدو أن البوكيرك قد وصلته أنباء توجه الكردي والجنود على عجل إلى جدة أثناء تواجده في البحر الأحمر فتجنب القائد البرتغالي الاصطدام بالمماليك وقفل راجعاً إلى عدن مرة أخرى ثم إلى الهند.

وحين انتهى الغوري من إعداد الحملة التي تكونت من عشرين سفينة من نوع الغراب، زودها بالمدافع التي حصل عليها من العثمانيين وغيرها من الأسلحة، وكان قد أشرف على بناء هذا الأسطول، كما يذكر ابن إياس، الريس (سلمان العثماني) وقيل أن نفقة البناء بلغت أكثر من أربعمائة ألف دينار، أبحر الأسطول في محرم ٩٢١هـ(٣) (فبراير ١٥١٥م)،

(١) - Danvaers, Op. Cit., Vol. 1 p.241.
(٢) ابن رياس، مصدر سابق، جـ٤، ص ص ٣٠٧ – ٣٠٩.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، حوادث صفر ٩٢٠هـ، ص ص ٣٦٥ – ٣٦٦.

في نفس الوقت الذي كان فيه السلطان الغوري يستعد للخروج إلى الشام لمواجهة الزحف العثماني على الحدود الشمالية للدولة المملوكية في عهد السلطان سليم الأول العثماني.

ويعتقد الدكتور مصطفى سالم في كتابه الفتح العثماني الأول لليمن، أن الغوري ربما فكر بعد نجاح البوكيرك – كأول قائد برتغالي – في دخول البحر الأحمر، أنه من الضروري الاستيلاء على ميناء عدن الاستراتيجي وإغلاق البحر الأحمر في وجه البرتغاليين حتى لا يقتربوا من جدة والأماكن المقدسة والسويس، وهذا كان أحد أهداف حملة الهند الثانية كما يبدو. ولعل في هذا الأمر ما يفسِّر تغير موقف السلطان اليمني (عامر بن عبد الوهاب الطاهري) من الحملة المصرية خصوصاً وأنه قد سبق وأن وعد في رسائل بعث بها إلى الغوري بتقديم المساعدة اللازمة للحملات التي تجهزها القاهرة لحرب الأفرنج عند مرورها بالموانيء اليمنية(١). ولكن عندما وصلت «تجريدة الهند الثانية» بقيادة الكردي إلى جزيرة كمران وشرعت في بناء حصن بها في شهر ذي القعدة ٩٢١هـ (١٥١٥م) رأى السلطان عامر بن عبد الوهاب أن المماليك قد أرسلوا حملتهم تلك في هذه المرة للبقاء في السواحل اليمنية بحجة حمايتها من البرتغاليين وثم احتلالها، فلم يجد السلطان عامر من وسيلة لإبعاد هذه الحملة عن سواحله سوى رفض مساعدتها بالمؤنة والطعام والماء(٢)، مما أثار غضب الأمير حسين الكردي ورجاله. فكانت تلك هي الشرارة التي أشعلت حرب اليمن بين المماليك والدولة الطاهرية، وهذا ما سوف نتعرض له بالتفصيل لاحقاً.

(١) سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، (القاهرة، ١٩٩٢)، ص ص ٩٧، ٩٨.
(٢) ابن الديبع، مصدر سابق، ص٢٧٨.

ويلاحظ أنه رغم وجود قيادة مشتركة عثمانية مملوكية ومشاركة الدولتين فعلياً في تجهيز حملة الهند الثانية عام ١٥١٥، إلاّ أن هذه الحملة لم تطلق قذيفة واحدة في وجه البرتغاليين ولم تغادر البحر الأحمر. ومع ذلك ظل الشعور بالخطر المصري المملوكي جاثماً على صدور البرتغاليين في المحيط الهندي يقضّ مضاجعهم ولم يتنفسوا الصعداء إلاّ عندما تطوع السلطان المسلم سليم الأول بالقضاء على الدولة المملوكية في موقعة مرج دابق ١٥١٦هـ ثم الريدانية ١٥١٧م. وتوقفت بذلك النصر العثماني المحاولات الإسلامية الأولى لطرد البرتغاليين من البحار الشرقية.

الصراع بين الدول الإسلامية الكبرى على زعامة العالم الإسلامي عند مجيء الغزو البرتغالي وأثره على الأوضاع السياسية في المنطقة

نكبت المنطقة العربية الإسلامية في شرق العالم الإسلامي في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي بموجة من الصراعات والخلافات الجانبية في نفس فترة ظهور الغزو البرتغالي للمنطقة. وقد كان الحماس الديني الصليبي وهو الدافع لذلك الغزو الذي حملته سفن حديثة سريعة وقلوب تهفو للوصول إلى موطن التوابل والتجارة العالمية تدفعها أشرعة الرأسمالية الأوروبية والملكية الخاصة الصاعدة والباحثة عن موطيء قدم لإدارة دفة الاقتصاد العالمي لصالحها. فهل كان الأمر مجرد مصادفة؟ والتاريخ لا تحكمه المصادفات بهذا القدر من الكثافة والتتابع. فعند مجيء الغزو البرتغالي بعنفوانه ووحشيته إلى الشرق، انفجرت بقوة ووحشية أيضاً الحروب الإسلامية في المنطقة، ولكن تلك الحروب لم تكن ضد العدو البرتغالي، بل بين الدول

الإسلامية الكبرى، فاحتدم الصراع دموياً بين العثمانيين والصفويين حتى انتهى بموقعة جالديران ١٥١٤م وهزيمة الصفويين. ثم تتابعت الحوادث بشكل دراماتيكي بين العثمانيين والمماليك، لتدور الدائرة على المماليك هذه المرة، ولتسقط دولتهم تحت سنابك خيل ومدفعية الأتراك العثمانيين المسلمين بين عامي ١٥١٦ – ١٥١٧، وهي نفس سنوات قوة الغزو البرتغالي وحملاته المتعددة ضد الخليج العربي والبحر الأحمر. ثم إذا أضفنا إلى هذه الصراعات الكبرى، تلك الحروب الإقليمية الصغيرة بين الطاهريين والزيديين في اليمن، ثم بين الطاهريين والمماليك مما أدى لسقوط الدولة الطاهرية مع سقوط المملوكية، وكذلك الصراعات والخلافات المستمرة بين الإمامة الأباضية والنبهانيين في عُمان، والصراع الاقتصادي العسكري بين مملكة هرمز وإمارة الجبور الطموحين لمد نفوذهم في الخليج وشرق الجزيرة العربية، لأوجعتنا الحقيقة الماثلة أمامنا في صفحات التاريخ. وكأن التدمير جاء من الداخل قبل أن يفد من الخارج بشكل متوافق ومتجانس في ضربة واحدة وجهت للكيان العربي الإسلامي في هذه المنطقة الحيوية والمتوسطة من العالم آنذاك. ومن سخريات القدر كما يُقال، أنه كلما أوغل العدو البرتغالي تقدماً في الأراضي الإسلامية في البحار الشرقية، كلما ازداد الصراع بين الدول الإسلامية في مشرق العالم الإسلامي عمقاً ودموية .

الصراع العثماني الصفوي:

بعد أن بزغ نجم الصفويين في إيران بدأ الصراع المذهبي – السياسي بين الدولتين العثمانية والصفوية ، وتحول تدريجياً من صراع أفكار وعقائد إلى صراع دموي مدمر على الأرض في عهد السلطان العثماني سليم الأول العثماني. وبتتبع كتب ودراسات المؤرخين الأتراك والصفويين نجد أن كل طائفة منهما تلقى اللوم على الطرف الآخر في افتعاله الفتنة

وقيام الحرب بين الدولتين الإسلاميتين. ولكن يمكن التأكيد على حقيقة مهمة في العلاقات الصفوية العثمانية إبّان حكم بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢م) وهي أنه لم يسمح للجيش العثماني، برغم قوته، بالهجوم على الصفويين في إيران باعتبار أنهم يشكلون دولة إسلامية أساساً. وفي نفس الوقت فقد كان بايزيد يحاول كسب ود الصفويين عن طريق الحوار والهدايا للشعراء والمثقفين الإيرانيين، وبالفعل كاد أن يقوم تعاون بين الجانبين الصفوي والعثماني في مستهل القرن السادس عشر (١٥٠٤م) لولا تدهور الأحوال سريعاً بعد ذلك(١).

ويمكننا تلخيص الأسباب التي أدت للنزاع الصفوي - العثماني وتحوله إلى حروب عنيفة على الأرض بالنقاط التالية:

١ - الصراع المذهبي في الأفكار والمعتقدات.

٢ - خوف الدولة العثمانية من التقارب الصفوي المملوكي على وجودها كدولة إسلامية كبرى ترغب في زعامة العالم الإسلامي.

٣ - سعي الصفويين للتحالف مع القوى الأوروبية ضد الدولة العثمانية.

٤ - النزاعات الحدودية الدائمة بين الدولتين بسبب تداخل الحدود والقبائل التركمانية بين الجانبين وتنقل ولائها بحسب مصالحها.

ولا شك أن المخاوف التي سادت العثمانيين من انتشار المذهب الشيعي الذي تعتنقه الدولة الصفوية الناشئة، كانت في محلها، خصوصاً - على الأقل - بالنسبة لزعزعة حكم الدولة العثمانية وسيطرتها على شرق الأناضول، ولا سيما أن السلاطين العثمانيين كانوا يعانون الأمرّين من أولئك البدو الأتراك القاطنين في شرق آسيا الصغرى الذين كانوا يتميزون

---

(١) بديع جمعة وأحمد الخولي، تاريخ الصفويين وحضارتهم، (القاهرة، ١٩٧٦) الجزء الأول ص٥٩، ص٥٩؛ محمد سمناني، مرجع سابق، ص ص ١٨٩، ١٩٣.

بعدم النظام والفوضوية وبعدوانهم المتكرر على الأراضي الزراعية والفلاحين في تلك المناطق المتاخمة لأملاك الصفويين. ومما زاد ذلك التخوف لدى حكام الدولة العثمانية، أن تستطيع الدعوة الشيعية التغلغل بين جموع أولئك البدو الفقراء، وبالتالي تحولهم إلى أداة عسكرية في يد الصفويين ضد آل عثمان؛ أضف إلى ذلك أن المذهب الشيعي قد انتشر أساساً منذ عهد بايزيد الثاني في جبال طوروس(١). بل أن المذهب الشيعي قد هدد الأسرة العثمانية نفسها. فقد وقع تحت تأثير الدعاية لهذا المذهب في أرجاء الدولة العثمانية، الأميران (شاهنشاه ومراد) ابنا الأمير محمد، شقيق السلطان سليم الأول نفسه، والمقرب لوالده بايزيد الثاني، وكان هذا معناه تهديد الدولة من الداخل فضلاً عن التهديد الخارجي لها(٢).

إلاّ أنّ الشرارة التي أشعلت الفتيل الخامد بين الصفويين والعثمانيين انطلقت في نهاية حكم بايزيد الثاني، إثر حركة تمرد ثورية شعبية قام بها بدو الأتراك الذين تخوف منهم العثمانيون في شرق الأناضول. وكانت تلك الحركة ذات مضمون وتوجه شيعي فيما يبدو. فقد اكتشف العثمانيون أن وراء تلك الثورة أيدي خفية تحركها تمت بصلة إلى الشاه إسماعيل الصفوي، كما يذكر ذلك معظم المؤرخين الأتراك. ومما أكد صلة الثورة بالصفويين، أن قائدها ويدعى «حسن أوغلو» لقّب نفسه أثناء حركة التمرد تلك، بلقب «شاه قولي» ومعناه (عبد الشاه) وأعلن أنه من مريدي الشاه إسماعيل الصفوي ومن أتباعه.

واجهت الدولة العثمانية وبالذات فرق الانكشارية في الجيش العثماني المؤيدة لسليم الأول هذه الثورة، وبعد معارك طاحنة مع أتباعها وخسارة

---

(١) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، (القاهرة، ١٩٨٧)، ص٣٥٨.

(٢) أحمد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته، (القاهرة، ١٩٩٥)، ص٢٥٦.

كبيرة لكلا الطرفين استطاع الجيش العثماني أن يهزم الثورة [redacted] شاه قولي وأصحابه خارج الأناضول تماماً حتى وصلوا إلى [redacted]ل الاراضي الإيرانية.

وعندما استلم السلطان سليم الأول العرش في استامبول وأبعده والده عن الحكم في انقلاب عائلي عام ١٥١١م، بدأ يعد العدة لمهاجمة الدولة الصفوية حتى لا تظل تسبب القلاقل لملكه، خصوصاً وأنّ الشاه إسماعيل الصفوي كان قد احتضن أحد أخوة سليم وهو (مراد) بعد أن فر من وجه أخيه الذي دبّر مذبحة كبيرة لإخوته وأولادهم من أجل الحفاظ على عرشه وفقاً «لقانوننامه آل عثمان»(١)، وعندما طالب سليم الشاه بإرجاع أخيه (مراد) رفض الأخير تسليمه إليه.

وبعد أن تتبع السلطان الشيعة في الدولة العثمانية و في الأناضول بالذات، وأخذ يعمل على إزاحتهم قتلاً ونفياً وتهجيراً، أصدر فتوى من قبل شيخ الإسلام في استامبول تقول بأن الشيعة خارجون عن الدين الإسلامي، ولذا فإن من الضرورة محاربتهم أينما كانوا، وأن الصفويين من أعداء الأمة الإسلامية(٢).

وفي أغسطس من عام ١٥١٤م، وقعت المعركة العسكرية الفاصلة والحاسمة بين العثمانيين والصفويين في جالديران أو (شالديران)، وبسبب تطور التقنية العسكرية في العدد والجنود لدى العثمانيين فقد انهزم الصفويون شر هزيمة واندحروا، وكاد الشاه أن يُقتل في

---

(١) أحمد متولي، الفتح العثماني، مرجع سابق، ص٤٨، ٤٩، للمزيد حول هذا القانون كذلك أُنظر: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي (بيروت، ١٩٧٩) ص٤٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص٤٤٦؛ محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، (القاهرة، ١٩٩٤)، ص٢٣.

المعركة(١). ودخل السلطان سليم الأول عاصمة الصفويين تبريز واحتلها في سبتمبر ١٥١٤م(٢).

وقد ترتب على هزيمة الصفويين في جالديران، أن هبطت الدولة الصفوية من دولة من الدرجة الأولى في المشرق الإسلامي إلى دولة من الدرجة الثانية، فأخذت تسعى جاهدة بكل الطرق للثأر من العثمانيين والكيد لهم(٣)، وذلك بالتحالف مع القوى الأوروبية المناهضة للمسلمين في مطلع القرن السادس عشر في عصر الكشوف الجغرافية. وقد رحبت تلك القوى الصليبية بدورها بهذا التعاون والتحالف بخاصة البرتغاليون الذين سارعوا لعقد الاتفاقيات مع الشاه إسماعيل الصفوي مباشرة بعد جالديران – كما سيأتي ذكره – في اتفاق أفونسود البوكيرك والشاه في الخليج العربي بعد سقوط هرمز عام ١٥١٥م.

الصراع العثماني – المملوكي:

كان الصراع العثماني الصفوي هو المسئول عن تولي سليم الأول عرش السلطنة العثمانية عام ١٥١٢م. ويبدو أيضاً وكأن هذا الصراع هو الذي جعل سليم الأول يقرر الاستيلاء على أراضي الدولة المملوكية، وذلك لأسباب استراتيجية وضحت أثناء حرب سليم ضد الشاه إسماعيل ومن وجود أملاك الدولة المملوكية المصرية بين الصفويين والعثمانيين. فلو كانت موانىء قليقيا تحت سيطرته أثناء تلك الحرب لوفرت له طريقاً بحرياً يمكنه من تموين حملته ضد الصفويين بشكل متتابع وبصورة

---

(١) محمد سمناني، مرجع سابق، ص٢١٢، ويُقال بأن الشاه إسماعيل أصيب بإحباط بعد معركة جالديران، ذلك أنه لم يشاهد يضحك حتى وفاته عام ٩٣٠هـ.

(٢) علي غنام، «أحداث فاصلة في إحلال النفوذ الأجنبي بالخليج العربي»، مجلة الخليج العربي، العدد ٢، المجلد ١٧، (جامعة البصرة، ١٩٨٥)، ص١٣؛ بديع جمعة وأحمد الخولي، مرجع سابق، ص٨٢.

(٣) عبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص٥٢.

أجدى مما كان عليه الوضع أثناء موقعة جالديران واضطراره للانسحاب بعدها إلى الأناضول وعدم مقدرته على اكتساح إيران كلها. ولربما كان هذا هو السبب الذي جعل السلطان سليم يخطط للاستيلاء على أراضي الدولة المملوكية كي يستطيع السيطرة على أملاك الدولة الصفوية في الحرب التالية حيث يتحتم عليه أن يعد الأرض التي ستوصله لهدفه ذاك ويزيح من أمامه كل عقبة يمكن أن تقف في طريقه، وخاصة بعد أن تأكد سليم من وجود تعاون بين المماليك والصفويين(١).

وكما كان لجوء أخوة السلطان العثماني – هرباً من القتل – إلى الدولة الصفوية في إيران سبباً من أسباب الحرب الصفوية العثمانية، كذلك فإن لجوء المطالبين بالعرش العثماني من أخوة السلطان محمد الفاتح العثماني والسلطان سليم الأول في فترات مختلفة إلى مصر كانت من أسباب الصراع المملوكي العثماني، بالإضافة للمنافسة الشديدة على الإمارات الحدودية المجاورة لكلا الدولتين كإمارتي [ذو القادر(٢)، وقرامان]. وتكررت اعتداءات الحدود بين كر وفر خلال أعوام ٨٨٩هـ (١٤٨٣م) و٨٩٠هـ (١٤٨٥م) حتى تم توقيع إتفاق صلح بين الدولتين العثمانية والمملوكية عام ٨٩٦هـ (١٤٩١م) في عهد السلطان قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد العثماني. ولكن العلاقات المملوكية العثمانية سرعان ما تدهورت وبشكل سريع عندما تولى الحكم السلطان سليم الأول،

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، العرب في ظل الرابطة العثمانية، في كتاب محمد صفي الدين أبو العز (مشرفاً)، مرجع سابق، الجزء الأول، ص١١٦.

(٢) ذو القادر: هي إحدى الدول التركمانية التي تأسست على أنقاض دول التتار وضمت أكثر أراضي أرمينية وكردستان وديار بكر وخضعت للمصريين أخيراً، فصار لا يتولى الأمر فيها سلطان إلا بإذن حكام المماليك في مصر، وقد لجأ أحد أمرائها إلى العثمانيين مستنصراً فنصروه وولوه الإمارة وأمدوه بما انتصر به على ولاة مصر، فكان ذلك سبباً في النزاع بين الدولتين المملوكية والعثمانية، أنظر أحمد متولي، مرجع سابق، ص٣٣؛ عمر الإسكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، (القاهرة، ١٩٩٠) ص١..

وقد كان ميالاً لسفك الدماء – كما يذكر محمد فريد بك – فبدأ عهده بقتل جميع أخوته وأولادهم الذكور حتى لا ينافسوه في الحكم، ومنهم الأمير أحمد، وقتل بعد ذلك سبعة من وزرائه لأسباب واهية، كقتله وزيره الصدر الأعظم (يونس باشا) الذي كان فتح مصر على يديه(١).

وقد تجمعت عدة نذر في سماء العلاقات بين سليم الأول وقانصوه الغوري عكرت صفو الأجواء السياسية بينهما وأدت أخيراً لنشوب الحرب، ومن تلك النذر:

- إجارة السلطان قانصوه الغوري للأمير قاسم، ابن الأمير أحمد الذي قتله سليم حفاظاً على عرشه، كما أجار الشاه في الوقت نفسه الأخ الثاني لقاسم وهو الأمير مراد. وقد حاول السلطان سليم قتل أخويه فلم يفلح بسبب هروبهما(٢)، وعندما طالب سليم المماليك تسليم قاسم رفض الغوري ذلك، فأضمر سليم شراً للغوري واتهمه بجعل القاهرة مأوى للعصاة والفارين من وجه الدولة العثمانية.
- تواتر المراسلات المملوكية والتودد للشاه إسماعيل الصفوي عدو العثمانيين الأول، رغم أن الأمر لم يزد عن تبادل تلك المراسلات والوعد بالتحالف سوياً في حالة الخطر. ومع أن الشاه حاول جعلها محالفة دفاع وهجوم بين البلدين ولكن الأمر لم يتم لبُعد ما بين الدولتين المملوكية والصفوية من آراء واعتقاد في المذهب. وزاد الأمر سوءاً عندما سمح الغوري للوفد الذي أرسله الشاه إسماعيل إلى جمهورية البندقية أن يمر عبر أراضيه عن طريق الشام. والمعروف أن هدف هذا الوفد كان عرض التعاون مع البندقية – المتضررة تجاريا من وجود العثمانيين في المتوسط – بهدف الوقوف معه ضد هذه

(١) محمد فريد بك، مصدر سابق، ص٧٨.

(٢) سعيد عاشور، العصر المملوكي، مرجع سابق، ص١٩٤.

الدولة وحربها(١).

- خوف السلطان سليم – القلق على عرشه – من أن يتحول التحالف الهش بين المماليك والصفويين إلى حلف سياسي وعسكري ضد الدولة العثمانية وضده شخصياً. ومن هنا بدأ السلطان بإعلان الحرب على الشاه إسماعيل أولاً ثم تفرغ للمماليك بعد ذلك .

وفي صباح يوم ٢٥ رجب ٩٢٢هـ (أغسطس ١٥١٦م) دارت المعركة الفاصلة بين المماليك والعثمانيين أو بين السلطانين الغوري وسليم الأول في موقعة (مرج دابق)، وكانت تلك هي المرة الثانية التي يحدد فيها السلطان العثماني مكان وزمان المعركة الفاصلة في حياة الدولتين الإسلاميتين المنافستين له في المشرق الإسلامي.

انتهت معركة مرج دابق لصالح العثمانيين، بسبب تفوقهم الحربي وكذلك بسبب الخيانة التي وقعت في جيش المماليك المفكك المنهار، بالإضافة لمقتل السلطان قانصوه الغوري في المعركة وتخاذل بقية الجيش المملوكي المهزوم(٢). ثم زحف السلطان سليم على مصر بتشجيع من أمراء المماليك الذين خانوا الغوري ووقفوا مع العثمانيين، وبعد عدة معارك مع نائب الغوري (طومانباي) في مصر، سقطت الدولة المملوكية نهائياً بعد موقعة الريدانية عام ١٥١٧م.

والملفت للنظر والملاحظ هنا في سقوط الدولة المملوكية في أيدي العثمانيين، أن السلطان سليم الأول وجه ضربته للمماليك منتهزاً فرصة الأزمة المالية والاقتصاد الضعيف الذي بدأت تعاني منه الدولة المملوكية منذ الغزو البرتغالي للشرق وتحول طرق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح، مما أثر على إعداد الجيوش المملوكية للقتال في ميدانيين كبيرين في

(١) عمر الإسكندري وسليم حسن، مرجع سابق، ص٣٧.
(٢) ابن إياس، مصدر سابق، جـ ٥، ص٧٠.

نفس الوقت، ونعني بهما ميدان مواجهة الغزو البرتغالي المتلاحق للبحار الشرقية ومحاولة الحفاظ على طريق البحر الأحمر التجاري بعيداً عن أيدي الأساطيل البرتغالية، وحماية الأماكن المقدسة على ساحله الشرقي. ويتمثل الميدان الثاني في محاولة صد أي غزو عثماني لأملاك الدولة المملوكية في الشام. والجدير بالذكر أن السلطان الغوري في نفس العام الذي خرج فيه لمواجهة العثمانيين في الشام (١٥١٦م) كان قد أرسل قبل ذلك الحملة البحرية الثانية إلى الهند بقيادة حسين الكردي وسليمان الريس.

رأى السلطان سليم الأول الأرض مهيأة له والفرصة مناسبة لهزيمة المماليك المشغولين بالصراع في ميدان الغزو البرتغالي، فعاجل هؤلاء بضربة عسكرية حاسمة عام ١٥١٦م – ١٥١٧م، أدت لسقوط المماليك وتوقف المجهود الحربي الكبير والوحيد آنذاك لطرد البرتغاليين من البحار الشرقية وجنوب الوطن العربي. ولذا يقفز السؤال الحائر أمام هذه المسألة، لماذا اتجه السلطان سليم ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية لقتال المسلمين في دولة إسلامية سنية كبرى كدولة المماليك والتي كانت قد بدأت جهود عظيمة لمواجهة البرتغاليين في البحار الشرقية(١)؟؟، فقد كان من المفترض أن يضم جهوده لجهود المماليك لتحقيق الهدف الإسلامي بطرد الغزاة والحفاظ على التجارة الشرقية وطرقها لتكون في أيدي القوى الإسلامية، لا أن يحدث عكس ذلك تماماً، بشكل تم فيه تغليب المصلحة العثمانية الآنية على المصلحة الإسلامية العامة والمستقبلية.

ويقفز السؤال الثاني ملحاً، فبعد أن استولت الدولة العثمانية على مصر والشام والحجاز وأسقطت الدولة المملوكية نهائياً، ترى ماذا فعلت هذه

---

(١) أحمد متولي، مرجع سابق، ص٢٥٨.

الدولة العثمانية تجاه الغزو البرتغالي المتدفق على المناطق الإسلامية في شرق العالم الإسلامي الذي أخذ يستولي على كافة الموارد الاقتصادية لهذه المناطق وبالذات فيما يتعلق بطريقي الخليج العربي والبحر الأحمر التجاريين؟؟

أولاً: يجب ذكر نقطة مهمة هنا، وهي أنه ليس صحيحاً ما يذهب إليه بعض الباحثين بقولهم إنّ العثمانيين فتحوا الشام ومصر ويسطوا سيادتهم على الحجاز ليقوموا بدور حماة المنطقة الاسلامية من الخطر البرتغالي. لم يزد ما فعله سليم الأول في هذا الصدد أثناء إقامته في مصر التي امتدت لثمانية أشهر تقريباً، عن عقد معاهدة في محرم ٩٢٣هـ (فبراير ١٥١٧م) بينه وبين جمهورية البندقية – المتدهورة آنذاك – لتشجيع رعاياها على القدوم إلى الإسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجاري المعهود زمن المماليك في جو من الطمأنينة والأمن(١). أما الإجراءات الأخرى التي اتخذها سليم أثناء وجوده في مصر فهي لا تخدم هدف حماية المنطقة الإسلامية العربية من الخطر البرتغالي بأي شكل من الأشكال ومنها:

- عودة كل قطع الأسطول العثماني، والتي يذكر – أحمد متولي من الوثائق العمثانية – أنه كان يضم (٣١٠) قطعة بحرية مختلفة(٢)، من ميناء الإسكندرية بعد أن قضى بها ٥٧ يوماً. عاد هذا الأسطول إلى استانبول في يوليو ١٥١٧م وعليه بعض العساكر ممن قدموا للاشتراك في فتح مصر والشام. لم يعمل السلطان على إرسال هذا الأسطول ضد البرتغاليين كما أنه قام وفوق هذا بالاستيلاء علي كل المراكب

---

(١) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جـ٢، مرجع سابق، ص٧٠٠، وللمزيد أنظر: من ص٧٠١ – ٧٠٦.

(٢) أحمد متولي، مرجع سابق، ص٢٢٤.

المملوكية التي وجدها في ميناء الإسكندرية وسواحلها وأرسلها إلى اسطنبول(١).

- أصدر سليم الأول أمره وهو في مصر بإرسال سليمان الريس – قائد الأسطول المملوكي الثاني في البحر الأحمر والذي كان متوجه أساساً إلى الهند لحرب البرتغاليين – إلى استانبول للاستفادة منه ومن خبرته ومهارته الحربية بحجة مشاركته في مشروع إنشاء ترسانات بحرية على غرار الترسانات البيزنطية التي دُمرت أثناء الفتح العثماني للقسطنطينية(٢).
- قام السلطان سليم الأول بقطع طريق التجارة القادم من بلاد فارس إلى الشام ومصر واستولى على أموال التجار وقبض على تجار الحرير المصريين والشاميين ونفاهم إلى استانبول حيث زج بهم في السجن(٣)، إلاّ أن ابنه سليمان القانوني أعاد بعدئذ هؤلاء إلى ديارهم وأرجع إليهم أموالهم بعد أن تولى العرش إثر وفاة والده(٤).
- لم يحرك سليم الأول ساكناً تجاه الدولة الصفوية إثر تحالفها المعلن مع البرتغاليين عبر اتفاق البو كيرك والشاه إسماعيل عام ١٥١٥م، ولم يتحرك ضده كما تحرك في عام ١٥١٤م لوقف امتداد المذهب الشيعي لشرق الأناضول. وهنا تختلط الأمور وتبدو مشوشة نوعاً ما في مدى فهم السلطان سليم للخطر الصفوي عما إذا كان خطراً مذهبياً أو سياسياً عسكرياً، لتحالف الصفويين مع القوى الأجنبية وبالذات الصليبية منها ضد الدولة الإسلامية.

---

(١) أحمد متولي، «البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) على ضوء الوثائق التركية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد ٤، (الرياض، ١٩٨٠م)، ص٣٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٣٨٤، ٣٨٥.

(٣) أحمد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر، مرجع سابق، ص٢٣١.

(٤) ابن إياس، مصدر سابق، جـ٥، ص ص ٣٨١ – ٣٩٥.

■ معاقبة الدولة العثمانية وتأنيب كل من يقوم بأي حركة لمقاومة الغزو البرتغالي للسواحل والبلاد العربية الإسلامية في المنطقة التي تسيطر عليها دون مشورتها أولاً. وهذا ما يذكره ابن إياس – ويعتقد بجزء كبير في صحته – في حوادث شهر رمضان لعام ٩٢٥هـ (١٥١٩م) وقبل وفاة سليم الأول بعام واحد فقط، خير دليل على ذلك حيث يقول ابن اياس «أشيع بين الناس أن قاسم الشرواني الذي استقر في نيابة جدة، جمع المال الذي تحصل منه في جده فوضع يده عليه، وأخذ المكاحل التي كانت هناك والسلاح ونزل في مراكب وتوجه إلى بلاد هرمز. فتكدر ملك الأمراء في القاهرة – المعين من قبل السلطان سليم – لهذه الأخبار الردية»(١).

ثم يعود ابن إياس ليؤكد هذا الخبر فينقله من نطاق الإشاعة إلى خانة الخبر الموثق باليقين فيقول في حوادث شهر ذي الحجة لعام ٩٢٥هـ (نوفمبر وديسمبر ١٥١٩م) أنه في هذا الشهر «حضر قاسم الشرواني الذي كان نائب جده وجرى منه ما تقدم ذكره، فأرسل ملك الأمراء بإحضاره وهو في الحديد، فأحضره الشريف بركات أمير مكة من البحر المالح، فلما حضر سجنه في العرقانة (مكان مخصص لاعتقال كبار الشخصيات في الدولة) التي هي داخل الحوش السلطاني إلى أن يكون من أمره ما يكون»(٢). وهذا الموقف السلبي من الوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية – كما يذكر الشناوي – للسلطات العثمانية في القاهرة جاء مؤيداً ومسايراً لموقف استانبول في عهد سليم الأول(٣).

وفي الحقيقة فإن أهم ما قام به الأتراك العثمانيون هو اهتمامهم

(١) ابن إياس، مصدر سابق، جـ٥، ص٣١٣.
(٢) نفس المصدر، جـ٥، ص٣٢٢.
(٣) عبد العزيز الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي، مرجع سابق، ص ص ٦٦٩، ٦٧٠.

بالسيطرة على البحر الأحمر بعد احتلالهم لمصر، وجعله بحيرة إسلامية عثمانية مغلقة، ومساعدة القوى الإسلامية في الحبشة ضد التوغل البرتغالي هناك. وجرت أيضا محاولات الاستيلاء على المراكز التجارية الواقعة على ساحل البحر الأحمر مثل هرر وسواكن ومصوع حتى لا يمكنوا البرتغاليين من توطيد أقدامهم في تلك المناطق(١).

ولكن يجب الاشارة هنا إلى أن هذا الأمر لم يتم في عهد السلطان سليم بل في عهد ابنه سليمان القانوني الذي تباطأ أيضاً في توجه القوات العثمانية ضد مراكز البرتغاليين في البحار الشرقية واهتم بدلا عن ذلك اهتماماً يكاد يكون كلياً بالجبهات الأوروبية(٢). وقد استطاع البرتغاليون خلال العشرين عاماً الأولى من حكم السلطان سليمان (١٥٢٠ – ١٥٤٠م) أن يحققوا انتصارات مهمة في دعم مراكزهم الحربية في شرق الجزيرة العربية والهند وعدن وغيرها. فلما انتبه السلطان سليمان لفداحة خطر البرتغاليين هناك وأرسل القوات العثمانية إلى الهند عام ١٥٢٦م، وعام ١٥٣٨م، منيت بهزائم كبيرة، ولم يبدأ بتوجيه حملة مباشرة لضرب مراكز البرتغاليين في شرق الجزيرة العربية والخليج إلاّ في عام ١٥٥٢م (حملة بيري رئيس) أي بعد مرور اثنين وثلاثين عاماً علي توليته العرش(٣).

يقول واقع الأحداث أن الحرب ضد البرتغاليين هي التي فرضت نفسها فرضاً على العثمانيين بعد أن وصل الأخيرون إلى هذا المدى من التوسع

---

(١) - Serjeant, Op. Cit. p.2

(٢) عقد السلطان سليمان القانوني العزم على غزو بلغراد والمجر والنمسا، فخرج على رأس جيش جرار بلغ تعداده ربع مليون جندي تؤيدهم مدفعية كبيرة وأسطول نهري بلغ عدد قطعه ٨٠٠ قطعة ازدحمت بها مياه نهر الدانوب وذلك فقط للاستيلاء على عاصمة النمسا «فيينا»، أنظر: عبد العزيز الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي، ص٦٧٤.

(٣) المرجع السابق، ص٦٥٦.

الإقليمي في الشرق الإسلامي وتطلعوا لاحتلال أراضي إسلامية تابعة للدولة العثمانية، فكان خوض العثمانيين لتلك الحروب ضد البرتغاليين أمراً تطلبه أمن الدولة العثمانية دفاعاً عن أقاليم صارت تحت سيادتها واقعاً .

إذن نستطيع القول أن تدخل الدولة العثمانية حربياً في المنطقة الإسلامية في المشرق لم يؤدِ إلى زوال الوجود البرتغالي في المناطق التي احتلتها قبل ظهور العثمانيين في الجزيرة العربية أو الهند أو شرق أفريقيا، بل إنّ حروب الدولة العثمانية ضد القوتين الإسلاميتين في المنطقة (الصفوية والمملوكية) قد أتاح الفرصة للقوة البرتغالية أن تلتقط أنفاسها إثر الضربة المملوكية الأولى لها في عام ١٥٠٨م، ولتزيد من نشاطها التوسعي مستغلة الصراع الإسلامي – الإسلامي في المشرق الإسلامي في مطلع القرن السادس عشر، وكأن القدر قد رسم كل ذلك بالمسطرة والقلم.

الفصل الثالث

الكيانات السياسية المحلية في الخليج وجنوب الجزيرة العربية إبان الغزو البرتغالي للمنطقة

- الإمامة الأباضية وبنو نبهان وصراعهما في عُمان
- قيام مملكة هرمز في الخليج العربي.
- قيام إمارة الجبور في الأحساء والبحرين وصراعها مع مملكة هرمز.
- الصراع الزيدي الطاهري في اليمن.

الكيانات السياسية المحلية في الخليج وجنوب الجزيرة
العربية إبان الغزو البرتغالي للمنطقة

الإمامة الأباضية وبنو نبهان وصراعهما في عمان

تحتل عُمان نحو ربع الخط الساحلي لجنوب شبه الجزيرة العربية الذي يزيد طوله عن أربعة آلاف ميل، وهي تسيطر على مدخل الخليج العربي. وتطل هذه السواحل على الطرق البحرية المتجهة إلى الشمال والشرق والجنوب وعلى الطريق الرئيسي للتجارة الرائجة الممتدة من الصين إلى المدن الواقعة على جانبي الخليج العربي، وقد اعتبرها الأقدمون مرسى السفن من الصين والهند وبلاد الزنج. وعمان هي ديار الأزد «وهي بلدة كثيرة النخل والفواكه(١)، وإحدى المراكز الرئيسية للتجارة على الساحل الغربي للخليج، وقد كانت تستقبل السفن الآتية من البصرة متجهة إلى الهند والصين وشرق أفريقيا وبالعكس، وقصبتها وأهم مدنها (صحار) وهي أعمر مدينة وأكثرها مالاً بعُمان»(٢).

وعند الحديث عن منطقة عُمان منذ ظهور مذهب الأباضية بها حتى بداية العصر الحديث حين بدأ الغزو البرتغالي لها، سنجد أن هذا التاريخ ضيق الإطار لأنه اعتمد على مجموعة من علماء الدين الأباضيين الذين حافظوا على ذلك التاريخ وسطروه حسبما تمليه عليهم مواقفهم من المذهب الأباضي. ولذا فهم يرون أن تسجيل الأحداث التاريخية – حسب مفهومهم – ينبغي أن يخضع لمؤثرات بعينها. من هنا فقد سجل النشاط القبلي وصراع القبائل بكثير من التفاصيل لأنه يرتبط بشكل مباشر بوجود

(١) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزءاً (مصر، ١٩١٥) ج٥، ص٥٥.
(٢) أبي القاسم ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، جزءان، (هولندا، ١٩٨٣)، جزء١، ص٣٨.

الجماعة الإسلامية في تلك المنطقة. أما حركة التاريخ العامة وما يحدث خارج عُمان – حتى ولو كان له علاقة بما يجري بداخلها – فإنّ ذلك لم يكن يهم أولئك المؤرخين العُمانيين في شيء لاعتقادهم أن ذلك من صنع الجبابرة، أي السلطة غير الشرعية. ومن هنا كانت حركة المذهب الأباضي وأئمته والصراع حوله هي التي حددت حركة التاريخ في عُمان. ومن هذا المنطلق لا يمكن للباحث أن يدرس تاريخ عُمان الإسلامي دون أن يفهم الحركة الأباضية من حيث نشأتها ونشاطها باعتبار عُمان هي الوطن الأم للأباضية في العالم الإسلامي، فقد احتضنت هذه الأرض المذهب منذ ولادته في القرن الأول الهجري وأقامت باسمه دولة في القرن الثاني الهجري.

مذهب الأباضية:

يذكر المؤرخ العُماني (نور الدين بن حميد السالمي) أن مؤسس الدعوة الأباضية ومفكرها الأول هو (أبو الشعثاء جابر بن زيد البصري العُماني)(١)، وقد أخذ العلم عن ابن عباس ابن عم الرسول (ﷺ) والسيدة عائشة (رضي اللّه عنها) بنت أبي بكر الصديق (رضي اللّه عنهما)، وكانت ولادته في ٢١هـ ووفاته في ٩٦هـ»(٢). إلاّ أن المذهب الأباضي نسب بشكل واضح في كتب التاريخ إلى «عبد اللّه بن أباض»، لكونه الناطق به والمدافع عنه في دوائر الدولة الأموية في تلك الفترة منذ بداية ظهوره. وينبغي التأكيد على أن الأباضية في أصولها الأولى قد خرجت من عباءة حركة الخوارج التي تعتبر من أهم وأخطر الحركات الفكرية والسياسية

(١) بسبب ولادته في نزوى بعُمان من قبيلة أزدية، قد رحل إلى البصرة في وقت مبكر من حياته للاستزادة من الفقه الديني.

(٢) نور الدين بن عبد اللّه بن حميد السالمي، اللمعة المرضية من أشعة الأباضية، سلسلة تراثنا – العدد ١٨، (عُمان، ١٩٨٣م)، ص ص٧، ٨.

المبكرة في التاريخ الإسلامي، والتي خرجت بدورها بعد الإشكالات الدينية والسياسية التي حدثت نتيجة قبول مبدأ التحكيم بين جيوش الخليفة الشرعي للدولة الإسلامية الإمام علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) ووالي الشام من قبل الدولة، معاوية بن أبي سفيان، وذلك بعد معركة صفين بين عامي (٣٦، ٣٧هـ)(١).

الأباضية في عمان:

حين قام الحجاج بن يوسف الثقفي بنفي العديد من زعماء قبيلة الأزد من البصرة – مركز التنظيم الخارجي الأباضي السري – إلى منطقة عُمان لم يكن ذلك عبثاً. فقد كشفت التحريات الأموية أن دُعاة الأباضية يكثرون بين أفراد هذه المنطقة، ولا سيما أن من بين زعماء الأزد هؤلاء رأس الدعوة (جابر بن زيد) وهو من أزد عُمان. ويبدو أن هذا الإجراء قد ساعد جابر على تعميق صلته بأهل عُمان وبث أفكاره ومبادئه بينهم، خاصة وأن الصلة بين البصرة وعُمان آنذاك كانت صلة مستمرة ووثيقة. ومن هنا فإن البذرة التي غرسها جابر بن زيد، أخذت تنمو وتكبر وتترعرع حتى استطاعت في النهاية أن تلعب دوراً رئيسياً في سيادة الإمامة الأباضية على عُمان وقبيلة الأزد وحلفائها أساساً. ويسبب متانة تلك الصلات بين أرض عُمان وحركات الخوارج والأباضية منهم بالذات منذ الأيام الأولى لظهورها على مسرح السياسة والفكر الديني الإسلامي، فقد أصبحت عُمان صعيداً ملائماً لظهور الإمامة الأباضية بها علناً بعد سقوط الدولة الأموية، العدو الأول للأباضية، وذلك عام ١٣٢هـ(٢). وكان

---

(١) أبي الفتح الشهرستاني، الملل والنحل، (بيروت، ١٩٤٨)، الجزء الأول، ص١٧٠ وما بعدها، كذلك أنظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي، (بيروت، ١٩٨٧) الجزء الثالث، حوادث سنتي ٣٦، ٣٧هـ، ص ص ١٦١ – ٢١١.

(٢) عبد الرحمن بن عثمان الملا، تاريخ الحركات الفكرية واتجاهاتها في شرق الجزيرة العربية وعُمان، (المملكة العربية السعودية، ١٩٩٤)، ص١٢٧.

أن انتخب العُمانيون أول إمام أباضي لهم عام ١٣٢هـ (٧٥١م) وهو الإمام الجلندي بن مسعود، في نفس العام الذي انتخب فيه أئمة آخرون في المغرب واليمن أيضاً(١).

ولكن يبدو أن هذا الإمام الأول لم يستمر طويلاً في السلطة بعد انتخابه، حيث يعتقد أن القوات العباسية في عُمان قتلته عندما شعرت بنواياه الاستقلالية في عُمان، كما يذكر الأزكوي أن «القتال دار عليه حتى قتل في جلفار، فكانت إمامته سنتين وشهراً. واستولت الجبابرة على عُمان فأفسدوا فيها وتفاقم جورهم وظلمهم وفسادهم»(٢).

ومما زاد الوضع سوءاً بعد ذلك أن الأمور لم تستقر في عُمان للأباضيين بل كثُرت الفتن والحروب الداخلية حتى قال صاحب كتاب الفتح المبين «لم تزل الفتن تتراكم بين العُمانيين وتزيد فيهم الإحن، وصار أمر الإمامة بينهم لعباً ولهواً وبغياً وهوىً، حتى أنهم عقدوا في عام واحد ست عشرة بيعة (١٦ إماماً) ولم يفوا بواحدة حتى بلغ الكتاب أجله»(٣). وتجدر الإشارة هنا إلى أن معظم الصراع الذي دار بين أئمة عُمان الأباضيين في بداية عهدهم بتأسيس الدولة، تركز في محيط قبائل الأزد المشهورة وبطونها مثل الهناوية والكندية واليعاربة(٤). وكانت عواصمهم في المدن الداخلية وليس الساحلية، مثل نزوى، أزكى، بهلا، الرستاق، يبرين، وغيرها، وهذا ما شجع مملكة هرمز عندما اشتد عودها وسيطرت على تجارة الخليج العربي، على مد نفوذها والسيطرة على المدن الساحلية المهمة في عُمان.

---

(١) سالم بن حمود السيابي، مرجع سابق، ص٤٥؛ وندل فيليبس، مرجع سابق، ص١٩.

(٢) سرحان بن سعيد الأزكوي، تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجمع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، (عمان، ٩٨٦)، ص.

(٣) حميد بن زريق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسي، (عُمان، ١٩٧٧)، ص٢٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص٢٢٣.

آل نبهان والصراع الداخلي ضد الإمامة الأباضية:

بدخول القرن السادس الهجري بدأت الإمامة في عُمان تضعف ودبت الفوضى في البلاد من كل جانب، فصار الجو مناسباً للطامحين والطامعين في السلطة للوثوب واهتبال الفرصة للسيطرة على البلاد العُمانية خصوصاً في عُمان الداخل، ولذا نجد في حوليات التاريخ العُماني فترة تزيد على القرنين ونصف القرن لا يذكر فيها الأئمة حيث بدأت سيطرة «النبهانيين» على الحكم وإلغاء نظام الإمامة وإحلال الملكية بدلاً منها. وقد تلقب حكام أسرة النباهنة «بالملوك» لأول مرة في عُمان(١)، ومن هنا قامت الثورات الأباضية ضدهم.

وانحصر الصراع العُماني - العُماني بين النباهنة كعائلة ملوك توارثت السلطة، والإمامة الدينية الزمنية المنتخبة، فكان صراعاً بين نوعين وفلسفتين في نظام الحكم اكتوى بناره وتأثيراته العمانيون جميعهم وكافة المدن العُمانية. وبما أن هؤلاء النباهنة - رغم كونهم أباضيين مذهباً - ملوكاً وليسوا أئمة، وتاريخ عُمان المدون يعتمد على الكتاب من العلماء والفقهاء الأباضيين أو الموالين للأئمة، فبالطبع لا نتوقع منهم أن يهتموا بتدوين تاريخ تلك الفترة من حكم آل نبهان، رغم اعتراف الأزكوي بأن ملكهم «لعله كان يزيد على خمسمائة سنة»(٢)، ولذا وصُفوا بالجبابرة والطُغاة(٣) ولم يدون تاريخهم بل وأُهمل تسجيله كما ورد. ويعترف بذلك مؤرخ عُمان الكبير الشيخ نور الدين السالمي في كتابه «تحفة الأعيان» حين سجل لعصر النباهنة فلم يجد سوى نتفاً قليلة متناثرة في بطون

---

(١) زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، (القاهرة، ١٩٥١م)، ج١، ص ص ١٩١ - ١٩٤.

(٢) سرحان الأزكوي، مصدر سابق، ص٧٠.

(٣) الجبابرة: كان العُمانيون يطلقون على كل حكم خارجي غير أباضي إمامي لقب (الجبابرة) لتمييزه عن الحكم الإمامي.

الكتب هنا وهناك لا تغني كثيراً في البحث فوقف هذا المؤرخ حائراً أمام ذلك الحدث قائلاً: «وحيث كانت دولة هؤلاء مبنية على الاستبداد بالأمر وقهر الناس بالجبرية، لم نجد لدولتهم تاريخاً ولا لملوكهم ذكراً». وقد أوجد هذا المؤرخ لنفسه تعليلاً يريحه من عناء البحث حين قال: «إنها إرادة اللّه تعالى من إنفاذ أمره في أهل عُمان، فإنهم لما افترقوا فرقتين وصاروا طائفتين نزع اللّه دولتهم من أيديهم وسلّط عليهم قوماً من أنفسهم يسومونهم سوء العذاب»(١).

حكم الملوك النباهنة أثناء صراعهم ضد الأئمة خلال فترتين، امتدت الأولى منها من عام ٥٤٩هـ إلى عام ٩٠٦هـ، وتخللها وجود بعض الأئمة في حكم مدن أخرى. أما الفترة الثانية فاستمرت من عام ٩٦٤هـ إلى عام ١٠٤٢هـ، وانتهت بظهور الإمام ناصر بن مرشد اليعربي الذي تمكن من السيطرة على عُمان ويبدأ معه مشروع طرد البرتغاليين من البلاد(٢).

ويبدو أنه خلال الصراع الذي نشب بين النباهنة والأئمة في مستهل النصف الثاني من القرن السادس الهجري، قام حلف بين بني نبهان والقبائل العربية الأخرى في عُمان الداخل وما جاورها من الصحراء الجنوبية لشبه الجزيرة العربية واليمن، وهذا ما يؤكده السيابي حين يقول في عهد الإمام الخليل بن عبد اللّه الخليلي حيث بدأت روح الدولة النبهانية في الظهور بعُمان، «وكان – هذا الإمام – قد قامت له قوة خافها بنو نبهان أن تقضي عليهم، فاستجاشوا الجبور وبني هلال، ولم يزل يقاتلهم في كل أرض، حتى صار شرق عُمان ووادي سمائل كله مع النباهنة، والرستاق والباطنة مع الإمام»(٣).

---

(١) نور الدين عبد اللّه السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، (مصر، ١٩٦١م)، ص٣٥٢.
(٢) عبد اللّه بن ناصر بن سليمان الحارثي، بنو نبهان في عُمان والأوضاع الاقتصادية في عصرهم، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة القاهرة، ١٩٩٠م)، ص٢٩.
(٣) سالم بن حمود السيابي، عُمان عبر التاريخ، (عُمان، ١٩٩٤)، جـ٣، ص٨٠.

وتذكر كتب التاريخ العُماني أنه عندما اشتد تعسف وبطش وفساد ملوك بني نبهان في البلاد، اجتمع أهل الحل والعقد من العلماء الأباضية وأعيان عُمان، وانتخبوا عمر بن الخطاب الخروصي فبايعوه بالإمامة عام ٨٨٥هـ.

إلاّ أن الحرب عادت وتجددت بين هذا الإمام والملك النبهاني القوي سليمان بن سليمان، ووقعت معارك عنيفة بين الطرفين أدّت إلى عزل الخروصي وأُعيد مرة ثانية بعد انتصاره على الملك النبهاني الذي استعان – كما يبدو – بقوة ملوك هرمز في سواحل عُمان عام ٨٩٣هـ (١٤٨٧م) لمواصلة حكمه ومناوءة الأئمة الأباضيين. واشتد الصراع في هذا الوقت من جديد حتى انتهى بهزيمة الملك سليمان النبهاني ومبايعة الإمام محمد بن إسماعيل الحاضري إماماً على عُمان(١) عام ٩٠٦هـ (١٥٠٠م). وكان الغزو البرتغالي في هذا الوقت على أبواب الهند والبحار الشرقية ويقترب من السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية.

وبسبب ما عانته عُمان من حروب وصراعات داخلية بين الملوك النباهنة والأئمة، فقد تمزقت البلاد وضُربت وحدتها، مما فتح الباب على مصراعيه أمام الطامعين من أعدائها، فشنوا عليها عدة غزوات في عهد النباهنة وكان مصدر غالبية تلك الغزوات بلاد فارس ومملكة هرمز في أعوام ١٢٦١م، ١٢٧٦م، ١٤٦٢م(٢).

وهكذا كانت الأوضاع المضطربة في عُمان مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر، أي بداية الغزو البرتغالي للمنطقة، فهل صمدت البلاد أمام هذا الغزو عام ١٥٠٧م؟؟

---

(١) حميد بن رزيق، مرجع سابق، ص٢٥٧؛ أُنظر طريقة تولي الإمام محمد بن إسماعيل بعد حادثة (فلج الغنتق) المشهورة.

(٢) الأزكوي، مصدر سابق، ص٧٠، ٧١.

قيام مملكة هرمز في الخليج العربي

ترتبط الحالة السياسية للكيانات العربية في الخليج خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وبداية السادس عشر الميلادي، بوجود مملكة هرمز وفرض سلطاتها على الإمارات الممتدة من البحرين إلى القطيف إلى ساحل عُمان.

ولكن ينبغي التمييز بين مملكة هرمز القديمة التي كانت قائمة في البر الإيراني منذ القرن العاشر الميلادي حتى أوائل القرن الرابع عشر، وبين مملكة هرمز التي نشأت في جزيرة (جرون) عند مدخل الخليج العربي.

تذكر الروايات التاريخية أن اسم هرمز كان يطلق على ميناء يقع بالقرب من مصب نهر روداب (ميناب) يطل على الخليج العربي قرب بندر عباس(١)، وكان يتبع ولاية موغستان ومملكة كرمان. وقد أسس مدينة هرمز تلك أردشير بابكان (بن بابك) ٢٢٤ – ٢٤١م، مؤسس الدولة الساسانية، وصارت طوال العصر الساساني مركز تجاري في ساحل كرمان(٢). وقد أحرزت تلك المدينة شهرة عالمية بعد الفتح العربي الإسلامي للإمبراطورية الفارسية حتى غدت في القرن العاشر الميلادي السوق الرئيسية لمملكة كرمان الساحلية في البر الجنوبي لفارس(٣).

وقد تحدث ياقوت الحموي في القرن السابع الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) عن مدينة هرمز تلك قائلاً: «هرمز فرضة بر فارس وكرمان، وملتقى تجارها وميناؤها الرئيسي، إليها ترفأ المراكب ومنها تنقل أمتعة الهند إلى كرمان وسجستان وخراسان»(٤). وقد زارها الرحالة ماركو بولو

---

(١) جهانكير قائمقامي، مسألة هرمز در روابط إيران وبرتغال، (طهران، ١٣٥٢هـ.ش)، ص٧؛ كذلك أُنظر رحلات ماركو بولو، مصدر سابق، ٢١٠.

(٢) -.Wilson, Op. Cit., P.102

(٣) - .Encyclopledia Britanncia, Op. Cit., Vol. II, Hormuz, p. 748B

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي (بيروت، ١٩٩٠)، ص ص ٤٥٩، ٤٦٠.

مـرتين خـلال الـقـرن الـثـالث عشر وذلك بين عـامـي ١٢٧٢، و١٢٩٣م، ووصـف نشـاطـهـا وأعـمـالـهـا علـى سـاحـل الخلـيـج وبشكل خـاص تجـارة الخيول العربية والفـارسية التي كانت تصدر إلى الـهند(١).

وبعد الفتح الإسلامي لبلاد فـارس أخذت مدينة هرمز تصطبغ بصبغة عربية خالصة وذلك إثر هـجرة جموع غفيرة من القبائل العربية من عُمان ونجد واليمن إليها لقربها من سواحل الخليج العربية واتخاذها قـاعدة تجارية يوجهون منها سفنهم إلى سواحل الهند والبحر الأحمر وشرق أفريقيا وبلاد الصين(٢). وقد علا شأن هرمز إثر تدهور ميناء (سيراف) الذي كان يلعب في تجارة الخليج أهمية كبرى قبل ذلك. وبسبب الاستقرار الاستيطاني العربي في هرمز، فقد بدأت تحكم المدينة (الميناء) سلسلة من الأمراء العرب ليس لدينا علم كامل عن أولهم سوى ما ذكره الملك الحادي والـعشرون لجزيرة هـرمـز (تـورانشـاه بـن قـطب الـديـن تـهـتـمـن) حكم عـام (١٥١٦م) فيما كتبه من نثر وشعر بالفـارسية حول أمراء هرمز وحكومته وأسرته وجُمع في كتاب سمي (شاهنامه)(٣). وقد ذكر هذا الملك أن مؤسس هذه السلالة التي حكمت هرمز هو شيخ عربي من اليمن أو الخليج جاء إلى فـارس حوالي القرن الخامس الهجري مع الهجرات العربية ويدعى «الشيخ محمد». وكونت أسرته هذه المملكة التجارية، واستقر هذا الشيخ في هرمز وضرب العملة باسمه فلقب بـ(محمد درهم كوب) نسبة إلى نوع العملة التي سكها باسمه. كما نعرف أيضا أن الأمير الثاني عشر لهذه الأسرة هو ركن الدين محمود الذي حكم في عام ٦٤٤هـ. ويؤيد هذا الرأي المؤرخ الإيراني

(١) - Encyclopiedia Britannica, Loc. Cit.

(٢) عبد السلام عبد العزيز فهمي، «مملكة هرمز، المجد في نشأتها وازدهارها والعبرة في سقوطها واستلامها»، مجلة العربي، العدد ١٨٤، (الكويت، ١٩٧٤م)، ص١٧٦؛ محمود حسين عبد العزيز الصراف، سلطنة عُمان وامتياز تأجير ميناء بندر عباس، (القاهرة، ١٩٩٢)، ص٦.

(٣) نقل أحد الرحالة البرتغاليين وهو (بدرو تكسيرا) مختصراً من هذا الكتاب طبع عام ١٦١٠م (١٠١٩هـ) في بلجيكا.

عباس إقبال فيذكر أنه في عهد ملوك بني قيصر كان القسم الشرقي من الخليج أي موغستان وميناب وجزيرة قيس وجرون، يحكمه أمراء اتخذوا من مدينة هرمز عاصمة لهم، ويقولون أنهم من سلالة الملوك الذين جاءوا من عُمان واحتلوا موغستان ويسمى أميرهم (محمد) الذي استقر في المنطقة وضرب العملة باسمه(١). وظل حكام هرمز هؤلاء يحافظون على مملكتهم التجارية ويدفعون الضرائب والأتاوات لأتابكة فارس وأمراء كرمان ثم إلى حكام المغول في بلاد فارس، إلا أنهم حاولوا أكثر من مرة الاستقلال عن تبعيتهم للقوى المحيطة بهم (٢).

ولم تعمر هرمز طويلاً بسبب تلك الحوادث الوحشية التي قام بها التتار على سواحل فارس حوالي عام ٧٠٠هـ (١٣٠١م)، حيث دمروا المدينة وقتلوا سكانها، مما اضطر حاكمها آنذاك (بهاء الدين أياز السيفي)(٣) إلى تركها نهائياً والهجرة بشعبة وعائلته إلى جزيرة تقع في عنق الخليج العربي وتسمى (جيرون أو جرون Jerun) قبالة الساحل الفارسي قبالة مدينة هرمز القديمة، وقد أطلق على هذ الجزيرة أيضاً فيما بعد اسم (هرمز) تيمناً بوطن هؤلاء الفارين الأوائل من الساحل الفارسي وتخليداً له(٤).

واتخذت جزيرة (جرون = هرمز) طابعاً تجارياً بحتاً فقد استطاعت في فترة وجيزة إلى منتصف القرن الرابع عشر فقط، أن تجتذب إليها عناصر

---

(١) عباس إقبال، مطالعاتي درباب بحرين وجزاير وسواحل خليج فارس، (طهران، ١٩٤٩م) ص ص ٥٦، ٥٧؛ كذلك أنظر: - Wilson, Op. Cit., p. 104.

(٢) نصر الله فلسفي، إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي، ترجمة وتقديم محمد فتحي يوسف الريس (القاهرة، ١٩٨٩م)، ص ص ٨ – ١٠؛ جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٧.

(٣) نصر الله فلسفي، مرجع سابق، ص٨؛ جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٧.

(٤) تقع جزيرة (جيرون) على بعد أحد عشر ميلاً جنوب شرق بندر عباس، وأربعة أميال إلى الجنوب من البر الإيراني، وعن هرمز القديمة بحوالي أربعة عشر ميلاً، أنظر: لوريمر، مصدر سابق، القسم الجغرافي، ج٢، ص٩٤٠.

اقتصادية وفعاليات تجارية عديدة من مسلمين - وكانوا أكثرية - وهندوس ويهود ونصارى كأقليات. أضحت هرمز أهم منطقة لتجميع السلع التجارية في الخليج وصارت ذات شهرة عالمية كمحطة رئيسية لجذب تجارة الهند الذاهبة إلى أوروبا، وبدت كأكبر منافس لميناء «قيس» الذي حل خلال الفترة من القرن الثاني عشر الميلادي، إلى القرن الثالث عشر الميلادي محل ميناء سيراف(١). وعلى الرغم من عدم صلاحية الجزيرة للسكنى إذ يصفها أحد التجار قائلاً: «إنّ حرارتها ممزوجة برطوبة عالية، وتخلو لياليها من نسمة ريح، مما يجعل مناخها أشد ما يكون تحمله في بقاع العالم»(٢). أضف إلى ذلك أنها تعتبر جزيرة قاحلة وغير مثمرة، حيث لا طعام بها ولا ماء عذب للشرب ولا خضرة، فهي نتوء صخري بارز عند مضيق الخليج العربي. ولذا كانت تلك الجزيرة تحصل على كل تجهيزاتها ومؤنتها الحياتية اليومية من البر الفارسي والجزر الأخرى القريبة منها(٣).

وقد أكد هذا الوصف الرحالة ابن بطوطة الذي زارها في الربع الثاني من القرن الرابع عشر (١٣٢٥ - ١٣٤٩م) حيث ميّز بوضوح ما بين هرمز على البر الأصلي وهرمز الجديدة حيث قال عن الأخيرة: «وهي جزيرة مدينتها تسمى جرون، وهي مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة، وهي مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقين وفارس وخراسان، وبهذه المدينة سكنى السلطان، والجزيرة أكثرها أرض سباخ وجبال ملح، والماء في الجزيرة له قيمة، وتُحمل إليها المياه في قوارب

---

(١) محمد حسن العيدروس، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، (القاهرة، ١٩٩٩)، ص١٢.

(٢) خالد الخليفة، «التأثير البرتغالي على اقتصاد الخليج العربي في القرن السادس عشر الميلادي»، مجلة الوثيقة، العدد ١٩، السنة ١٠، (البحرين، ١٩٩١)، ص٩٩.

(٣) - Encyclopiedia Britannica, Op. Cit., Hormuz. Vol. 11, p. 748B.

ويأتون بها إلى المدينة»(١).

وكانت حصيلة الضرائب السنوية التي ترد إلى هرمز من المناطق التابعة لها في الخليج وعُمان حوالي مائة وثمانية وتسعين ألف أشرفي ذهباً(٢). وظلت هرمز لمدة مائتي سنة تالية لتأسيسها المركز الرئيسي للصلات التجارية بين الشرق (الهند) والشرق الأقصى وأوروبا حتى صارت مضرب الأمثال. فهناك مثل يقول: «إذا كان العالم مجرد خاتم فإن هرمز هي جوهرته»، وطارت شهرة هرمز إلى شتى بقاع العالم خصوصاً أوروبا، وصارت لها مكانة حتى في أدبيات وشعر القرون الوسطى الأوروبية لدرجة أن رجل الشارع الأوروبي صار يعرف طرفا من مجدها وثرائها الاقتصادي(٣).

وبما أن هرمز لم تكن تستطيع الحفاظ على استقلالها في مواجهة القوى السياسية الكبرى في المنطقة خصوصاً في البر الفارسي سوى بالعمل على دفع الضرائب والأتاوات المقررة عليها سنوياً لتلك القوى لتفادي الوقوع في دائرة عدائها، فقد أصبحت تدفع للدولة الصفوية الناشئة في مطلع القرن السادس عشر مبلغ ألفي أشرفي ذهباً وبالاضافة إلى هدايا عظيمة(٤) كان يدفعها في هذه الفترة خواجه عطار «باسم الملك» سيف الدين أبا نصر، وبذلك استطاع خواجه عطار الاحتفاظ

---

(١) ابن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (بيروت، ١٩٩١)، ص١٢٧.

(٢) - Miles, Somul B., The Countries and Tribes of the Persian Gulf, (London, 1966), p. 155.

(٣) - Wilson, Op. Cit., p.101; F. Adamiyat, Op. Cit., p.16.

حيث يذكره الشاعر الإنجليزي (جون ملتون) في ديوانه الفردوس المفقود، وقد كتب بيتاً من الشعر جاء فيه

Ormuz the diamond should bring if all the world were mere a ring

(4) - Abbas Faroughy, Bahrein Islands, (New York, 1951) p.62.

حيث يذكر بأن هرمز كانت تدفع للصفويين مبلغ (ثمانون ألف بتكاس) سنوياً أي ما قيمته ٦ مليون ريال إيراني.

باستقلال مملكته في الخليج العربي لفترة من الوقت(١).

وقد مكنت تلك الأموال الضخمة التي كانت ترد للخزينة الملكية في هرمز؛ المملكة من أن تجند الجيوش والإكثار من الأتباع والموالين واستئجار المرتزقة للسيطرة على مناطق المملكة الشاسعة في الخليج العربي وساحل عُمان. وبفضل تلك القوة العسكرية والاقتصادية استطاعت حكومة هرمز ضمان سلامة العبور الدائم في الخليج العربي الذي عُرف باسم أهم جزره الاقتصادية آنذاك (هرمز)، وهو الذي يشكل عصب الحياة بالنسبة لهذه المملكة البحرية. وعلى نفس الأهمية كانت هرمز تعمل دائماً لاحتلال البحرين وكذلك القطيف. فالبحرين تشكل لهرمز محطة الاتصال بشمال الخليج العربي ووسيلة لضمان سلامة السفن المحملة بالبضائع الهندية والصينية وغيرها مما يصدر بالتالي عبر البصرة وتحمله القوافل البرية إلى سواحل البحر المتوسط، وكذلك الأمر في ساحل عُمان الحيوي قبالة مضيق هرمز ورأس ماسندم. ومن هنا فكثيرا ما كانت تقع الخلافات والحروب بين مملكة هرمز والقبائل العربية في شبه الجزيرة والبحرين وساحل عُمان وخصوصاً مع تلك القبائل الطموحة مثل الجبور والعوامر(٢)، التي كانت تكافح امتداد سيطرة مملكة هرمز على هذه المناطق والتي كانت تطمع للمشاركة في أرباح التجارة الدولية في المنطقة. وقد وجدت تلك القبائل الفرصة السانحة مع بداية القرن الخامس عشر حين بدأ الضعف يدب في كيان هرمز بسبب تفاقم الصراع الأسري داخل العائلة المالكة، مما شجع تلك القبائل العربية المنتشرة على طول السواحل الشرقية للجزيرة العربية للتخلص من تبعيتها لهرمز. والسبب في الأساس يعود لعدم وجود سلطة مركزية

---

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص١٠.

(٢) محمد حسن العيدروس، مرجع سابق، ص١٨.

قوية في هرمز مما دفع أولئك المتطلعين للاستقلال ببلادهم واقتصادياتها عن هرمز، للانتفاض والثورة، خاصة وأن هذه المناطق كانت تتأرجح في تبعيتها لهرمز بين السيطرة الأسمية والفعلية. كما أن الامتداد الكبير الذي بلغته هذه الدولة كان عاملاً مهماً من عوامل تقويضها، حيث كانت تشمل أجزاء واسعة من سواحل الخليج وعُمان وفارس. ومن الطبيعي إذاً أن تترهل هرمز. وقد ساعد هذا التفسخ تلك القوى العربية على منازعتها في السيادة. وظهر ذلك واضحاً على عهد الملك «سيف الدين مهار» الذي شهد حكمه اضطراباً سياسياً وصراعاً أسرياً خطيراً مكن لبني جبر من انتزاع الأحساء والقطيف من أيدي الحكام الذين كانوا خاضعين لهرمز(١)، والحصول على حكم جزر البحرين بموجب اتفاق سياسي اقتصادي تم عقده مع حاكم هرمز الذي كان قد ظفر بالسلطة في الجزيرة بفضل مساعدة الجبور له أثناء صراعه مع أخوته، فصارت البحرين منذ عام ١٤٧٦م تحت سيطرة الجبور.

ولم تمتد سيطرة هرمز أبداً في أي وقت من الأوقات إلى داخل عُمان وذلك لعدة أسباب: أولاً لأن الداخل العماني كان فقيرا اقتصادياً إلا من بعض المنتوجات الزراعية وتربية الخيول، وثانياً بسبب وجود الإمامة الأباضية أو الملوك النباهنة فيه وفي مدنه العديدة وصراعاتهم المستمرة التي تؤثر بالتالي على الاستقرار الاقتصادي في تلك الفترة التي كانت فيها الموانىء البحرية المهمة والصالحة لرسو السفن حياة الدول وعصب اقتصادها. ولهذا ركز الهرامزة في عمان على موانىء مسقط وصحار وخورفكان وقريات وصور وكذلك قلهات التي كانت تعتبر في فترة من

---

(١) جمال زكريا، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول، (القاهرة، ١٩٨٥)، ص٥٨.

الفترات عاصمة ومقراً للعائلة المالكة في هرمز على الساحل العُماني(١). بالإضافة إلى ذلك كانت تلك البلدة مركز جباية الخراج السنوي من الموانىء والمحطات التجارية في هذا الساحل لصالح خزينة هرمز.

ومن ناحية أخرى يتضح من بعض المعلومات المتناثرة التي ذكرها جهانكير في بحثه الموسوم: «مسألة هرمن» أن الأخ الثاني لفخر الدين تورانشاه وهو شهاب الدين كان قد تخلص من الأخ الأكبر (مقصود) بالنفي أو القتل، وحكم بدلاً منه. ولكن هذا لم يرض الأخ الثالث (شاه ويس) الذي نجح بدوره في إبعاد شهاب الدين فسمل عينيه(٢) – كما كان يحدث لملوك هرمز عادة أثناء الصراع الأسري – وحكم بدلاً منه. وقد خلت الساحة أمامه في هرمز تماما فأستثأر بالملك ، وهذا ما شجع الأخ الرابع سلغر على التعاون ضده مع الجبور. فقد خرج هذا الأخ من مسقط ثم دخل هرمز بمساعدتهم. ولا يتضح للأسف كيفية حدوث هذه المساعدة، التيّ تخلص بواسطتها من أخيه شاه ويس بعد خمسة شهور من حكمه لهرمز(٣).

ظفر (سلغر) بحكم هرمز أخيراً وتم تنفيذ الاتفاق بينه وبين الجبور – كما سيأتي لاحقاً – إلاّ أن حكمه كان طويلاً جداً كما يبدو. وقد استقرت الأمور في عهده حتى كبر وشاخ فلم يحتمل ابنه (تورانشاه) ذلك فقد كان الرجل متشوقاً للتاج والحكم – كما يذكر جهانكير – فقام بقتل والده. ولكنه لم يحكم إلا لأيام، إذ سرعان ما قتله أخوته وأفراد أسرته، ونصبوا على هرمز أخوه تورانشاه الثالث عام ٩١٠هـ (١٥٠٤م) وكان ذلك قبل وصول البرتغاليين لهرمز بثلاث سنوات فقط. وازدادت الخلافات الأسرية حدة مع بداية القرن

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٨.
(٢) وذلك حسب العرف المتبع في النظام الإداري لجزيرة هرمز ومجلسها الحاكم.
(٣) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٨؛ كذلك أنظر عبد الرحمن آل ملا، تاريخ هجر، جـ٢، (المملكة العربية السعودية ١٩٩١م)، ص١٩١.

السادس عشر في هرمز، إذ أن تورانشاه الثالث لم يمكث في الحكم سوى عشرين يوماً فقط حيث قتل بدوره على يد قائد جنود المملكة ويدعى (محمد) وهو ابن تورانشاه الطموح المقتول على يد إخوته، فازدادت الاضطرابات وعمت الفوضى في أرجاء هرمز مما شجع سلطان منطقة (لار) على الساحل الفارسي المقابل في جنوب إيران للانقضاض على هرمز، ولكن جنود القائد (محمد) صدوه عند جزيرة قشم بأسطولهم البحري، فاضطر للتراجع(١). وهنا ظهرت شخصية (خواجه عطار) التي صارت معروفة جيداً في الخليج وعند البرتغاليين. وكان عطار من المقربين لتورانشاه الثالث المقتول غدراً، ولم تعجبه الأحوال المتردية التي وصلت إليها المملكة والصراع العائلي بها، وأراد أن يفعل شيئاً. وحتى يهدىء من ثورة حاكم لار وتوثبه للانقضاض على هرمز مرة أخرى، اتفق مع مجلس الحكم في الجزيرة على تنصيب أحد أبناء (سلغر شاه الأول) المقتول على يد ابنه. وكانت والدة هذا الصبي هي أخت أحد ملوك لار، فصار الملك لهذا الأمير الحدث في الفترة قبيل وصول البرتغاليين لأبواب هرمز ولقب «بأبو المظفر سيف الدين أبا نصر بن سلغر شاه»(٢). وسيطر خواجه عطار على مقاليد الأمور باسم هذا الصبي الذي لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره، وصار ديوان المالية والخزانة في يد خواجه عطار الذي كان – كما يقول فلسفي – رجلاً قديراً وشجاعاً تولى حكم هرمز كنائب للملك الصبي. وحينما وصلت حملة أفونسوا دا البو كيرك إلى شواطىء هرمز عام ١٥٠٧م، أعد العدة لقتاله وجمع في فترة وجيزة جيش جرار من شعوب جانبي الخليج ليقف بهم ضد البو كيرك(٣) وأسطوله.

---

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص ص٨، ٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٠.

(٣) نصر الله فلسفي، مرجع سابق، ص١١.

وهكذا نرى هنا حالة أخرى من الضعف والتدهور والصراع العنيف بشكل دموي في مملكة هرمز قبيل وصول البرتغاليين للخليج ولجزيرة هرمز بالذات، هذا الصراع الذي أوصل في نهاية الأمر صبياً صغيرا لا يعلم من العالم المتصارع حوله شيئاً ليحكم مملكة ثرية كان البرتغاليون على أبوابها.

قيام إمارة الجبور في الأحساء والبحرين وصراعها مع مملكة هرمز

لابد أن نذكر بداية أن اسم البحرين كان يطلق قديماً على مناطق الأحساء والقطيف وجزر البحرين الحالية أيضاً بالإضافة لبقية شرق الجزيرة العربية، فقد كانت العرب تسمي الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية الممتد من البصرة جنوب العراق إلى عُمان باسم (الخط)، ويطلق عليه أحياناً «خط عبد القيس والبحرين»، ويذكر الحموي أن «البحرين اسم جامع لكل البلاد على ساحل بحر الهند بين البصْرة وعُمان وقيل (هَجَر) قصبة البحرين»(١).

واعتبر المؤرخون والمصنفون العرب الأوائل أن منطقة البحرين بالمعنى الجغرافي المذكور، منطقة مستقلة من مناطق شبه الجزيرة العربية الخمس وهي (الحجاز، نجد، اليمن، عُمان، البحرين). وظهرت القطيف كعاصمة لإقليم البحرين الغني بالزراعة والمياه العذبة، واستمرت كذلك لفترات تاريخية مختلفة. ثم تقلص اسم البحرين تدريجياً حتى انحصر في ذلك الأرخبيل الذي يضم «أوال» والجزر المحيطة بها في العصور المتأخرة. ويتكون هذا الارخبيل من ثلاثة وثلاثين جزيرة وسط الخليج، وتبلغ مساحتها حوالي ٢٦٥ (مائتين وخمسة وستين) ميلاً

---

(١) ياقوت الحموي، مصدر سابق، مج٤، ص٤١٢.

مربعاً، وتبعد عن الساحل الإيراني بنحو (مائتين وخمسين ميلاً) وعن ساحل شبه الجزيرة العربية بثمانية عشر ميلاً، وكان لها شأن تجاري كشأن سيراف وهرمز وقيس.

وقد اكتسبت البحرين أهميتها الاقتصادية منذ القدم، فقد كانت تصدر اللؤلؤ إلى الممالك المجاورة لها. وقد اشتهرت هذه الجزر بجودة اللؤلؤ ووفرة المياه العذبة، وهذا بدوره مما جعلها محط أنظار القوى المجاورة بسبب المورد الاقتصادي المهم آنذاك، وهو اللولؤ الطبيعي، الذي يتميز عن سواه من اللآلىء من حيث المواصفات والوزن، ولأنه كما يقول أحد الرحالة الأجانب: «أنصع بياضاً وأكثر استدارة من غيره، وهو يشكل جزءاً مهماً من تجارة هرمز»(١).

وبسبب تولي تجار هرمز أمر التعامل في هذا اللولؤ البحريني عندما كانت تسيطر مملكتهم على واردات الخليج وصادراته في عصرها الذهبي، فقد وقع كثير من الخلاف والصدام بين حكام الأحساء والبحرين في القرن الخامس عشر الميلادي وبين مملكة هرمز.

وبسبب الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية للبحرين، فقد طمع فيها الغزاة من داخل الخليج وخارجه. وتوالت على حكم هذه الجزر عدة دول وأسر استمدت سلطتها ونفوذها من عشائرها وقبائلها في شبه الجزيرة العربية. ومن تلك الأسر التي حكمت البحرين، العيونيون في القرن الثالث عشر، والعصفوريون بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ثم أعقبت دولة العصفوريين هؤلاء، دولة آل جبور التي نحن بصددها.

---

(١) طارق الحمداني، «الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي»، مجلة الوثيقة، العدد ١٥، السنة ٧ (البحرين، ١٩٨٩م)، ص١٦٣.

آل جبور في البحرين والأحساء:

ينتسب آل جبور قبلياً إلى مجموعة البطون التي جاء منها (العصافرة) أيضاً، وينحدرون من عقيل بن عامر بن عبد القيس بن ربيعة، وعرفوا باسم (العمور أو العماير) وينتسبون إلى بني خالد. وحين تدهور نفوذ أبناء عمومتهم العصافرة، صار الجبور يسيطرون على أفضل مصائد اللؤلؤ وبذلك تمكنوا من اقتصاديات البحرين. وبفضل تلك السيطرة الاقتصادية ووجود الثروات بين أيديهم فقد أصبحوا يتحكمون سياسياً بالمنطقة بعد ذلك لمدة تزيد على مائة وخمسين عاماً حتى مجيء البرتغاليين(١).

وعندما طرق الغزاة البرتغاليون بسفنهم لأول مرة المياه العربية في سواحل عُمان والخليج العربي في مطلع القرن السادس عشر، لفت انتباههم النفوذ الواسع والقوة الضاربة التي حازها الجبور، فتحدثوا عنهم في تقاريرهم بكثير من الاحترام الممزوج بالرهبة والخوف. وحين اطلع (Miles) على بعض ما كتبه البرتغاليون – أمثال البو كيرك – عن الجبور، علق على ذلك بقوله: «إنه ليبدو حقاً بأن بني جبر كانوا خطرين إلى حد كبير، وأن أمرهم قد بقي حتى الآن لغزاً لم يحل»(٢).

وقد كتب البرتغاليون في ذلك وهذا مما أثار دهشة هذا الكاتب لسبب مهم جداً، وهو أن إمارة أو دولة الجبور – إنْ صح التعبير – كانت هي الوحيدة من بين الكيانات السياسية العربية في المنطقة التي لم تستسلم للبرتغاليين أو تخضع للبرتغاليين بل واجهتهم بتحدٍ واضح منذ وطأت أقدامهم أرض عُمان عام ١٥٠٧م.

---

(١) علي أبا حسين، «الجبور عرب البحرين أو عربان الشرق»، مجلة الوثيقة، العدد ٣، السنة ٢٣ (البحرين، ١٩٨٣)، ص ٨٠؛ فضل العماري، ابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين، (الرياض، د.ت) ص ص، ١٠٨، ١١٣١.

(٢) - Miles, Op. Cit., p.155.

وينتسب الجبور الذين أسسوا الإمارة إلى جدهم الأكبر (جبر العامري) الذي كان قد قضى على ملك بني جروان وانتزاع الأحساء من ملك هرمز، واتخذها قاعدة لتوسعاته في شرق شبه الجزيرة والبحرين وذلك في حدود عام ١٤١٧م(١). إلاّ أن المؤسس الحقيقي والفعلي لتلك الإمارة الكبيرة هو زامل بن حسين بن ناصر بن جبر العامري بين عامي ١٤٣٩ - ١٤٤٠م، وذلك بعد أن فرض سلطانه الفعلي على الأحساء والقطيف وأجزاء واسعة من إقليم نجد(٢). كما استطاعت قبائل بني عامر بقيادة الجبور في عهد زامل الجابري هذا، من التغلغل في مناطق عُمان الشمالية باعتبارها أكثر الأجزاء انفتاحاً على البحرين والأحساء وأقرب المناطق إليها، وبذلك كان الجبور آخر مجموعة قبلية استقرت في عُمان في القرن الخامس عشر الميلادي(٣).

وازداد النشاط التجاري بين سواحل بلاد البحرين والحجاز إثر تدهور الأوضاع الأمنية بسبب انتشار الفوضى والاضطرابات والدمار في كل من العراق وإيران والأناضول وشمال الشام بعد حروب المغول ضد القوى القبلية في إيران وبينهم وبين الدولة العثمانية. وقد رفع هذا الوضع المضطرب من شأن ومركز إمارة الجبور الفتية في المنطقة وزاد بالتالي من قوتها وسيطرتها على طرق تجارة القوافل في شبه الجزيرة العربية فتطور مصدر رزقهم وازدادت فوائده المادية الكبيرة لإمارتهم، وربما كانت حاجة الدول المتحاربة في الشمال الشرقي حول الخليج العربي

---

(١) عبد الرحمن آل ملا، تاريخ هجر، مرجع سابق، ص١٨٧.
(٢) عبد اللطيف ناصر الحميدان، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في شرق الجزيرة العربية»، مجلة كلية الآداب، العدد ١٦، السنة ١٤، (جامعة البصرة، ١٩٨٠م)، ص٤٠.
(٣) المرجع السابق، ص٥٤.

لوسائل المواصلات في الحرب آنذاك (الخيول العربية والجمال)(١) قد أدى إلى أن يجني بنو عامر فوائد مادية كبيرة من ذلك.

حكـــام إمـــارة الجبـــور:

شهد عهد الجبور مجموعة من الحكام قامت على أكتافهم عملية تأسيس الدولة التي دامت حوالي قرن ونصف القرن من الزمن، وشهدت البلاد في عهد بعضهم تطوراً ونماءً ورخاءً في أكثر من مجال، وأهم هؤلاء الحكام:

أجود بن زامل العامري: يعد المؤسس الأول (زامل بن جبر العقيلي) الذي توفي على الأرجح في ٨٦٦هـ/(١٤٦٠م)، حكم الإمارة الشيخ أجود بن زامل، ويمثل عصره مرحلة ازدهار وقوة واتساع لإمارة الجبور التي بلغت إلى أقصى مداها في شبه الجزيرة العربية والخليج. وقد حمل أجود بن زامل لقب «السلطان» بسبب هذا المُلك العريض، كما حمله أيضا من جاء بعده من أمراء الجبور. وكان هذا اللقب يعني آنذاك أن حامله هو حاكم مستقل يتمتع بكامل السيادة في بلاده.

قال شمس الدين السخاوي في «الضوء اللامع»(٢) عن هذا السلطان «أجود بن زامل العقيلي الجبري النجدي الأصل المالكي، مولده ببادية الحساء في رمضان سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وقام أخوه سيف بن زامل علي آخر ولاة بني جروان حين رام قتله. وكان الظفر لسيف، ولما مات خلفه أخوه أجود واتسعت مملكته، بحيث ملك البحرين وعُمان،

(١) كانت تجارة الخيول تأتي مباشرة بعد التوابل – في ذلك الزمان – من حيث الأهمية، وكان مصدر هذه الخيول هو الخليج العربي، وأفضل هذه الخيول في الشرق العربي هي الخيول العربية التي تستخدم لأغراض الحرب والتدريب وتليها الخيول الفارسية، وعندما استولى البرتغاليون على هذه التجارة بعد سقوط البحرين في أيديهم أثر ذلك على الكيانات العربية في الخليج، فقد كانت تلك التجارة المربحة تأتي من البصرة والساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية وعُمان عن طريق البحرين لتلتقي في هرمز.

(٢) الإمام شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (القاهرة، ١٣٥٥هـ)، ج١٩٠.

وانتزع مملكة هرمز من ابن أخ الصرغل، وكان رئيس نجد ذا أتباع يزيدون على الوصف، مع فروسية، وقد تعددت في بدنه جراحات كثيرة، وله إلمام ببعض فروع المالكية، واعتناء بتحصيل كتبهم، استقرت في قضائه بعض أهل السنة منهم بعد أن كانوا شيعة، وأقام الجمعة والجماعات، وأكثر من الحج في أتباع كثيرين يبلغون آلافاً مصاحباً للتصدق والبذل».

وقد وصف المؤرخ (السمهودي) السلطان أجود – وكانت له صلة قوية به – بأنه «رئيس أهل نجد ورأسها، سلطان البحرين والقطيف، فريد الوصف والنعت في جنسه صلاحاً وأفضالاً وحسن عقيدة، أبو الجود أجود بن زامل بن جبر»(١).

وقد قام السلطان أجود بتقوية صلاته التجارية مع ساحل المليبار بالهند، وذلك ما نستشفه من بين ثنايا الرسالة التي أرسلها له الوزير عماد الدين حمود بن أحمد الشهير (بخواجه جيهان) وهو من أشهر رجال السلطنة البهمنية في الهند حوالي عام ١٤٧٠م(٢).

وقد كانت فترة أجود الجبري مليئة بالصراعات الداخلية القريبة من مملكته، كما حدث بين أفراد الأسرة الحاكمة في هرمز، واستعانة أحد الأخوة من أمراء هرمز بأجود لتثبيت حكمه، والصراع المستمر بين النباهنة والأئمة الأباضية في عهد ملكهم سليمان بن سليمان – كما ذكرنا – مما وفر للسلطان أجود الأجواء المناسبة لمد طموحه ونفوذه للخليج وعُمان الداخل، فأرسل قوات كبيرة إلى عُمان بقيادة ابنه سيف لمساندة الإمام عمر بن الخطاب الخروصي، الذي فقد ملكه عام ١٤٨٧م

---

(١) نور الدين علي السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، (بيروت، د.ت)، ج٢، ص٢٢٨.

(٢) عبد اللطيف الحميدان، «مكانة السلطان أجود بن زامل الجبري في الجزيرة العربية»، مجلة الدارة، العدد ٤، السنة ٧، (الرياض، ١٩٨٢)، ص٦٤.

في صراعه مع النباهنة. وقد نجحت قوات الجبور - كما يذكر ابن ماجد - في طرد زعيم النباهنة سليمان وتنصيب الخروصي مرة أخرى إماماً في عُمان، وكان ذلك في نظير أن يقدم الأئمة جزءاً من حاصلات مناطقهم الزراعية إلى الجبور سنوياً(١).

ولا أدل على قوة الجبور وانتشار نفوذهم مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي أكثر من مواجهتهم للبرتغاليين في أول دخولهم للمياه العربية في الجنوب العُماني. مما يذكره مايلز(Miles) أنه عندما حاصر البو كيرك مسقط عام ١٥٠٧م، سارع أحد زعماء الجبور على رأس قوة كبيرة لنجدة المدينة(٢). وكذلك إرسالهم قوة أخرى لنجدة صحار لما لها من صلات وعلاقة قوية بالداخل العُماني الذي كانت أجزاء منه تحت سيطرة الجبور فعلاً آنذاك. وكان لصحار أهمية في تجارة الخيول. ومما ساعد على امتداد نفوذ الجبور إلى عُمان الداخل وبعض أجزاء من الساحل هو نزاع الأئمة الأباضيين في عُمان في تلك الفترة. وتسجل لنا المصادر البرتغالية حينها أنه وصلت لصحار قوة حربية قوامها سبعة آلاف مقاتل من قبيلة الجبور، انه لولا استسلام حاكمها المبكر للبرتغاليين لكان لوصول هذه القوة شأن آخر في تغيير وضع صحار(٣).

وهاتان الحادثتان في مسقط وصحار تدلان بشكل واضح على أن الجبور - رغم إمكاناتهم - كانوا أول القوى العربية في المنطقة التي

---

(١) شهاب الدين أحمد بن ماجد، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خوري وعزة حسن، (دمشق، ١٩٧١)، ص٣٠٢، ولكن ليس هناك في المصادر العُمانية المعاصرة للحدث ما يشير إلى ذلك، وذلك لما عُرف عن الإمامة الأباضية وعدم قبولها بمساعدة خارجية لتنصيب الأئمة، وربما الإمام تلقى المساعدة بعد تنصيبه.

(٢) Miles, Op. Cit., p,155. -

(٣) صادق حسن عبدواني، الدولة العُمانية، نشأتها وازدهادرها، حصاد ندوة الدراسات العُمانية، (عُمان، ١٩٨٠)، المجلد الثاني، ص٢٠.

بدأت تقاوم الغزو البرتغالي منذ اللحظة التي وصل فيها للسواحل العربية لأول مرة. ولذا تحدث البرتغاليون بتعظيم وأهمية عن هذه الدولة وهم في بداية مشروعاتهم العسكرية لضرب تجارة العرب في الخليج العربي. ويذكر البو كيرك في مذكراته اليومية أثناء فترة غزو الجنوب العُماني «أن مسقط كانت جزءاً من مملكة هرمز، أما الجزء الداخلي من البلاد فيخضع لحاكم يدعى بن جابر (Ben Jabar) . ولهذا الحاكم شقيقان لذا فقد قسمت السلطة بين جابر وأخويه. وتمتد سلطة ابن جابر إلى عدن، ومن الشمال تمتد إلى ساحل بحر الخليج، ومنه إلى حدود مكة»(١). وهذا ما يؤكده مؤرخون برتغاليون آخرون مثل باروس الذي يصف الشيخ ابن جبر بأنه كان يحكم المساحة التي تمتد من البحرين إلى ظفار في عُمان وهي في حدود خمسمائة فرسخاً(٢). وربما كانت الحقيقة وراء هذا القول - خصوصاً وأن البرتغاليين لا يعلمون الكثير عن داخل شبه الجزيرة العربية - مرده إلى أن الجبور كانوا يغيرون على هذه المناطق ومنها موانيء ساحل عُمان ويجبرونها على دفع نوع من الضريبة أو الأتاوة لهم.

وقد تزامن وصول الغزو البرتغالي للجنوب والخليج العربي وانتشاره في تلك المناطق والبحار مع وجود السلطان (محمد بن أجود) على رأس السلطة في إمارة الجبور. وكان لابد أن يترك اضطراب التجارة في المياه الشرقية أثره على الوضع السياسي والاقتصادي لإمارة الجبور في أعقاب ذلك الغزو، إذ كانت الأحداث أكبر من أن تستطيع هذه الدولة أن تتغلب عليها وتصمد في وجهها، خصوصاً وقد أعد البرتغاليون حملتين ضد هرمز بعد عام ١٥٠٨م، كانتا على التوالي في عامي ١٥١٤ - ١٥١٥م،

(١) The Commentaries of the Great Afonso D'LBogucerqruce, Op. Cit., Vol. 1. p.66. -
(٢) س. بكنجهام؛ بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عُمان، حصاد ندوة الدراسات العُمانية (عُمان، ١٩٨٠م)، ص١٩٢.

استطاعوا بعدها إحكام السيطرة على هذه المملكة وممتلكاتها وموانئها، وصاروا يتحكمون في مداخل الخليج العربي وبعض أجزاء من سواحله. وبذا أصبح البرتغاليون في صراع مباشر مع الجبور. وبما عرف عن البرتغاليين من تفوق في قوتهم البحرية، و باتباعهم حيل سياسية واضحة بالتخفي وراء ادعاءات مملكة هرمز بحقوقها في البحرين والقطيف، تراجع الجبور وضعفت قوتهم.

أضف إلى ذلك، تلك المصاعب التي واجهت الدولة في عهد محمد بن أجود حيث أنها كانت تقع عند حدود القوى الإسلامية الثلاث الكبرى المتصارعة آنذاك في المشرق الإسلامي في وقت ظهور الغزو البرتغالي، وهي (الصفويين – العثمانيين – المماليك). وكان لابد للجبور أن يحددوا موقفاً مما كان يدور حولهم بين هذه القوى من حروب وهزائم وانتصارات، حيث أن الحياد الإيجابي لم يكن ينفع في ذلك الوقت. وغالباً فقد كان الجبور – مع عدم وجود معلومات مؤكدة حتى الآن – يميلون للتعاون والاتصال بالعثمانيين، خصوصاً بعد خضوع الحجاز للعثمانيين عام ١٥١٧م، بعد فتح مصر وسقوط الدولة المملوكية. هناك دليلان على ذلك:

١ – وجود عشرين جندياً تركياً (التفنكَجية) كما كان يطلق عليهم آنذاك، مع جيش السلطان (مقرن الجبري) حين تصديه للغزو البرتغالي على البحرين ولكن كما يبدو فأن دورهم اقتصر على تدريب جيش الجبور على الأسلحة الحديثة من بنادق ومدافع(١).

٢ – وجود ارتباط غير مباشر بين العثمانيين والجبور في قيام علاقة المصاهرة بين شريف مكة الذي يدين بالولاء للعمثانيين وبين زعيم

---

(١) عبد اللطيف الحميدان، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور»، مرجع سابق، أُنظر من هم هؤلاء التفنكجية، ص٧٩ وهامش ١٣ ص١٠٧.

الجبور مقرن بن زامل حيث زوج الأخير ابنته لهذا الشريف(١).

مقرن بن زامل الجبري: وهو الحاكم الخامس في سلالة أسرة الجبور الحاكمة في شرق الجزيرة العربية وعُمان الداخل، وقد صار مقرن سلطاناً على الجبور في العقد الثاني من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي. ويعتقد أنه ربما لجأ إلى العنف في بعض الأحيان ليصحح وضع الإمارة المعوج في ظل وجود أعمامه الضعاف الذين اقتسموا بعض الأملاك، وخاله صالح بن سيف الجبري الطامع في الحكم. ويبدو أن صالحا كان قد استولى على الأحساء لفترة من الوقت بمساعدة بعض القبائل المناهضة لمقرن، ولذا سمي (السلطان بن السلطان)(٢).

ويبدو كذلك أن السلطان مقرن استطاع بقوته وحنكته السياسية أن يحافظ على وحدة البلاد وعلى هيبة الجبور، فقد نجح في إخضاع قبائل كبيرة كانت قد تمردت على سلطان بني خالد في المنطقة الشرقية بالأحساء ونجد، ومن بني لام ويزيد ومزيد. ويستدل على ذلك من أدبيات ذلك العصر في الشعر خصوصاً(٣).

وقد كان سبب ذيوع صيت مقرن وانتشار شهرته واسمه بين آفاق شبه الجزيرة العربية والخليج هو نجاحه في إفشال هجوم (خواجه عطار) وزير بلاط هرمز على البحرين في نفس عام تولي مقرن السلطة (١٥١١م). وقد وصف ابن إياس مقرناً بأنه «أمير عربان بن جبر، متملك جزيرة ما بين

---

(١) المرجع السابق، ص ص٧٣، ٧٤.

(٢) عبد الرحمن آل ملا، مرجع سابق، ص١٩٠.

(٣) في قصيدة الشاعر (جعيثن اليزيدي) بالعامية جاء فيها في مدح السلطان مقرن:

حمى بالقنا (هجرا) إلى ضاحي اللوى ... إلى (العارض) المنقاد، نابي الفرائد

و(نجد) رعى ريعي زاهي فلاتها ... على الرغم من سادات (لام) و(خالد)

وسادات (حجر) من (يزيد) و(مزيد) ... قد اقتادهم قود الفلا بالقلايد

– انظر: عبد الرحمن آل ملا، مرجع سابق، ص١٩٤.

النهرين (البحرين) إلى بلاد هرمز الأعلى، سيد عربان الشرق على الإطلاق»(١).

وقد قامت عدة حملات برتغالية في عهد مقرن لغزو البحرين منذ عام ١٥١٤م حين حاول بيرو البو كيرك ذلك وفشل، ثم الحملات اللاحقة حتي حملة عام ١٥٢١م التي أدت إلى سقوط إمارة الجبور في البحرين وإلى تدهورهافي الأحساء بعد ذلك .

العلاقة بين دولة الجبور ومملكة هرمز:

كان للعلاقة ما بين البحرين أو إمارة الجبور تحديداً، وبين مملكة هرمز وحكامها في القرن الخامس عشر الميلادي، أثر كبير في الأوضاع السياسية والاقتصادية بمنطقة الخليج العربي وقد أدى تدهور تلك العلاقة ووصولها إلى قمة مراحل التنافر، إلى احتلال البحرين من قبل البرتغاليين والهرامزة معاً عام ١٥٢١م.

لابد أن نشير هنا إلى أنه منذ بداية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، كانت كل من القطيف والأحساء تدينان بالتبعية لمملكة هرمز، في حين أصبحت جزيرة البحرين تُحكم من قبل حكام يعينون مباشرة من قبل ملوك هرمز(٢). وظل ملك هرمز (قطب الدين فيروز شاه تهتمن) الذي حكم حتى ١٤١٧م، يلقب بملك «هرمز والبحرين والحساء والقطيف». وهذا الحال استمر ما دام لملوك هرمز هيبتهم ونفوذهم في المنطقة وكان ذلك يساعد على تثبيت الأوضاع السياسية في بلاد البحرين أيضاً. وقد استخدمت الأراضي الصالحة للزراعة في جزر

(١) ابن إياس الحنفي، مصدر سابق، الجزء الخامس (١٥١٦ – ١٥٢٢م) ص٤٣١.
(٢) عبد اللطيف الحميدان، «إمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية»، مجلة كلية الآداب، العدد ١٥، السنة ١٣، (جامعة البصرة، ١٩٧٩)، ص ص ١٠٦ – ١١٣.

البحرين لتزويد هرمز بالمؤن طوال فترة ازدهار هذه المملكة وقوتها.

وبعد عام ١٤١٧م نجد أن لقب ملك هرمز (سيف الدين مهار) والذي حكم حتى ١٤٣٥م؛ قد صار «صاحب هرمز والبحرين» وقد كان هذا الملك يبعث بالحكام من قبله إلى كل من القطيف والبحرين. ولم تذكر الأحساء ضمن نفوذه كما كان على عهد والده، وهذه النقطة تحمل على الافتراض بأن الأحساء كانت قد خرجت بعد عام ١٤١٧م عن دائرة التبعية لملوك هرمز(١).

وفي نهاية الربع الأول من القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي، أخذت مظاهر الضعف والاضطراب السياسي تبرز في مملكة هرمز، فكان الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة فيها مظهراً وسبباً في آن واحد لحالة الضعف تلك، مما شجع العرب على طول الساحل الشرقي للجزيرة العربية للتحرك بهدف التخلص من التبعية لمملكة هرمز(٢). ولعلّ ما حدث في البحرين خير مثال على ذلك.

وقد استمرت الحرب بين أفراد البيت الهرمزي لمدة أربع سنوات وانتهت لصالح فخر الدين الذي فاز بكرسي المملكة. وبهذه الحروب تعزز الدور الذي أخذ يلعبه عرب السواحل الغربية للخليج في الحياة السياسية لمملكة هرمز ومنهم عرب البحرين (آل جبور)، الذين يظهر أنهم استولوا في هذه الفترة على الحكم في البحرين. والدليل على ذلك أن المؤرخ السخاوي حين ترجم لفخر الدين تورانشاه نعته بصاحب (هرمز) فقط ولم يضف له في التعريف به أي بلد آخر كما كان يفعل مع الملوك قبله(٣). مما يدل على أن البحرين آنذاك حوالي ١٤٤٠م كانت قد خرجت من دائرة التبعية لملوك

---

(١) المرجع السابق، ص١١٣.

(٢) الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، مرجع سابق، ص٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص٤٢.

هرمز وصارت تحت سيطرة الجبور الذين تعاظمت قوتهم في شرق الجزيرة العربية، مستغلين بداية انحسار وضعف نفوذ مملكة هرمز في فترة حكم فخر الدين تورانشاه.

وقد قام الملك الهرمزي (سلغور) بعد انتصاره ووصوله للعرش بمساعدة قوات الجبور الضاربة في الخليج آنذاك، بالوفاء بالوعد وتم توقيع اتفاقية مكتوبة بين الطرفين. وهذا يعني أن هرمز قد اعترفت رسمياً بتبعية القطيف وجزر البحرين لآل جبور (١٤٧٥م). وتمثل ذكاء السلطان أجود في انتزاع صك الاعتراف رسمياً بخاتم الملك الهرمزي لتنتهي كل حقوق الهرامزة في هذين الإقليمين. ومع ذلك تساهل السلطان أجود بأن قبل باحتفاظ سلغور بملكية بعض البساتين العامرة في جزيرة أوال البحرينية. إلاّ أنّه يبدو أنّ سلغور كان قد قبل الاتفاق على مضض ووقعه وهو كمن يتجرع السم، ولذا ندم بعد ذلك على تنازله عن حقوق ملكيته للبحرين الغنية. ويبدأ هذا الملك يتراجع ويعد العدة للقضاء على الجبور من جديد في البحرين والقطيف وذلك لعدة أسباب:

١ - الأزمة الاقتصادية التي وقعت فيها هرمز نتيجة للصراع الأسري الطويل ولظروف الحروب علي حدودها في فارس وانتقال طرق التجارة للبحر الأحمر، ولذا كانت هرمز تعتقد أن هذه الأزمة ستخف باسترجاع القطيف والبحرين.

٢ - إنّ شهرة أجود وإمارته فاقت في هذه الفترة شهرة هرمز وملكها، لدرجة أن أجود صار يلقب بسلطان «البحرين والقطيف والأحساء ورئيس أهل نجد»، وهي ألقاب كان ملوك هرمز يترنمون بترديدها وحمل بعضها طوال تاريخ مملكتهم إبّان عهود قوتها. وكما وصلت شهرة أجود والجبور إلى الهند، حيث تمت المراسلة بين مملكة الدكن البهمنية الإسلامية والجبور - كما ذكرنا - وازدياد العلاقات

التجارية بينهما. ويذكر الحميدان، أنه على الرغم من الروابط الوثيقة التي كانت تربط ما بين البهمنيين والهرامزة فإننا لا نملك دليلاً قوياً يؤيد وقوف مملكة الدكن البهمنية إلى جانب الهرامزة في صراعهم الطويل ضد الجبور في الخليج(١).

غزو هرمز للبحرين:

أرسل سلغور لاحقاً عدة حملات بحرية ضد جزر البحرين والقطيف وكانت إحداها بقيادته وأخرى بقيادة وزيره، إلاّ أن الجبور بقيادة السلطان أجود وابنه سيف تصدوا بعنف لهذه الحملات وأحبطوها، مستفيدين في ذلك من تفوقهم العسكري في البر(٢).

وبعد أن يئس سلغور من الانتصار على قوة الجبور الضاربة في الخليج وأدرك أن تسوية الأمور عن طريق تحقيق نصر عسكري حاسم ضد إمارة الجبور غير ممكن ، فضّل الحل السلمي. وكان نفس هذا التوجه قد بدأ يظهر لدى أجود منعاً منه لإراقة مزيد من الدماء. وهذا ما يؤكده المؤرخ البرتغالي (دي باروس)، حين تم توقيع إتفاقية بين هرمز والجبور نصت على ما يلي(٣):

١ - تكون جزر البحرين تحت إدارة الجبور.

٢ - يعترف الجبور بتبعية هذه الجزر لمملكة هرمز.

٣ - بموجب حقوق تلك التبعية الإسمية يقوم الجبور بدفع مبالغ سنوية (مقررات) من واردات هذه الجزر إلى هرمز.

---

(١) الحميدان، مكانة السلطان أجود بن زامل في الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص٦٧.
(٢) الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، مرجع سابق، ص٥١.
(٣) الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، مرجع سابق، ص٥١، ٥٢ نقلاً عن
Ormuau De' but du xvle siecle, in Marelaso - Indicum, 11 (1973), pp.124, 125.]
[- Jean Aubin, "Leroyaumed",

ومع أن هرمز لم تكن راضية عن هذه الاتفاقية لأنها تعكس عجزها وتظهر قدرة الجبور، إلاّ أنها ظلت سارية المفعول لسنوات عديدة، حتى مجيء البرتغاليين للخليج وغزوهم هرمز ١٥٠٨م، ثم قيام «خواجه عطار» بتنفيذ تهديده بغزو البحرين عام ١٥١١م. وكان عطار شخصياً على رأس الحملة البحرية الكبيرة ضد جزر البحرين التي نجحت في احتلالها أول الأمر لفترة قصيرة(١)، إلاّ أنّ قوات الجبور البرية في عُمان دُفعت على عجل وقد أُرسل لها مدد آخر كبير نحو سواحل عُمان، ومن هناك أطل الجبور على خليج هرمز وهددوا (خواجه عطار) باكتساح ممتلكات هرمز كلها في الساحل العُماني والاستيلاء على موانئها إذا لم ينسحب من جزر البحرين.

وهنا أسقط في يد «عطار» الذي أدرك قوة الجبور وعرف مناوراتهم العسكرية الخطيرة، وصدق تهديداتهم، وقدّر عطار نتائج هذا التهديد إذا مانفذوه وأغلقوا مدخل الخليج العربي في وجه السفن التجارية المتجهة من المضيق إلى هرمز مما يعني خنقاً ودماراً حقيقياً لهرمز. لذا انصاع وزير هرمز لهذه التهديدات وانسحب من البحرين تاركاً حكمها لآل الجبور(٢).

ورغم ذلك فإنّ العلاقات بين الدولتين «الجبور والهرامزة» لم تتحسن،

---

(١) وربما حدث ذلك بسبب خيانة أحد مساعدي مقرن في الجزيرة وتطلق عليه المصادر البرتغالية اسم (فرير بن رحال) ولعله (غرير)، حيث إن السلطان مقرن قد أعدمه على الفور عندما ظفر به بعد انسحاب خواجه عطار من الجزيرة، أنظر عبد الرحمن آل ملا، تاريخ هجر، مرجع سابق، ص١٩١.

(٢) الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، مرجع سابق، ص ص ٥٢، ٥٣.

(٣) من الطريف في أمر هذه الادعاءات أنها انتقلت إلى بلاطات حكام فارس بعد استيلائهم على هرمز نهائياً وتدميرها ووراثة مطالبها في البحرين خلال القرن السابع عشر الميلادي، وقد توصلت تلك الادعاءات والمطالب بأحقية فارس في البحرين وتبعيتها لهم حتى عهد شاه إيران السابق وحتى استقلال البحرين ١٩٧١م حين عوضته بريطانيا عن تلك المطالب بالسكوت عن احتلاله الجزر (طنب الكبرى والصغرى وأبو موسى) في مدخل الخليج العربي قبل قيام اتحاد الإمارات بأيام قليلة ١٩٧١!!!.

وظلت أطماع الهرامزة ماثلة في خيرات جزر البحرين، ولم تتوقف قط(٣). وقد استغل البرتغاليون تلك الادعاءات الهرمزية بعد ذلك ليحتلوا البحرين ويضموها لممتلكاتهم عام ١٥٢١م.

الصراع الزيدي الطاهري في اليمن

يتميز تاريخ اليمن بخضوعه لطبيعة التضاريس الجغرافية من جبال وسهول ووديان تفصل بعض المناطق فصلاً سياسياً أحياناً بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، ثم تأتي النواحي الدينية والمذهبية (العقائدية والفكرية) منها لتزيد أثر هذا الفصل الجغرافي وتحدد أنواع وأسماء الدول التي قامت في اليمن وتنازعت السلطة السياسية طوال التاريخ اليمني حتى العصر الحديث.

الجنوب العربي: يقصد بمنطقة الجنوب العربي تلك المنطقة الجغرافية الواقعة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية والتي تشمل أراضي حضرموت والمهرة المتاخمة لعُمان شرقاً، وعدن وما حولها حتى باب المندب غرباً بامتداد ساحل المحيط الهندي جنوباً قرب بحر العرب، وأراضي اليمن شمالاً حتى حدود (المملكة العربية السعودية حالياً) ويحدها البحر الأحمر بامتداد الطرف الجنوبي من ساحله الشرقي حتى باب المندب(١).

وبسبب هذا الموقع جاءت الأهمية الجغرافية والاستراتيجية والاقتصادية لليمن في طرق التجارة الدولية منذ القدم وذلك بإطلاله على الضفة الشرقية لباب المندب الذي يتحكم في حركة النقل والتجارة البحرية ويصل إلى الهند وما يليها في شرق آسيا بأوروبا عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر ثم إلى البحر المتوسط، لذا ظلت اليمن منذ أقدم

---

(١) محمود كامل المحامي، اليمن شماله وجنوبه، تاريخه وعلاقاته الدولية، (بيروت، ١٩٦٨) ص٥.

العصور ملتقى القوافل والسفن التجارية الوافدة من الإمبراطورية الرومانية وفارس والحبشة والهند والصين وغيرها من البلاد(١).

إلاّ أنه من الملاحظ عند دراسة تاريخ اليمن أن الموقع والمميزات الطبيعية الكبرى التي تمتع بها هذا البلد لم تكن دائماً نعمة صافية خالصة، وإنما كانت أحياناً نقمة مشوبة بالمأساة أو نقمة عادت عليه وعلى أهله بالكوارث. فقد جر عليه هذا الموقع الحيوي المهم تهديد القوى الإمبراطورية الطامعة في السيطرة على اليمن للإشراف على طرق التجارة الدولية في تلك العصور وذلك منذ محاولات اليونان والبطالمة والروم (البيزنطيين) والأحباش والفرس قبل الإسلام، حتى محاولات الدول الإسلامية من أموية وعباسية وأيوبية ومملوكية وغيرها للسيطرة عليه وانتهاء بالخطة البرتغالية الاستعمارية الكبرى للسيطرة على اليمن وتحويل طريق التجارة من البحر الأحمر بإغلاق باب المندب إلى طريق رأس الرجاء الصالح في مطلع القرن السادس عشر الميلادي(٢).

أوقع تطرف موقع اليمن بالنسبة لمركز الدولة الإسلامية الكبرى ووجود المناطق الجبلية الحصينة في شماله، وامتناع جنوبه عند البحر، وأطماع القوى المختلفة في الاستفادة من موقعه وثروته الاقتصادية وفي اتخاذه ملاذاً ومركزاً لنشاطاتها المختلفة، اليمن فريسة لحروب ومنازعات وفتن داخلية لا حصر لها، ويمكن أن نذكر منها بشكل خاص تلك التي وقعت بين الإمامة الزيدية الهاربة من بطش الأمويين والعباسيين إلى جبال اليمن الشمالية، وبين الدول الإسلامية المستقلة في

---

(١) يحيى بن الحسين بن القاسم، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، (القاهرة، ١٩٦٨)، الجزء الأول، ص٤.

(٢) خالد بن محمد القاسمي، الوحدة اليمنية حاضراً ومستقبلاً، (بيروت، ١٩٨٧م)، ص١٢؛ كذلك أُنظر، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، مصدر سابق، ج١، ص٤.

(٣) غاية الأماني، مصدر سابق، ص ص ٣، ٤؛ خالد القاسمي، مرجع سابق، ص١٤، وقد توفي الرسول الكريم وفي اليمن ستة من عماله على مناطق (صنعاء، نجران، الجند، حضرموت، تهامة، مأرب).

اليمن وبالذات الدولة الطاهرية(٣).

وظل اليمن مقسماً تقسيماً طبيعياً وسكانياً إلى القسمين الذين ذكرناهما (سهلي ساحلي - جبلي داخلي) حتى منتصف القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي)، حيث شهد ذلك القرن ظهور الدول المستقلة في اليمن بسبب ضعف الخلافة العباسية وتفككها وذلك كما حدث في بقية أنحاد تلك الخلافة. وقد عاصر ظهور الدول المستقلة في اليمن ظاهرة انقسام البلاد إلى عدد من الإمارات والإقطاعيات التي تزداد عدداً كلما ازدادت الدول المركزية في زبيد وتعز وصنعاء، ضعفاً.

وقد أقام المذهب الزيدي أول دولة له في اليمن على يد الهادي إلى الحق «يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي» الذي ولد في المدينة المنورة عام ٢٤٥هـ، في أحضان دعوة والده القاسم وأخذ بعدئذ يكوّن لنفسه رأياً عقائدياً زيدياً في الحجاز، ثم انتقل إلى اليمن وعرفت آراؤه هناك باسم «الهادوية»(١). وأقام أول دولة زيدية في اليمن بدءاً من عام ٢٨٤هـ (٨٩٧م) واستمر تاريخ هؤلاء الأئمة منذ ذاك الوقت حتى عام ١٩٦٢م حيث انتهى بسقوط نظام الإمامة وقيام الجمهورية العربية اليمنية.

الطاهريون في اليمن:

قامت الدولة الرسولية التركمانية في اليمن في الفترة من عام ١٢٢٩ إلى ١٤٥٤م، واتخذت تعز عاصمة لها(٢). وكان بنو طاهر عمال تلك الدول في ميناء عدن المهم تجارياً. وعندما ضعفت الدولة الرسولية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر خرج عليها بنو طاهر بزعامة علي بن طاهر وعامر بن طاهر الأول في عدن ولحج، واللذين قاما بالقضاء على

---

(١) أبو زهرة، مرجع سابق، ص ص ٤٩٥، ٤٩٦.

(٢) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ج١، ص٣٦.

آخر فلول الرسوليين عام ٨٥٨هـ (١٤٥٤م). وبذلك نستطيع اعتبار هذا التاريخ بداية تأسيس الدولة الطاهرية في عدن(١). ثم امتدت هذه الدولة إلى بقية أنحاء اليمن. ومن هنا جاء اصطدامها الحتمي والمتوقع مع الإمامة الزيدية في شمال اليمن .

ومع قيام دولة بني طاهر انشغلت القوى الزيدية بالصراعات والحروب الداخلية فيما بينها بسبب وجود أكثر من إمام في وقت واحد، فاستغل بنو طاهر هذه الحالة من التصدع في الكيان الزيدي لصالحهم وعملوا علي التقرب من الأطراف المتنازعة كل على انفراد، ثم اجتهدوا بعدئذ في توسيع شقة الخلاف واستمرار القتال فيما بينها مما أدى في النهاية إلى إضعافهم واستنزاف قوتهم لصالح الطاهريين. وفي ذات الوقت تجنب بنو طاهر الدخول في صراع مباشر ضد خصومهم الأئمة الزيديين، بل نجدهم وقد تفرغوا أساساً لتكريس جهودهم في توطيد دعائم دولتهم في اليمن شرقاً وجنوباً وغرباً(٢).

عندما تولى عامر بن عبد الوهاب الحكم عام ١٤٨٩م، كان حوالي ثلثي اليمن تحت سيطرة الطاهرين، أما الثلث الباقي فقد كان موزعاً بين عدد كبير من الأئمة الزيديين في الشمال على شكل إقطاعيات قبلية صغيرة(٣). ولم يكن ذلك بالمستغرب في هذه البلاد، ففي نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر الميلادي أضحت اليمن بسبب الصراعات الداخلية مقسمة إلى طبقة إقطاعية في غرب وجنوب البلاد تدين بالمذهب السني، وطبقة شبه قبلية وشبه إقطاعية في شمال شرق اليمن تدين بالمذهب الزيدي. وعلى ذلك فقد تبلور الصراع، فصار بين الإقطاع القبلي في القسم

---

(١) أحمد فضل بن علي محسن العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، (بيروت، ١٩٨٠م)، ص٨٩.
(٢) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، (الاسكندرية، ٩٨٩م)، ص ص ٣١٣، ٣١٤.
(٣) سيد مصطفى سالم، مرجع سابق، ص٥٠.

الجبلي الأعلى من اليمن، والإقطاع الزراعي في القسم السهلي الأسفل من البـــلاد(١).

وقد بدأت أولى حروب عامر بن عبد الوهاب ضد الزيدية في مدينة «ذمار» التي تعتبر مفتاح البلاد الواقعة تحت نفوذ الأئمة آنذاك، فغزاها عامر بنفسه وكان ذلك بعد عام تقريباً من توليه الحكم في ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م)(٢). ثم بعد عام ٩٠٠هـ / ١٤٩٦ - ١٤٩٧م بدأت أشد الفصول عنفاً ودموية من سابقتها في مسلسل الصراعات الزيدية الطاهرية، وذلك بسبب رغبة السلطان عامر في السيطرة على كافة الجهات اليمانية، خصوصاً بعد ظهور شخصية زيدية قوية ومثابرة سعت إلى مد نفوذ الزيديين للجنوب اليمني وهو الإمام محمد بن علي السراجي المعروف بالإمام «الوشلي» الذي كان يرنو لتوسيع أملاكه على حساب الطاهريين ويعمل على فرض إمامته بالأمر الواقع(٣).

ودارت رحى المعارك الطاحنة بين الجانبين الزيدي والطاهري وبالذات بين عامر بن عبد الوهاب والوشلي على أبواب ذمار وصنعاء، التي استولى عليها السلطان عامر أخيراً عام ٩٠٧هـ(٤)، ثم اضطر للانسحاب منها سريعاً لاتفاق كلمة أئمة الزيدية في الشمال ضده آنذاك. هذا وقد كان مثل هذا الاتفاق يحدث دائماً في حالة تعرض النفوذ الزيدي للضغوط من جانب القوى اليمنية الأخرى تجاه معاقل الأئمة في شمال الوطن اليمني(٥).

---

(١) محمد علي الشهاري، الخروج من نفق الاغتراب وإحداث ثورة ثقافية في اليمن، (بيروت، ١٩٨٣م)، ص١٦.

(٢) ابن الديبع، الفضل المزيد، مصدر سابق، ص ص ١٨١، ١٨٢؛ بينما يذكر د. سيد مصطفى سالم أن السلطان عامر لم يصطدم بالزيديين إلا بعد ثلاثة عشر عاماً من توليه الحكم في حصاره الأول لصنعاء عام ٩٠٧هـ، ص٥٢.

(٣) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ج٢، ص٦٢٨.

(٤) عبد الرحمن بن علي الديبع، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، مخطوط (دار الكتب المصرية، رقم ٢٢٤، تاريخ) ص١٤٥؛ يحيى بن الحسين، مصدر سابق، جـ٢، ص٦٢٨.

(٥) ابن الديبع، الفضل المزيد، مصدر سابق، ص٢٧٢.

لكن السلطان عامر عاد مرة أخرى وحاصر صنعاء في ربيع الأول عام ٩١٠هـ (١٥٠٤ – ١٥٠٥م) وهو نفس عام اقتراب البرتغاليين من المياه اليمنية(١)، ويُقال بأن جيوش عامر بلغت في هذه الحروب حوالي مائة وسبعون ألف نسمة من المشاة، أما الفرسان فكانوا حوالي ثلاثة آلاف، وبعد حصار دام سبعة أشهر للمدينة، اضطرت للاستسلام ولاسيما بعد هزيمة الإمام الوشلي على أبوابها وكذلك بقية الأئمة الذين جاءوا لمساعدة أهاليها. وكما يذكر ابن الديبع في قرة العيون «سلموا المدينة للسلطان، فأعطاهم الذمة وسلموا أنفسهم لأهل السنة والجماعة»(٢).

ومع هذه النجاحات الطاهرية الكبيرة ضد الزيدية، عانت اليمن الأمرّين عند بدء الغزو البرتغالي للمياه الشرقية جراء مشكلات النزاع على السلطة، خصوصاً وأن الإمام شرف الدين عاود النزاع من جديد ضد السلطان عامر. ولعب هذا الصراع دوراً خطيراً عند بداية التاريخ الحديث في فترة الغزو البرتغالي لليمن ومواجهة المماليك في مصر له، وكان هذا الدور أحد أسباب سقوط الدولة الطاهرية في البلاد نهائياً. ولا ندعي بأن الإمامة هي السبب المباشر في سقوط الدولة الطاهرية، فلا شك أنه كان لتحول طرق التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح واحتكار البرتغاليين لها في مطلع القرن السادس عشر، الأثر المباشر في ضعف الإمكانات الاقتصادية لليمن كافة وعدن بشكل خاص، مما أتاح الفرصة للشماليين الزيديين لمد نفوذهم إلى باقي جهات اليمن والعمل على دق

(١) يحيى بن الحسين، مصدر سابق، ص٦٣٣؛ ابن الديبع، قرة العيون، مخطوط، ص١٤٦، ويذكر أنه في عام ١٥٠٦م بدأ الغزو البرتغالي لجزيرة سوقطرة التابعة لليمن، وللدلالة على عدم إدراك القوى اليمنية المتصارعة لخطورة هذا الغزو العسكري الاقتصادي الصليبي للمنطقة، فقد كانت موارد اليمن تستنزف في حروبه الداخلية بين الطاهريين والزيديين.

(٢) ابن الديبع، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، مخطوط، ص١٤٧؛ محيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، (بغداد، ١٩٣٤م)، ص٥٣.

أسفين في عرش الطاهريين(١)، مستغلين في ذلك قلة موارد الطاهريين المالية التي كانت تساعدهم قبل ذلك في تجيّش الأعداد الكبيرة من القبائل للقتال ضد الزيديين خلال سنوات الرخاء.

ومن هنا رأينا موقف هؤلاء الزيديين من القوى المملوكية الممتدة لليمن واغتنام فرصة ذلك الصراع والفوز الذي تم عليهم على يد الأمير حسين الكردي لتوجيه ضربة قاضية أصابت الدولة الطاهرية في مقتل. وقد أدى هذا الأمر لاستئثار القوى الزيدية بالحكم في اليمن لخلو البلاد من قوى أخرى منافسة. وقام الزيديون بمقارعة الغزاة بعد ذلك، وبعد أن استنفذوا السبب من قدومهم، كما قاوموا أيضا الوجود العثماني في اليمن، وكذلك وقفوا ضد القوى الأوروبية حيناً من الدهر بعد أن تكالبت تلك القوى على غزو اليمن، والجنوب بالذات. وظلت الإمامة الزيدية بذلك أقوى سلطة مذهبية سياسية في اليمن فقد كانت تمثل شكلاً من أشكال الوحدة اليمنية القبلية التي فُرضت بالقوة أحياناً، وظلت تهيمن على اليمن حتى تم سقوطها عام ١٩٦٢م، وانتقال اليمن إلى طور آخر في العصر الحديث.

(١) سيد مصطفى سالم، مرجع سابق، ص٥٥.

الفصل الرابع

الغزو البرتغالي لعمان والخليج العربي

- أهمية الخليج العربي في التجارة العالمية.
- غزو البرتغاليين لمسقط وساحل عمان.
- السيطرة البرتغالية على هرمز.

الغزو البرتغالي لعمان والخليج العربي

أهمية الخليج العربي في التجارة العالمية

تنبع أهمية الخليج العربي(١) الرئيسية، في كونه أحد أهم طرق التجارة العالمية عبر العصور المختلفة، وذلك يعود لعدة عوامل منها:

أ - العامل الجغرافي:

ويأتي هذا العامل في مقدمة الأسباب الخاصة بازدهار التجارة والملاحة في حوض الخليج العربي، ذلك أن هذا الخليج يمتد على شكل ذراع بحري في جنوب غرب آسيا ليشكل أحذ أذرع المحيط الهندي، أو كما يقول الحموي «هو شعبة من بحر الهند الأعظم»(٢)، بينما يشكل البحر الأحمر الذراع الآخر الموازي له في الموقع الجغرافي والأهمية. وبالتالي يشكل الإثنان نقطتي الوصل بين حوض البحر المتوسط والمحيط الهندي. وقد ظهرت أهمية الخليج العربي والبحر الأحمر وتنافسهما على مركز الصدارة في التجارة مع بدء العصر «الهليني» اليوناني، فقد كانا قبل ذلك التاريخ في فترة انعزال كل منهما عن الآخر(٣).

---

(١) الخليج العربي: سأستخدم هذه التسمية بناءً على أن الدول العربية المطلة على سواحل الخليج هي الأكثر مساحة ابتداء من جنوب العراق في رأس الخليج حتى سلطنة عُمَان بعد رأس ما سندم جنوباً، دون الدخول في مناقشات حول إثبات عروبة سواحله أو فارسيتها، رغم إصرار إيران حتى الآن على تسميته بالخليج «الفارسي» استناداً إلى تلك التسمية التي أطلقها عليه الاسكندر المقدوني أثناء حروبه ضد الإمبراطورية الفارسية، عندما وصل إلى شمال الخليج وشاطئه الشرقي، ووجد نفسه قرب السواحل الفارسية، أطلق عليها «خليج فارس» عام ٣٢٥ق.م، ظناً منه أن كل البلاد والأقوام التي تسكن هذه البقعة هم من الفرس فقط، وهذا ما فعله المصنفون الجغرافيون المسلمون بعد ذلك وتبعهم الغربيون، أنظر للمزيد.. ياقوت الحموي، مصدر سابق، مج٢، ص ص ٦٨، ٧١، حسين المسري، تاريخ العلاقات السياسية بين العراق والخليج العربي، (بيروت، ١٩٨٢) ص٤٦.

(٢) ياقوت الحموي، مصدر سابق، مج٢، ص٦٨.

(٣) جورج فاضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، (القاهرة، ١٩٥٨) ص ص ٥٣، ٥٤.

ويقدر طول الخليج بحوالي ستمائة وخمسة عشر ميلاً (تسعمائة وتسعين كم)، أما مساحته فهي اثنان وتسعون ألفاً وخمسمائة ميلاً مربعاً (أربعة عشرون ألفاً كم٢)، وقد ساعدت كثرة تعرجاته وفرة خلجانه وأخواره على الملاحة وكذلك وجود الموانيء البعيدة عن التيارات البحرية الخطرة والعواصف[١].

ثم أن الخليج العربي يمثل مركزاً جغرافياً وسطاً بين دفتي العالم الإسلامي في شرقه وغربه، صار بهذا الموقع بحيرة عربية وبحيرة إسلامية في آن معاً[٢].

ويتم الاتصال المائي التجاري للقوافل البحرية القادمة من بحار الشرق، عند رأس الخليج العربي حيث نهرا دجلة والفرات، إذ يعتبر هذان النهران امتداداً طبيعياً للخليج العربي مما جعله طريقاً مباشراً إلى موانيء البحر المتوسط، حيث لا جبال شاهقة ولا صحراء متعبة تعيق وصول التجارة عبر الأنهار أو الأراضي العراقية لثغور الشام التجارية. ثم أن العراق نفسه كان اكتسب أهميته لاتصال نهريه (دجلة والفرات)، بالخليج. وبالتالي كان غنى العراق من تجارة الشرق الواردة إليه عبر الخليج العربي. فقد أصبح العراق يتحكم في نقل تجارة السلع الشرقية إلى موانيء البحر المتوسط منذ صدر الخلافة العباسية، أضحت البصرة ومينائها «الأبله» منتهى مطاف السفن القادمة من الهند والصين[٣] ومن ثمّة إلى بغداد حتى تصل إلى موانيء (صور وصيدا) بالشام حيث تنقلها سفن البندقية وجنوه إلى أسواق أوروبا[٤]. وكانت التوابل المجلوبة من مناطق أندونيسيا الحالية وساحل المليبار بالهند تشكل نسبة كبيرة من هذه التجارة.

---

(١) مصطفى النجار وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، (جامعة البصرة، ١٩٨٤)، ص٧.

(٢) محمد متولي، حوض الخليج العربي (القاهرة، ١٩٧٠) الجزء الأول، ص٦.

(٣) جورج فاضلو حوراني، مرجع سابق، ص، ٢٠٥.

(٤) يذكر أنه في مواسم التجارة كان يرد إلى سواحل الشام حوالي (١٥ ألف راحلة) محملة بالسلع الشرقية المتنوعة، لتعود إلى الشرق بالسلع الأوروبية المختلفة، أنظر:- Danvers, op. cit., p.117.

وقد تفوقت في فترات متعددة التجارة المنقولة عبر الخليج العربي على مثيلاتها في البحر الأحمر فبلغت في بعض الفترات ثلاثة أمثالها، على الرغم أيضاً من قصر المسافة بين السويس والإسكندرية مقارنة بموانىء الشام والبصرة. وعلى الرغم من شدة الحرارة خلال فصل الصيف في المنطقة كذلك وتعرض القوافل التجارية لغارات القبائل البدوية(١).

بناءً على هذا الموقع الجغرافي في قلب العالم القديم، فقد صار الخليج العربي جغرافياً واقتصادياً أحد نقاط الوصل بين الشرق والغرب، ومعبراً بين إقليمين طبيعيين، كانت منتجات كل منهما تعتبر المواد الضرورية لبناء الحضارة الإنسانية وتحقيق الرفاهية للبشر. ويعرف الإقليم الأول، الذي يقع جنوب الخليج، باسم الإقليم الموسمي، ويشمل بلاد الهند والصين وشرق أفريقيا أي عالم المحيط الهندي، والإقليم الثاني الذي يقع شمال غرب الخليج ويعرف باسم إقليم البحر المتوسط. وقد جعلت الخصائص الطبيعية والمناخية من الإقليم الثاني المستهلك الرئيسي لمنتجات الإقليم الأول الموسمي الاستوائي، وأصبح التبادل بينهما ضرورة تحتمها الأوضاع الاقتصادية لكل من الإقليمين(٢).

ثم أن الالتصاق بين الخليج العربي - كممر مائي - ومنطقة الهلال الخصيب بين جبال زاجروس وطوروس شرقاً وهضبة شبه الجزيرة العربية جنوباً وبادية الشام غرباً وشمالاً، خلق بدوره جسراً آخر وساعد قيام مراكز الملاحة والتجارة على سواحل الخليج، وعلى ربط قارات العالم القديم، آسيا وأفريقيا وأوروبا، بوحدة اقتصادية وحضارية متبادلة المنافع. والخليج لا يقل أهمية في ذلك عن حوض البحر المتوسط

(١) عبد العزيز، عوض، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، (الأردن، ١٩٩٢م). الجزء الأول، ص٧.
(٢) سليمان إبراهيم العسكري، التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي، (القاهرة، ١٩٧٢م) ص ص ٦، ٧.

بل ونافسه أيضاً لفترات غير قصيرة من الزمن، وذلك لخلو الخليج وطرقه التجارية من الحواجز والموانع الطبيعية[1].

ثم أن تعدد الموانىء التجارية الصالحة لرسو السفن في الخليج العربي قد ساعد من عوامل ازدهار حركة التجارة فيه وتواصلها مع المحيطين الهندي والهادي وبالذات في العصر العباسي خلال القرن الثالث الهجري، حيث عد المؤرخون ذلك القرن، قمة نشاط الحركة التجارية في الخليج، أو ما يطلق عليه العصر الذهبي للخليج العربي. واستمر ذلك العصر المزدهر حتى قدوم البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي واحتلال موانىء الخليج ومراكزه التجارية الاستراتيجية التي كانت تقوم بدور رئيسي في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب. وقد حققت تلك الموانىء قبل أن يسيطر عليها الغزاة قدراً كبيراً من الثراء والازدهار الحضاري[2].

وكان مما ساعد على استمرار التجارة في الخليج العربي وتطورها خلال تلك الفترة، هو استقرار الأمن في المنطقة بسبب ما قامت به الدول الإسلامية المتعاقبة من منع القرصنة في مياهه، خصوصاً في فترة رخاء الخلافتين الأموية والعباسية[3].

غزو البرتغاليين لمسقط وساحل عمان

كانت أهداف مخططات البرتغاليين ومشاريعهم منذ بدء الكشوف الجغرافية، مرتبطة أساساً بالعمل للسيطرة على طرق التجارة العالمية في المحيط الهندي وانتزاعها من أيدي العرب والمسلمين وخصوصاً تلك

(١) قدري قلعجي، الخليج العربي (بيروت، ١٩٥٤م) ص٢٥، سليمان العسكري، مرجع سابق، ص٥.
(٢) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول، مرجع سابق، ص ص، ٤٥، ٤٦.
(٣) جورج فاضلو حوراني، مرجع سابق، ص١٩٥.

الطرق التي تمر بطريق الخليج العربي والبحر الأحمر. وقد تركزت خطط البرتغاليين على العمل على إغلاق هذه الطرق في وجه التجار العرب والمسلمين بعد ذلك، وذلك لإضعاف العالم الإسلامي اقتصادياً والقضاء على الوساطة العربية التجارية بين أوروبا والمناطق الآسيوية المنتجة للتوابل والعقاقير والعطور والذهب ثم تحويل فوائد تلك التجارة لتصب في أيدي البرتغاليين. فقد عمد البرتغاليون إلى استكشاف طريق رأس الرجاء الصالح، الذي صار تحت أيديهم واحتكارهم منذ عام ١٤٩٧م، وذلك بعد رحلة فاسكو دي جاما، التي أصبح البرتغاليون بعدها سادة التجارة والملاحة في العالم، كما أطلق الملك مانويل الأول على نفسه.

من هذا المنطلق في السيطرة والاحتكار ولتحقيق أهدافهم الصليبية بدأ القادة البرتغاليون بتخريب الموانىء العربية في الخليج العربي والبحر الأحمر، وبالذات في ساحل عُمَان وهرمز وعدن وباب المندب. وقد قام قادة أهم الحملات البرتغالية في مطلع القرن السادس عشر ضد الجنوب والخليج العربي، ونعني بها حملة داكونها والبوكيرك عام ١٥٠٦م. بتنفيذ هذا العمل.

والحقيقة أن نتائج تلك الحملة شكلت انتصاراً كبيراً لإحدى السياستين اللتين كانتا تصبغان أهداف الكشوف الجغرافية البرتغالية في القرن السادس عشر. فمع تأسيس الإمبراطورية البرتغالية في بحار المشرق برزت سياستان الأولى يمثلها جناح القائد البرتغالي فرانسيسكو دالميدا، وهو أول نائب للملك في الهند في الفترة (١٥٠٥ - ١٥٠٩م) وتتمثل في ضرورة إقامة مراكز تجارية على السواحل الاستراتيجية في الهند وشرق أفريقيا لمزاولة الأعمال التجارية البحتة ومطاردة السفن التجارية الإسلامية في سواحل الهند بالذات، باعتبارها أهم مراكز تجارة الشرق الإسلامية لقطع شريان التجارة الحيوي بين هذه السواحل والدول

الإسلامية التي تعتمد عليها في الخليج والبحر الأحمر مثل هرمز ومصر(١). ولم يكن دالميدا يؤيد أسلوب الغزو المسلح وتدمير الموانىء التجارية وقد حاول تطبيق مبادىء هذه السياسة بعد استقراره كأول نائب للملك في الهند.

أما السياسة الأخرى، فقد كان يمثلها البو كيرك وأنصاره في البلاط البرتغالي. ساهم البوكيرك في إقامة أسس الإمبراطورية البرتغالية في بحار الشرق بشكل فعال، وكان يرى أنه لكي يتم حماية الإمبراطورية وتوسيعها مستقبلاً بشكل مطرد، وللمحافظة عليها من التفكك السريع لطول المسافة بينها وبين البرتغال، فيجب الاستيلاء على أكبر عدد من المدن التجارية والموانىء الرئيسية الإسلامية الكبرى في المحيط الهندي، وإقامة القلاع والحصون المنيعة لضبطها بالإضافة الى تأسيس المراكز التجارية، وربط هذه القلاع والمراكز بملك البرتغال مباشرة حتى تظل الإمبراطورية البرتغالية مترابطة الأطراف تُدار من لشبونة(٢). وقد كان ذلك – في رأي البو كيرك – أفضل من مجرد القرصنة في البحار الهندية ضد السفن الإسلامية المحملة بالسلع الشرقية وإحراقها أو سلبها وقتل رجالها. ومع ذلك فقد طبق البو كيرك – كغيره من القادة البرتغاليين – هذا الأسلوب الأخير أيضاً.

فكيف نفذ البو كيرك هذه السياسة البرتغالية التي صبغت عصراً بكامله بدأه البو كيرك في ساحل عُمَان والخليج العربي، وكيف أبعد دالميدا عن الساحة وحل محله في قيادة الإمبراطورية؟؟.

---

(١) - Bell, Op. Cit., P.107; Wilson, Op. Cit., p.112.

(٢) حتى أطلق علي البو كيرك لقب: «قائد القلاع العسكرية».. أُنظر..
Serjeant, Op. Cit., P.15; Bell, Loc. Cit.

البو كيرك في بحار الشرق:

أولاً لابد من التنبيه هنا إلى أن واقع المصادر والوثائق التاريخية يقول بأننا نعتمد في تتبع تاريخ مراحل السيطرة البرتغالية في بحار الشرق والمياه العربية بالذات في عُمَان والخليج العربي، على ما خلفته لنا الحوليات والمذكرات وأخبار الرحلات البرتغالية في المنطقة مع مطلع الكشوف الجغرافية البرتغالية. ولم تتحدث كتب المؤرخين العمانيين – مثلاً – إلاّ عن انتصارات الإمام ناصر بن مرشد اليعربي على البرتغاليين في مطلع القرن السابع عشر، دون أن تذكر أي تفسير للطريقة التي جاء بها البرتغاليون إلى المنطقة. أما المذابح وأعمال السلب والنهب والتدمير التي قام بها البو كيرك ضد سكان الساحل العماني فلم يذكرها مثلاً المؤرخ العماني السالمي، بأكثر مما أغفل ذكرها سرحان الأزكوى أو ابن رزيق أو غيرهم. ومن هنا يجد الباحث نفسه مضطراً للجوء إلى ما كتبه البو كيرك في مذكراته أو ما سجله باربوسا أو سوزا أو غيرهم من البرتغاليين رغم ما يشوب كتابات هؤلاء القادة وآرائهم من نظرة صليبية واضحة ضد المسلمين فقد كانوا يعتبرونهم حسب وصف البابا نيقولا الخامس لهم في عام ١٤٥٤م «أعداء الله وأعداء المسيح» ويرون أنهم أدنى منهم درجة.

والحقيقة أن ذكر القائد البرتغالي «أفونسود البو كيرك» (Afonso Da lbuquerque) [(١)]. يرتبط تماماً بذكر الغزو البرتغالي لمراكز وموانىء

(١) البو كيرك: (١٤٥٣ – ١٥١٥م)، ينتمي القائد البرتغالي افونسودا البو كيرك «أو البو كير كيو»، كما يطلق عليه إلى سلالة عائلة مرموقة في البلاط البرتغالي، فجده كان سكرتيراً للملك جون الأول وللملك دورات أيضاً، ولكنه أعدم شنقاً لقتله، متعمداً، زوجته عام ١٤٣٧م، كذلك والده كونزالو البو كيرك كان من المقربين للبلاط. شارك أفونسو خلال شبابه في حروب البرتغال ضد المسلمين في مراكش حتى تشبع بالروح الصليبية ضد العرب خصوصاً والمسلمين عموماً، ومما زاد من تلك الروح =

التجارة في الخليج العربي وساحل عُمَان والبحر الأحمر. وكان البو كيرك قد جاء الشرق لأول مرة في إبريل عام ١٥٠٣م، حين أوفده الملك «أمانويل السعيد» في حملة صغيرة وشبه سرية مع عمه (فرانسيسكو البو كيرك) ومعهما ست سفن[١]. مزودة بالمدفعية وآلات الحرب لإقامة أول قلعة عسكرية بالقوة المسلحة في ساحل المليبار، بالتعاون مع القوى الهندوسية من مملكة الفياجانكَر في منطقة كوشين (Cochin) المؤيدة للبرتغاليين. وهناك بدأ البو كيرك وعمه في ممارسة أول مظاهر العنف والقسوة في معاملة سكان المحيط الهندي وذلك عندما حاربوا المسلمين والهندوس من أتباع الزامورين في كاليكوت وقتلوا عدداً منهم وعاملوا الباقين بوحشية بالغة[٢].

وقد بدأ البو كيرك منذ تلك اللحظة من عام ١٥٠٣ يطبق خطته التي أعلن عنها للملك بإقامة القلاع والحصون في سواحل بلاد المشرق، وقد اعتبرت قلعة كوشين أول قلعة برتغالية في الهند وبحار الشرق[٣]. وخلال إقامة البو كيرك في الهند استطاع جمع بعض المعلومات عن الأوضاع التجارية والسياسية في البلاد الشرقية، وضع على أساسها – وبتوجيه

= وأجج أوارها في نفسه، مقتل شقيقه في حروب المغرب على أيدي المسلمين، ويمكن القول بأن البو كيرك اشترك في جميع العمليات الحربية البرتغالية في المغرب، حتى تم تكليفه بالقيام بأولى رحلاته إلى البلاد الشرقية عبر رأس الرجاء الصالح عام ١٥٠٣م، وخلال تواجده في المنطقة قام البرتغاليون بأربع حملات إلى الخليج العربي وساحل عمان في أعوام (١٥٠٧ – ١٥٠٨، ١٥١٤، ١٥١٥م)، وقد تولى هو شخصياً قيادة ثلاث حملات منها، بينما تولى ابن أخيه (بيرو) قيادة الحملة الرابعة عام ١٥١٤م، وقد تولى البو كيرك منصب نائب الملك (أو حاكم الهند) بين أعوام (١٥٠٩ – ١٥١٥م)، انظر.
The Commentarles of the Great Afonso D'Lbequerque, Op. Cit., Vol. I, P. 11;
Bell, Op. Cit., P. 105.

(١) ويذكر سوزا أنهم جاءوا بتسع سفن تحت أمرة فرانسيسكو والبو كيرك وكانوا ثلاثة قواد بينهم سلدانا، وكان من أهدافهم أيضاً إغلاق البحر الأحمر في وجه التجارة المملوكية. - Sousa, Op. Cit., Vol. 1,p.72.

(٢) - Ibid., P.72 - 73; Danvers, Op. Cit., 100.

(٣) - Danvers, Op. Cit., P.97; Bell, Op. Cit., 106.

من الملك – خطة مستقبلية لزيادة النفوذ البرتغالي في المنطقة وبناء أعمدة الإمبراطورية (١). وعلى ذلك فقد أرسله الملك ضمن حملة كبيرة إلى بحار الشرق عام ١٥٠٦م، مكونة من أربع عشرة سفينة عليها ألف وثلاثمائة جندي بقيادة القبطان تريستان داكونها (Da Canha Tristan)، وأُعطيت للبو كيرك رئاسة خمس سفن من هذا الأسطول(٢). وقد كان هدف الملك عمانويل من هذه الحملة المهمة يتركز في نقطتين تعبّران عن الهدف الاقتصادي في الكشوف الجغرافية البرتغالية:

١) احتلال جزيرة سوقطرة أمام الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية وبناء قلعة حصينة بها لحماية النصارى في المنطقة وللسيطرة على مدخل البحر الأحمر.

٢) حصار البحر الأحمر والعمل على إغلاقه في وجه التجارة القادمة من الهند إلى بلاد العرب، واحتلال عدن(٣).

ونستطيع أن نستشف من هذه الأوامر الملكية أن التجارة الإسلامية لم تنقطع بين البحر الأحمر والهند بعد أكثر من سبع سنوات من بدء الغزو البرتغالي لشرق أفريقيا والهند، وإنْ كانت قد انخفضت واردات الهند إلى البحر الأحمر وإلى الإسكندرية وبالتالي تعذر وجود السلع الهندية في أسواق البندقية.

وقد ارتكب داكونها والبوكيرك نفس الفظائع في شرق أفريقيا كما فعل سابقوهم من القادة البرتغاليين، بسبب ضعف المنطقة عسكرياً ولثرائها اقتصادياً كذلك، فأدخلوا الرعب في قلوب الأهالي اعتباراً من موزمبيق ومدغشقر جنوباً حتى مقديشو شمالاً(٤).

---

(١) - Miles, Op. Cit., P. 140.

(٢) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I, p.20.

(٣) - Ibid.

(٤) - Sousa, Op. Cit., Vol. 1 p.116.

ويعترف سوزا هنا بأن داكونها والبو كيرك قطعوا آذان النساء وأصابعهن وأيديهن ليستولوا على أقراطهن وأسوارهن وكافة الحلى الذهبية التي كانت تتمتع بها النساء في مدن شرق أفريقيا حيث يقول:

"Cut off the hand and ears of women to take off their bracelerts and earings, to save time in Taking them off!!!"

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الملك عمانويل الأول قد أعطى البو كيرك أوامر عامة ضمن الحملة وموافقته على خطته بشأن ضم الأراضي العديدة في الشرق تمهيداً لفرض السيطرة البرتغالية واحتكار التجارة الشرقية برمتها وإخضاع حكام وشعوب مناطق الشرق للسيطرة البرتغالية وإرغامهم على التبعية لملك البرتغال. وقد كان البو كيرك يتصور أن هذا الأمر سهل جداً فهو يستطيع أن يقوم به كما فعل الاسكندر الأكبر من قبل بوصوله إلى الهند والجزيرة العربية، ومن هنا كان إعجاب البو كيرك بالإسكندر المقدوني شديداً(١).

أما الأمر الآخر السري فهو عبارة عن تفويض ملكي خاص بأن يعين البو كيرك نائباً للملك على الحكومة البرتغالية في الهند بعد دالميدا مباشرة(٢). ولسنا ندري سبب إخفاء البو كيرك لهذا الأمر الملكي الخاص لمدة ثلاث سنوات (١٥٠٦ - ١٥٠٩)، ولم يكشف عنه إلاّ حين ثارت المشاكل بينه وبين دالميدا في الهند بسبب مسألة هرمز.

أما عن خط سير حملة داكونها والبو كيرك، فقد أخذت الحملة تتجه إلى

---

(١) - Wilson, Op. Cit., P. 11; Miles, Op. Cit., P.140.

- ويذكر مايلز أن البو كيرك قد اندهش عندما هاجم خورفكان على الساحل العماني ونهب بيوتها، ووجد عمانياً عجوزاً يعرف شيئاً كثيراً عن الإسكندر الأكبر وقدم له كتاباً مجلداً عن الإسكندر، حتى أن البوكيرك - كما يُقال - احتفظ به كشيء عزيز عليه ولم يمثل بالعجوز بل أعاده إلى بيته دون أذى.

(٢) - Miles. Op. Cit., P. 141.

جزيرة «سوقطرة»[1] بعد توقف في مالندي - كعادة كل الحملات البرتغالية - باعتبار أنّ حكام هذه المدينة قد صاروا من أفضل أصدقاء البرتغاليين. ومن هناك اصطحب البو كيرك معه ثلاثة من الأدلاء لإرشاده في المياه العربية متى ما بدأ في غزو المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية[2].

وكان موقع جزيرة سوقطرة الجغرافي ملائماً للبرتغاليين لكي ينقضّوا منها على تجارة المسلمين في البحر الأحمر ويعطلوا طريق وصولها من الهند إلى مصر والشام. وعندما وصلت الحملة البرتغالية إلى تلك الجزيرة، حاول البرتغاليون إقامة ميناء حربي للأسطول وقلعة حصينة، إلاّ أن حاكمها الذي يسميه البرتغاليون (خواجة إبراهيم أو سلطان إبراهيم) رفض السماح لهم بذلك. وكانت هذه أول مواجهة للبرتغاليين في المنطقة، فردوا على هذا الرفض بقصف أطراف الجزيرة ومهاجمة جنود السلطان الذين دافعوا عنها بالسهام والسيوف والرماح!!. ولم تقف هذه الأسلحة أمام مدفعية البرتغاليين التي فتكت بحامية الجزيرة، وتمكن داكونها والبو كيرك من احتلال سوقطرة في أغسطس عام ١٥٠٧[3]. ويبدو أنه كان في سوقطرة قلعة بنيت في فترة سابقة على وصول البرتغاليين أقامها «المهرة»، فأعاد البرتغاليون استغلالها وإصلاحها بعد أن قصفوها بالمدافع أثناء احتلالهم للجزيرة، فلم يذكر (Miles) مثلاً أن

(١) سوقطره: جزيرة جبلية جرداء وعرة، قليلة الساكن، تنقل إليها مياه الشرب والطعام من شرق أفريقيا واليمن، لكنها تتمتع بموقع استراتيجي مهم في مواجهة الساحل اليمني وفي منتصف المسافة بين مضيق هرمز وباب المندب، وكانت تحكمها آنذاك قبائل المهرة التي تسكن (قشن) في جنوب اليمن، ويعيش بها مجموعة مختلطة من النصارى والعرب، وبنى بها المهرة حصن كبير، أنظر جمال الدين بن المجاور، تاريخ المستبصر، تصحيح وضبط اوسكار لوفغرين، (هولندا، ١٩٥١م) الجزء الثاني، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٨.

(٢) - Danvers, Op. Cit., Vol. I, p.152.

(٣) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,P.118; Miles, Op. Cit., P. 142; Serfeant, Op. Cit., P.158.

البرتغاليين قد أنشأوا قلعة جديدة بل قال: «قاموا بإعادة بناء القلعة وسموها (قلعة القديس توماس)، كما عينوا قائداً لحامية القلعة»(١)، وهذا ما يؤكده (Serjeant) أيضاً الذي يضيف بأن البرتغاليين دمروا مسجد الجزيرة وبنوا بدلاً منه كنيسة صغيرة، وديراً لطائفة الفرنسيسكان لنشر المذهب الكاثوليكي في الحبشة(٢)، إلاّ أنّ سوقطرة لم تكن كما توقعها البرتغاليون في مخططاتهم مركزا جيدا لضرب التجارة العربية في المنطقة وإغلاق البحر الأحمر. فالجزيرة ليس بها مكان آمن لمرسى السفن البرتغالية الكبيرة في الشتاء بعيداً عن عواصف المحيط، وهي غير صحية مناخياً، وتموين الجنود بها صعب، وطرق الإمداد لها غير متوافرة وإنْ توافرت فهي غير مأمونة العواقب. أضف إلى ذلك استمرار مقاومة الأهالي للوجود البرتغالي بها، مما اضطر البرتغاليين لهجرها بعد فترة وذلك في عام ١٥١١، لضعف الاستفادة منها حربياً واقتصادياً(٣).

وقد ظهر الخلاف بشكل واضح حول أهداف الحملة الحقيقية عندما بدأ الحوار بين البوكيرك وداكونها حول الخطط التي تزمع الحملة القيام بها بعد احتلال سوقطرة. أدى هذا أيضاً لخلاف كبير بين المؤرخين البرتغاليين حول التعليمات التي صدرت للبوكيرك بالذات، أو الأوامر الملكية التي أُعطيت له، وغموضها بعض الشيء، مما اضطر البو كيرك للتصرف وفقاً لإرادته وما تمليه عليه الظروف التي تحدث في حينها. فكما جاء في مذكرات البو كيرك التي كتبها ابنه غير الشرعي بعد وفاته

---

(١) - Miles. Loc. Cit.

(٢) - Serjeant., Op. Cit., PP. 157 - 158.

ويذكر سيرجنت أن القلعة العربية ربما بنيت مبكراً على وصول البرتغاليين (حوالي عام ١٤٨١م) عندما تولى سلطان قشن المهري حكم الجزيرة قبل ٢٦ سنة من الغزو البرتغالي لها، وتبعد حوالي ٤٠٠ ياردة عن الميناء وبنيت فوق مرتفع صخري يدعى Coto أو Soco.

(٣) عبد العزيز الشناوي، «المراحل الأولى للوجود البرتغالي «مرجع سابق، ص٦٢٥. - Serjeant, Op. Cit., P.46;

- فإن الأوامر التي أُعطيت له كانت تقضي بأن يقوم بتدمير هرمز بعد احتلالها، وأن يعمل كل ما بوسعه لاعتراض وعرقلة النشاط الملاحي العربي في المياه الشرقية الواقعة فيما بين طريق الخليج العربي إلى البصرة والبحر الأحمر إلى السويس، قبل البدء بالهجوم العسكري على المنطقة وأراضيها. فيما بعض المؤرخين يقولون بأن الأوامر التي صدرت للبوكيرك هي الاستيلاء على ميناء عدن واعتراض السفن العاملة في البحر الأحمر فقط(١). ويبدو أن هذا الرأي الأخير هو الأقرب للصواب، والدليل على ذلك أن البوكيرك طوال مدة نيابته عن الملك في منصبه بالهند كان يبرر بعدة أعذار في رسائله إلى الملك سبب عدم ذهابه إلى البحر الأحمر واحتلال عدن، ويطمئن ملكه في آخر حملاته ضد هرمز عام ١٥١٥م بأنه شاد بها حصناً. وقام البوكيرك بوصف ذلك الحصن للملك بدقة وتكلم عن أهمية هرمز في تجارة الخيول العربية(٢).

غير أن البو كيرك في الوقت نفسه كان يعلم ويدرك حجم وقوة الأسطول البرتغالي (خمس أو ست سفن وأربعمائة وستون بحاراً)، تلك التي تركها داكونها في يده بعد أن حسم الخلاف بينهما، وأن هذه القوة الصغيرة لا تسمح له بالاستيلاء على قلعة عدن الحصينة أو الدخول في البحر الأحمر ومواجهة قوة المماليك. وكان هذا الاسم الأخير يثير الرعب في قلوب القادة البرتغاليين، لهذا وبعد أن ترك داكونها البوكيرك يفعل ما يريد بقوته الحربية وذهب نحو الهند(٣)، قرر البو كيرك أن يخرج عن إطار الأوامر

---

(١) - Miles, Op. Cit., P.142.

(٢) أحمد بو شرب، «مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل الغرب والبحر الأحمر» الوثيقة، العدد ١٠، السنة ٥ (البحرين، ١٩٨٧) ص١٦٨. أنظر الرسالة المؤرخة في ١٥١٥/٩/٢٢، وهي قريبة من وفاة البوكيرك، بعث بها للملك مانويل يعرض فيها الأسباب التي دعته لعطاء الأولوية لهرمز مرة أخرى وترك مهمة إغلاق البحر الأحمر واحتلال عدن - التي فشل فيها عام ١٥١٣ - لوقت آخر لأهمية هرمز اقتصادياً أكثر من غيرها.

(٣) - Wilson, Op. Cit., P.13; Bell, Op. cit., P.108.

الملكية التي أُعطيت له، ويبحر نحو جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية مباشرة، واضعاً في اعتباره ضرورة احتلال هرمز – تلك المملكة عظيمة الثراء والتي تمثل السوق الرئيسية لمنطقة الخليج والجزيرة العربية والبر الفارسي – وجعلها محطة للتجارة البرتغالية دون غيرها(١).

وقد وضع البو كيرك في جزيرة سوقطرة بعد مغادرة داكونها مخططه لاحتلال هرمز، وذلك بالتشاور مع قواده الذين بقوا معه. ويقضي هذا المخطط بتدمير كافة الموانىء العربية التابعة لمملكة هرمز في ساحل عمان أولاً وذلك لإضعاف هرمز وقص أجنحتها حتى إذا وصل إلى الجزيرة بعد ذلك بعد ذلك تقع تحت سيطرته بسهولة، ولن يتعارض ذلك الغزو مع الأوامر التي لديه بأن يسيطر على ممرات التجارة العربية ويحول خيراتها التجارية لتصب في جيوب بلاط لشبونة(٢). ولم تكن هناك خطة عسكرية محددة التفاصيل لكيفية ذلك، فاجتهد البو كيرك شخصياً – خارج الأوامر الملكية – للإطاحة بالموانىء العربية في ساحل عُمان التابعة للمملكة الهرمزية، ووقدر بأنّ هذا لن يغضب الملك على أية حال(٣).

ولابد من الإشارة هنا إلى أن أفونسودا البو كيرك يدين بفتوحاته ومعرفته لموانىء الساحل العماني وطرقه البحرية وشعابه وجزره، وكذلك معرفته بموانىء الجنوب العربي والبحر الأحمر والخليج العربي، لخارطة بحرية من عمل ربابنة عُمان والساحل العربي الذين كانوا على درجة عالية من الكفاءة. وقد وضع هذه الخارطة ربان عربي ماهر يدعى (عمر)، ربما كان من الذين عملوا مع ابن ماجد أو من الذين استفادوا من خرائطه. يذكر البوكيرك، أن ملاحاً مسلماً وقع في أسر البرتغاليين بين

---

(١) - Miles, Op. Cit., P.143.

(٢) - The Commentaries, Op. Cit. Vol. 1,p.67.

(٣) Salih Ozbaran, - "The Ottoman Turks and the Portuguese in the Persian Gulf" (1534 - 1581), "Journal of Asian History, Vol. 6, No. I, (London, 1972) P. 46.

جزيرة سوقطرة والساحل العماني (وكان رباناً عظيماً ذا معرفة جيدة بهذا الساحل) قد أعطاه خريطة للطرق البحرية في المنطقة تتضمن كافة الموانيء والمدن ومناطق الساحل المهمة التابعة لمملكة هرمز وغيرها، قال بأنّ الخريطة من وضع ربان آخر يدعى عمر كان قد صحبه ذلك الربان الأسير سابقاً[١].

غزو البو كيرك لمدن وموانىء الساحل العماني:

بعد أن غادر الأسطول البرتغالي بقيادة البو كيرك ميناء (Soco) في سوقطرة وصل إلى جزر (كوريا موريا Coria Muria)[٢] في ٤ أغسطس ١٥٠٧م، ثم غادرها إلى رأس الحد Rasel - Hada، وهناك دمر البو كيرك ما بين ثلاثين إلى أربعين سفينة صيد سمك من هرمز وقلهات وبقية مدن الساحل. ثم وجد البوكيرك بعض سفن (السمبوك) العمانية عند خور «جرامه» فقصفها بمدافعه - وكان كأنه يقوم بعملية تدريب أو مناورة بحرية بالذخيرة الحية. ثم توجه البوكيرك بأسطوله نحو «قلهات Kalhata»[٣]، وكانت يومئذ أكبر محطة لتموين السفن القادمة من الهند إلى الخليج العربي أو البحر الأحمر، ومركزاً رئيسياً لتوزيع السلع الشرقية

(١) أغناطيوس كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ص٦٠٩ .
(٢) Sousa, Op. Cit., Vol. I, p.126. -
(٣) قلهات: Caluyate, كما سمّاها البرتغاليون، أول مدن مملكة هرمز في ساحل عمان يشاهدها البو كيرك، وهي مدينة عربية إسلامية تمتاز بعمرانها الرائع والجميل، ويذكر البو كيرك أن مبانيها قديمة وضخمة ولكنها دمرت وقت وجوده، وهو يقصد المباني الأثرية، كما وصف ماركو بولو وابن بطوطة المدينة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، حيث قال ابن بطوطة: «هي حسنة الأسواق، ولها مسجد من أحسن المساجد في الساحل، والبلد مشهور بالسمك، وأهله مشهورون بالتجارة، وأكثرهم خوارج أباضية لا يقدرون على إظهار مذهبهم لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تهتمن ملك هرمز من أهل السنة، وتجلب الفواكه إليها من قرية (طيبي) الزراعية المجاورة لها».
- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص١٢٦، وأيضاً
The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,p.66 -
- The Book of Durate Barbosa, Op. Cit., P.69

في المنطقة، وأهم محمية تابعة لمملكة هرمز، أو كما يصفها عباس إقبال[1]، مركز الحكم الهرمزي في ساحل عمان. ويقول (Sousa) عن قلهات في ذاك الوقت إنها «مازالت مدينة جميلة وقوية»[2]، في حين ذكر البو كيرك بأنها كانت ميناءً مهماً لتجارة الخيول العربية في شبه الجزيرة، وكان ملك هرمز يرسل في كل عام وزيراً وحاكماً من قبله إلى هذا الميناء ليقوم بتنظيم وجمع الضرائب الجمركية منه لصالح خزينة هرمز[3]. وبشكل عام كانت جميع المدن والقرى التي تمتد من بعد حضرموت في اليمن على امتداد الساحل العماني حتى مضيق هرمز تتبع مملكة هرمز آنذاك[4].

أخذ البو كيرك يستعرض قواته أمام ساحل قلهات، فتجمع حشد من الأهالي العرب أمام الساحل وهم مندهشين لرؤية هذه السفن الأوروبية لأول مرة، فتخوف البو كيرك واعتقد أنهم جاءوا لمهاجمته ففتح كوات المدافع في سفنه ووجهها نحو الأهالي استعداداً لأي حدث طاريء، ونزل ثلاثة من قادته إلى الساحل فسألهم العرب المتجمعون ماذا يريدون ومن هم؟ ومن أين جاءوا؟؟، فأجابهم البرتغاليون عن طريق المترجم المالبندي المسلم، بأنهم يتبعون «الدوم أمانويل» ملك البرتغال وسيد الهند، وأن قائدهم البوكيرك يريد أن يعرف اسم هذا المكان ولأي مملكة يتبع؟؟، فرد الأهالي بأن المدينة هي قلهات وتتبع مملكة هرمز[5]، وأن أية

(١) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٥٤.
(٢) - Sousan, Op. Cit., Vol. I,P. 126.
(٣) - The Commentarles, Op. Cit., Vol. I,P. 67.
(٤) ابن بطوطة، مصدر سابق، ص١٢٧.
(٥) في فترة وصول الحملة البرتغالية بقيادة البو كيرك لساحل عمان، كان يحكم عمان الإمام محمد بن إسماعيل الإسماعيلي منذ عام ٩٠٦هـ (١٥٠٠م) وظل حتى عام ٩٢٤هـ (١٥٣٥)، إلا أنه كان يمارس سلطته فقط على المناطق الداخلية من عمان في نزوى والرستاق، بينما بقايا النباهنة في بهلا، أما مدن الساحل تخضع لسيطرة ملك هرمز منذ القرن ١٤م، وله نواب في المدن العمانية الساحلية وأهمها قلهات. أنظر... - The Book of Durate Barbosa, Op. Cit., P. 69.
- كذلك سرحان بن سعيد الأزكوي، مصدر سابق، ص٧٦؛ حميد بن رزيق، مصدر سابق، ص٢٦.

مؤنة يريدونها ستقدم لهم عن طيب خاطر فقد اعتاد الميناء تقديم المؤن لأي مركب مسافر في المنطقة. وقام الأهالي بإهداء بعض الخراف والفواكه للجنود. هكذا استقبل العرب في الساحل العماني سفن الغزاة البرتغاليين! ولكن لننظر بماذا أجابهم البو كيرك؟ لقد رفض الهدية وأعادها إلى حاكم المدينة بحجة أنه لا يقبل هدايا من أناس يعتبرهم في حالة حرب مع بلاده!!، وطلب البوكيرك من حاكم قلهات «شرف الدين» الاستسلام دون قيد أو شرط، والاعتراف بتبعية قلهات إلى ملك البرتغال، ودفع الضرائب له(١). ويخبرنا البو كيرك بأنه شاهد حاجزاً دفاعياً أمام بوابة المدينة عليه أربعة مدافع (هاون). وفي اعتقادي أنّ هذا الأمر مشكوك فيه لأنّ المنطقة لم تكن تعرف المدفعية ولا البنادق بعد، وربما قصد المنجنيق والعرادات التي كان يستخدمها سكان الجنوب العربي أثناء حروب الطاهريين ضد الزيديين في اليمن.

وبما أن شرف الدين حاكم المدينة لم يكن مستعداً لمقاومة البرتغاليين، فهو حاكم مدينة تجارية ساحلية وليس في حصن حربي مدجج بالسلاح، فقد أجاب البو كيرك برد دبلوماسي حيث قال: «إنّ قلهات تابعة لسلطة ملك هرمز، وإن على البو كيرك أن يتباحث معه مباشرة بشأنها، وإنه يجب أن يعلم أن هذا الساحل العماني هو البوابة نحو هرمز، وأن ملك هرمز يحكم كل الأجزاء في هذا الساحل، وإذا أراد السلام فيجب عليه أن يتعامل بهدوء مع ذلك الملك» ووعده حاكم قلهات بأنه سيخضع لملك البرتغال بعد ذلك، مهما كانت نتيجة المفاوضات بينه وبين ملك هرمز(٢).

ويذكر الكاتب جهانكير قائمقامي، أنه من بين المستندات الموجودة في مركز الوثائق الوطنية البرتغالية في لشبونة، رسالة مكتوبة بالفارسية يعود

(١) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. 1,p. 63.

(٢) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٥٥.

تاريخها إلى عام ٩٣٦هـ (١٥٣٠م)، وفيها شرح لبيان كيفية غزو البو كيرك لقلهات ، وكان كاتبها هو نفسه ابن وزير قلهات (شرف الدين) الذي كان شاهداً على وقائعها. وقد أرسلت تلك الرسالة لنائب ملك البرتغال في الهند آنذاك، ونظراً لأهميتها نوردها هنا، حيث قال ابن الوزير: «في السنة الأولى التي جاء فيها البو كيرك إلى هرمز حيث لم يكن هناك أوروبيون مطلقاً قد جاءوا من قبل، كان أبي والعبد الفقير وزير قلهات، فجاء البو كيرك مع جماعة إلى بلدتنا، وقد طلبنا الصلح والمودة من البو كيرك، لأننا سمعنا عن عدل ملوك البرتغال!!، وتم الصلح بين أبي والبو كيرك، وقمنا بإهداء الخلع والعطايا من جانبنا، فوعدنا البو كيرك باسم ملك البرتغال بألاّ يضايقنا أحد في هرمز، ووعدناه نحن أيضاً بأننا طالما نحن موجودون فإن أي خبر أو نبأ نسمعه فلا نخبر به إلا الكابتن (البو كيرك)[1].

وهذا ما حدث فعلاً ولا شيء غيره، حيث يذكر البو كيرك بأنه كان في حاجة ماسة للمؤنة والماء لجنوده من المدينة فقبل بالصلح، وأعطى الحاكم رسالة ضمان باسم ملك البرتغال كي لا تعتدي عليه السفن البرتغالية الأخرى القادمة من بلاده[2]. ولم يكن حاكم قلهات يعلم بأن أول سفن برتغالية ستعتدي على مدينته وتدمرها وتنقض هذا الاتفاق، هي سفن البو كيرك نفسه بعد عودته من هرمز عام ١٥٠٨م، كما سيأتي ذكره. وقبل أن يغادر البوكيرك قلهات قبض على إحدى المراكب التجارية التابعة لعدن وكانت محملة بالبضائع، فاستولى عليها بالقوة وضمها إلى أسطوله، ولم يطلق سراحها إلاّ بعد أن إفتداها أصحابها بالمال[3].

وهنا يخبرنا البو كيرك لأول مرة عن قبيلة الجبور ونفوذهم السياسي

---

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص١٣.

(٢) عباس إقبال، مرجع سابق، ص ٥٥ -The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,PP. 66, 67;
- Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 126.

(٣)- Danvers, Op. Cit., Vol. I,P. 158; Miles, Op. Cit., P.144.

في المنطقة بناءً على المعلومات التي وصلته من سكان قلهات والساحل العماني، حيث يقول بأن قلهات فقط هي التابعة إلى ملك هرمز «أما داخل عمان فيقع تحت حكم ملك يدعى بن جابر (Benjabar) لديه عدد كبير من الفرسان»[١].

وتوجه البوكيرك بعد قلهات لغزو «قريات» (Curiate)[٢]. وعندما رسا بسفنه أمام ساحل المدينة لم يأتِ أحد لاستقباله. وفي صباح اليوم التالي اجتمع البو كيرك مع قادة سفنه لتدارس كيفية مهاجمة البلدة. ونجد هنا بعض التناقض في كلامه، وحيث يذكر في مذكراته، أنه لم يتفق مع قادته في كيفية تدمير المدينة!!، ولذا قرر ترك المكان ومغادرته!! إلاّ أنه عندما ذهب بعض بحارته لجلب الماء من الساحل - وهذه الحكاية ستتكرر بعينها في مسقط - شاهدوا حاجزاً من الأخشاب وأشجار النخيل عند الساحل وعليه أربعة مدافع[٣]!!، والعديد من رماة السهام ومحاربين يحملون رماح طويلة للدفاع عن المدينة[٤]، ولا نعلم متى قام الأهالي بهذه الاستعدادات السريعة مع أنه لم يرها في اليوم السابق!!، وعندما رفض الأهالي الحوار مع البرتغاليين والتبعية لهم، صوب البو كيرك مدافع أسطوله نحو المدينة وتحصيناتها - كما يقول - وبدأ بتدميرها. ونشب قتال عنيف بين البرتغاليين وأهالي قريات استمر يوماً كاملاً. ولم

(١)- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P.66.

(٢) قريات: إحدى مدن الساحل العماني تقع بين قلهات ومسقط، يسكنها تجار السلع الشرقية، بها مخازن للطعام، وخيول عربية أصيلة ذات سلالات نادرة، لذا يأتي تجار هرمز إلى قريات لشراء هذه الخيول وتصديرها إلى جوا بالهند، ويذكر باربوسا أن المدينة كبيرة بها حوالي ستة آلاف نسمة، وهي ميناء أيضاً للسفن التي تأتي لتحميل التمور وأخذ الماء العذب قبل الرحيل إلى الهند، أو هرمز. أنظر للمزيد.. - The Book of Durate Barbosa, Op. Cit., P. 70.

(٣) نلاحظ تكرار رقم (٤) في كافة مدافع الساحل العماني، مما يدعونا للشك في صحة وجود تلك المدافع أصلاً، ثم لا ننسى بأن هذه المذكرات كتبت بعد هذه الأحداث ووفاة البو كيرك بسنوات، وبالتأكيد فقد داخلها شيء من الخيال الأدبي.

(٤) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 68.

يستطع البو كيرك التغلب على بسالة وشجاعة أهالي المدينة رغم قلة إمكاناتهم العسكرية. ويعترف البو كيرك بأنه لولا استخدام الحيلة ضد المدينة لما استطاع دخولها، وذلك باحتلال جزيرة صغيرة قبالة ساحل المدينة، بدأ منها بقصف الأهالي ومساكنهم وأوقع أكبر قدر من الخسائر بهم وبمنشآت المدينة مما أوقع الإرتباك والفوضى والمفاجأة في صفوف المدافعين عنها(١). وفي صباح اليوم التالي هبط رجال البو كيرك إلى ساحل قريات بعد انهيار دفاعات المدينة تحت قنابل المدافع البرتغالية. وانتشر الجنود البرتغاليين في المدينة وانهالوا على الأهالي قتلاً وإبادة دون تمييز بين النساء والرجال والأطفال والشيوخ، فكانت مجزرة، يعترف فيها البو كيرك بأنه «وضع السيف على رقاب كل المسلمين من نساء وأطفال في المدينة»(٢)، وقد نتج عن هذه المعركة – كما يذكر سوزا – قتل ٨٠ عربياً من جانب و٣ جنود برتغاليين فقط من الجانب الآخر(٣)، ثم أمر البو كيرك بنهب البلدة وبيوتها، وإحراق كل شيء بها خاصة المسجد، الذي يذكره البو كيرك بأنه كان من أجمل المساجد التي رآها من حيث النقوش الإسلامية ذات الطراز الفارسي التي كانت تزين جدرانه. وانتقاماً من العرب الذين قاوموه لأول مرة في ساحل عمان، قام أمام مرأى من جنوده وضباطه بتجميع الأسرى من النساء والرجال، وأمر بعض الجنود بقطع أذانهم وجدع أنوفهم وجمعها لإرسالها إلى هرمز لتشهد كما قال: «على ذل وخزي هؤلاء المسلمين وكذلك لإرهاب حكام هرمز»(٤). ثم استولى على كل أسلحة المدينة من سيوف ورماح وسهام

(١) - Danvers, Op. Cit., Vol. I,P. 159.

(٢) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 70.

(٣) بينما يذكر عباس إقبال أن عدد القتلى من البرتغاليين كان ٣٠ جندياً،

Sousa, Op. Cit., P. 126; -

(٤)- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 71.

وأحرق بعضها. نلاحظ عدم ذكره للمدافع في الغنائم. وقبل أن يغادر البوكيرك ميناء المدينة المنكوبة، دمّر كل السفن الراسية في الميناء، وكانت حوالي ٣٨ سفينة كبيرة وصغيرة(١)

وتواصل خط سير حملة البو كيرك بعد ذلك نحو «مسقط Masquate»(٢)، وهي يومذاك الميناء الرئيسي للساحل في المنطقة العمانية وأهم مدنه، وصلها البو كيرك بعد أربعة أيام من مغادرته قريات، فوجدها مدينة منيعة جغرافياً وقوية التحصين، وقد سمع أهلها - كما يبدو - بما حل بقريات القريبة منهم على أيدي البو كيرك وجنوده، فرأوا من الحكمة تجنيب المدينة الدمار والخراب، ولذلك فما كاد البو كيرك يرسو بسفنه قبالة ساحل ميناء المدينة، حتى أرسلوا إليه وفداً يعرض عليه السلام والصلح واستعدادهم التام لقبول شروط البرتغاليين، مع رجاء بعدم إيقاع الأذى والضرر بهم لأنهم قدموا الولاء لملك البرتغال(٣).

والغريب في أمر البو كيرك هنا، وهو الذي دائماً يطلب استسلام المدن التي يغزوها دون قيد أو شرط، أنه رفض هذا الأمر أمام مسقط. ولسنا

---

(١)- Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 126.

(٢) مسقط: يصفها البو كيرك قائلاً «مدينة كبيرة وجميلة، وهي آهلة بالسكان، تحتضنها من الجهتين سلسلة من الجبال العالية تجعل واجهتها منفتحة على البحر، وخلف المدينة سهل كبير تغطيه سطوح الملح، وتتوافر في المدينة المياه العذبة، وميناء البلدة صغير على شكل حدوة حصان ومحاط بالجبال التي تحميه من الرياح، وميناء مسقط مقصد السفن التجارية التي ترتاده لكي تتفادى الساحل الصخري المفتوح والمياه الضحلة المقابلة له، ومسقط منذ القدم تعتبر ميناءً لتصدير الخيول والتمور، أما المواد التموينية فتأتيتها من الداخل مثل القمح والذرة والشعير، وهي جزء من مملكة هرمز»، ويضيف باربوسا الذي زارها في نفس الفترة تقريباً، أنها مدينة تجارية كبيرة وبها عدد كبير من التجار، وتشتهر بالسمك الذي يُصدّر مجففاً ومملحاً إلى مناطق كثيرة، لكن قلهات وقريات آنذاك كانتا أهم من مسقط بالنسبة لهرمز. إلا أن البو كيرك جعلها واحدة من أهم موانئه البحرية في الساحل العماني وذلك لطبيعة وأهمية مينائها الجبلي. أنظر
- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 83;

(3) - Ibid, P. 72.

ندري السبب، سوى ذريعة مفادها أن الوفد العماني الذي جاء بهذا الطلب لم يكن يحمل تفويضاً خطياً من حاكم المدينة!! فرد عليه الوفد: يكفي أننا أُرسلنا إليك من قبل الحاكم، والناس هنا تتعامل بكلمة الشرف(١). إلا أن البوكيرك لم يرد عليهم وصرفهم إلى الغد، وكأنه كان يتذرع بأية حجة لتدمير المدن العربية في ساحل المنطقة العمانية.

وقبل أن ينتهي ذلك اليوم أرسل البو كيرك بعض رجاله في سفينة شراعية صغيرة لتفحص ميناء مسقط، ومعاينة وسائل دفاعه عن قرب. فأخبره الجنود أن العرب قد أقاموا أمام مدخل المدينة متاريس من جذوع النخيل عليها مدافع تمتد من الجبل إلى الجبل، تعيق اقتحام المدينة من هذه الأنحاء(٢)، وهذا يدل على أن البو كيرك كان ينوي اقتحام مسقط بأي شكل من الأشكال. وحتى لا يثير البوكيرك رجاله فقد كان ينتظر الذريعة المناسبة لبدء الحرب وما حديثه عن قوة استحكامات المدينة إلاّ ليظهرها بمظهر العداء للبرتغاليين وصعوبة الاستيلاء عليها مما تتطلب شجاعة وقوة يجب على رجاله بذلهما.

وفي اليوم الثاني وبينما البو كيرك يناقش مع ربابنة سفنه أمر تحصينات المدينة وكيفية اقتحامها عاد الرسولان المسقطيان السابقان ومعهما إذن كتابي وتخويل رسمي من الحاكم - ولا نعرف من هو هذا الحاكم - وذلك للبدء بمحادثات السلام. عرض هذان المبعوثان مرة أخرى - كما يذكر البو كيرك - الولاء لملك البرتغال، ولكن القائد البوكيرك رد عليهما «إذا كانت المدينة ترغب في الخضوع لملك البرتغال فعليها دفع رسوم سنوية مناسبة كالضريبة التي تدفع لهرمز، وتزويد

---

(١)- The Commentarie, Op. Cit., Vol. 1,P. 73.

(٢) كان هذا الحاجز عبارة عن سور من جذوع النخيل اتساعه عدة نخلات وارتفاعه بمقدار عشرين قدماً، وقد ملأه الأهالي بالتراب، فصار قوياً جداً، ويتصل من كل جانب بسلسلتين من الجبال الشاهقة تمتد إلى البحر. أنظر - وندل فيليبس، مرجع سابق، ص ص ٤٨، ٤٩.

الأسطول البرتغالي بالمؤنة ومياه الشرب التي يحتاجها طوال الطريق حتى يصل إلى هرمز بسلام تحسباً لصعوبة الطريق البحري(١). وإذا فعلت مسقط ذلك فإنه سيحميها باسم ملك البرتغال(٢).

وقد وافق الوفد على طلبات البو كيرك بما فيها دفع الرسوم التي كانوا يدفعونها لهرمز سنوياً، إلاّ أنهم تحفظوا على نقطة مد الأسطول البرتغالي بكل التجهيزات والمؤن في غزوه لهرمز. وقد برروا ذلك بشكل منطقي بأن هذا العمل لو تم سيعتبر تحريضاً على غزو هرمز من ميناء يعتبر تابعاً لها وخاضعاً لسيطرتها. فغضب البو كيرك لهذا الرد، ووجدها - كما يظهر - نقطة جيدة لتبرير الهجوم على مسقط. فصرخ بالوفد قائلاً: «كيف تدّعون بخضوعكم لنا وتجرأون على قول هذا الكلام أمامي، برفض الخضوع للملك وقائده». وهنا قطع البو كيرك المباحثات، وغادر الرسولان دون الوصول لنتيجة، ومر يوم لم يأتِ أي رد فعل آخر من المدينة(٣).

وفي الليل سمع البو كيرك وقواده بعض الهرج والمرج في المدينة وأصوات ترتفع بالتهليل والتكبير ونيران تشتعل، ولم يفهموا أولاً معنى هذا فازدادوا رعباً من المجهول الذي ينتظرهم عند هذه المدينة. وتطلع البو كيرك لمعرفة ما يجري في الميناء صباح اليوم التالي، فجاءه رجاله بالخبر اليقين وهم يجلبون المياه من عند الساحل حيث شاهدوا تحصينات المدينة تزداد، وقال لهم بعض السكان: إنه قد وصلت لمسقط في الليل نجدة من حوالي عشرة آلاف مقاتل من داخل البلاد مزودين

---

(١) كانت مشكلة المياه الصالحة للشرب تؤرق قادة الأساطيل البرتغالية دائماً في البحار الشرقية ومع عداء الموانىء والمدن الساحلية في المنطقة لهم وقد أدت قلة المياه أحياناً لموت العديد من البحارة أو انتشار الأمراض بينهم.

(٢)- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 73.

(٣)- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P.74; Danver, Op. Cit., Vol. I,P. 159.

بالرماح والدروع والسيوف أرسلهم «ابن جابر» من داخل عمان لمساعدة المدينة ضد الغزو(١). وتخوف البو كيرك من جريان الرياح بما لا تشتهي سفنه، فأمر قواته بالاستعداد. ويذكر لنا البوكيرك بأن مدفعين من المدافع المنصوبة على تحصينات المدينة بدأت بقصف قواته(٢)، وأنه قد اعتبر ذلك نقضاً من حاكم المدينة للاتفاق المعقود بينهما، رغم أنه لم يتكلم عن التوقيع النهائي على هذا الاتفاق في مذكراته أبداً(٣).

وإذا كان ما حدث أمام مسقط صحيحاً، فيحق التساؤل هنا، لماذا تغير موقف مسقط من الوجود البرتغالي أمام أراضيها بعد أن قبلت الولاء والخضوع أولاً وكيف وصلت قوة الجبور تلك ومن الذي استدعاها؟؟ ولإلقاء الضوء على الوضع في الموانيء العمانية التابعة لمملكة هرمز، يمكن القول بأنه أثناء الغزو البرتغالي لمسقط وإعلان استلامها في البداية، كان يتجاذب الرأي السياسي فيها جبهتان: جبهة يمثلها حاكم مسقط الذي تعينه هرمز من قبلها وغالباً ما يكون فارسياً، وجبهة يمثلها أهالي المدينة من القبائل العربية وأعيانها العرب. وبالتالي فعندما وصلت أنباء ما حدث لقلهات التي استسلمت ولم تدمر ولقريات التي لم تستسلم فدمرت، فضّل الحاكم أن ينجو بالمدينة من التخريب فاستسلم مسرعاً بمجرد ظهور البرتغاليين أمام المدينة رغم الاستحكامات التي وضعوها أمام الميناء.

---

(١) للأسف لا نملك مصدراً آخر يدعم هذا القول المحتمل الحدوث، بل حتى الروايات البرتغالية نجدها متضاربة، فها هو (Sousa) يقول أن المدينة – مسقط – رغبت في الصلح بداية لكن بدون سبب بدأت تستعد لقتالنا، ويرد سبب ذلك لوصول ٢٠٠٠ من الجنود من ملك هرمز لنجدة المدينة ولذا رفضوا السلام، بينما البو كيرك يقول أنهم من جنود ابن جابر وعددهم عشرة آلاف، كيف يتم عدهم والتأكد منهم ولا شيء نسمعه بعد ذلك عنهم في القتال، انظر.
Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 127; The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,PP. 74, 75. -

(٢) مرة أخرى هناك مدافع تقصف الأساطيل أيضاً، أي من البر إلى البحر، ولا يعلم نوعية هذه المدافع ومداها، حتى أن البو كيرك يزيدنا حيرة حين يتكلم في P.73 عن قياس حجم هذه المدافع العثمانية بأنها بنفس مقاس حجم مدافع البرتغاليين الحديثة آنذاك!!!

(٣) The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 73-74. -

ولربما أن هذا الموقف ليس هو المتفق عليه داخل المدينة بين الحاكم وأعيانها أو زعماء بعض القبائل المحيطة بها، ولذا لم يرضعهم استسلام الحاكم. ويبدو أنّه كان لهؤلاء الزعماء ارتباطات مع قبائل الداخل وأهمها الجبور في تلك الفترة، فأرسلوا يطلبون مساعدتهم بشكل مسبق أيضاً وانتظروا وصول هذه المساعدة. ولم تكن هذه المرة هي المرة الأولى التي يطلب فيها العمانيون مثل هذه المساعدة من جبور الداخل والعمق العماني، فقد طلبها قبلهم أنصار الأئمة سابقاً ضد الملوك النباهنة – كما أسلفنا – لإعادة تنصيب الإمام عمر بن الخطاب الخروصي في ولايته الثانية، إن صح ما ذكره ابن ماجد والسخاوي والأحسائي وغيرهم[1]، ويبدو أن العنصر العربي – وصراعه مع حكام هرمز كان مستمراً في هذه الأنحاء. وقد وجد هؤلاء العرب فرصة مناسبة لمقاومة البرتغاليين وإثبات وجودهم واسقاط الحكومة الهرمزية، خصوصاً وأنهم قد علموا بأن البو كيرك كان يقصد التوجه إلى هرمز للسيطرة عليها، ورأوا في التخلص من دفع الضريبة لهرمز ما يقربهم من الاستقلال الذي ينشدونه دائماً. ولذا فبمجرد وصول قوة الجبور المرتقبة سارع أصحاب الرأي الآخر المعارض لفرض رأيهم ورفض الاستسلام. ومن ناحية أخرى تعتبر مبادرة الجبور لتلبية طلب الزعماء العرب أو أي فرد كان في مدينة مسقط، فرصة مناسبة ينتهزها هؤلاء لمد نفوذهم من الداخل إلى سواحل عمان وللموانيء التجارية بالذات، وذلك شيء معتاد ضمن مسلسل الصراع الهرمزي – الجبوري في الخليج وسواحله. ولهذا الأمر شواهد عدة سبقت هذا الوقت وسوف تستمر حتى بعد مجيء البرتغاليين وفرض السيطرة على هرمز، بل ستكون هي أحد الأسباب المباشرة لكسر شوكة الجبور بعد احتلال البحرين

---

(١) ابن ماجد، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، مصدر سابق، ص٣٠٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، مصدر سابق، ج١، ص١٩٠

والقطيف عام ١٥٢١م.

على أية حال رغم أن بعض ضباط البو كيرك رفضوا تدمير ميناء مسقط لموقعه الجميل والاستراتيجي، إلاّ أن قائدهم بدأ هجومه على المدينة والميناء من جميع الجهات، وقاومت مسقط بكل قوتها وبمساعدة قوة الجبور التي جاءتها[١]. ولكن السيوف والرماح لم تكن تستطيع أن تقف أمام المدافع وحممها المحرقة والتي أوقعت أعداداً كبيرة من القتلى في أوساط المدافعين عن المدينة. وتذكر المصادر البرتغالية أن عنف الهجوم على مسقط جعل قوات الجبور تنسحب مسرعة خارج المدينة[٢].

ونزل البو كيرك ورجاله وسط المدينة والتحم الجيشان العربي والبرتغالي في معركة ضارية وجهاً لوجه، إلى أن تمكنت القوات البرتغالية من دحر الجيش العربي من وسط المدينة إلى منافذها الخارجية والجبال المحيطة بها. ورغم أن الجيش العربي انسحب إلى الجبال، إلاّ أنّ عمليات الذبح والانتقام البرتغالي من الأهالي لم تنته، وكانت مجزرة فظيعة. وقد أباح البو كيرك المدينة لرجاله يفعلون بها ما يشاؤون فبدأ حمام الدماء بشكل عشوائي، فكان من بين القتلى نائب هرمز في المدينة[٣]، وقد ورد في المذكرات ما يلي: «لقد طارد أحد الضباط وهو (انطونيو دو كابو) حشداً من النساء اللائي فررن على وجوههن من البرتغاليين، ولحق بهن عند أحد التلال، فقتل عدد كبير

---

(١)- Wilson, Op. Cit., P. 114.

(٢)- The Commentaries, Op. Cit. Vol. I,P. 79.

(٣) وندل فيليبس، مرجع سابق، ص٤٩.

– في حادث قتل حاكم هرمز في المدينة نجد تضارباً واضحاً بين أقوال البو كيرك وهو صاحب المعركة، وأقوال (Sousa) حيث يذكر أنه أثناء حريق مسقط، تم اشعال النار في جميع البيوت ما عدا بيت الحاكم لأنه استقبل رجالنا بالترحاب وحذرهم من استعداد الآخرين لقتالهم ولذا جعلنا بيته آمناً، وهذا ما يؤيد القول بأنه كان هناك خلاف بين حاكم المدينة والجبهة العربية الأخرى من الأهالي العمانيين، أو أنه وقعت خيانة من قبل الحاكم جعلته يفتح أبواب المدينة لهم عندما وصلت قوات الجبور لمساعدة الأهالي. وللأسف لا تبدو الحقيقة واضحة هنا في هذا الحدث المهم عن غزو البرتغاليين لمسقط. أُنظر.

- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 79; Sousa P. Cit., Vol. I, 128.

منهن دون رحمة، بينما قام قائد آخر وهو (جوا دا نوفا) بالقبض على عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال كرهائن ولكنه قتل عدداً كبيراً منهم ما بين نساء وأطفال أمام ذويهم الذين أجبروا على مشاهدة هذه المأساة»(١). وفي النهاية كان أفونسو وقادته قد قتلوا كل المسلمين ونساءهم وأطفالهم الذين وجدوهم في البيوت التي نهبوها من الذين لم يستطيعوا الهرب، وكان القتل بالسيوف فصار الأهالي كالأضاحي، وهذا ما كان يتفاخر به البو كيرك دائماً أمام مليكه في رسائله حيث يقول: «حيثما أمكنني العثور على عربي كان إفلاته من يدي من المحال»، فقد كان يملأ بهؤلاء الناس المساجد ويضرم فيها النار، وهذا ما فعله في مدن ساحل عمان(٢).

وبعد انتهاء القتل الجماعي للعمانيين في مسقط، أمر ذلك القائد جنوده بنهب المدينة، وقد سمح للجنود بالاحتفاظ بالأموال والغنائم التي ينهبونها من السكان تعويضاً لهم عن التضحيات التي بذلوها ولإسكاتهم أيضاً عن الثورة عليه. وأخذ الجنود ممتلكات المدينة وغصت السفن البرتغالية بالسلع والبضائع المنهوبة، فأمر البو كيرك الجنود بإحراق باقي السلع التي لم يستطيعوا حملها على السفن وذلك انتقاماً من الأهالي لأنهم قاوموه(٣).

وبما أنّ الأهالي والجيش الذين قاوموا البو كيرك كانوا قد لجأوا إلى المرتفعات الجبلية خلف الميناء فقد توقعوا من البو كيرك إحراق المدينة بعد أن شاهدوا نيران السلع المحترقة في الهواء. أرسل المساقطة مبعوثاً رافعاً راية بيضاء دليلاً على الاستسلام وطلب الصلح، واقترب الرجل من البو كيرك وطلب منه عدم إحراق المدينة بعد أن سلبها، فقال له البو كيرك: إنها غلطة أهل المدينة الذين لم يحترموا الإتفاق الذي عقدوه معه

(١)- The Commentaries, Loc. Cit.

(٢)- Ibid., PP. 79, 80

(٣) يذكر البو كيرك أنه وجد بالمدينة «٣٠ مدفعاً» صغيراً وكبيراً، وحملها معه إلى سفنه!! أنظر.
- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I, PP. 80 - 81.

معتمدين على قوة الجبور التي جاءتهم من الداخل لمساعدتهم ولذا فلا حق لهم للمطالبة بشيء، أما إذا رغبوا في افتداء المدينة وما بقي بها، فعليهم دفع مبلغ عشرة آلاف أشرفي (xerafins) ذهباً قبل ظهر اليوم التالي(١).

وعندما لم تستطع مسقط توفير هذا المبلغ الكبير بعد أن نهبها البو كيرك قبل ذلك، فقد أمر رجاله بإحراق المدينة عن بكرة أبيها، فاحترقت فيها مؤن كثيرة وكذلك أربع وثلاثون سفينة كبيرة وصغيرة في الميناء مع سفن صيد عديدة، وترسانة مليئة بكل ما يلزم لبناء السفن، بالإضافة إلى ذلك لم يترك البو كيرك مسجد المدينة شاهداً على الإسلام بها، لذا أمر مجموعة خاصة من بحارته بهدم دعامات المسجد الخشبية وإحراقه، وقد كان كما وصفه البو كيرك نفسه، مسجداً جميلاً بما فيه من نقوش بديعة صنعت من الخشب والجص، وقد احترق المسجد عن آخره(٢).

وقبل أن يغادر البو كيرك مسقط وهي تحترق أمام أعين سكانها، أعطى أوامره بالتمثيل بالأسرى العمانيين من رجال ونساء وأطفال قبل اطلاق سراحهم لعدم حاجته إليهم في سفنه بعد أن أخذ عدداً من الرجال للخدمة في الأسطول، فتم قطع الأذان وجدع الأنوف كما فعلوا بالأهالي في قريات، وترك هؤلاء الأسرى وهم ينزفون دماً إمعاناً في الوحشية التي صبغت تاريخ هذا الغزو البرتغالي(٣).

وبعد أنْ أحدث البرتغاليون كل هذا الدمار في الأرواح والممتلكات وبعد أن خاضوا في دماء المسملين توجه البو كيرك ورجاله إلى السماء

---

(١)- The Commentaries, Loc. Cit.

يساوي هذا المبلغ ٣ مليون ريس (ريال برتغالي)، أو ٣ آلاف دولار تقريباً أو (٦٢٥ جنيه استرليني)، كما يذكر (Wilson) وبحسب سعر تحويل العملة في زمن المؤلف.

(٢)- Ibid. P. 82.

(٣) وندل فيليبس، مرجع سابق، ص٦٠.

شاكرين لربهم مساعدته في مهمتهم تلك للقضاء على المسلمين[1].

تمرد قادة السفن بعدئذ على البو كيرك ووصف بعض زعماء التمرد في سفن البو كيرك زعيمهم بأنه كان نوعاً صارماً جداً من الرجال، شديد التسرع، لا يُراعي شرف الرجال، وهو جاف وقاسي الطبع، لا يتورع عن إرتكاب الأعمال الوحشية بدون معنى ولا هدف، فالوحشية عنده هدفها الوحشية والقسوة فقط[2]. ولذا فقد بدأت حركة التمرد ضد أوامر البو كيرك من قبل معظم ضباطه وقادة سفنه عند ساحل عمان، وبالذات في مسقط – كما يعترف البو كيرك في مذكراته. وقاد هذا التمرد الضابط «جوا دا نوفا Nova Joad da» قائد السفينة (Flor da Lamar)، وذلك إثر تدمير مسقط، رغم أنه شارك فيه، إلاّ أنه اتهم القائد – إثر خلاف وقع بينهما، بأنه لا ينفذ أوامر الملك ونائبه في الهند (دالميدا) وإنما يتصرف من وحي تفكيره الشخصي ومن خياله وزهوه وشعوره بالعظمة. تناقش الرجلان حول جدوى تدمير وإحراق مدن تجارية جميلة كان يمكن الاستفادة منها ومن موقعها الجغرافي والاقتصادي مثل مسقط، ولذا قرر دانوفا – كما يقول البو كيرك – بعد إحراق مسقط – أن يترك قائده ويبحر إلى الهند، وحاول دانوفا اقناع بعض رفاقه في الأسطول للذهاب معه وترك البو كيرك. ولعلّ بعض القادة اقتنعوا بوجهة نظر زميلهم، إلاّ أن البو كيرك رفض الإذن بالسماح لهم، معللاً عمله في تدمير المدن الساحلية العمانية بأنها مدن تتبع مملكة هرمز، وهو إنما يفعل ذلك لا حباً في التدمير، ولكن حتى يحمي ظهره متى ما وصل إلى هرمز وليضمن عدم وصول أية مساعدة لهرمز من هذه المحميات التابعة لها على طول ساحل المنطقة العمانية، كما أحتج أيضاً بأن أوامر الملك أمانويل التي لديه تقول بأن أية مدينة عربية إسلامية لا تقبل الخضوع للتاج البرتغالي تدمر

---

(١)- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I, P. 82.

(٢)- Bell, Op. Cit., P. 109; Sousa, Op. Cit., PP. 132, 133.

أنظر حول شخصية البو كيرك أيضاً – وندل فيليبس، مرجع سابق، ص٤٨.

فوراً. فهل سيخالفون أوامر الملك ويتسببون في هزيمة الحملة وانتصار هؤلاء المسلمين عليهم؟؟، وبذلك هدأت ثورة الضباط وتم كبح جماح تمرد «دانوفا» – ولو مؤقتاً –[1].

ويذكر أن هذه الحركات من العصيان والتمرد، كانت تعد ظاهرة تميزت بها البحرية البرتغالية، ويعود سببها إلى أن كثيراً من البحارة البرتغاليين، ومعظمهم من المغامرين الباحثين عن الثروة، كانوا قد قطعوا المسافات الطويلة لكي يحصلوا على الثروات التي حلموا بها والتي وعدهم بها قوادهم والملك، من بلاد الهند وغيرها. لذا فقد ساءهم أن يزج بهم البو كيرك في مغامرات عسكرية على طول سواحل بلاد العرب المجدبة إلاّ من بعض الموانىء هنا وهناك[2].

وبعد مسقط اتجه البو كيرك إلى (صحارSohar)[3] فوجدها مدينة جميلة كبيرة وبها قلعة منيعة، أطلق عليها الربان المرشد المسلم الذي مع البو كيرك اسم (قلعة صحار)، فأعجب بها البو كيرك وبشكلها المربع ومناعتها وقوة أبراجها الستة المستديرة. وكانت القلقعة تقع على ساحل خليج صحار الكبير، وهي ضخمة وواسعة لدرجة أنها تحتاج إلى حوالي ألف جندي لحراستها والدفاع عنها. وقد كان مورد الماء قريب منها مما

---

(١) The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 85. -

(٢) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية، مرجع سابق، ص٦٩.

(٣) صحار: Coquiar - sur، هذه بعض تسميات البرتغاليين لها، وقد ذكرها العديد من الجغرافيين المسلمين القدماء، فقالوا إنها قصبة عمان مما يلي الجبل، وهي كثيرة النخل والفواكه، بها مرسى السفن من الهند والصين والزنج، وليس على بحر فارس مدينة أجمل منها كما يذكر أبو الفداء وهي ديار الأزد، ويضيف الحموي أن بها أسواقاً عجيبة وبها جامع ذو منارة طويلة في آخر الأسواق» وأبار عذبة، وهي دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن، وهي الميناء الرئيسي لساحل عمان الجنوبي، وتشتهر بجوها المعتدل وأرضها الخصبة وبها مخازن للسلع الشرقية. وبلغت صحار أوج مجدها في القرن الرابع الهجري، واستمرت كذلك حتى القرن السابع، عندما تحولت تجارتها إلى هرمز وقلهات. أنظر: الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، مج٣، ص ص ٣٩٣، ٣٩٤هـ أبو الفداء، تقويم البلدان (باريس، ١٨٤٠)، ص٩٩.

يجعلها تستطيع تحمل الحصار لأطول فترة، والمياه تحيط بها من جهة الخليج وترتفع لمستوى جيد من الجدار، وبها سكن الحراس ومنزل الحاكم لكونه رجلاً مهماً من هرمز. ويبدو أن هذه القلعة قد بناها الهرامزة لمراقبة السفن التي تمر بمدخل الخليج العربي[1]. ورغم هذه القوة والحصانة للقلعة وصعوبة الاستيلاء عليها كما يذكر البرتغاليون، فلنرى كيف احتل البوكيرك صحار؟؟

عندما ذكر حاكم صحار لرسول البو كيرك بأن المدينةوقلعتها الحصينة تابعة لملك هرمز، لم يعجبه هذا الرد. وطلب من الحاكم أن يخضع لملك البرتغال ويسلمه القلعة في اليوم التالي، وإلاّ لا يلومن إلاّ نفسه، فسوف يحدث لها ما حدث للمدن العمانية الأخرى[2]. إلاّ أن الحاكم استند على قوة الجبور التي وصلته من الداخل العماني وتقدر بـ(ألفين من الفرسان على جيادهم وخمسة آلاف من الجنود المشاة[3]، وحذر البوكيرك بأنه سيلاقي استقبالاً لا يروق له لو فكر في دخول المدينة. فقرر البو كيرك أن يحتل المدينة بالقوة.

والسؤال الذي يقفز هنا بشكل حاد هو، كيف تأتي نجدة من الجبور لصحار وحاكم المدينة يعلن للبوكيرك صراحة بأنها تابعة لملك هرمز؟ ثم أن عدد الفرسان الخيالة الذي ذكر – (ألفان) على جيادهم – كبير جداً، مع أنه كان في الإمكان توفير مثل هذه الأعداد من شبه الجزيرة العربية وقبائلها في تلك الفترة كما فعل عامر بن عبد الوهاب في حصار صنعاء عام ١٥٠٥م، ولكن إذا كانت نجدة بسيطة لمساعدة مدينة ساحلية بعيدة عن ممتلكات الجبور في الأحساء وداخل عمان، قد ضمت هذا العدد الكبير

(١)- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 89.
(٢)- Ibid., P. 87.
(٣)- Ibid.

من الفرسان ومن قبلها في مسقط، فلنا أن نتساءل كم هي قوة هؤلاء الجبور واتساع دولتهم في مطلع القرن السادس عشر؟، وكيف ارتضوا أن يدافعوا عن مدن ليست ضمن نفوذهم وأملاكهم ويخسروا في الدفاع عنها أيضاً؟ ربما لن نجد أجوبة صريحة لتلك التساؤلات إلاّ بمزيد من البحث حول إمارة الجبور التي كانت دولة إقليمية كبرى، وحول طبيعة الصراع على سواحل الخليج العربي ومدنه بين هذه الإمارة الحيوية ومملكة هرمز.

ومما يزيد الوضع غموضاً مع تلك التساؤلات، هو رغم حصانة قلعة صحار وقوتها، إلاّ أن الحاكم لم يستخدمها ضد البرتغاليين، بل سرعان ما استسلم عندما شاهد مدافع الأسطول البرتغالي قد استعدت لقصف المدينة. فكيف استطاع هذا الحاكم تسريح قوة الجبور التي جاءت إليه مفضلاً الخضوع بدل سفك الدماء وتخريب المدينة؟ قام وفد من صحار باسم الحاكم بتسليم المدينة إلى البو كيرك الذي صمم على النزول بنفسه إلى البر رافضاً الاستسلام بهذه الطريقة الهادئة!!، ودخل ذلك القائد مع بعض قواته إلى قلعة صحار وأُجبر قائدها والحاكم تحت تهديد السلاح برفع العلم البرتغالي على أعلى أبراجها لتراه جميع السفن التجارية التي تمر بالمنطقة، وليعلم الجميع بأن القلعة قد صارت تابعة لملك البرتغال ومعها مدينة صحار أيضاً. وقد قبل الحاكم ومعاونوه في صحار هذا الأمر مرغمين كي لا تدمر مدينتهم على يد البو كيرك(١). وقبل مغادرة صحار ثبّت البو كيرك حاكمها كنائب عن ملك البرتغال في حكم المدينة واشترط عليه دفع الضريبة. وهنا أيضاً لا نجد أي ذكر بعد ذلك لقوة الجبور التي حضرت لمساعدة مدينة صحار. وهل كانت هي نفسها القوة التي جاءت من مسقط عقب سقوطها أم كانت تلك قوة أخرى مختلفة تتبع قائد آخر أو فرع من الجبور حيث إن البو كيرك يذكر بعد خروجه من

---

(١)- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 86.

صحار أن كل الأراضي الداخلية بعد صحار وخورفكان تابعة لابن جابر.

ومن صحار تحركت حملة البوكيرك إلى «خورفكان»[1]، وهي مدينة ذات موقع حصين أيضاً، وقد عرف سكانها بمقدم البرتغاليين من بعض السفن الهاربة منهم من المدن العمانية الأخرى، ولذلك فقد استعدت المدينة للمقاومة أملاً في وقف زحف البو كيرك الذي لم يتوقف على طول الساحل العماني، وقام الأهالي باستعراضات عسكرية لقواتهم أمام ساحل المدينة اعتقاداً منهم بأن ذلك سيردع البرتغاليين عن القيام بأية عمليات عسكرية ضد بلدهم. إلاّ أنّ البو كيرك أيضاً لم تعجبه طريقة أهالي خورفكان في استقباله، ففتح نيران مدافع أسطوله على بلدتهم، وتمكن من القيام بعملية إنزال على الساحل ودفع العرب المدافعين عن المدينة إلى داخل القلعة – ولسنا ندري لماذا لم يدافعوا من داخل القلعة – ثم أطبقوا عليهم وتمكنوا بعد قتال عنيف من الاستيلاء على الحصن (القلعة). وقام البرتغاليون بنهب المدينة وإحراقها بعد أن دافع رجالها عن النساء والأطفال دون جدوى، وظلت المدينة تحترق لمدة ثلاثة أيام[2]. وهنا حصل البو كيرك على كتاب عن الاسكندر الأكبر من أحد كبار السن أهداه إياه حتى يتركه دون أن يؤذيه. أما بقية الأسرى فقد فعل بهم كما فعل بغيرهم في المدن الأخرى، وجمع بعض المعلومات عن هرمز وتحصيناتها وقوتها، إلاّ أن الغنائم التي حصل عليها البرتغاليون من المدينة كانت قليلة، نظراً لأن التجار الكوجراتيين في خورفكان كانوا قد فروا منها بأموالهم قبل

---

(١) خورفكان: يصفها البو كيرك بقوله «ميناء يقع على سطح جبلي عالٍ ومحصن طبيعياً عند الساحل من الجانب البري لذلك يصعب مهاجمتها براً أو بحراً، البلدة كبيرة، تابعة لهرمز، تربى فيها الخيول التي تصدر للهند، أمام الساحل هناك جزيرتان تحمي المدينة في حالة الخطر، وبها العديد من التجار الأغنياء من «كجرات»، جوها معتدل، والمنطقة الداخلية بعد خورفكان خاضعة لمملكة ابن جابر شأنها شأن الأخرى في داخل عمان، وتشتهر خورفكان بأشجار البرتقال والليمون والأترنج والتين والنخيل وبها عيون ماء عذبة، أنظر.- The Commentarles, Op. Cit., P.100.

(٢)- Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 127.

وصول البرتغاليين إليها حيث كانت سفنهم عند وصول البو كيرك للميناء ما زالت صواريها تلوح في الأفق وهي تتجه شمالاً إلى الخليج[1].

وقد كانت خورفكان هي محطة البو كيرك الأخيرة في منطقة ساحل عُمان الذي دمر فيه البو كيرك ثلاث مدن كاملة كما دمر الرابعة (قلهات) بعدئذ بعد عودته الأولى من هرمز سنة ١٥٠٨م. وعطّل هذا القائد البرتغالي في هذه المناطق كافة النشاط البحري التجاري حيث أحرق ما بين مائة وعشرة إلى مائة وعشرين سفينة تجارية بخلاف سفن الصيد في المدن العمانية. وغالباً فأنّ تلك السفن لم يصدر عنها اعتداء على البو كيرك ورجاله ولم تقاومهم أيضاً لأنها لم تكن سفناً عسكرية. وهدم البوكيرك حوالي أربعة مساجد بخلاف البيوت والمنشآت الاقتصادية والمدنية الأخرى، وتوجه البوكيرك بعدئذ عبر رأس ما سندم إلى فم الخليج العربي حيث جزيرة «هرمز» عند عنق الزجاجة في هذا الخليج، ليكمل المهمة الأساسية التي جاء من أجلها إلى المنطقة العربية.

السيطرة البرتغالية على هرمز:

منذ أن عهد إلى أفونسو دا البو كيرك المشاركة في الأسطول البرتغالي المتجه إلى الشرق عام ١٥٠٦م، وهو يتطلع بأن يكون فاتح هرمز والمسيطر عليها باعتبارها مفتاح الخليج العربي لإدراكه أن الاستيلاء عليها سوف يضيف مجداً وانتصاراً كبيراً للبرتغال[2].

بعد عبور رأس ما سندم وصل البو كيرك إلى جزيرة «هرمز» التي كانت مركز الحكم لسائر الموانىء والأقاليم من رأس الحد على الساحل العربي حتى جزر قيس ولارك وقشم وبعض أجزاء الساحل الجنوبي لفارس

(١)- Ibid.

(٢)- Miles, Op. Cit., P. 142.

وكذلك جزر البحرين في فترات سابقة، بالإضافة لكونها مركزاً للتجارة والمعاملات التجارية بين بلاد العراق وعربستان وشرق أفريقيا والهند[١]، وأيضاً لأهميتها الكبرى في موقعها الجغرافي في طريق الخليج العربي والتجارة بين الشرق والغرب.

يقول البوكيرك وهو في طريقه إلى هرمز، إن الملاحين المسلمين المالنديين الذين معه نصحوه بعدم الاقتراب كثيراً من هرمز، لأنها تبدو في أتم الاستعداد الحربي لمواجهته[٢]، ألقى البوكيرك مراسي سفنه قريباً من سواحلها، وتردد الجنود البرتغاليون، عندما شاهدوا عن كثب عظمة المدينة وكثرة عدد الفرسان المتجمعين على طول الساحل السفن العديدة الرابضة في الميناء والمشحونة بالرجال والسلاح، وتهيبوا ضخامة الواجب الذي كان عليهم الإضطلاع به فتقدم قادة السفن من البو كيرك وحذروه وصارحوه علانية من مغبة ما هم مقدمون عليه، لأن هذه المدينة ليست كغيرها من تلك المدن والقرى التي في ساحل عمان[٣]، ذلك أن حاكم هرمز قد أعد للأمر عدته من جميع النواحي. ويبدو أن البو كيرك تخوف فعلاً من مهاجمة هرمز حيث يقول: «طلبت مساعدة الرب في عملي هذا!!!»[٤].

ومن ناحية أخرى كان البلاط الهرمزي ممثلاً في الملك ومجلس حكم الجزيرة قد استعدوا للأمر على أكثر من جبهة لمواجهة البو كيرك لأنهم سمعوا أخبار قسوته وبشاعة ما يقوم به من الفارين من المدن العمانية التي سقطت له. وقد كان يحكم الجزيرة بعد سلسلة من الصراعات العائلية – كما ذكرنا

(١) مؤلف مجهول «فتح قلهات وهرمز»، مجلة يادكار (ذكريات)، العددين الأول والثاني (طهران، ١٩٤٧م)، ص١١١.

(٢)- The Commentaries, P. Cit., Vol. I,P. 102.

(٣)- Wilson, Op. Cit., P.115.

(٤)- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 107.

في الفصل الثالث – فتى صغير السن لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره يدعى «سيف الدين أبا نصر شاه» وقد أوصله للحكم رئيس مجلس حكم الجزيرة (خواجهة عطار Cogeatar)[(١)]، ويشهد البرتغاليون قبل الهرامزة والفرس بأن الأخير كان رجلاً شجاعاً وإدارياً قديراً في أمور الحكم. فبمجرد سماعه بوصول البو كيرك إلى الخليج وقصده جزيرة هرمز، أعد جيشاً سريعاً كان معظمه جنود مرتزقة استأجرهم من الأقاليم المجاورة في ساحل فارس وسواحل شبه الجزيرة العربية وغيرها وكان بينهم أربعة آلاف رامٍ للسهام[(٢)]. وأرسل عطار في نفس الوقت رسولاً للشاه إسماعيل الصفوي في فارس يطلب نجدته ضد الغزو البرتغالي، حيث إن الدولة الصفوية كانت قد توسعت في ذلك الحين وبلغت درجة كبيرة من القوة والنفوذ في إيران، وتوقع منها الهرامزة أن تستجيب حالاً لطلبهم، خصوصاً وأن العدو مشترك وأنه يهدف لضرب القوى الإسلامية في المنطقة. وهرمز – كما يعتقد الشاه – كانت تتبع فارس بموجب الضريبة السنوية التي تدفعها للصفويين بعد قيام دولتهم منذ عام ١٥٠٠. لكن يبدو أن الشاه إسماعيل قد ركز ثقله العسكري في شمال غرب إيران تجاه العراق وأملاكه المحاذية للدولة العثمانية في عهد بايزيد الثاني، لمجابهة الوضع المضطرب على الحدود بين الدولتين. وكان هذا الوضع بالطبع يحول دون إرسال الشاه لجزء من قواته إلى هرمز. أضف إلى ذلك أن الشاه كان لا يملك حتى ذاك الوقت قوة بحرية مسلحة لهذا الغرض، كما كان نشره للمذهب الشيعي يشغل باله أكثر من مجرد مساعدة هرمز، فقد بدأ يعد عدته ويجهز قواته لدخول العراق وضم الأماكن الشيعية المقدسة لأملاكه. وفعلاً فقد تمكن الشاه من دخول بغداد بعد فترة وجيزة من وصول البو كيرك

---

(١) يذكر تورانشاه في كتابه الشهنامة أن الوزير (خواجة عطار) أصله من مواليد مدينة قلهات العمانية، انظر. - The Book of Barbosa, Op. Cit., P. 69.

(٢) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٥٧؛ نصر اللّه فلسفي، مرجع سابق، ص١١.

إلى هرمز عام ١٥٠٨م[١]. ويبدو أيضاً أن الشاه إسماعيل لم يعر حملة البو كيرك إهتماماً كبيراً، إذ ربما اعتقد أن وجود البوكيرك في الخليج بأسطوله الصغير هو نوع من المناوشات التي سرعان ما تتلاشى دون أن تترك أثراً كبيراً، ولذلك لم يفعل الشاه أكثر من تهدئة رسول (سيف الدين) مؤكداً له شدة اهتمامه بشئون إمبراطوريته وعدم سماحه لأي مغير بأن يعبث بوحـــدة الأراضي الفارسية[٢]. وكأنه أراد أن يؤكد بذلك فقط لرسول هرمز، تبعية هرمز له دون الدفاع عنها.

من ناحية أخرى قام أيضاً خواجه عطار بإصدار أوامره لجميع السفن التجارية التي كانت بالميناء بعدم مغادرته، وكان من بينها عدد من السفن الهندية، وذلك لتشكل تلك السفن حاجزاً ضد هجوم الأسطول البرتغالي ولتعطي الإنطباع الأولي بضخامة القوات المدافعة، كما أمر كذلك بعض سفن صيد السمك الكبيرة بأن تقف قبالة الميناء على مسافة ليست بعيدة عنه لكي تعيق تقدم سفن البو كيرك حين وصولها، وهذا ما جعل البو كيرك ورجاله يشاهدون حوالي أربعمائة سفية في الميناء، ربما لم يكن من بينها سوى ستون سفينة حربية من الحجم الكبير كما يذكر (Sousa) كان بها ما يقرب من ألفين وخمسمائة من الرجال المحاربين[٣]، بالاضافة لبعض السفن المسلحة بالمدافع[٤]، ومائتي قارب صغير وعدد من زوراق الشاطىء التي تنقل المسافرين عادة بين الجزر القريبة. وكان

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية، مرجع سابق، ص ٦٧؛ مصطفى عقيل الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ – ١٧٦٣م، (قطر، ١٩٩١) ص٢٠.

(٢) عبد السلام عبد العزيز، مملكة هرمز، مرجع سابق، ص١٧٦.

(٣) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 129.

(٤) مرة أخرى نتساءل كيف حصلت هرمز على هذه المدافع، ونلاحظ أنها مدافع تركب في السفن والزوارق، أي أنها تفوقت في تقنيتها حتى على البرتغاليين حيث إنه لم يرد في تاريخ البحرية البرتغالية في بداية الكشوف وجود زوارق بها مدافع، ثم أن الدولة الصفوية وهي أقوى من هرمز لم تكن تملك تلك المدافع والتي لم تكن تملكها ممالك الهند أيضاً.

فيها رماة السهام وكذلك بعض المدافع. ويذكر البو كيرك أنه شاهد مابين خمسة عشر إلى عشرين ألف محارب من المسلمين على الشاطىء ومعهم عدد كبير من الخيول وهم ينفخون في الأبواق ويهللون ويكبرون ويصدرون أصواتاً أثارت الكثير من الرعب في قلوب البرتغاليين(١).

نظراً لاستعدادات هرمز هذه، وحتى يضمن البو كيرك تأييد قادة أسطوله لما سيقوم به ضد تلك الجزيرة، دعى ملكها سيف الدين بداية إلى الاستسلام وإعلان تبعيته لملك البرتغال(٢). وقد جاء الرد من قبل حاكم هرمز عن طريق «الخواجة إبراهيم»، وهو أحد التجار أعضاء مجلس حكم الجزيرة، حيث قال: إن الملك يتساءل «ما سبب مجيئكم لهذه الجزيرة؟؟» فرد البو كيرك عليه رداً يحمل شيئاً من الترغيب وشيئاً من الترهيب حيث قال: «قل للملك أن ملك البرتغال دوم أمانويل سيد الهند، يرغب في صداقته كثيراً، وقد أرسلني لهذا الميناء لأخدمه بأسطوله (هكذا)، فإذا كان الملك راغباً في أن يكون تابعاً لملك البرتغال ويدفع الضريبة السنوية له، فلسوف أعقد معه صلحاً وسأكون في خدمته وأقدم له كل الخدمات التي يأمرني بها ضد أعدائه. وإذا كان غير راغب في ذلك فدعه يعلم بأنني سأدمر حتى أسطوله الرابض في الميناء والذي وضع ثقته فيه، وسأخذ مدينته عنوة بقوة السلاح(٣)».

ولكي يطيل خواجه عطار أمد المفاوضات مع البرتغاليين لحين وصول المساعدة الحربية المنتظرة من الشاه إسماعيل أو من قوى أخرى في الخليج العربي أو الهند، فقد أرسل الخواجه إبراهيم مرة أخرى ليعلن للبو كيرك ترحيب الملك بدعوته للسلام، وليسأله عن سبب تدمير المدن

---

(١) يذكر (Sousa) أن الجنود الهرامزة كانوا (٣٠ ألفاً) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 106.

(٢)- Danvers, Op. Cit., Vol. I,P. 126.

(٣)- The Commentaries, Vol. I,P. 107.

العمانية التي تتبع هرمز على الساحل العربي وقتل أهاليها بدل من أن يقوم بنشر السلام بين ربوعها، وقد رد عليه البو كيرك بجفاف بأن أولئك الناس يستحقون ما حدث لهم وأنه لم يأتِ إلى هرمز ليستسمح ملكها عمّا فعله بأملاكه، بل ليحاربه[1]. فطلب الرسول باسم الملك إمهالم ثلاثة أيام ليراجع حسابات الخزينة والضرائب غير المستوفاة حتى الآن ليقدم للبو كيرك ما يطلبه من ضريبة. وهنا يبدو أن البو كيرك قد كشف لعبة «عطار» والملك، وهو يعلم بمدى تململ بحارته، فقال للرسول: إنه لن ينتظر ثلاثة أيام أخرى حتى يرد عليه الملك، وإذا لم يصله الرد صباح اليوم التالي فإنه سيدمر المدينة ويستولي عليها بالقوة[2].

وقد رفض بعض ضباط الأسطول البرتغالي هذه الطريقة في معالجة الموقف مع ملك يطلب السلام لا الحرب، وطلبوا من البو كيرك تسوية الخلاف بالطرق السلمية، لكن البو كيرك رفض ذلك وأعلن لرجاله بأنه لا خيار أمامهم إلاّ أمرين: إما الحرب والانتصار على هرمز أو الهزيمة وحينها ستقطع رؤوسهم على أيدي المسلمين الذين سيحملونها ضمن غنائمهم[3].

ويبدو أن إطالة أجواء المفاوضات بين الجانبين البرتغالي والهرمزي قد أدت لفائدة هرمز في وصول نجدة لمساعدتها، فكما يذكر صالح أوزبران، أنه قد وصلت فعلاً نجدة بحرية من قبل الجبور في جزر البحرين لمساعدة هرمز، رغم سوء العلاقة بين حكام هرمز والجبور بسبب قضية إيرادات الجزر. وتدخل الجبور هنا ليس بمستبعد وهم الوحيدون في المنطقة الذين ترصدوا البرتغاليين أينما ظهروا في شبه الجزيرة العربية

---

(١)- Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 130; Danevers, Op. Cit., Vol. I,P. 162.

(٢)- The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 111.

(٣) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية، مرجع سابق، ص٦٦.

والخليج منذ دخولهم المياه العربية. إلاّ أن البرتغاليين كمنوا لهذه القوة البحرية الصغيرة والتي لا نعرف عددها وحجمها، وذلك قرب جزيرة «قيس» ودمروها على حين غرة عن آخرها وأغرقوا سفنها(١).

ورغم اعتراض بعض القادة على البو كيرك، إلاّ أنهم في النهاية امتثلوا لأوامره بالهجوم على مدينة هرمز بعد يوم من انتظار رد الملك على البو كيرك الذي لم يصل.

وقد بدأوا هجومهم بتدمير السفن التي اعترضت طريقهم في الميناء وشكلت حاجزاً أولياً. وحاول البو كيرك فتح ثغرة في هذا الحاجز لدخول الميناء بأسطوله لتقريب المسافة في قصف المدفعية للمدينة، بعد ذلك. وكان من ضمن الأسطول التجاري الذي قصفه البو كيرك في ميناء هرمز، سفينة لحاكم بومباي تدعى (مريم) وأخرى لحاكم ديو، وقد قتل العديد من رجالها وشوهد الآخرون يقفزون إلى الماء إتقاءً للحرائق في السفن(٢).

واستمر القصف والقتال بين الجانبين حتى الظهر، ويبدو أن المعركة خلال هذه الجولة لم تتعد المياه المحيطة بهرمز، بدليل أن (Sousa) يقول: إنّ جثث حوالي ألف وسبعمائة من جيش هرمز شوهدت تطفو على سطح الماء. ويتباهى هذا المصدر البرتغالي بأن الجنود البرتغاليين كانوا يتنافسون في اصطياد جثث المسلمين لنهب حليها الذهبية التي كانت تزين أيديهم وأعناقهم(٣). ثم قام البو كيرك بعد ذلك بقصف جموع المقاتلين الذين احتشدوا على شواطىء الجزيرة، وقد وقعت بينهم خسائر كبيرة نظراً لتكدسهم في مواجهة العدو بطريقة غير نظامية في منطقة لا يزيد طولها عن ثلاثة أميال. ثم نزل البو كيرك مع قواده على رصيف

---

(١) - Salih Ozbaran, "Bahrain in the Sixteenth Century",

(٢) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,PP. 104, 113; Sousa, Op. Cit., Vol. I,PP. 129, 130.

(٣) - Ibid.

ميناء المدينة بهدف اقتحام قلعتها وفتح أبوابها، وقتلوا بعض الجنود إلاّ أنهم فشلوا في فتح القلعة[1]، وبعد إزدياد القصف وكثرة الخسائر والقتل بين الأهالي أرسل خواجه عطار موفدين يرفعان راية الاستسلام من داخل المدينة إلى الشاطىء قبالة أسطول البو كيرك، طالباً عقد هدنة باسم الملك والبدء بمحادثات للسلام، فتوقف القتال[2].

هكذا انتهت المواجهة الأولى بين البرتغاليين ومملكة هرمز. ويفسر عباس إقبال هزيمة هرمز في الجولة الأولى، بأن جنود الهرامزة – رغم كثرتهم – لسوء الحظ لم يكن لديهم إنضباط عسكري صحيح كالبرتغاليين، ثم أن معداتهم الحربية بدائية، وسفنهم تجارية وليست حربية، وهي قديمة ومستهلكة بعكس سفن البرتغاليين ذات المعدات والأشرعة الحديثة والتي تتميز بسرعة المناورة وحمل المدافع الثقيلة القوية[3].

وقد اجتمع الجانبان بعد المعركة وتم التوقيع الأول على معاهدة بين الطرفين – كما يبدو – طلب خلالها البو كيرك مبلغ (ثلاثين ألف أشرفي ذهباً)[4] كضريبة سنوية تؤديها هرمز لملك البرتغال إلاّ أن الوزير عطار والملك اعتذرا عن دفع المبلغ الذي ليس بمقدور خزينةالمدينة دفعه بسبب الخراب والدمار الذي حل بها وسلب قوتها فطالبوا بتخفيضه إلى ستة آلاف أشرفي سنوياً مع دفع خمسة آلاف أشرفي حالاً كتعويض للأسطول

(١) هذه القلعة التي يذكرها البو كيرك لم يذكرها أحد غيره حتى ابن بطوطة الذي ذكر أموراً ثانوية في الجزيرة لم يذكر وجود قلعة بها. - The Commentarie, Op. Cit., Vol. I,P. 118.

(٢) The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 120; Danvers, Op. Cit., P.164.; Sousa, Op., Cit., Vol. I,PP. 129 - 13.

يقول سوزا بأن البرتغاليين خسروا في معركة هرمز الأولى عشرة جنود فقط ولا يتضح إنْ كانت ذلك على البر أم في البحر.

(٣) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٥٧.

(٤) تساوي تقريباً (١٨٧٥ جنيه استرليني).

البرتغالي. واستحسن عدد من قادة الأسطول البرتغالي ذلك، إلاّ أن البو كيرك رفض وأصر على رأيه، ولم يقبل – كما يقول (Danvers) – أن يكون تابعاً لقواده[1]!!، وبعد أخذ ورد وافق البو كيرك على استلام مبلغ خمسة عشر ألف أشرفي من الحكومة الهرمزية، وتم توقيع إتفاق السلام في سبتمبر من عام ١٥٠٧م، وقد عارض في البداية خواجه عطار إنفاذ بعض بنوده التي وضعها البو كيرك، وأصر على ضرورة إعطاء حرية كاملة لهرمز في التجارة، وأن يبتعد الأسطول البرتغالي عن هرمز[2]. حتى يشعر الهرامزة بنوع من الحرية في اتخاذ قرارهم خصوصاً وأن الاتفاقية قد وقعت تحت تهديد السلاح، أي أن المفاوضات التي جرت في هرمز آنذاك كانت من النوع الذي يطلق عليه «المفاوضات المسلحة Armed Negotiations »، إذ كانت مدافع الأسطول البرتغالي موجهة ضد هرمز تهدد بإطلاق قذائفها إذا توقفت المباحثات في أية لحظة[3].

وأخيراً جاء الاتفاق في بنوده النهائية كالتالي:

١) أن يكون ملك هرمز تابعاً هو وجزيرته لملك البرتغال.

٢) أن يدفع الملك غرامة مباشرة في الحال مقدارها خمسة آلاف أشرفي ذهباً كتعويض للأسطول البرتغالي وللقتلى منه.

٣) تدفع هرمز ضريبة سنوية مقدارها ١٥ ألف أشرفي ذهباً لملك البرتغال.

٤) إعفاء السلع البرتغالية التي ترد إلى الجزيرة اعتباراً من توقيع المعاهدة من الضرائب الجمركية.

---

(١) - Danvers, Op. Cit., Vol. I,P. 16; The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,PP. 129, 130.

(٢) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص١٤.

(٣) عبد العزيز الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة، مرجع سابق، ص٦٢٨.

٥) لا يدفع البرتغاليون (كأفراد) جمارك أكثر مما يدفعه المواطنون في هرمز على البضائع التي يشترونها من هرمز والموانىء التابعة لها.

٦) يُسمح الملك للجيش البرتغالي بإقامة قلعة حربية في أطراف الجزيرة بموقع مناسب تقيم بها حامية باسم جيش النصر[١].

- ويضيف الكاتب الإيراني - جهانكير قائمقامي - بنوداً أخرى للإتفاقية تفاصيلها كالآتي:

٧) يوافق ملك البرتغال أن يكون سيف الدين أبا نصر ملكاً لهرمز وخواجه عطار نائباً له «ورئيس نور الدين» الشخص الثالث في الأهمية ومستشاراً شخصياً لملك هرمز[٢].

(٨) تقوم البرتغال بالدفاع عن هرمز ضد أعدائها وأعداء ملكها (يقصد الخلافات الأسرية).

٩) حرية الملاحة لجميع السفن الخارجية التابعة لمملكة هرمز ابتداءً من رأس الحد في ساحل عمان[٣].

وقد كتبت نسختان من معاهدة السلام هذه ووقعها البو كيرك والملك سيف الدين، وكانت إحدى النسخ بالعربية وقد حُفرت على صفيحة من الذهب وغلفت بغلاف من الذهب على هيئة كتاب تتدلى منه ثلاثة أختام

---

(١) يلاحظ تشابه بعض بنود أول إتفاقية بين أولى دول الاستعمار الأوروبي في الخليج العربي وبين ما ستخطو على نهجه الدول الاستعمارية الأخرى في القرون التالية مثل إنجلترا وفرنسا مع بلدان المنطقة خصوصاً في البندين (٤، ٦).

The Book of Barbosa, Op. Cit., P. 102; Sousa, Op. Cit., Vol. 1,PP. 131, 132. -

(٢) يبدو أن شخصية (نور الدين) من الذين اعتمدت عليهم السلطات البرتغالية في الجزيرة كأصدقاء لها، وهو من المعروفين بخصومتهم للخواجة عطار في مجلس حكم المدينة. وقد انتهز نور الدين فرصة هزيمة قوات هرمز وأيد الملك في توقيع إتفاق سلام مع البرتغاليين، أنظر - جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص١٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٤

من الذهب، هي ختم ملك هرمز وختم حاكم المدينة (خواجة عطار) وختم المدينة ذاتها، وأما النسخة الأخرى الخاصة بالملك فقد كتبت بالفارسية وبحروف من ماء الذهب على قطعة من الورق وبعلامات ترقيم ذات لون أزرق، وقد أرسل البو كيرك النسختين في صندوق من الفضة إلى ملك البرتغال أمانويل الأول(١).

ويؤكد (Danvers) في تعليقه على هذه المعاهدة، أنها مفقودة منذ زمن طويل، بل إنه يعتقد بعدم وجود نسخة منها يمكن الوثوق بها، وأن ثمة نصاً لتلك المعاهدة أورده المؤرخ البرتغالي - كاستنهيدا - يختلف بعض الشيء عن التفاصيل التي ذكرها البو كيرك في يومياته(٢).

إلا أنه لابد من الإشارة هنا إلى أن حديث البو كيرك عن وجود ختم مستقل لمدينة هرمز بخلاف ختم الملك ذاته، لهو قرينة أخرى من القرائن العديدة التي تساعد على الشك فيما قاله عن زيارته الأولى لساحل عمان والخليج العربي والتي لم يذكرها غيره. فمثل هذا التقليد - كما يقول على التاجر - أي اتخاذ مدينة ما - ختماً خاصاً بها غير ختم ملكها أو حاكمها، تقليد لم تعرفه أي مدينة في الخليج ولا هرمز أيضاً، سواء في ذلك التاريخ أم قبله أو بعده. وأغلب الظن أن المعاهدة كما وردت في مذكرات البو كيرك وعند بعض الكتاب البرتغاليين لم تعقد بتلك الصورة، ولكن التسوية التي تم التوصل إليها بين البو كيرك وهرمز كانت شبه اتفاق على تسوية سليمة لإنهاء القتال بين الجانبين(٣).

ويبدو أن هذا الرأي أقرب إلى الصواب، والسبب في ذلك يعود إلى أن

---

(١) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 131.

(٢) - Danvers, Op. Civ., Vol. I,P. 165.

(٣) على التاجر «الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي» - مجلة العروبة. ج٢، عدد٧، (١٩٩٤)، ص٨١.

اتصال هرمزبالبرتغاليين لا يحدث هنا للمرة الأولى [١] وتعرض سفن وتجارة هرمز للقرصنة البحرية البرتغالية في المحيط الهندي له تاريخ أبعد من ذلك ؛ حيث تذكر الوقائع التاريخية أن سفن هرمز هوجمت عام ١٥٠٤م أمام ساحل المليبار ثم تعرضت سفن صيد السمك التابعة لهرمز عام ١٥٠٥م لهجوم آخر قرب بحر عمان. بالإضافة إلى ذلك ففي أوائل عام ١٥٠٧ قبل وصول البو كيرك إلى الخليج، هوجمت سفن لهرمز وكان عددها سبع سفن محملة بالخيول وهي في طريقها إلى ميناء (شاول) الهندي، وقد هاجمها ابن دالميدا، (لورانزو) وقام بسلب حمولتها وإحراق السفن السبعة[٢].

سببت تلك القرصنة المتواصلة خسائر بالطبع لتجار هرمز حتى أنهم قد خفضوا من رحلاتهم التجارية إلى ساحل المليبار، بالإضافة للقوانين البرتغالية في منع سفن المسلمين من الإتجار مع الهند بشكل عام، وقد أثرت على وضع مملكة هرمز الإقتصادي. لذا رأى مجلس إدارتها أنه من الأفضل الإتفاق مع البو كيرك بشكل يؤمن لبلادهم حرية الإتجار مع الهند لقاء مبالغ سنوية معلومة تدفعها خزينة المملكة للبرتغال على غرار ما كانت تدفعه هرمز لحكام فارس وغيرهم من القوى الكبرى المجاورة لها لتأمن خطرهم وشرهم في أحيان كثيرة. وكانت تلك الأتاوة التي تعهد ملك هرمز بدفعها للبرتغال هي مقابل الحصول على بعض الإمتيازات التجارية، ويؤكد هذا الموضوع بعض الإجراءات التي اتخذها البو كيرك نفسه بعد استيلائه على جوا عام ١٥١٠م حيث أعطى أمراً

(١) يذكر جهانكير، أن دالميدا عندما تولى نائب الملك في الهند عام ١٥٠٥م، قام بإرسال خطابات إلى ملوك وحكام وشيوخ سواحل الهند وعمان والخليج وأن مضمون تلك الرسائل يدور حول استقرار الصلح والصداقة وإقامة أفضل العلاقات التجارية، ويتضح ذلك من خلال رسالتين أرسلت إلى هرمز وخواجه عطار، والأصل الفارسي لهاتين الرسالتين موجود. أنظر، جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص١١.

(٢) جهانكير قائمقامي، المرجع السابق، ص١٠، ١١.

لموظفيه يقضي بأن تحتوي التصاريح التي تُعطى للسفن التجارية فيما عُرف باسم تصاريح التجارة (Cartazes) البرتغالية، بحرية الإبحار من الهند غرباً على شرط أن تبحر ببضائعها إلى هرمز وليس إلى أية جهة أخرى(١)، خشية أن تعتبر هرمز تسرب البضائع الهندية إلى غيرها من الموانىء الواقعة إلى الغرب من الهند خرقاً لهذه التسوية التي تمت في ١٥٠٧م، فتتخذ ذلك ذريعة لقطع الضريبة السنوية المفروضة عليها. وهناك أيضاً رسالة بعث بها البو كيرك إلى الملك أمانويل في ١٥١٤/٩/٢٢م من جوا يقول فيها أنه سمح للعرب بركوب البحر في الخليج شريطة الحصول على إذن مسبق وشريطة الإتجار مع هرمز وحدها، وفي رسالة أخرى بتاريخ ١٥١٤/١٢/٢٧، يقول للملك «لقد أدى فتح هرمز في وجه التجار العرب في الخليج إلى إمتصاص نسبة مهمة مما كان يرسل إلى الهند من فضة وخيول»(٢).

أضف إلى ذلك ما ورد في ذلك الإحتجاج الشديد الذي تقدم به قادة البو كيرك له شخصياً أثناء وقوع الخلاف معهم أمام هرمز بسبب بناء القلعة بها وأهمية بنائها من عدمه، حيث قال أولئك القادة للبوكيرك بأنه يكفيه أنه جعل هرمز تدفع ضريبة سنوية لملك البرتغال، وأقام بها مركزاً تجارياً وذلك بإتفاق بسلام متبادل بين خواجه عطار والملك من جانب والبو كيرك من جانب آخر، فلماذا يريد تدمير المدينة الآن بدون سبب كبير يدعو لذلك. وكان عدد القادة الموقعين على ذلك الإحتجاج خمسة ضباط(٣).

---

(١) Danvers, Op. Cit., Vol. I,P. 21116. -

(٢) أحمد بوشرب، «مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي»، مرجع سابق، ص١٧٥.

(٣) نلاحظ هنا عدم تدمير المدينة مع أن البو كيرك يقول أنه دمرها في الهجوم الأول. أُنظر. The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,PP. 161 - 168.

بعد إنتهاء معركة هرمز الأولى التي عرفناها من مصادر البو كيرك، وفي صباح يوم ٢٤/١٠/١٥٠٧م، أقيم احتفال كبير بحضور البو كيرك وبحارته والملك وخواجه عطار ومجلس حكم المدينة حيث تم وضع أساس قلعة برتغالية في هرمز في الساحل المقابل للبر الفارسي[١] وذلك بعد استئذان الملك سيف الدين، كما تم أيضاً رفع علم أبيض عليه شارة الصليب المتقاطع على أعلى برج في مدينة هرمز كإعلان عن تبعية الجزيرة والمملكة الهرمزية لملك البرتغال، وسميت تلك القلعة «سيدة النصر أو حصن النصر Nossa Senhora da Victoria»[٢]. وقرر البو كيرك العمل بسرعة لإنهاء برج القلعة أولاً قبل توجهه إلى البحر الأحمر في يناير ١٥٠٨م، لتستطيع الحامية البرتغالية التي ستبقى في الجزيرة لحين عودته من هناك أن تدافع عن نفسها ضد رجال الفرس الذين ربما يأتون لتخليص الجزيرة أو قتل البرتغاليين فيها[٣]. ولكن القلعة تركت دون إتمام بسبب الخلاف الكبير الذي تحدث عنه البو كيرك طويلاً مع قادته الخمسة وبحارته الذين هرب بعضهم ولم يعودوا. لهذا ترك البو كيرك اتمام القلعة وقد بنى برجها فقط الذي لم يكتمل وغادر هرمز بعد ذلك[٤].

وقد عمد البرتغاليون بقيادة البو كيرك إلى تأكيد سيادتهم على هرمز بطريقة تعسفية – كما يذكر (Wilson) – حيث أصدر البو كيرك قراراً بمنع أية سفينة من ممارسة الملاحة في الخليج قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية (Cartazes)، وبذلك القرار حاول البرتغاليون فرض

---

(١) - Vasco Groca Moura, Op. Cit., P. 157.

(٢) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 142.

(٣) - Ibid.

(٤) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 132.

وقد استمرت الخلافات بين البو كيرك وقادة سفنه الخمسة مدة طويلة طوال وجوده في هرمز وبعد ذهابه إلى سوقطره وعودته منها عام ١٥٠٨م، أُنظر صفحات المذكرات من PP. 149 - 177.

سيادتهم البحرية والتجارية على الخليج[١]. وكان البرتغاليون في بداية الأمر يراعون هذا التصريح فعلاً فلا يتعرضون للسفن التي تحمله، ثم تطور الأمر وأصبحت المراكب البرتغالية تمارس أعمال القرصنة في البحار ولم يعد هذا التصريح إلاّ إجراءً شكلياً. فما أن تخرج السفن الإسلامية إلى عرض البحر محملة بالبضائع المختلفة حتى يهاجمها القراصنة والربابنة والجنود البرتغاليون سواء أكان لديها تصريح أم لا، فيسلبونها سلعها ويغرقونها بمن فيها[٢]. وأنشأ البو كيرك في هرمز مركزاً تجارياً في أحد البيوت قرب الساحل وعيّن له و كيلاً تجارياً برتغالي الجنسية، وأصدر تعليماته له بأن يتم بيع جميع السلع التي يجلبها البرتغاليون إلى هرمز بأسعار رخيصة بهدف كسب الاقتصاد والسوق التجارية لصالح البرتغال[٣].

وأثناء تواجد البو كيرك في هرمز وصل مندوب من قبل الشاه إسماعيل الصفوي لتحصيل الضريبة السنوية المقررة على هرمز سلفاً[٤]، دون أن يدري بوجود البرتغاليين في المدينة. وكما كتب المؤرخون، فإنّ الرئيس نور الدين سأل البو كيرك باسم الملك سيف الدين، بماذا يرد على مندوب الشاه، فرد عليه البو كيرك بتهديد واضح، أن الجزيرة الآن تتبع ملك البرتغال، وأن أي ضريبة ستدفع لأي ملك آخر بخلاف «دوم أمانويل» سوف تجعله يستبدل حكام الجزيرة بآخرين من الحكام الذين لا يهابون الشاه إسماعيل. ثم أعطى البوكيرك الهرامزة «قذائف مدفعية ورصاص بنادق» لإرسالها للشاه مع مندوبه ومعها رسالة صغيرة تقول: «هذا ما

(١) Wilson, Op. Cit., P.11116. -
(٢) نوال الصيرفي، مرجع سابق، ص٩٩.
(٣) The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 143. -
(٤) Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 132; Danvers, Op. Cit., Vol. 1,P. 166; Abbas Faroughy, Op. Cit., P.62. -

يمكن إرساله للشاه إسماعيل من ضرائب وأموال هرمز»[1]! وأبلغ البوكيرك ملك هرمز بأنه حالما يتم بناء القلعة وتجهيزها بالأسلحة سوف يستولى على كل مضيق هرمز باسم ملك البرتغال وعندها لن يتمكن الشاه إسماعيل من المطالبة بأية ضريبة، وسيعرف كيف يرد عليه عندها[2].

وفي يناير ١٥٠٨م اضطر البو كيرك لمغادرة هرمز سريعاً بسبب ثورة تزعمها ضده قادته وبحارته، فقد كان هؤلاء يطيعون البو كيرك إذا أمرهم بسلب مدن المسلمين ونهبها وسرقة كل ما يخف وزنه ويغلى ثمنه لأن ذلك يرضيهم، وهذا يعطينا فكرة عن أهداف بحارة الأساطيل البرتغالية وقادتها أثناء الكشوف الجغرافية، أما الحرب في حد ذاتها والتدمير فلم يكن يعنيهم كثيراً[3]. وهكذا تدهور وضع البو كيرك سريعاً أمام هرمز وتخوف من أن ينتهز الهرامزة هذا الوضع ليقلبوا انتصاره إلى هزيمة، ولاسيما أن بعض بحارته فعلاً قد هرب من الأسطول ولجأ إلى داخل المدينة، وقد طالب بهم البو كيرك أكثر من مرة بحجة أن بعض النصارى قد هربوا منه ويجب إرجاعهم للسفن قبل مغادرته. وهدد البوكيرك خواجه عطار بتدمير هرمز إذا لم يعودوا. ومن هؤلاء الهاربين علم عطار بمشاكل البو كيرك مع قادته وبحارته فأخذ يساومه عليهم وينكر وجودهم ويطلب إمهاله أيام عديدة أحياناً للبحث عنهم[4]. وكانت المعلومات التي حصل عليها عطار من الهاربين الذين طلبوا اللجوء لدى ملك هرمز وعدم مغادرة المكان – قد أفادته في رفض إتمام بناء قلعة المدينة بل ومواجهة البو كيرك بأن ملك البرتغال لم يأمره ببناء قلعة في هرمز أساساً[5]. ومما زاد

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص١٧

(٢) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. 1,P. 145.

(٣) - Bell, Op. Cit., P. 110.

(٤) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,PP. 160 - 167.

(٥) - Ibid., P.161.

الوضع سوءاً لدى البو كيرك، هروب بعض سفنه متجهة إلى الهند ضاربة بأوامره عرض الحائط. ويضيف (Sousa) «تخلى عن البو كيرك الكثير من الرجال»[1]، ولسنا ندري صحة ما كتبه البو كيرك، أنه وسط هذه الأجواء الساخنة بينه وبين رجاله قام بقصف مدينة هرمز، حتى أن أحد المدافع قد إنفلق من شدة القصف[2]!!. ويضيف أنه أثناء مغادرته هرمز ناحية جزيرة «قشم» للبحث عن الماء العذب، اكتشف البو كيرك قرب جزيرة (لارك) أسطولاً حربياً جاء لحماية مياه هرمز بطلب من الخواجه عطار مكون من سبعين سفينة وأربعة آلاف محارب، فطاردهم ولكنه لم يلحق بهم حيث هربوا إلى عرض البحر ناحية الهند[3].

بعد هذه الحوادث والحكايات المتناقضة والغريبة التي وقعت كلها في نفس الوقت أمام سواحل هرمز في الفترة من سبتمبر ١٥٠٧م حتى يناير ١٥٠٨م، غادر البو كيرك مضيق هرمز ولكن ليس إلى الهند خوفاً من مسائلته من قبل «دالميدا» حول هروب بحارته إلى الهند، بل فضل أن يتجه إلى جزيرة سوقطرة مرة أخرى. وهنا هربت منه السفينة (فلور دا لامار) بقيادة (جوا دا نوفا) إلى الهند دون أن يدري البو كيرك بهروبها[4]. وفي سوقطرة أنقذ البوكيرك حامية قلعتها التي كان البرتغاليون قد احتلوها في بداية دخولهم المياه العربية، بعد أن هاجمها السكان المهرة في الجزيرة وضيقوا الخناق عليها. وخلال وجود البو كيرك في سوقطرة انضمت إليه سفينتان جاءتا من البُرتغال مؤخراً، مما جعله يفكر جدياً في

---

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,PP. 132, 133; Bell, Loc. Cit.,

ويذكر سوزا أن البو كيرك كان فعلاً في خطر عظيم بسبب أوضاعه في هرمز مع بحارته.

(٢) - Danvers, Op. Cit., Vol. I, p. 171.

(٣) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,pp. 190, 193.

لا يتضح من هؤلاء وهل لهم علاقة بمساعدة الجبور لهرمز أم لا»!!

(٤) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,p. 134.

العودة إلى هرمز من جديد للإنتقام منها[1].

ومن سوقطرة غادر البوكيرك إلى قلهات على الساحل العماني متعمداً تدميرها رغم أنه أول من أعطاها الأمان في إتفاق باسم ملك البرتغال الذي كان يتكلم عن احترام قراراته دائماً - وقد حاول البوكيرك في البداية الإيقاع بحاكمها شرف الدين، بالمكر والخديعة، لكن الحاكم تنبه للمؤامرة على حياته ورفض الذهاب إلى سفينة البو كيرك عندما وجه له الدعوة. عندئذ أمر القائد ابن أخيه الذي جاء مؤخراً من البرتغال وهو (بيرو البو كيركPero)، بقصف مدينة قلهات من الساحل متهماً الحاكم بأنه ساعد هرمز في تمردها عليه ومقاومتها له[2]، فقاتل شرف الدين والأهالي في قلهات البرتغاليين بقدر استطاعتهم وإمكاناتهم حينما نزل أولئك البرتغاليون إلى بر المدينة عند الساحل. وعندما تغلب البو كيرك على المدينة قبض على بعض الأهالي ونكّل بهم كبقية أخوانهم في المدن العمانية الأخرى، وأمر بإحراق قلهات موجهاً تدميره بالذات إلى مسجدها الجميل الذي كان واحداً من نماذج الهندسة الفارسية الأصيلة، وقد ذكره ابن بطوطة قبل مائتي سنة[3]. وقام البوكيرك أيضاً بنهب أموال المدينة وممتلكاتها، وأحرق جميع السفن التي بالميناء. وفي قلهات سمع البو كيرك من بعض المسافرين الذين جاءوها من هرمز أن هناك حركة عصيان وتمرد في هرمز ضد الملك وخواجه عطار، فسارع لترك قلهات والتوجه إلى هرمز مباشرة لرد اعتباره وتحقيق ما فشل فيه في زيارته الأولى عام ١٥٠٧م، فهذه هي فرصته المناسبة[4].

توجه البو كيرك إلى هرمز في نهاية عام ١٥٠٨م، وهناك طالب الملك

(١) - Ibid., p. 141.

(٢) - The Book of Barbosa, Op. Cit., Vol. I,P. 69; Sousa, Op. Cit., Vol. I,p. 141.

(٣) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٥٦.

(٤) المرجع السابق، ص٥٧. - Danvers, Op. Cit., Vol. I,p. 175.

سيف الدين وخواجه عطار مرة أخرى بتسليمه الفارين من بحارته، ودفع الضريبة السنوية التي حان موعدها عن عام كامل (١٥٠٧ – ١٥٠٨م)، فرد عليه خواجه عطار بكل أن ما غنمه من مدينة قلهات التي كانت تدفع لهرمز سنوياً (مائة ألف أشرفي)، لهو كافٍ لتعويضه عن ضريبة هرمز. ولكن البو كيرك لم يأخذ بهذه الحجة و أمهل المدينة ثمانية أيام – لاحظ طول المدة – لتسديد الضريبة وتسليم الفارين. فرفض عطار ذلك وقال إنه لن يسلم الأموال له أو لغيره ما لم يأمر بذلك نائب الملك في الهند (دالميدا)، فاستغرب البو كيرك هذا الرفض ولكنه عرف السبب حين أخرج له عطار رسائل كان قد أرسلها له دالميدا ولملك هرمز، مكتوبة بأسلوب ودي للهرامزة يطلب فيها من البو كيرك إذا جاء للمدينة عدم التدخل في شئونها، ويستنكر منه هذه التصرفات التي خرجت عن الأوامر الملكية ويحذره من أنّه سيقوم بمحاكمته قريباً إذا حضر للهند[١]. وهنا يبدو أن خواجه عطار فهم اللعبة السياسية جيداً، وأراد اللعب على تناقضات البو كيرك ودالميدا في سياستهما تجاه بحار ومدن الشرق وهرمز بالذات، وذلك بإبعاد هرمز عن السيطرة البرتغالية ما أمكن. لذا فقد أرسل بدوره خطابات لدالميدا بالهند يخبره عما فعله البو كيرك في هرمز في زيارته الأولى (سبتمبر ١٥٠٧م)، فجاءه رد دالميدا معرباً عن أسفه لما حدث على يد البو كيرك[٢].

وعندما أنتهت الأيام الثمانية ولم تصل إلى البوكيرك الضريبة ولا تسلم الفارين ذهبت محاولاته في تهديد هرمز بالتدمير أدراج الرياح، واضطر البوكيرك للرحيل إلى الهند لقرب موعد استلام منصبه هناك عام ١٥٠٩م – وليدافع عن نفسه ضد اتهامات دالميدا وقادة الأسطول الذين هربوا منه

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص١٨

(٢) - .Danvers, Op. Cit., Vol. I,p. 167

إلى كوشين[1].

ويذكر البو كيرك أنه قبل رحيله عن هرمز وقعت الأحداث التالية:

* إن شخصاً يدعى (رئيس تايز أو عزيز) أرسل له في السر من داخل هرمز يطلب فيه المساعدة لازاحة خواجه عطار عن الحكم في نظير أن يساعد البو كيرك في احتلال هرمز مقابل استلام منصب الوزارة!!

* إن خواجه عطار قد أمر ببناء أسطول حربي في جلفار (رأس الخيمة) في فترة مغادرة البرتغاليين إلى سوقطرة وقلهات، وذلك ليدمر به «أسطولنا» أثناء عودته من هناك. ولكننا لا نجد ذكر شيء آخر عن هذا الأسطول الهرمزي الجديد فيما بعد.

* يقول البو كيرك إن الشاه إسماعيل بعد احتلال بغداد ١٥٠٨م أرسل أسطولاً لنجدة هرمز فعاجله البرتغاليون قرب «نابند» على الساحل الفارسي وقتلوا عدداً من قادة الأسطول وبحارته وأُحرقت نابند[2].

عندما حدث هذا وتنبه الشاه إسماعيل لقوة البرتغاليين أرسل في نهاية عام ١٥٠٨م مندوباً للبو كيرك وهو في هرمز ليناقش معه فتح باب الحوار والصداقة والعلاقات الحسنة بين الجانبين، إلاّ أنّ البو كيرك اعتذر للرسول بأنه سيرحل إلى الهند لاستلام منصبه وأن في الإمكان مناقشة سبل تطوير هذه العلاقات فيما بعد[3].

ومن هنا، كما يبدو، بدأ الشاه إسماعيل الصفوي – وهو يدرك قوة البرتغاليين البحرية – التفكير بالاستعانة بالبرتغاليين في نزاعه ضد العثمانيين، وحيث أنه من الصعب الاتصال بالقوى الأوروبية عن

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,p. 141.

(٢) - The commentaries, Op. Cit., Vol. I,pp. 246 - 247.

(٣) - Danvers, Op. Cit., Vol. I,pp. 177, 178.

طريق البحر عبر أراضي الدولتين العثمانية والمملوكية اللتين تفصلانه عن أوربا، ولسهولة القبض في هاتين المنطقتين على رسله – كما حدث أكثر من مرة – في أراضي هاتين الدولتين، فقد رأى الشاه الاتصال عن طريق الخليج العربي بالبرتغاليين الذين كانوا من أعظم القوى الأوروبية آنذاك، ولقربهم من المياه الفارسية وسعيهم للاستيلاء على جزيرة هرمز أو استلاب ضرائبها منه، وليضمن لنفسه موطيء قدم بحري في التجارة الشرقية عبر الخليج إلى الهند، وهذا ما سيؤكده في الإتفاق الشهير مع البو كيرك عام ١٥١٥م بعد سقوط هرمز في أيدي البرتغاليين.

البو كيرك ثاني نائب للملك في الهند:

عندما وصل البو كيرك إلى الهند، وجد أن قادته وبحارته الذين هربوا بالسفن الثلاث منه في هرمز وسوقطرة، قد سبقوه وقدموا شكوى وعريضة ضده إلى (فرانسيسكو دالميدا) نائب الملك في كوشين، وأخبروه بكل تجاوزات البو كيرك لأوامر ملك البرتغال في المياه العربية. فالمهمة الأساسية لهم كانت بعيدة عن تدمير مملكة هرمز وتوابعها. وقد جاءت هذه الشكاوي في الوقت الذي كان دالميدا يستعد للانتقام من حسين الكردي وأسطوله المملوكي الإسلامي في مياه جزيرة ديو عام ١٥٠٩م. وتطور النزاع بعد معركة ديو بين البو كيرك ودالميدا، وتمت محاكمة البو كيرك على أخطائه التي ارتكبها ضد هرمز وقادته وبحارته وطريقة جمع الضرائب وأين ذهبت؟؟ وكان دفاع البو كيرك يتركز في أن القادة والبحارة يستحقون العقاب وهم مذنبون لأنهم تركوه في وقت الحرب وهو يواجه العداء من مدينة هرمز، وهذا أمر لم يحدث من قبل مع قائد وبحارته في التاريخ البرتغالي منذ ٣٠٠ سنة[1]. وقد اتهم القادة

(١) - Bell, Op. Cit., p.111.

المتمردون بدورهم قائدهم البو كيرك بأن له أهداف شخصية من حروبه غير المجدية في هرمز وهي أن يجعل من نفسه ملكاً عليها ويدعي العظمة(١).

وانتهت المحاكمة والمناقشات بسجن البو كيرك في سجن «كنانور» بالهند حتى مجيء حملة المارشال «فرانانذو كوتنيهو Coutinho Fernando» بعد أسابيع إلى الهند وبمعيته خمس عشرة سفينة في أكتوبر عام ١٥٠٩م، ومعه الأوامر الملكية الصريحة بتنصيب البو كيرك نائباً عن الملك في الهند وإقصاء دالميدا، وبذا أصبح البو كيرك ثاني نائب للملك وحاكم الهند في تاريخ الكشوف الجغرافية البرتغالية(٢).

وخرج دالميدا من الهند عائداً إلى بلاده ولكنه لم يصل إليها أبداً!! حيث يذكر (Sousa) أن دالميدا قتل في جنوب أفريقيا عند رأس الرجاء الصالح قرب خليج سلدانا (Saldanna) في ظروف غامضة مع خمسين زنجياً، وهذا ما يبعث على الشك في أن يكون للبو كيرك يد في تدبير تلك المذبحة لهذا العدد الكبير، حيث أنه بموت دالميدا انطمس جميع ما كان من الممكن أن يصل إلينا عن حقيقة الأحداث التي وقعت في هرمز وساحل عمان، أثناء وجود البو كيرك في المنطقة، أو على الأقل صورة مخالفة للصورة التي رسمها لنا البو كيرك لتلك الفترة ومازالت هي الأساس لمعرفة كل ما حدث.

منذ استلم البو كيرك منصبه كنائب للملك في الهند عمل على تنفيذ أفكاره الإدارية والسياسية في الإمبراطورية البرتغالية في الشرق التي صار من المؤسسين الفعليين لها. وكانت أفكاره وآراؤه تعمل على

---

(١) للمزيد في تتبع النقاش حول هذا الموضوع أنظر: The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,pp. 205 - 212. -

(٢) Ibid., p. 212. -

السيطرة على تجارة الشرق وطرقها ومدنها، بالإضافة لإنشاء القلاع والحصون التي ذكرناها. وتقوم هذه الخطة على أنّ هناك ثلاثة مراكز تعتبر المفاتيح الرئيسية لتجارة الشرق في المحيط الهندي والبحار المجاورة له أو المتفرعة منه وهي:

* مالقا المتحكمة في مضيق سنغافورة.
* عدن المتحكمة في مدخل البحر الأحمر.
* جزيرة هرمز المتحكمة في مضيق الخليج العربي والتي تعتبر أهم تلك المراكز الثلاث جميعها.

وكان البو كيرك يرى أنه لو سيطر البرتغاليون على هذه المراكز الثلاث بتحكم شديد لصار ملك البرتغال سيد العالم فعلاً. ولذا بدأ البو كيرك يطبق سياسته وتوجهاته تلك خطوة بخطوة، وقد لاقى النجاح في معظم خطواته خاصة بعدما احتل (جوا) في فبراير عام ١٥١٠م وطرد منها «عادل شاه» الذي كانت (جوا) من ضمن أملاكه. وقد استعاد عادل شاه (جوا) فعمل البوكيرك جاهداً على الرجوع لاحتلالها من جديد في مارس من نفس العام، واستطاع من ثمة إقامة قلعة بها ونقل إليها مقر الحكم البرتغالي بمساعدة القوى الهندوسية في مملكة فياجانكر، وقد دل هذا الإجراء على اعتزام البو كيرك توجيه عملياته العسكرية من جواً نحو البحر الأحمر والخليج العربي، كما أصبحت جوا منذ عام ١٥١٠م المركز الرئيسي للممتلكات البرتغالية في آسيا(١).

وأخذ البو كيرك يعمل على إقامة المزيد من القلاع العسكرية والحصون والمراكز التجارية العديدة للسيطرة على التجارة العربية الإسلامية في كاليكوت والديو وساحل المنطقة العمانية وهرمز وغيرها(٢).

---

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العرب دراسة لتاريخ الإمارات، مرجع سابق، ص٧٠.
(٢) - .Serjeant, Op. Cit., pp. 15, 16

ومن أهم أعماله في هذا الصدد:

* استطاع البوكيرك بعد موت الزامورين، أن يُغري شقيقه ببناء قلعة في كاليوت وإقامة مركز تجاري للبرتغاليين وذلك بعد صراع طويل مع المدينة.

* احتل البوكيرك ملقا في نوفمبر عام ١٥١١م، وجعلها ملحقة بالتاج البرتغالي، فوصلت حدود الأمبراطورية إلى الشرق الأقصى وبحار الصين. وهناك خطب البوكيرك في جنوده قائلاً: «عندما نستولي على ملقا من المسلمين، ستصبح القاهرة ومكة في إفلاس وخراب وفقر تام، ولن تجد البندقية أية توابل تشتريها فيما عدا تلك التي من الممكن شراؤها من لشبونة فقط»(١).

* دخل البوكيرك منذ عام ١٥١٠م في حروب مع الممالك المغولية التيمورية في الهند وشغله ذلك عن متابعة أخبار هرمز، حتى تم له السيطرة على الوضع تماماً في الهند.

* عندما جاءته الأخبار عن طريق ثلاثة تجار يهود من القاهرة جاءوا إلى جوا عام ١٥١٢م، بأن السلطان قانصوه الغوري يستعد لبناء أسطول جديد لغزو البرتغاليين في الهند وطردهم منها، قرر البو كيرك الإسراع بشن حملة كبيرة ضد عدن والبحر الأحمر وتدمير الحملة المصرية قبل قيامها إلى الهند، فأبحر عام ١٥١٣م صوب البحر الأحمر ولكنه فشل في حملته كما سنرى.

* عمل البوكيرك على تدمير معظم الأساطيل التجارية الإسلامية أينما وجدها في بحار الشرق وخصوصاً تلك التي كانت ترد إلى ساحل

(١)- Danvers, Op. Cit., Vol. I,pp. 233, 235.

المليبار للتزود بالبضائع الشرقية، وهذا ما اعترف به عندما وصلته رسالة من الملك أمانويل في ٨/١١/١٥١٢م، يعاتبه فيها، حيث أنه قد وصلته تقارير من جواسيسه في القاهرة تفيد بوصول عشرين سفينة من كاليكوت إلى ميناء جدة محملة بالتوابل ثم وصلت بتلك السفن إلى مصر. وقد كذّب البو كيرك هذه المعلومات وقال بأن خصومه هم من يشيعون هذه الأخبار، وإنه ليس في الهند أسطول يزيد على عشرين سفينة بعد أن دمر كل السفن التجارية، وأضاف أنه يراقب سواحل الهند، ولا خوف من كاليكوت بعد بناء القلعة والمركز التجاري البرتغالي بها، وأنه قد كلف ابن أخيه بيرو بمهمة مراقبة سواحل المليبار(١).

علاقة البو كيرك بالشاه إسماعيل الصفوي:

نورد هنا جوانب من هذه العلاقة لأهميتها في غزو البرتغاليين للخليج العربي وجزره في الفترة التي ندرسها. وكما اتضح عند زيارة البو كيرك لهرمز عام ١٥٠٨م، وبدء أولى الاتصالات بين الشاه إسماعيل الصفوي والبرتغاليين في الخليج، وعد مندوب الشاه الذي جاءه إلى هرمز بمواصلة الاتصالات مع البوكيرك بعد تسلمه منصبه في الهند. وقد بدأت فعلاً أولى تلك الاتصالات بشكل رسمي ومستمر ومتطور أيضاً، حيث زار جوا عام ١٥١٠م سفير للشاه إسماعيل ليعرب للبو كيرك عن صداقته للبرتغاليين ويطلب إليه إرسال سفير برتغالي للبلاط الفارسي الصفوي. وقد استقبل البو كيرك سفير الشاه استقبالاً حاراً مبالغاً فيه مقارنة بتعامل الغُزاة البرتغاليين مع القوى الإسلامية الأخرى، وذلك فيما يبدو بهدف كسب الجانب الصفوي الإيراني في صف البرتغاليين ضد القوى

(١) - Ibid. p. 235.

الإسلامية الأخرى. وحين نطلع على الرسالة التي أرسلها البو كيرك مع مبعوثه للشاه يتبين لنا مقدار الثقة التي وضعها البو كيرك في علاقته مع البلاط الصفوي وما يمكن أن يحققه ذلك من منافع كثيرة للبرتغاليين.

توجد هذه الرسالة ضمن وثيقة تحت رقم «٤٣» في الأرشيف الوطني في لشبونه(١)، نقتطف منها أجزاء لأهميتها. فبعد الديباجة يقول البو كيرك لمبعوثه إلى الشاه ويدعى «روي جوميز Ruy Gomesa وكان برفقته رجل دين نصراني يُدعى الأب (جور)، «عليكما أن تسافرا إلى الشيخ إسماعيل وتعاملاه معاملة كريمة. وعندما تصلان إلى هرمز اطلبا من خواجه عطار حصانين للسفر، وعليكما أن تتبعا أوامر ونصائح سفير الشيخ إسماعيل في هرمز، وأخبرا الشيخ إسماعيل بأني أرسلكما إليه نظراً لشهرته وعظمته وأنه يملك (الخيول) والأموال التي تليق بأمير، ونظراً لسلوكه الحسن تجاه النصارى في بلاده، أخبراه أن ملكنا يرغب في التحالف معه ويمد له يد المساعدة ليقاتل السلطان العثماني. وإنني أعرض عليه - باسم الملك - الأسطول البحري وطواقم المدفعية والقلاع الهندية ومملكاتنا الأخرى لقتال الأتراك(٢). أخبراه أيضاً أنه إذا أراد غزو مكة فإنني سأدخل البحر الأحمر وأهاجم جدة، وإذا أراد أن يدخل الجزيرة العربية فإني سأقود الأسطول الملكي بنفسي وأغزو عدن وساحل الجزيرة العربية والبحرين والقطيف والبصرة». وتستطرد الرسالة لتقول:

«واطلبا من الشيخ إسماعيل أن يرسل سفيراً إلى بلاط ملكنا في

(١) أفونسود البو كيرك، «تعليمات للسفراء الذين يزورون الشيخ إسماعيل»، عام ١٥١٠م، توري كومبو ٢٧/١، رقم ٤٣، الأرشيف الوطني - لشبونة، صورة منها محفوظة بمركز الوثائق التاريخية - البحرين.

(٢) ترجم بعض الكتاب هذه العبارة بشكل أوحى لهم أنه يقصد (قلاع الترك في الهند) وهذا لا يتماشى مع سياق الموضوع.

البرتغال. وإنني إذا وصلت إلى هرمز عمّا قريب سألاقيه هناك لأن سفيره أخبرني أنه يريد أيضاً لقائي ومحادثتي. ثم عليكما أن تنقلا لي أخبار تلك البلاد (فارس) والأسعار فيها وأماكن تواجد مناجم الفضة والذهب والمجوهرات، وأوضاع التجارة بها».

لقد كان البو كيرك يعمل على تحقيق مشروعات خيالية لا يستطيع تنفيذها على أرض الواقع، حيث كتب للشاه إسماعيل عن خططه العسكرية بالتعاون معه للاستيلاء على أملاك الدولة المملوكية، على أن يأخذ الصفويون مصر، وتأخذ البرتغال فلسطين نظراً لوجود مقدسات نصرانية على أرضها. إلاّ أن ذلك السفير البرتغالي على أية حال لم يصل إلى البلاط الصفوي في فارس، فقد مات في هرمز فجأة. ويعتقد أن الهرامزة دسوا له سماً في طعامه، خوفاً على بلادهم من نجاح التحالف بين البرتغاليين والصفويين[1]. وإمعاناً في إظهار صداقته للبرتغاليين أرسل الشاه إسماعيل رسالة مع مبعوث آخر له يدعى «مير أبو أسحاق» وذلك في أكتوبر عام ١٥١٠م. وقد أبدى الشاه في تلك الرسالة أسفه لموت مبعوث البو كيرك في هرمز «روي جومين»، وطلب منه إرسال مبعوث آخر[2]، إلاّ أن البو كيرك انشغل، فيما يبدو، عن الرد على الشاه إسماعيل بإخماد الثورات في الهند وتثبيت نفوذه هناك.

وفي عام ١٥١٣م، وبعد عودة البو كيرك فاشلاً من حملته على عدن والبحر الأحمر، كان في انتظاره (بجوا) سفير آخر للشاه إسماعيل – الذي ازدادت متاعبه الحدودية مع العثمانيين في عهد السلطان سليم الأول منذ عام ١٥١٢م – وقد رحب البو كيرك بهذا السفير أيضاً وتفاءل بقدومه

---

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢٠، أنظر أيضاً.. - ;Danvers, Op. Cit., Vol. I,p. 191

(٢) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢٠، أيضاً..

عقب الأحباط الكبير الذي أصابه من فشله في البحر الأحمر، وقرر البوكيرك الاستفادة بأقصى ما يمكن من تحالفه مع الصفويين للانتقام من المماليك والقوى العربية في شبه الجزيرة العربية والعثمانيين، فأرسل معه مبعوثاً من المقربين إليه ويدعى «ميجل فيراير Ferreira Miguel» ويرفقته راهباً[1]. ومنعاً لتكرار الحدث السابق للمبعوث الأول، أمر البو كيرك رسول الشاه بأن يصطحب «سفير البرتغال» حتى البلاط الصفوي في تبرين، وكان ذلك في ديسمبر ١٥١٣م. وقد وُفق هذا السفير في الحصول على معلومات كثيرة حول قوة إيران العسكرية ومدى الإمكانات الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية فيها. وقد سافر هذا المبعوث بمعية الشاه إسماعيل إلى بلاد الأرمن وهناك اكتسب معلومات كثيرة عن النصارى والتقى بعدد من زعمائهم[2].

وهكذا استمرت العلاقات الطيبة والودية بين الشاه إسماعيل الصفوي والبرتغاليين في الهند حتى توجت بتحالف عسكري وسياسي وقع عام ١٥١٥م أثناء تواجد البو كيرك في هرمز للمرة الأخيرة، ولكن ذلك الاتفاق لم ينفذ لموت البو كيرك المفاجيء.

وإذا كان موقف الدولة الصفوية من الوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربيةفي مطلع القرن السادس عشر سلبياً جداً بل ومتعاطفاً مع البرتغاليين إلاّ أن واجب الحيدة المطلقة في البحث يقتضي – إحقاقاً للحق – أن نذكر أن الدولة الصفوية نبذت بعد ذلك هذه السياسة واستبدلتها بسياسة أخرى قامت على مناهضة الوجود البرتغالي، وخاضت صراعاً مريراً ضد البرتغاليين منذ مطلع القرن السابع عشر، بعد أن أدركت خطورة وجود البرتغاليين في مياه الخليج عليها وعلى

(١) - Danvers, Op. Cit., Vol. I,pp. 288 - 289.

(٢) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢١.

مصالحها الاقتصادية في المنطقة، حتى تم لهم طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٢م[١].

سقوط هرمز:

بعد حوالي أربع سنوات من إنشغال البو كيرك عن هرمز وصلته أنباء مقلقة عن الأوضاع فيها تفيد بموت خواجه عطار، وأن الحكومة الجديدة هناك بدأت تميل نحو الدولة الصفوية، فتخوف البو كيرك من إنفلات هرمز وخسارته اقتصادياتها، فقام على الفور بإعداد حملة ثالثة ضد هرمز لإعادة السيطرة عليها، وعهد بها إلى ابن أخيه (بيرو البو كيرك) وكلفه أيضاً باستطلاع الأوضاع قرب عدن والبحر الأحمر والخليج العربي. وانطلق بيرو أولاً نحو المياه العربية قرب عدن ولم يستطع فعل شيء سوى إرتكاب بعض أعمال القرصنةضد عشر سفن إسلامية محملة، يبدو أنها أفلتت من الحصار البرتغالي لسواحل الهند وهي متجهة إلى باب المندب والبحر الأحمر فسلبها حمولتها[٢]. ثم توجه إلى هرمز، وكان الملك سيف الدين قد مات هو الآخر مسموماً قبيل قدوم بيرو البو كيرك بقليل وتولى أخوه الأصغر «تورانشاه» العرش بدلاً عنه تحت وصاية الرئيس نور الدين الذي تولى منصب خواجه عطار بعد موت الأخير[٣].

وقد طلب بيرو من الملك الجديد إتمام القلعة البرتغالية التي بدأ عمه ببنائها عام ١٥٠٧م وكذلك دفع الضريبة السنوية، إلاّ أن تورانشاه طلب أيضاً بدوره تغيير مكان القلعة لأنها تقع قرب مقر الحكم الهرمزي في

---

(١) عبد العزيز الشناوي، «المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية»، مرجع سابق، ص ص٦٤١ و٦٤٢.

(٢) Danvers, Op. Cit. Vol. I,P. 296. -

(٣) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢٢.

الجزيرة، واعتذر الملك الهرمزي أيضاً عن تسديد الضريبة السنوية في حينها قائلاً بأنه قد أرسل مندوباً عنه إلى ملك البرتغال ومعه هدايا ثمينة من اللولؤ ليطلب منه إمهاله بعض الوقت ليتمكن من تسديد الضريبة. إلاّ أن بيرو أصر على طلبه للأموال ولم يهتم بعد ذلك بالقلعة أو المعاهدة التي وقعت بين عمه وملك هرمز سيف الدين عام ١٥٠٧م، وأقلع بيرو مؤقتاً من هرمز ليعطيهم مهلة لجمع الضريبة، وقام بجولة في الخليج – كما أمره عمه – في يوليو ١٥١٤، فزار الموانيء والجزر القريبة من هرمز. ويقول أنه قد وصل لقرب جزر البحرين لكنه لم ينزل بها[١]. وعندما عاد بيرو إلى هرمز هدد – مثل عمه – بحرق السفن الراسية في الميناء إذا لم تسدد الضريبة له في الحال، فاضطر تورانشاه إلى دفع عشرة آلاف أشرفي فقط واعتذر عن دفع الباقي لعجز الخزانة، نظراً لاضطراب الأحوال التجارية في بلاده بسبب امتناع التجار عن السفر إلى الهند خوفاً من قرصنة البرتغاليين[٢].

وقبل إقلاع بيرو من هرمز حذر الملك من أطماع الشاه إسماعيل في بلاده ونصحه بعدم إدخال أي من المسلحين التابعين للشاه إلى المدينة ونقل بيرو إلى الملك الهرمزي رغبة عمه البو كيرك بضرورة أن تعود تجارة الخيول من هرمز إلى جوا مباشرة وليس لأي ميناء آخر. وعاد بيرو إلى الهند في سبتمبر ١٥١٤ وقدم تقريراً إلى عمه عن الوضع في هرمز والخليج وحذره من أن ملك هرمز الجديد تورانشاه كان قاب قوسين أو أدنى من الاعتراف بسيادة الشاه إسماعيل الصفوي على بلاده، وأن الشاه إسماعيل ربما يخدعهم برسله التي يتبادلها معهم معلناً ترحيبه بالتحالف بين الصفويين والبرتغاليين. ويبدو أنّ الهرامزة أخذوا في هذه

(١) - Miles, Op. Cit., p. 153.

(٢) - Danvers, Op. Cit., Vol. I,pp. 297 - 298.

الفترة يرسلون الضريبة السنوية للشاه إسماعيل[1]. وأعطى بيرو عمه الأموال التي جلبها معه من هرمز، فسر بها البو كيرك لأنه كان بحاجة ماسة إليها لدفع رواتب الجنود. وهذا يعني أن تكاليف احتلال الهند كانت تفوق إمكانية الاستفادة منها، أو أن هناك سرقات وتلاعب بالأموال المتحصلة من الضرائب وعدم الاهتمام بتشجيع التجارة في الموانىء الهندية على عكس ما كان يحدث أيام ازدهار التجارة الإسلامية. لكن البو كيرك رغم ذلك قد انزعج من أخبار هرمز كثيراً حيث أنه لم يكن يرغب في إتاحة الفرصة لجار لها في الشمال من الخليج ليصبح بديلاً عنهم في المنطقة، وبالتأكيد إنه كان يشك في نوايا الشاه إسماعيل والصفويين. فمهما كانت درجة تحالفه وعلاقاته معهم عبر الرسائل والسفراء، إلاّ أنّ الصفويين كانوا في النهاية مسلمين، وبالنسبة لشخص مثله فهو لايأمن جانب المسلمين، ومن ناحية أخرى كان البو كيرك يتحرق شوقاً لتحقيق نتائج رنانة يمكن بها أن يرضي بلاط لشبونة وليسكت هناك أفواه المنتقدين لسياسته العنيفة في الشرق، خصوصاً من قبل طبقة تجار لشبونة والرأسمالية الصاعدة التي ساهمت في الكشوف بشكل كبير.

لكن المشكلة أمام البو كيرك هي أنه طالما وعد مليكه بالذهاب إلى البحر الأحمر وتدمير قوة المسلمين هناك والقضاء على تجارتهم التي ما زالت مستمرة رغم تراجعها. ويظهر هذا الوعد في رسالة أرسلها إلى الملك أمانويل في ٢٥/١٠/١٥١٤[2]، وهو لا يريد تكرار تجربته الفاشلة في عدن عام ١٥١٣م مرة أخرى، فهرمز – الأضعف عسكرياً – هي هاجسه الأول والأخير وهي الأوفق عسكرياً لطموحه من متاعب الجنوب العربي

(١) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٦٠.

(٢) أحمد بوشرب، «مساهمة الوثائق البرتغالية» في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب»، مرجع سابق، ص١٦٧.

والبحر الأحمر. لذا أرسل البوكيرك رسالة أخرى لملكه في ٢٧/١١/١٥١٤م، يقول فيها مبرراً «سأوجز لجلالتكم الأسباب التي تحملني على تغيير خططي بالنسبة للبحر الأحمر، ذلك أن هناك حاجة ملحة للمؤن، والتجهيزات قليلة عندنا!!، ثم أن الأجور والرواتب المستحقة للرجال والأغذية التي سنحتاج إليها في الشتاء، هي عقبات جدية تحول دون تنفيذ خططي الأصلية في الذهاب إلى البحر الأحمر. لذلك قررت التوجه إلى هرمز للحصول على الأطعمة والمؤنة والأموال بالاستيلاء عليها، وستصبح تجارة الخيول العظيمة في أيدينا نحتكرها نحن فقط بعد الاستيلاء على هرمز والسيطرة أيضاً على تجارة التوابل الواسعة التي تستورد هرمز كميات كبيرة منها من البحر الأحمر. إذن دعني يا سيدي استولي على هرمز أولاً، وبعدها سنستطيع ببضع سفن السيطرة على البحر الأحمر، مع ملاحظة طلب جلالتكم مني بعدم تدمير هرمز، ويمكنكم التأكيد بأن ذلك لن يحصل أبداً!!»(١).

وتعليقاً على هذه الرسالة يمكن القول بأن البو كيرك يعلم بأن ملكه لا يدري شيئاً عن أحوال المنطقة التي يتعامل هو معها، ولذا فهو يقول له أنه ببضع سفن يستطيع السيطرة على البحر الأحمر. وقد كان مع البو كيرك في عام ١٥١٣م عندما حاول ذلك، أكثر من عشرين سفينة وألفين وخمسمائة جندي ولكنه فشل في مهمته. ثم لا ندري كيف تظل تجارة التوابل بهذا الحجم في هرمز وتأتيهم من البحر الأحمر وليس الهند؟؟ وأين هي قوة الحصار البرتغالي التي تحدث عنها دالميدا والبو كيرك كثيراً في خطاباتها للملك أمانويل؟ والكلام هنا يأتي بعد حوالي سبعة عشر سنة من بداية الغزو البرتغالي للمنطقة، وكذلك الأمر بالنسبة لتجارة الخيول. وبعد إرسال هذا الخطاب واكتمال الاستعدادات خرج البو كيرك بحملة

(١) المرجع السابق، ص١٦٨.

ضخمة تألفت من سبع وعشرين سفينة وألف وخمسمائة جندي برتغالي وسبعمائة مليباري وعدد من العبيد لخدمة الأسطول، وتوجه بهم عن طريق مسقط إلى هرمز، فوصلها في ٢٦ مارس عام ١٥١٥م[١].

كانت الأحداث العنيفة والصراعات الأسرية قد عصفت بهرمز مرة أخرى في تلك الفترة، مما سهّل على البو كيرك مهمة احتلالها بسرعة، فقد قام عامل هرمز على مسقط ويدعى «رئيس حامد أو حميد Raez Hamet» كما تذكره المصادر البرتغالية، وهو ابن أخ الوزير نور الدين في بلاط هرمز، بمؤامرة لاستلام الحكم في هرمز. فقد غادر هذا الرجل مسقط ومعه بعض الأتباع المسلحين ووصل إلى هرمز وانضم إليه بعض الأنصار، كما يبدو، قدر عددهم بخمسمائة رام للسهام، فقبض على الحاكم الشاب تورانشاه، وعمه نور الدين، وقام بسجنهما في برج القلعة، وأعلن نفسه سلطاناً على هرمز[٢]. وعندما وصل البو كيرك وعلم بهذه الأحداث كان سفيره لدى الشاه (ميجل فيريرا) قد وصل إلى هرمز واجتمع بالبو كيرك أيضاً وأخبره أن سبب تغير موقف المدينة واستلام الرئيس حميد للسلطة، هو وصول ستة أو سبعة رجال من البلاط الصفوي حذروا حاكم هرمز ونصحوه بالإمتناع عن إرسال مبعوثين للسلطات البرتغالية في الهند وكان ذلك بهدف إلحاق هرمز بالدولة الصفوية.

وقد استغل البو كيرك الصراع على الحكم في الجزيرة لصالحه هذه المرة ورأى أن المكر والخديعة السياسية أجدى من المدافع والتدمير في احتلال هرمز، خصوصاً وأنه قد تلقى رسالة سرية من الملك تورانشاه وهو في سجنه تطلب عونه، وتعد بأن الملك سيقدر له هذا الموقف إذا ساعده وحرره من سجنه، وكما أخطره أنه علم بأن الرئيس حميد يراسل

---

(١) - Sousa, Op. Cit, Vol. I, p. 202.

(٢) عباس إقبال، مرجع سابق، ص ص ٦٠ – ٦١؛ جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢٢.

الشاه إسماعل سراً ويتعهد بتسليم هرمز له.

وكان الرئيس حميد قد رفض التعامل مع البو كيرك بشأن بناء القلعة وإعادة العمل باتفاق عام ١٥٠٧م، ودفع الضريبة السنوية. فتظاهر البو كيرك بطلب عقد صلح مع الرئيس حميد باعتباره حاكم المدينة، وذكر له بأنه سيرحل بمجرد عقد هذا الصلح. وتم الاتفاق على عقد اللقاء بين الجانبين البرتغالي والهرمزي في بيت كبير قرب الساحل، وقد أعطى البو كيرك الأمان للوزير في حضور الاجتماع دون أن يناله أذى من البرتغاليين(١).

وكان البو كيرك قد اتفق مع بعض جنوده وقادته على نصب كمين للرئيس حميد في ذلك البيت. ولذا أعد لهذا الأمر عدته قبل الاجتماع، وسارت الخطة كما يجب. ويصف كل من (Sousa) و(Barbosa)(٢)، الحدث على النحو التالي: عندما دخل البو كيرك البيت الذي تحدد فيه اللقاء، وصل الوزير حميد ومعه الملك تورانشاه، وكوكبة من التابعين والأنصار اتخذهم حميد احتياطاً للطوارىء، فلم يسمح لهم جنود البو كيرك بالدخول وراء الملك والوزير باعتبار أن الاجتماع يتم بدون أسلحة ولا أنصار مسلحين. وبعد ذلك أغلقت الأبواب في البيت المذكور. وعندما بدأ الحوار بين الجانبين، وكما خطط البو كيرك للغدر بالوزير ونقض الأمان الذي أعطاه إياه، أشار لابن أخيه (بيرو) وكان يقف خلف الوزير، فتقدم (بيرو) وعاجل الرئيس حميد بطعنة خنجر أردته قتيلاً في الحال. عندها صرخ الملك خوفاً من هول المنظر والمفاجأة، لكن البو كيرك أمسك به وطمأنة إلى أنه فعل كل هذا من أجله ومن أجل أن يظل ملكاً على هرمز وليس سجيناً في القلعة.

(١) Danvers, Op. Cit., Vol. I,p. 311.-

(٢) Sousa, Op. Cit., Vol. I,p. 204; The Book of D. Barbosa, Op. Cit., p.103; -
ويقع باربوسا في لبس هنا حيث يذكر أن الملك آنذاك كان هو سيف الدين، وقد سبق أن ذكرنا أنه مات مسموماً عام ١٥١٤م.

عندها ثار أنصار الرئيس المقتول حميد عندما علموا بذلك، فاقتحموا ذلك البيت، لكن القوة البرتغالية التي أنزلها البو كيرك سراً قرب المنزل وفي المدينة قامت بالقضاء على الثورة والمقاومة، وتتبعت الثائرين في كل مكان حتى قضت عليهم. وبهذا سيطر البو كيرك على الوضع وأعاد تنصيب الملك تورانشاه على هرمز من جديد، وأعاد الرئيس نور الدين وزيراً للملك، وعمل على إصدار أوامره بنفي أنصار الرئيس حميد وعائلاتهم من الجزيرة، وتم معاقبة من رفض النفي بمصادرة أملاكهم وبيوتهم[١].

وأجبر البو كيرك الملك تورانشاه – الذي أصبح رهن إرادته – على إصدار أمر يحرم على الهرامزة حمل السلاح وإعدام كل من يخالف ذلك[٢]. وأجبر البوكيرك الملك كذلك على توقيع إتفاقية جديدة مذلة لهرمز من ضمن بنودها، دفع تعويض مقداره عشرون ألف أشرفي ذهباً عن الممتلكات البرتغالية التي زعم أنها سرقت من المركز التجاري البرتغالي أثناء زيارته الأولى عام ١٥٠٧م، ودفع مبلغ آخر من المال لإكمال بناء القلعة، ومبلغ آخر سنوي للحامية البرتغالية بهرمز والتي تتبع حاكم القلعة البرتغالي بصفته مقيما في الجزيرة بشكل دائم لمراقبة أمور المدينة[٣]. ثم قام البو كيرك بالاستيلاء على جميع الأسلحة ووسائل الدفاع في الجزيرة وتم نقلها إلى القلعة البرتغالية، وبذلك جرد البوكيرك الهرامزة من أية وسيلة للدفاع عن أنفسهم فصاروا تحت رحمة البرتغاليين وبطشهم المباشر. وأمر البو كيرك برفع العلم البرتغالي فوق قصر الحاكم بشكل دائم كدليل على فقدان هرمز لاستقلالها وتبعيتها للبرتغال واسدل الستار بعد ذلك على مائتي عام عاشتها هرمز من

(١) - The Book of D. Barbosa, Loc. Cit.

(٢) - Danvers, Op. Cit., Vol. I,p. 318.

(٣) - Salih Ozbaran, "The Ottoman Turks and Portuguese", Op. Cit., p. 618.

السيادة والقوة[1].

وقد استهدف البرتغاليون بعد سقوط هرمز عام ١٥١٥م، القضاء على التجار الوطنيين من عرب وفرس وغيرهم، حيث كانوا يعتقلون البعض منهم بحجة خطرهم ومعاداتهم للنظام البرتغالي وقاموا بتفتيش متاجر البعض الآخر ونهبها والاستيلاء على ما فيها من أموال وذهب ومجوهرات وبضائع متنوعة، متذرعين في ذلك بأوهى الأسباب والحجج، كما منع البرتغاليون الصلاة في المسجد الجامع بهرمز، واعتبروا عدم التعاون مع البرتغاليين في هذا الأمر وغيره جرماً يعاقب مرتكبه بالموت[2].

وقبل مغادرة البو كيرك جزيرة هرمز وصل رسول من الشاه إسماعيل بصحبة مندوب البو كيرك ليقدم له التهنئة بفتح هرمز!! ويطلب عقد اتفاق بشأن الجزيرة والأوضاع في الخليج العربي إثر هذا الحدث. وكان الشاه آنذاك يعاني من كارثة سقوط دولته تحت أقدام العثمانيين بعد موقعة جالديران ١٥١٤م، ويعيش في ضائقة اقتصادية وعسكرية، ولذا تقبل هزيمة هرمز على مضض، مراعياً استمرار نفوذ الدولة الصفوية على سواحل الخليج بعد أن خسرت العراق وأجزاء كثيرة من غرب إيران، كما أراد أن يبقي على استمرار علاقات التجارة مع الهند وليستفيد من قوة البرتغاليين وأسطولهم الحربي في الخليج والبحر المتوسط في الحرب ضد الدولة العثمانية[3]، ولمساعدته أيضا في قمع حركات العصيان التي قامت ضده إقليم مكران الجنوبي على الخليج.

---

(١) نصر الله فلسفي، مرجع سابق، ص ١٤ - ;Fereydoun Adamiyat., Op. Cit., p.20
يذكر باربوسا هنا أنه بعد سقوط هرمز عام ١٥١٥م قام البو كيرك بإرسال كل الملوك السابقين الذين ثملت أعينهم وكانوا في أحد البيوت في الجزيرة، إلى الهند عن طريق البحر، وكان عددهم ما بين ثلاثة عشر إلى خمسة عشر ملكاً، وسجنوا في جوا حتى لا يثيروا المشاكل في هرمز. أنظر:- The Book of D. Barbosa,
(٢) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي لتاريخ الإمارات العربية، مرجع سابق، ص٤٢.
(٣) مصطفى عقيل، مرجع سابق، ص٢٤.

وقد وافق البو كيرك مباشرة على عقد هذا الاتفاق مع الشاه بشكل ودي ليصبح تحالفاً، وقد جاءت بنود هذا الاتفاق[1] كما يلي:

■ يقوم البرتغاليون بتأمين السفن اللازمة من أجل تنقل رعايا الشاه إسماعيل ما بين هرمز والبحرين والقطيف. وقد قبل البو كيرك من حيث المبدأ هذا المطلب لكنه اشترط على الشاه إسماعيل ألاّ يؤدي ذلك إلى أي عمل يضر بأراضي مملكة هرمز أو بجزر البحرين[2].

ويعلق عبد اللطيف ناصر الحميدان على هذه النقطة قائلاً: «ومما يثير الأسف حقاً أن المؤرخ الإيراني عباس إقبال قد حرف هذه النقطة بالذات وادعى بأن الشاه إسماعيل قد طلب من البو كيرك أن تقوم سفن برتغالية بنقل قوة عسكرية إيرانية لاحتلال البحرين والقطيف، وأن البو كيرك قد وافق على هذا الطلب، والمعنى الكامل لمطلب الشاه وجواب البو كيرك عليه هو ما ذكر في الشرط الأول، وربما كان هدف الشاه إسماعيل من وراء تأمين انتقال التجارة والأفراد ما بين سواحل الخليج العربي، ذا مرامي سياسية وأطماع في الاستيلاء على هذه المناطق، ولكنها آمال لم تتحقق[3].

---

(١) للمزيد حول نصوص الإتفاق بين الجانبين الصفوي والبرتغالي. أنظر: The Commentaries, Op. Cit., Vol. 4. -PP. 153 - 154, 176 - 177.; Danver, Op. Cit., Vol. I,PP. 314, 312.

(٢) - The Commentaries, Loc. Cit.

(٣) عبد اللطيف ناصر الحميدان، إمارة الجبور، مرجع سابق، ص ص ٧٢، ٧٣ + الهوامش ص ص ١٠٤، ١٠٥. – النص الإنجليزي لمطالب الشاة إسماعيل المتعلق بالبحرين والقطيف كما ورد في مذكرات البو كيرك المترجمة.

"The Second, that shipping should be Supplied for the passage of his people to the land of Arabia, which is on the coast where on lies Barem (Bahrain) and Catife (qatif)".

كان جواب البو كيرك على طلب الشاه قد جاء بهذا الشكل وهذه الصيغة المترجمة من البرتغالية:

"As for the Second, Which was a demand of a water passage for the conveyance of his people to the land of Arabia give him all the vessels he stood in need of, provided that the Xeque Ismael (Shah Ismail) would give sufficient Security to The King of Ormuz that no untoward event should be perpetrated in his lands nor in the Island of Barem" Vol. 4, P. 177=

- قيام تحالف عسكري بين البرتغاليين والشاه إسماعيل ضد الأتراك العثمانيين.
- يتعهد البرتغاليون بمساعدة الشاه إسماعيل في القضاء على الثورة والحركات الانفصالية في إقليم مكران الفارسي.
- يسمح للدولة الصفوية بالتعامل مع ميناء جوا الهندي، لتمكين التجار الفرس من مزاولة التجارة مع الهند، ويسمح للصفويين أيضا بفتح مركز تجاري لهم في هرمز.

«وليكن معلوماً أنه متى ما وجدت سلع فارسية في أي ميناء آخر بالهند بخلاف (جوا)، فلسوف يتم مصادرتها دون تعويض، ويتعرض أصحابها للعقاب الشديد»[1].

وقد رفض البو كيرك مطلب الشاه إسماعيل بأن تكون جميع رسوم السلع التي ترد من بلاد فارس إلى هرمز من نصيب الدولة الصفوية، ورأى أن تدخل تلك الأموال إلى الخزينة الهرمزية لاستخدامها في إصلاح الأسطول البرتغالي ونفقات الحكومة الهرمزية ولدفع الضريبة السنوية لحكومة البرتغال [2].

بعد توقيع هذه الإتفاقية بين الجانبين - ولو أنها لم تنفذ - شعر البو كيرك بالمرض ينتابه، فقرر تفويض ابن أخيه بيرو بمهمة قيادة الحامية البرتغالية في هرمز وإتمام بناء القلعة بها[3]، وقد زاد في علته نبأ عزله

= وللعلم فإن عباس إقبال ألف كتابه «مطالعاتي درباب بحرين وجزاير وسواحل خليج فارس» بناءً على طلب من وزارة الخارجية الإيرانية في عهد شاه إيران السابق، وكانت قضية المطالبة بجزر البحرين وقتها مشتعلة في الخليج العربي في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينيات.

(١) - Danvers, Op. Cit., Vol. I,p. 319.

(٢) - Ibid.

(٣) - Wilson, Op. Cit., P. 121.

من منصبه الذي بلغه قرب السواحل العمانية قبل وصوله إلى الهند[١].

وقد فهم البو كيرك بأن خصومه في بلاط الملك قد تغلبوا عليه أخيراً، فضحى به الملك من أجل إسكاتهم. وقد امتدت فترة البو كيرك أكثر من اللازم في نيابة الهند في الفترة من ١٥٠٩ – ١٥١٥م (حوالي ست سنوات)، ومثل هذه الفترة كانت تعد طويلة بالقياس إلى الأنظمة البرتغالية التي وضعت لحكم الإمبراطورية البرتغالية وكانت تقضي بألاَّ يبقى نائب الملك في الهند أو الموظفين الكبار في مراكزهم أكثر من ثلاث سنوات حتى لا يغريهم بعد المسافة بتحقيق مكاسب شخصية والاستفادة من صعوبة مراقبة حكومة لشبونة لهم[٢]. ولذا قال البو كيرك في كلمته الأخيرة «دخلت في علاقة سيئة مع الرجال لأجل الملك، وفي علاقة سيئة مع الملك من أجل الرجال، لأني كنت مخلصاً وخيِّراً!! لهذا ذهبت»، وقبل أن يصل البوكيرك إلى جوا وهو في البحر في ٦ ديسمبر عام ١٥١٥م كتب آخر رسائله للملك أمانويل قال فيها: «هذه الرسالة لجلالتك لم تكتب بواسطة يدي بسبب المرض، وقد تركت مناطق المحيط الهندي تحت سيطرة جلالتك، فقط الشيء الوحيد الذي لم يتم بعد هو احتلال البحر الأحمر، أرجو من جلالتك تذكر كل شيء فعلته في الهند من أجلكم، وأن تعترفوا بإبني كي يصبح عظيماً إكراماً لي ولأجلي، وأن يُمنح المكافآت التي وعدني جلالته بها»[٣].

---

(١) وصلت في نهاية نوفمبر ١٥١٥م حملة برتغالية مكونة من إحدى عشرة سفينة تحمل على ظهرها (لوبو سواريز) ومعه أمر ملكي من أمانويل الأول بأن يكون ثالث حاكم عام للهند بدلاً من البو كيرك وتعيين شخص آخر أيضاً لقيادة قلعة كوشين، وعزل البو كيرك من منصبه.

(٢) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية، مرجع سابق، ص٧٠.

(٣) سونيا، هاو، مرجع سابق، ص٢٢٧. كذلك أنظر، - Danvers, Op. Cit., Vol. I,P. 327.

ولم يمهل القدر أفونسودا البو كيرك طويلاً، فمات بمرض يدعى (الفواق) سبّب اختناقه فجأة بميناء جوا في ١٦ ديسمبر عام ١٥١٥م، وهو في عمر الثالثة والستين كما يذكر (Sousa)، وكان قد أطلق عليه حاكم عام الهند»[١]. لقد رحل هذا القائد البرتغالي الذي اتسم تاريخه في بحار الشرق بالوحشية والقسوة في معاملته الأهالي والتنكيل بالمسلمين منهم، إلاّ أنه أتم تطبيق الخطط البرتغالية باحتلال سواحل المحيط الهندي ووضع اللمسات الأخيرة في بناء صرح الإمبراطورية البرتغالية البحرية، فأضحت سواحل المحيط الهندي كلها تحت سيطرة البرتغاليين ولم تخرج من هذه السيطرة سوى عدن والبحر الأحمر، إلا أنه يمكن القول أن الإنجازات التي تمت في المراحل الأخيرة في بناء تلك الإمبراطورية يعود الفضل فيه له شخصياً، خاصة فيما يتصل بتطوير النظام البحري البرتغالي. فقد يكون البو كيرك أول قائد بحري في العصر الحديث أدرك بفطرته العلاقة المعقدة بين الأسطول والقواعد البحرية أخذاً بنظر الاعتبار عوامل أخرى مثل تغير الرياح في المواسم المختلفة، وترك للبرتغال إمبراطورية بحرية بكل معنى الكلمة ترتكز على الأساطيل والقواعد البحرية والقلاع العسكرية[٢].

ومن ناحية أخرى فقد أدى غزو البو كيرك للخليج العربي وإسقاط مملكة هرمز عام ١٥١٥م، إلى تثبيت مكانة البرتغاليين في المنطقة، ولذا فكروا بعد ذلك في توسيع دائرة نفوذهم في سواحل وجزر الخليج، ومن هنا بدأوا بالسيطرة على ميناء جمبرون (بندر عباس) وتأسيس مراكز

---

(١) - Sousa, Op Cit., Vol. I,P. 206.

وقد أوصى البو كيرك أن يُدفن في البرتغال، لكن الملك لم يحقق رغبته تلك، بل ظل مقبوراً في الهند (جوا) حتى عام ١٥٦٦م عندما نقل إلى لشبونة بعد متابعة ابنه غير الشرعي لتحقيق ما أراده البو كيرك.

(٢) عبد الأمير محمد أمين، «نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا»، من أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية (الإمارات العربية ١٩٨٧)، الجزء الثاني، ص٩٦.

تجارية لهم في صحار وقلهات، وكانت هذه الأملاك تديرها السلطات البرتغالية في هرمز[1].

ولكن هل استتب النظام والأمن للنفوذ البرتغالي في الخليج العربي؟ وهل رضخ الخليج بجميع سواحله لأول نوع من أنواع السيطرة الاستعمارية الأوروبية في العصر الحديث؟

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢٣ - .Miles, Op. Cit., P. 164

الفصل الخامس

الجبور ومقاومتهم مشروعات البراغاليين لغزو البحرين

- مشروعات الغزو البرتغالي للبحرين
- تصدي بني جبر للغزو العسكري البرتغالي - الهرمزي عام ١٥٢١م.
- أثر الغزو البرتغالي على تفكك إمارة الجبور في البحرين وشرق الجزيرة العربية.

الجبور ومقاومتهم مشروعات البرتغاليين لغــزو البحـــرين

مشروعات الغزو البرتغالي للبحرين

كان من المفترض أن يكون مشروع غزو البحرين من تنفيذ «افونسو دالبو كيرك» لأنه صاحب فكرة هذا الغزو منذ البداية حين زار الخليج لأول مرة غازياً عام ١٥٠٧ للاستيلاء على هرمز، واطّلاعه على مقدار ثروة البحرين وما تدره من ضرائب – بسبب تجارة اللؤلؤ والعمل بالزراعة – على مملكة هرمز. وعلم البوكيرك كما يبدو بالصراع الدائرة آنذاك بين إمارة الجبور وهرمز حول جزر البحرين الغنية، ولذا نجد في مراسلاته وتقاريره التي كان يرفعها دائماً للملك مانويل يدور الحديث في جانب كبير منها حول هذا الغزو:

- في عام ١٥٠٨م أرسل البو كيرك للملك رسالة بعد معركة هرمز، يذكر فيها رغبته الأكيدة في التحكم في كل سواحل الخليج بالقوة والقيام بحروب برية وبحرية تسمح له بالسيطرة المطلقة على البحرين وهرمز(١). وكانت تلك أول إشارة صريحة لاهتمام البرتغاليين بالبحرين. وبعد هذه الرسالة يظهر أن الأوامر قد صدرت إلى البو كيرك من الملك مانويل في عام ١٥١٣م، للبدء بمشروع غزو البحرين فعلياً للحصول على ثروتها من اللؤلؤ وللتحكم في موقعها الاستراتيجي المهم. ولكن البو كيرك اعتذر للملك، في نفس العام، عن عدم تمكنه من تحقيق هذا الهدف بسبب إنشغاله بحرب دولة المغول الإسلامية في الهند.

(١) أحمد بو شرب: – «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن ١٦م»، مجلة الوثيقة – العدد ٤، السنة ٢ (البحرين، ١٩٨٤)، ص١٢١.

■ رسالة للملك في ٢٠/١٠/١٥١٤ من قبل البو كيرك يشرح فيها خطته لغزو البحرين من جديد ويتمنى فيها كثيراً «الذهاب إلى البحرين» لاحتلالها!! و«إنتزاع اسم محمد» [ﷺ] منها وذلك لأن «البحرين يا سيدي أمر عظيم ومنطقة جد غنية حيث يكثر بها اللؤلؤ»(١). ويتضح هنا الهدفين الصليبي والاقتصادي من وراء غزو البحرين.

وقد كاد أن يحقق ابن أخ البو كيرك بيرو البو كيرك، هدف عمه والملك، وذلك عندما أرسل في الحملة التأديبية ضد هرمز – كما ذكرنا – عام ١٥١٤م، وأثناء تواجده قرب هرمز، زار المناطق الشمالية للخليج – ويعتقد بأنه أول برتغالي مسؤول يقوم بهذا العمل – واعتبرت زيارته سلمية لأنها جاءت دون أن يرافقها تدمير أو احتلال. ويعتقد كذلك بأن بيرو كان أول قائد برتغالي يقترب من جزر البحرين في طريق عودته إلى هرمز مستكشفاً السواحل من بعيد، وربما كان ذلك بناءً على توصية من قبل عمه البوكيرك. ولكنه من المستبعد أن يكون قد نزل بجزر البحرين آنذاك وهي تحت حكم إمارة الجبور القوية التي كانت تقارع البرتغاليين منذ نزولهم سواحل الخليج العربي بالسلاح، فكيف الحال والبرتغاليون هذه المرة يحاولون النزول على أراضي تابعة لأملاكهم في البحرين مباشرة. وربما كان هدف البرتغاليين – كما يقول (Miles) من هذه الزيارة السريعة، هي استطلاع مغاصات اللؤلؤ في تلك الجزر، بهدف السيطرة عليها، حيث كانت تشكل المصدر الرئيسي للأسواق الآسيوية والأوروبية آنذاك(٢). والدليل أن بيرو البو كيرك عندما عاد إلى الهند في نفس العام، قدم تقريره إلى عمه معتذراً عن عدم تمكنه من فعل شيء بشأن جزر البحرين بحجة أن الرياح قد عاكسته وتسببت في رجوعه(٣).

(١) المرجع السابق، ص١٢١.
(٢) Miles, Op. Cit., PP. 153, 154.
(٣) The Commentaries, Op. Cit., Vol. 4,P. 114; Sousu, Op. Cit., Vol. I,P. 256.

وكانت تلك حجة يكررها القادة البرتغاليون دائماً إذا صادفهم الفشل في الغزو، وحجة أخرى تتكرر أيضاً عند القادة البرتغاليين وهي «نفاذ ذخيرة المدافع» كما حدث في ثورة البحرين عام ١٥٢٩م.

* في آخر رسالة حول الوضع في الخليج في ١٥١٥/٩/٢٢م، قبل وفاته بقليل، أرسل البو كيرك إلى لشبونة يؤكد مرة أخرى على الأهمية الاستراتيجية للبحرين!!، ووعد البوكيرك مرة ثالثة بالذهاب إلى الجزيرة بغرض استكشافها ومن ثمّ احتلالها، وذلك فور وصوله إلى الخليج في حملته الثالثة ضد هرمز. وهنا نقف عند تعبير البو كيرك المهم في رسالته تلك حول الأهمية التي صارت البحرين تكتسبها تدريجياً لدى البرتغاليين، حيث يقول في جزء من الرسالة: «إنّ البحرين أهم ما يمكن أن يهتم به الإنسان!! ذلك أن عدداً كبيراً من المراكب تنطلق منها في اتجاه الهند محملة بعدد كبير من الخيول وكذا كميات مهمة من اللؤلؤ. إنّ الاستيلاء عليها والتحكم فيها أمر هين إذا ما ساعدنا الإله في ذلك، وإذا توفر لنا الوقت. لقد تمكنا من السيطرة على كل المناطق التي تتحكم فيها مملكة هرمز عدا البحرين التي جاء إليها العرب (يقصد الجبور) وطردوا جنود الملك (ملك هرمز) منها». وأضاف البوكيرك بعد ذلك كعادته في رسائله بعد فشل هجومه على الحجاز سابقاً من ناحية البحر الأحمر عام ١٥١٣، «إن احتلال البحرين والقطيف سيسمح بالهجوم على مكة لأنها لا تبعد عن البحرين والقطيف إلا بستة عشرة مرحلة في حالة الاعتماد على الجمال، وتلك مسافة قصيرة جدا»[١].

ويبدو أن عملية احتلال البحرين كانت هي الورقة الرابحة التي كان يلعب بها البو كيرك كلما انتقده خصومه في بلاط ملك البرتغال. فكلما

---

(١) أحمد بو شرب، مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين، مرجع سابق، ص١٢٢.

اشتد انتقاد أولئك الخصوم، كلما تدفقت على لشبونة التقارير والرسائل التي تتحدث عن البحرين بصورة مباشرة أو غير مباشرة وخطط البو كيرك للاستيلاء عليها. إلاّ أن البحرين سلمت في عام ١٥١٥م من هجوم البو كيرك، الذي كان حتماً سيرافقه الحرق والتدمير، بسبب إصابة البو كيرك بالمرض وهو في الخليج العربي بعد احتلال هرمز، حيث أقلع عائداً إلى الهند ومات كما ذكرنا في ديسمبر ١٥١٥م.

وعند التعرض للغزو البرتغالي للبحرين لابد من الوقوف عند حقيقة مهمة، قررت مصير الأحداث بعد الغزو البرتغالي للخليج منذ عام ١٥٠٧م، يمكن إيجازها في الصراع الذي كان قائماً بين ملوك هرمز وشيوخ الجبور. وقد كان هذا الوضع المأسوي هو الذي صبغ الحالة السياسية في الخليج العربي منذ وصول الغزو البرتغالي إلى سواحله. فعندما انسحب البرتغاليون فجأة عام ١٥٠٨م من الخليج بعد أن توجه البو كيرك إلى الهند، لم تقم أية قوة عربية أو إسلامية برص الصفوف ونبذ الخلافات للدفاع عن كيان الخليج العربي، بل بالعكس إزدادت تلك الخلافات بين الهرامزة وبني جبر[١]، وبدأت سياسة هرمز وملوكها في العمل على إطفاء شعلة إمارة الجبور الصاعدة آنذاك في شرق شبه الجزيرة العربية وعمان والبحرين، وبرزت قمة ذلك العداء الهرمزي للجبور في ارسال حملة «خواجة عطار» عام ١٥١١م التي قادت إلى احتلال جزر البحرين ثم الاضطرار للإنسحاب منها تحت ضغط تهديد الجبور لأملاك هرمز الساحلية في الأجزاء الشمالية من عمان.

أفاد هذا الصراع السياسي الذي نشب في مطلع القرن السادس عشر بين قوتين إقليميتين كبيرتين في الخليج (مملكة هرمز وإمارة الجبور)،

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، مرجع سابق، ص٦٠ – ٦٢.

البرتغاليين فائدة كبيرة. فقد استعانوا ببعض القوى المحلية الخليجية التابعة لمملكة هرمز وتحريضها لوقف الهجمات المتكررة التي كان يشنها شيوخ الجبور في عمان الداخل على الحاميات البرتغالية على بعض الموانيء والمدن الساحلية في ساحل عمان[1].

وكجانب آخر من تلك الحقيقة يمكن القول أنه بينما تم تسليط الأضواء على الخلافات التي ذكرناها وخلفياتها التاريخية، لم يهتم الكتّاب المعاصرون لتلك الفترة ولا الفترة التالية لها، بتسجيل أدوار المقاومة التي قامت بها القوى العربية في الخليج والجزيرة العربية ضد البرتغاليين عند بداية تسلطهم على المنطقة أوائل القرن السادس عشر الميلادي[2]، ولذا فإنّ معظم المعلومات البسيطة التي بين أيدينا استقيناها من المصادر البرتغالية والمراجع الأجنبية الأخرى، وهي بالطبع تمثل نظرة أحادية الجانب بل إنها سلبية عند الحديث عن المقاومة الوطنية في المنطقة، فهي تعمل على تمجيد أعمال البرتغاليين أثناء الغزو الاستعماري الأول. ومع ذلك نستطيع أن نستشف من تلك المصادر – كما أوضحت مذكرات البو كيرك – أن الجبور كانوا القوة العربية الوحيدة التي تحدت الغزو البرتغالي للمنطقة، وهو في عنفوان قوته وتسلطه على عمان والخليج العربي.

موقف هرمز من غزو البحرين:

إنّ دوافع الهجمات المستمرة التي كان يشنها الهرمزيون لاستعادة جزر البحرين والقطيف، هي لوضع موارد تلك المنطقة الاقتصادية الكبيرة تحت تصرفهم المباشر. وبالتأكيد فأن هذه الرغبة قد ازدادت بعد

---

(١) علي عبد اللّه أبا حسين، «الجبور عرب البحرين أو عربان الشرق»، مرجع سابق، ص٩٢.

(٢) جمال زكريا، الخليج العربي، مرجع سابق، ص٦٢.

أن فرض البرتغاليون الضرائب الكبيرة على هرمز والتي كانت تزداد مع وصول كل نائب جديد للملك في الهند، حتى وصلت في عهد لويو سواريز إلى «خمسة وعشرين ألف أشرفي سنوياً». ولم تكن إمكانيات هرمز تلبى بسهولة هذه المطالب مع صعوبة التجارة وضعفها في عهد السيطرة البرتغالية، فصار الأمر يشكل عبئاً كبيراً على خزانة هرمز. فإذا أضفنا إلى ذلك أن أمراء الجبور في البحرين قد انتهزوا فرصة الاحتلال البرتغالي لهرمز منذ عام ١٥١٥م، وبدأوا في التراخي عن تسديد ما فرضته عليهم شروط الاتفاقية المعقودة بينهم وبين هرمز، منذ أيام السلطان أجود بن زامل، من أموال سنوية[١] لتبين لنا مقدار العجز المالي الذي واجه الخزينة الهرمزية.

هذا بالإضافة إلى أنّ أمراء الجبور كانوا ينظرون للهرامزة على أنهم غزاة بدورهم حين سيطروا على جزر البحرين وفرضوا حمايتهم عليها في سنوات سابقة. وعندما تكرر فشل الهرامزة في فرض سيطرتهم بالقوة العسكرية الذاتية على البحرين والقطيف، وبسبب ضغط الضرائب السنوية البرتغالية عليهم ولعدم وجود أسطول بحري وقوات كبيرة لهرمز بعد إتفاقية ١٥١٥م التي قلصت الجيش ومنعت السلاح في هرمز وقلصت إمكانياتها العسكرية[٢]، فقد لجأ الهرامزة للبرتغاليين يحرضونهم على غزو البحرين والقطيف لاستعادتها واسترجاع الضرائب والأموال التي كانت تؤديها في السابق وذلك لفائدة الجانبين البرتغالي والهرمزي وتنفيذاً لبنود الإتفاق المعقود بين الجانبين الهرمزي والبرتغالي الذي قضى بإلزام البرتغال بالدفاع عن ملك هرمز وممتلكاته ضد أعداءه

---

(١) عبد اللطيف الحميدان، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية»، مرجع سابق، ص٧٨.

(٢) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 256.

أعدائه وأعداء الجزيرة[1].

وربما كانت كل تلك الحجج أعذاراً برتغالية واهية لتبرير غزوهم لجزر البحرين، وهي حجج لم يكونوا في الواقع في حاجة كبيرة لذكرها.

مقدمات غزو البحرين:

لقد سبقت الغزو الرئيسي لجرز البحرين عدة مقدمات ومناوشات من نوع اختبار القوة لدولة الجبور التي تحدث عنها البو كيرك كثيراً في مذكراته، وذلك لكي يكتشف نقاط الضعف والقوة لهذه الدولة ومنها:

١) في عام ١٥٠٩م، تعرض البرتغاليون في الخليج لتجارة الجبور في البحرين في محاولة منهم لإضعافها أو الحد منها. وقد هاجم البرتغاليون سفينة بحرينية محملة باللؤلؤ وتم نهبها في مياه الخليج العربي[2]، مما يمثل نوعا من القرصنة البحرية التي يعرفها البرتغاليون جيداً، وفي نفس الوقت تعتبر هذه الحادثة تحدياً حقيقياً لسلطة الجبور وإظهار ضعفهم أمام القوى الأخرى التي استكانت للبرتغاليين بعد استسلامها.

٢) سكوت البرتغاليين عن حملة «خواجه عطار» عام ١٥١١م ضد البحرين التي ربما شجعوها أيضا.

٣) محاولة استكشاف البحرين وحقيقة تحصيناتها عندما اقترب منها بيرو البو كيرك أثناء حملته في الخليج على هرمز ١٥١٤م.

أسباب غزو البرتغاليين للبحرين:

هذه هي بعض الحجج والمبررات البرتغالية لاحتلال البحرين:

(١) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,P. 131; The Book of D. Barbosa, Op. Cit., PP. 103, 105.
(٢) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 142.

١) توقف البحرين عن دفع عائدات بعض البساتين التابعة لهرمز في الجزر وفقا لشروط الإتفاقية المعقودة بين هرمز والجبور[١]، حيث أعتبر ذلك – أثناء حكم السلطان مقرن الجبري – تحدٍ واضح للبرتغاليين في الخليج وذلك بعد سبع سنوات فقط من احتلالهم النهائي لهرمز (١٥١٥). وحينما طالب البرتغاليون «تورانشاه» ملك هرمز بدفع ما عليه من ضرائب سنوية للبرتغال تعلل بنقص الأموال لديه، لأن السلطان مقرن الجبري لا يدفع له بانتظام المبالغ المقررة عليه من واردات البحرين والقطيف وبساتينها ولؤلؤها[٢]. ثم أضاف «تورانشاه» سبباً آخر لتحريض البرتغاليين ضد الجبور، حيث ذكر بأن السلطان مقرن صار يتعرض للسفن التجارية التي تبحر ما بين البصرة وهرمز[٣]. وتورد بعض المصادر البرتغالية هنا، أن السلطان مقرن وهو يخطط لتوسيع نفوذه في مياه الخليج، قد استعان ببعض الأتراك الحرفيين من الحجاز لبناء مراكب ذات مجاديف وأحجام صغيرة وسريعة الحركة لا تعتمد فقط على الأشرعة والرياح، كي يستطيع بها السيطرة على مضيق هرمز وحركة التجارة في الخليج، وقد قامت هذه المراكب ببعض المناوشات ضد القوافل التجارية البحرية ما بين البصرة وهرمز، وذلك رداً – كما يبدو – على المضايقات التي كانت تتعرض لها تجارة الجبور على يد البرتغاليين والهرامزة في الخليج العربي[٤].

---

(١) كانت البحرين تدفع سنوياً لهرمز عوائد تقدر بحوالي (١٥٠٠٠) أشرفي ذهباً، وقدرها ملك هرمز عام ١٥٢٩م بأربعين ألف أشرفي، أنظر أحمد بو شرب، «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين»، مرجع سابق، ص١٢٣.

(٢) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 256" S. Ozbaran, "Bahrain in The Sixteenth Century", Op. Cit., P. 229.

(٣) نونو بي. سلفا، «صفحات عن الغزو البرتغالي للبحرين»، الوثيقة، العدد ٨، السنة ٤ (البحرين، ١٩٦٨) ص١٢٦.

(٤) - Ozbaran, Op. Cit., P. 229.

٢) سياسة البرتغاليين ضد القوى العربية في الخليج بعد احتلالهم لهرمز، والتي كانت تقوم أساساً على تجريد المنطقة من كل سلاح كي لا يستخدم ضدهم، ولذا قاموا بجمع كل الأسلحة - التي تحدثوا عنها - من موانيء ساحل عمان وهرمز وكافة الجزر الأخرى، بالإضافة لمراقبتهم عملية بناء السفن في أحواضها، وتفتيشها للتأكد من عدم تسليحها أثناء التصنيع[١].

ازداد قلق البرتغاليين من توجهات السلطان مقرن وعمله على بناء القوة الجبورية الضارية وتطويرها ودعمها بالأسلحة النارية الحديثة بالتعاون مع العثمانيين بعد دخول الحجاز تحت نفوذهم عام ١٥١٧م، وقد أزعجتهم الأنباء التي وصلتهم عن قوة البحرين الناشئة. ويبدو أن هذا العامل الأخير هو من العوامل الرئيسية التي جعلت البرتغاليين يسعون بأقصى سرعة للبحث عن الوقت المناسب لتدمير الجبور وقوتهم الحربية وانتزاع الموانيء في البحرين وشرق الجزيرة العربية من أيديهم حتى لا تقوم بمنافسة هرمز تديجياً وتسبب في إنهيارها اقتصادياً وتتحول طرق التجارة في الخليج إلى بني جبر. وبما أن البرتغاليين كانوا عاجزين عن قهر الجبور براً نظراً لتفوقهم في العمق الاستراتيجي القبلي في ذلك الميدان، فقد لجأ البرتغاليون إلى عمل عسكري يرتكز أساساً على تفوقهم البحري.

٣) ومن الأسباب الاقتصادية التي حدت بالبرتغاليين لاحتلال البحرين آنذاك يمكن استخلاص سببين:

أ - تجارة الخيول العربية الأصيلة التي كانت تدر أرباحاً وفيرة على الجبور وكانت تلك الخيول تصدر من موانيء «ظفار» بعمان

(١) The Commentaries, Op. Cit., Vol. 4, PP. 165, 172 - 174; Sousa, Op. Cit., Vol. I,PP. 205 - 206.

الساحل، الذي اتخذ منه الجبور منفذاً رئيسياً لتصدير الخيول إلى الهند. واحتكر الجبور تلك التجارة في شرق الجزيرة العربية، مما حرك أطماع البرتغاليين من أجل السيطرة عليها وانتزاع فوائدها، ولذا نجدهم – في المصادر البرتغالية – يتحدثون عن وجود أماكن متعددة في كل من عمان والبحرين لتربية هذه الخيول والعناية بها وجلبها ومن ثمّ تصديرها إلى الأسواق الخارجية بواسطة الجبور وخاصة إلى الهند حيث يكثر الطلب عليها وترتفع أسعارها[١]، وبشكل خاص في فترات الاضطراب والفوضى التي تؤثر على الطرق التجارية التي تمر بها هذه التجارة في الخليج العربي، وهذا هو ما حدث في أواخر القرن الرابع عشر أوائل القرن الخامس عشر مما أدى لانتقال الطرق ناحية البحر الأحمر وبر العرب. ولذلك نجد أنّ بعض حملات الجبور ضد نجد كانت تهدف إلى المحافظة على الطريق التجاري الذي يربط نجد بكل من اليمن وظفار من تعدي القبائل البدوية وخصوصاً القبائل المنافسة للجبور[٢].

ب – تجارة اللؤلؤة البحريني النادر والسيطرة على مصائده حول الجزر البحرينية وما يدره اللؤلؤ من أرباح وفيرة جداً في تلك الفترة. ولم يكن في صالح البرتغاليين ولا من توجههم تركها لتبقى في أيدي العرب المسلمين وهم الذين جاءوا من أوروبا لضرب التجارة الإسلامية والاستيلاء على كل أشكالها وثرواتها.

٤) توجس البرتغاليين من خطر العثمانيين على أملاكهم في المنطقة

(١) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,PP. 83, 86; The Book of D.Barbosa, Op. Cit, P. 70.

(٢) عبد اللطيف الحميدان، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية»، مرجع سابق، ص٦١.

الخليجية العربية خاصة بعد أن ورثوا أملاك الدولة المملوكية في الحجاز ١٥١٧م، وقبلها قد اقتربوا من الخليج عندما هزموا الصفويين في جالديران ١٥١٤م. ولذا فما أن لاح خطر هؤلاء العثمانيين المسلمين قادماً من العراق، حتى سارعت السلطات البرتغالية في الهند وبناء على تعليمات مسبقة من البلاط البرتغالي في لشبونة، بتوجيه حملات الغزو ضد جزر البحرين منذ عام ١٥٢٠م.

٥) سياسة الجبور في شرق الجزيرة العربية والخليج وعمان في تلك الفترة من حيث إتجاههم لمساعدة المناطق العربية والإسلامية المجاورة لهم ضد الغزو البرتغالي وميلهم أحيانا إلى إيجاد نوع من المقاومة الجماعية لهذا الخطر الخارجي الطارىء عليهم كما حدث على سبيل المثال عند مساعدة مسقط وصحار التي تحدثنا عنها(١).

الموجة الأولى في مشروع غزو البحرين ١٥٢٠م:

يذكر الحميدان في بحثه عن إمارة الجبور، اعتماداً على مصادر برتغالية، أنه في سبتمبر ١٥٢٠م أتفق البرتغاليون مع ملك هرمز على القيام بغزو جزر البحرين، فحشدوا لهذا الغرض قوات كبيرة في هرمز جندت من سواحل الخليج الأخرى يدعمها الأسطول البرتغالي بقيادة «جومز دي سوتا مايور». وكان قوام قوة هذا الأسطول ثلاث سفن برتغالية كبيرة بمدافعها ومائة وعشرين بحاراً، وأربعين سفينة أخرى ذات مجاديف وكانت تابعة لملك هرمز وعليها ألف ومائتين جندي وبعض الفرسان، وقد انتهز البرتغاليون فرصة غياب السلطان مقرن الجبري في موسم الحج آنذاك لتنفيذ هذا الهجوم.

وقد واجه هذه الغزوة الشيخ «حميد» إبن أخت السلطان مقرن، الذي قاد

(١) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. I,PP. 75, 87.

المقاومة الشديدة من قبل أهل البحرين لسفن الحملة البرتغالية وتعطيلهم نزول جنودها على البر، كما أدى هبوب الرياح والعواصف غير المتوقعة قرب الساحل إلى تشتيت بعض سفن الإنزال الأولى ذات المجاديف، لذا فقد أُحبطت تلك الحملة البرتغالية المبكرة على البحرين[1]. وعلى الرغم من أن القائد البرتغالي «سوتا مايور» انتظر حوالي ثلاثة عشر يوماً في البحر قبالة سواحل البحرين وصول نجدة أخرى وتجهيزات من الأسلحة وقنابل المدافع لدعم قواته في الهجوم، إلاّ أنها لم تصل أبداً، فأضطر لكي يعود دراجه إلى هرمز يجر أذيال الخيبة. وفشلت تلك الحملة البرتغالية الأولى ضد جزر البحرين في تحقيق أهدافها[2].

تصدي بني جبر للغزو العسكري البرتغالي – الهرمزي عام ١٥٢١م

عندما تلقى السلطان مقرن بن زامل الجبري نبأ الهجوم البرتغالي الأول على البحرين، وكان في الحج بالحجاز، عاد مسرعاً بعد أداء المناسك، ليشرف بنفسه على الاستعدادات اللازمة لمواجهة أي هجوم آخر مرتقب طالما بقي البرتغاليون في المياه القريبة من جزر البحرين، وطالما عملوا على انفاذ خططهم لانتزاع البحرين من أيدي الجبور.

ولا نستبعد هنا أن السلطان مقرن كان يتوقع هجوماً برتغالياً على بلاده منذ فترة، ويدل على ذلك تلك الاستعدادات التي كان قد اتخذها لصد أي هجوم مفاجىء، ويبدو أن تلك الاستعدادات هي التي نجحت في صد الموجة الأولى من الغزو البرتغالي عام ١٥٢٠م، وإلاّ فمن غير المنطقي أن تتم كل تلك الاستعدادات التي سنراها لاحقاً في الفترة التي سبقت غزو عام ١٥٢١م.

(١) Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 256. -

(٢) عبد اللطيف الحميدان، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية»، مرجع سابق، ص٧٩.

من تلك الاستعدادات مثلاً أنه قام بتحصين بعض مناطق البحرين والقطيف، وإعادة بناء سور لقلعة إسلامية قديمة كانت في البحرين آنذاك[1]، وإقامة العديد من الاستحكامات. والأهم من هذا أنه كان قد بدأ ببناء أسطول يتكون من عدة سفن - كما أشرنا إلى ذلك - واستعان في بنائه بعمال مهرة من الترك والفرس والعرب وذلك بشهادة المصادر البرتغالية نفسها، وقد جنّد الأمير مقرن مقاتلين يحسنون الرمي بالسهام، وعمل جاهداً على تزويد قواته ببعض المدافع العثمانية والمقاتلين المدربين، ووضع على رأس كل قوة أحد القواد المدربين أيضاً (قادة ميدان)[2]، وبالإضافة إلى ذلك فقد أمر السلطان مقرن ببناء سور كبير من الطين أمام الواجهة البحرية لمدينة المنامة العاصمة آنذاك يمنع دخول العدو إليها. وكان عرض السور نحو عشرة أشبار، وجعل واجهته من جذوع النخل بشكل عالٍ جداً[3]. وأمر مقرن بوضع المتاريس على طول الساحل البحريني الذي يقع أمام أسوار قلعة البحرين، وقد توقع أن يكون الهجوم البرتغالي من ناحية المياه الضحلة أمام القلعة حيث يسهل نزول الجنود وخوض المياه وصولاً للبر في وقت الجزر، وهذا في حد ذاته ينم

(١) قلعة البحرين: عند ذكر هذه القلعة يخطىء بعض الكتّاب من خارج المنطقة حين يطلقون عليها اسم «قلعة البرتغال» معتقدين بأن البرتغاليين هم أول من أقامها، والصحيح أنها كانت موجودة من قبل وقائمة فوق ركام قلعة إسلامية أخرى أقدم منها، اكتشفتها بعثة «مونيك» في السبعينيات بجانب قلعة البحرين، وبدليل آخر أيضاً أن السلطان مقرن الجبري استخدم أسوار تلك القلعة الإسلامية ضمن استعداداته لمواجهة الغزو البرتغالي، وهناك نص أيضاً في الوثائق العثمانية يقول إن الشيخ مقرن وضع الاستحكامات والمتاريس قرب قلعة البحرين وأن البرتغاليين أطلقوا على القلعة المدافع وأصابوا بعض جدرانها فتصدعت واستمر الرمي ثلاثة أيام« وهذا يدل على قوة تلك القلعة وعلو أسوارها وأنها ليست من بناء تلك الفترة فقط، بالإضافة إلى وجود نص في طبقات «ابن سعد» يشير إلى وجود حصن في جزيرة أوال، وهذا النص يعود إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): أنظر علي أبا حسين، «صفحات من تاريخ البحرين»، الوثيقة، العدد الأول، السنة الأولى، (البحرين، ١٩٨٢م)، ص٣٣، ٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠.

(٣) أحمد بو شرب، «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين»، مرجع سابق، ص١٢٤.

عن عقلية عسكرية متميزة في دراسة المواقع العسكرية.

وقد بنى السلطان مقرن خط الدفاع الثاني الأساسي قرب القلعة بجذوع النخل وجعل فيه فتحتين أو ثلاث مؤدية إلى البحر – كما تذكر المصادر البرتغالية – وقد تُغلق هذه الفتحات بمجرد رؤية البرتغاليين قادمين من البحر بسفنهم. بالإضافة إلى ذلك فقد قسم السلطان مقرن الحائط المواجه للمنطقة التي يتوقع نزول العدو فيها، إلى ثلاثة أقسام، وضع كل قسم تحت قيادة قائد وجعل معه أحد المدافع، وبجانب كل ذلك أقيمت موانع أخرى وخنادق حول السور. وكما يقول المؤرخ البرتغالي باروس، فعل مقرن كل هذا كرجل يعرف ما يفعل، وكقائد عسكري وضابط كبير، وهو وصف صادق لهذه الشخصية[1].

وللأسف ينقصنا مصدر محلي خليجي أو عربي أو إسلامي يتحدث عن قوة الجبور التي دخلت المعركة الحاسمة ضد العدو البرتغالي عام ١٥٢١م، ولهذا يلجأ الكتّاب المعاصرون عادة للمصادر والوثائق البرتغالية التي تبالغ في تقدير شأن قوة العرب والمسلمين الذين يحاربونها وتقلل من شأن قوتها لتظهر بمظهر الشجاعة والإقدام واقتناص النصر السهل والسريع. فعند الحديث عن قوات السلطان مقرن الجبري، تذكر تلك المصادر بأنها كانت تتكون من أكثر من أحد عشر ألف مقاتل مزودين بمختلف الأسلحة، إضافة إلى ثلاثمائة فارس عربي بخيولهم وأربعمائة من رُماة السهام من الفرس، وعشرين تركياً من حملة البنادق[2] «التفنكَجية»[3]، وكان هؤلاء العسكريون يدربون السكان على

(١) نونو بي. سلفا: «صفحات عن الغزو البرتغالي للبحرين»، مرجع سابق، ص ١٢٧ .

(٢) Sousa, Op. Cit., Vol. I,P 256. -

(٣) للمزيد حول موضوع دخول الأسلحة النارية لأول مرة إلى شبه الجزيرة العربية في عهد الجبور وفي الأحساء والبحرين بالذات، أنظر عبد اللطيف الحميدان، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية»، مرجع سابق، هامش ١٣٩ ص ١٧٠ .

القتال باستخدام الأسلحة النارية والمدافع[1]. ولا ندري كيف يمكن أن يتجمع كل هذا العدد الضخم من الجيش في مساحة صغيرة أمام القلعة في مواجهة البحر!!.

التحالف بين البرتغاليين وهرمز ضد الجبور:

صدرت الأوامر من قبل «ديو جو لوبيز دي سكويرا L. de Sequeyra Diogo» الحاكم البرتغالي العام في الهند آنذاك باحتلال البحرين وضمها إلى نفوذ مملكة هرمز من جديد. وكلف القائد ابن أخيه القائد «انطونيو كوريا Antonio Correa بقيادة حملة غزو البحرين.

قام «كوريا» على الفور بالإعداد للحملة في عام ١٥٢١م وحرص أن تكون الحملة هذه المرة حملة كبيرة قوية حتى لا تفشل كما حدث لحملة عام ١٥٢٠م. وقد تكون الجيش الذي أعد لهذا الغرض من قسمين:

١) قسم أعده البرتغاليون بأنفسهم وتكون من سبع سفن برتغالية كبيرة بمدفعيتها المدمرة، ومعها أربعمائة محارب برتغالي بقيادة كوريا وأخيه[2].

٢) قسم أعده الهرمزيون بأنفسهم، بإعتبارهم أصحاب فكرة ضم البحرين للحصول على عوائدها. وتكون هذا القسم من مائتي مركب صغير عليها ثلاثة آلاف محارب من الفرس والعرب التابعين لأمير هرمز وبعض رماة السهام. وكان هذا القسم الهرمزي بقيادة وزير ملك هرمز، «رئيس شرف الدين»[3]. وقد قامت هذه الحملة بكاملها في ١٥ يوليو ١٥٢١م في اتجاه جزر البحرين[4].

---

(١) - Ozbaran, "Bahrain in Sixteenth Century,", Op. Cit., P.229.

(٢) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 256.

(٣) تسميه المصادر البرتغالية «ريس زرفه أو ظرفه».

(٤) - Adamyiat, Op. Cit., P.20.

لم يصل الأسطول البرتغالي والهرمزي إلى البحرين إلاّ في ٢١ يوليو بسبب هبوب العواصف وعدم معرفة أنطونيو لمسلك بحري آخر يوصله إلى الجزر بأمان، وكان ذلك القائد قد فقد في العواصف ما يربو على المائة والخمسين من رجاله وكذلك خسر الهرامزة بعض سفنهم وجنودهم قبل الوصول إلى البحرين(١).

وقد كان أنطونيو حذراً جداً فلم يقترب كثيراً من سواحل البحرين حين وصل قبالتها في ١٢ يوليو، بل مكث لمدة ستة أيام ينتظر قطع الأسطول الهرمزي لتنضم إليه بعد أن تفرقت بفعل العاصفة، وأخبرته فرق الاستطلاع البرتغالية أن قوات السلطان مقرن أو (مكرم) كما يسميه البرتغاليون، متحصنة خلف أسوار القلعة، فانتظر أنطونيو بقية المدد ووصول قوات هرمز بينما لجأ بسفنه إلى مكان آمن عند بعض الجزر غير البعيدة عن البحرين كي يحتمي بها عن الأعاصير البحرية. وعندما تأخر وصول المدد إليه حاول النزول إلى البر البحريني فوقعت مناوشات صغيرة حين تصدت له قوة متقدمة من الجبور، ولم تسفر تلك المناوشات عن انتصار البرتغاليين. فلما جن الليل وفشلت محاولة أنطونيو الأولى في إحداث شيء، انتظر حتى الصباح عندما صار البحر جزراً فعاد هو وجنوده يخوضون البحر لكي يصلوا إلى سفنهم(٢).

كان السلطان مقرن بن زامل الجبري يعلم أن هدف الحملة البرتغالية – الهرمزية ضد البحرين هو طلب رأسه وكسر شوكة الجبور التي صارت توجع خاصرة البرتغاليين في الخليج العربي كثيراً. ولذا صمم أن يواجه الآلة العسكرية البرتغالية ومخططاتها في الخليج عامة والبحرين بشكل خاص، حتى الرمق الأخير بدون تنازل أو إستسلام. وحين حانت ساعة

(١) - Salih Ozbaran, "The Ottoman Turks and Portuguese, Op. Cit., P.620.

(٢) أبا حسين «الجبور عرب البحرين أو عربان الشرق»، مرجع سابق، ص٩٥.

الصفر الحقيقية في ٢٧ يوليو ١٥٢١م، هاجمت القوات البرتغالية مجتمعة في تشكيلات مختلفة السور الذي أقامه السلطان مقرن أمام الساحل المواجهة لجبهة القتال بعد أن ظلوا يدكون هذا السور لأيام بالمدافع قبل نزولهم إلى البر. وخوفاً من خيانة جنود هرمز للبرتغاليين – لوجود حالة عدم ثقة في الهرامزة – فقد صدرت إليهم أوامر أنطونيو بأن يبقوا في المراكب قريباً من الساحل إلى أن يرسل إليهم الإشارة بالنزول[١]. وقد نزل البرتغاليون إلى البر أمام القلعة وتسلقت قوات أنطونيو الحائط الذي أقامه السلطان مقرن، وكان مع أنطونيو حوالي مائة وسبعين فارساً وبجانبه أخوه ومعه خمسون فارساً، وقد غاصت ركبهم في خندق الماء[٢]، المحيط بالقلعة. عند ذلك انسحبت قوات السلطان مقرن ولجأت إلى المدينة حسب مخطط مدروس من قبل، كخدعة حربية، وظنّ البرتغاليون أنهم انتصروا فعلاً، فأسرعوا نحو المدينة لمطاردة الجنود، فقامت قوات مقرن على إثر ذلك بهجوم مضاد وحاصرت البرتغاليين بين المدينة والحائط الخارجي للقلعة، ودار قتال عنيف بين القوتين. وكان موقف البرتغاليين صعباً جداً بين فكي كماشة، جنود مقرن من جهة، والبحر من الجهة الثانية[٣].

وتضيف المصادر البرتغالية التي كتبت عن معركة غزو البحرين والتي أخذ عنها كل الكتّاب المعاصرين واصفة المعركة، بأنها كانت بالنسبة لأنطونيو كوريا حاسمة وصعبة. وكان ذلك القائد يحمل علماً ويطوف بين صفوف جنوده يشجعهم على الصمود في حرب المسلمين واقتحام سور القلعة للخروج من الحصار، وكان الجنود قد أصابهم السأم والتعب

---

(١) أحمد بو شرب، «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين»، مرجع سابق، ص٥٢١.

(٢) - Sousa, Op. Cit., vol. I,P. 257.

(٣) نونو بي. سلفا، مرجع سابق، ص١٢٧.

والإرهاق الشديد[1]. ذلك أن هذه المعركة جرت في هجير صيف الخليج الساخن واستمرت لأكثر من يوم، وكانت تتوقف أحياناً بسبب شدة الحرارة[2]، ثم يعاود الطرفان الهجوم والهجوم المضاد.

كان السلطان مقرن على رأس قواته، ومعه مساعده الشيخ حميد، ابن أخته، يحث جنوده على الصمود والاستبسال ويبث فيهم روح النخوة والشجاعة العربية ويعطيهم المثل بشخصه باعتباره معهم وأمامهم في خطوط الجبهة الأمامية وهو يردد إما النصر أو الشهادة، وكلتاهما فوز للمجاهد المؤمن.

ومع استمرارية المعركة وطول مدتها، فقد حصدت المدفعية البرتغالية عدداً كبيراً من جنود السلطان مقرن، وكثر عدد القتلى والجرحى في معسكره، ومع ذلك واصل الصمود والقتال ومحاولة مقارعة أسلحة البرتغاليين الحديثة بالقليل من السلاح الذي توفر له، رغم البون الشاسع بين التقنية ونوعية السلاح عند هؤلاء وأولئك.

وأثناء فترة توقف القتال بسبب الحرارة الشديدة – كما يقول سلفا – تقدم رئيس الهرامزة (شرف الدين) بخطة تتضمن إعداد مائتي هرمزي من خيرة رماة السهام (المسمومة). توكل اليهم مهمة وحيدة هي رمي «قادة الميدان» في جيش السلطان مقرن، حتى يؤثر ذلك على بقية الجيش والجنود المرتبطين بهؤلاء القادة[3]. وفعلاً عندما تجدد القتال قام هؤلاء الرماة الهرامزة بقتل قادة جيش مقرن بمن فيهم القائد العام للجيش. وقد تأثر السلطان مقرن لفقدان قادته من الجبور، ولكنه لم يستسلم ولا طلب الصلح، بل تولى بنفسه قيادة الجيش بأكمله لدرجة أنه وبسبب صولاته

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,PP. 257, 258.

(٢) يوليو وأغسطس من أشد أشهر الصيف حرارة ورطوبة في البحرين.

(٣) نونو بي سلفا، مرجع سابق، ص١٢٧.

وجولاته في المعركة وقيادته لأكثر من تشكيل في نفس الوقت، عُقرت له فرسان في القتال ولم يتوقف عن إداء مهمته[1].

وطالت ساعات القتال مما زاد في قلق الجنود البرتغاليين غير المعتادين على مثل هذا الطول في حروبهم مع العرب في الخليج، وازداد اضطرابهم عندما جرح قائدهم أنطونيو كوريا في ذراعه اليمنى[2]، وكاد التعب والإرهاق أن يأخذا من الجنود البرتغاليين مأخذه ويجعلهم يطلبون الإستسلام كما كثر الجرحى بينهم، ولكن وقعت مفاجأة في معسكر السلطان ألا وهي سقوط السلطان مقرن جريحاً بسبب وجوده في الصفوف الأمامية لقواته أثناء المعركة، فقد أصيب هو الآخر بطلق ناري في فخده مما سبب له جرحاً بليغاً، وربما كانت إصابته جراء طلقه مدفع برتغالي من سفن الأسطول نقل السلطان على إثرها إلى أحد المساجد خلف ميدان القتال[3]، حيث ظل من هناك يقود المعركة عن طريق إصدار الأوامر للشيخ حميد طوال ستة أيام. ولم يمهله الوقت أكثر من ذلك حتى يكمل المعركة إلى نهايتها، فقد فاضت روحه متأثراً بجراحه بعد تلك الأيام الستة[4]، وشاع خبر وفاة السلطان مقرن الجبري وسرى سريان النار في الهشيم وكأن الكل كان مرتبطاً بوجوده، فالجنود البرتغاليون ارتفعت معنوياتهم القتالية المنهارة، وشجعهم ذلك على مواصلة القتال، بينما انهارت معنويات جنود الجبور المدافعين عن البحرين[5].

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٧ .

(٢) أبا حسين، «الجبور عرب البحرين أو عربان الشرق»، مرجع سابق، ص٩٥ .

(٣) Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 258; S. Ozbaram, "The Ottoman Turks and Portuguese". Op. Cit., PP. 620, 621.

(٤) Abbas Faroughy, Op. Cit., P.62. - يذكر كل من نونو سلفا وأحمد بو شرب نقلاً عن المصادر البرتغالية أن مقرن ظل حيا ثلاثة أيام بعد المعركة، بينما يذكر سوزا أنها حوالي ستة أيام.

(٥) Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 258. -

ولم تتوقف المعارك بعد موت السلطان مقرن مباشرة بسبب قيادة الشيخ حميد، ولكن نظراً لإنهيار معنويات الجنود المرتبطين بقائدهم الأعلى بعد أن فقدوا قادة الميدان، وكثرة القتلى والجرحى في معسكر الجبور، قرر الشيخ حميد سحب قوات الجبور المتبقية إلى القطيف[١] مؤقتاً ريثما تستعد من هناك لطرد البرتغاليين مرة أخرى بعد إعادة تنظيم صفوفها من جديد. وحال الإعياء في صفوف الجيش البرتغالي وكثرة الإصابات بينهم دون مطاردة أهالي البحرين وجنود مقرن المدافعين عن جزر البحرين، فكلف أنطونيو جنود هرمز بقيادة شرف الدين بهذه المهمة[٢].

وقد حرص الشيخ حميد أثناء إنسحابه مع بقية أسرة الجبور، أن ينقل معه جثمان خاله السلطان مقرن الجبري ليدفنه في الأحساء، ولكن ما أن توسطت سفن الجبور المنسحبة صوب القطيف، مياه الخليج بين البحرين والأحساء، حتى لحقت بها قوات الهرامزة، - كما تقول المصادر البرتغالية - بقيادة الوزير شرف الدين الذي قرر أن يستولي على جثمان السلطان مقرن، وتم له ما أراد بعد ملاحقة سفن الجبور وقام بقطع رأس السلطان مقرن، ذلك الرأس الذي كان قد أقضّ مضاجع البرتغاليين والهرامزة طوال السنوات السابقة، وحملها معه إلى هرمز[٣].

بينما تذكر رواية أخرى أن أنطونيو كوريا هو الذي لاحق تلك السفن وقبض على سفينة القيادة التي كانت تحمل الجثمان في طريقها إلى القطيف، وسأل كوريا عن جثمان السلطان حتى تعرف عليه بالقوة،

(١) - Ibid.

(٢) أحمد بو شرب، «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين»، مرجع سابق، ص١٢٥ .

(٣) - The Commentaries, Op. Cit., Vol. 4,PP., 172 - 174.

وهناك شفى غليله منه بأن اجتز رأسه وحمله معه إلى هرمز ليتباهى به وبانتصاره على سلطان الجبور العظيم(١). أما ابن أياس فيذكر أن مقرن وقع حياً في أيدي البرتغاليين «وأنه ساومهم على أن يفتدي نفسه بالمال ولكنهم قتلوه صبراً»(٢). وهذه رواية ضعيفة كما يبدو من ظاهرها، حيث أن السلطان مقرن لو أراد المساومة لكان دفع لهم المال قبل المعركة وعاش في ظل الهيمنة البرتغالية كما فعل ملوك هرمز. كما أنّ ابن إياس كان بعيداً عن أرض المعركة وعن الأحداث في البحرين وشرق الجزيرة العربية، ويبدو أنه تلقى أخبارها عن طريق بعض الحجاج القادمين من الحج ضمن قافلة الحج المصرية بدليل أنه أورد الحكاية في صفحة واحدة فقط عند الحديث عن بعض العائدين من «المماليك» في رحلة الحج لعام ٩٢٨هـ. وبالتأكيد فإن هؤلاء العائدين كانوا مع السلطان مقرن في موسم الحج الأخير الذي كان فيه السلطان في الحجاز عندما داهم البرتغاليون أثناء ذلك البحرين، أي عام ١٥٢٠م. وكما نعلم فإنّ قوافل الحج المملوكية تستغرق حوالي العام في ذهابها وإيابها، ومع ذلك فقد وصف ابن إياس مقتل السلطان مقرن في ذلك العام بأنه «من أشد الحوادث في الإسلام وأعظمها»(٣).

وأيّاً كانت الروايات، فالشيء الوحيد المتفق عليه بينها، هو مقتل السلطان مقرن في المعركة ودخول البرتغاليين البحرين عام ١٥٢١م، حيث عاثوا – كعادتهم – في مدينة المنامة فساداً ونهباً، رغم أن أنطونيو كوريا منعهم من التعرض لبضائع التجار، لكي يعودوا لمزاولة تجارتهم في البلاد. فهو لا يريد تلك الجزيرة دون تجارة. وتم احتلال قلعة البحرين، وضم الجزر بكاملها لسلطة هرمز من جديد، كما تم إحراق جميع مراكب

(١) أبا حسين «صفحات من تاريخ البحرين»، مرجع سابق، ص٣٥؛ - Abbas Faroughy, Op. Cit., P. 62.
(٢) ابن أياس، مصدر سابق، ج٥، ص٤٣١ .
(٣) المصدر السابق، ج٥، ص٤٣١ .

الجبور الحربية والتجارية[1].

ويذكر – سلفا – أن أنطونيو احتل القصر الملكي الواسع في المنامة، ومكث بنفسه في البحرين حتى منتصف أغسطس ١٥٢١ ثم رجع إلى هرمز بعد أن ترك حامية صغيرة من الجنود الهرامزة تحت سلطة رجل عربي كبير في السن يدعى (Lucat)[2].

ومن ناحية أخرى تعتبر معركة فتح البحرين واحتلالها على يد البرتغاليين عام ١٥٢١م أطول معارك البرتغاليين في الخليج العربي منذ وصولهم إليه من ساحل منطقة عُمان عام ١٥٠٧م حيث استمرت المعارك لأيام متتالية. فقد بدأت هذه الحرب في ٢٧ يوليو ومن المحتمل أنها انتهت في حوالي الأول أو الثاني من أغسطس ١٥٢١م على أقل تقدير إذا اعتمدنا على رواية أن مقرن توفى بعد ستة أيام من إصابته البليغة. ومن الجدير بالذكر أن الوثائق والكتابات البرتغالية التي تعتبر أحد المصادر الرئيسية للأحداث في تلك الفترة قد تجاهلت كما يبدو عن عمد ذكر أية تفاصيل عن السلطان مقرن وأعماله وبطولاته. ومع ذلك فقد أعتبر البرتغاليون هزيمة مقرن والقضاء عليه نهائياً نصراً ضخماً استحق صاحبه أنطونيو كوريا التكريم والإجلال، وتأليف القصص عنه والحكايات الأسطورية التي جعلت منه أشبه بالقديسين.

تقويم معركة احتلال البحرين ١٥٢١م:

إن أول ما يشد الانتباه ويثير التساؤل في هذه المعركة، هو كيفية تمكن القوات البرتغالية الصغيرة العدد من الاستيلاء على البحرين بمساعدة

(١) أحمد بو شرب، «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين» مرجع سابق، ص١٢٥.

(٢) نونو. بي. سلفا، مرجع سابق، ص١٢٨، لم أعثر لهذا الاسم (Lucat) على تفسير في الأسماء العربية، ولربما اللفظ البرتغالي للاسم جاء خطأ وذلك لصعوبة نطق وكتابة العربية عند معظم البرتغاليين آنذاك.

قوات هرمز التي لا تزيد على ثلاثة آلاف وأربعمائة جندي، وقد تاه بعضها في البحر إثر العاصفة التي ذكرتها المصادر، حتى أن كوريا نفسه لم يكن معه سوى مائة وسبعين جندياً. كما تذكر المصادر البرتغالية نفسها بأنّ المدافعين عن الجزيرة بلغوا حوالي إثنى عشر ألف جندي محصنين خلف أسوار القلعة، وهناك مدينة محاطة بالاستحكامات، وأن المعركة حدثت في (هجير الصيف) كما وُصفت، وهذا يعني أن هذه الأجواء المناخية قد اعتاد عليها جنود الجبور ولم يألفها الغزاة الأوروبيون، فما هو السر إذن في ذلك؟؟ لابد أن هناك حلقات مفقودة في تاريخ ذاك الغزو وأحداث المعركة، تعمد - كما يبدو - البرتغاليون عدم ذكرها للأسباب التي قدمنا لها قبل بدء الهجوم. ولذا لابد من قراءة ظروف معركة احتلال البحرين مرة أخرى كما وقفنا عند قراءة ظروف غزو هرمز لأول مرة عام ١٥٠٧م، ومن هنا فعندما نضع معركة احتلال البحرين على طاولة البحث، يمكن تحديد بعض النقاط للنقاش:

١) معظم المصادر التي تعرضت للغزو البرتغالي للبحرين، برتغالية، وقد كتبت في وصف المعركة من وجهة نظر الجيش البرتغالي بطبيعة الحال وليس من جانب حيادي، وحتى الوثائق التي أخذت عمّن حضر الموقعة تمثل أيضاً وجهة النظر البرتغالية.

٢) من الوارد أن يبالغ البرتغاليون في زيادة حجم القوات المدافعة عن البحرين وأن يبالغوا في تصغير حجم قواتهم بهدف التباهي أمام حكومتهم وشعبهم وأمام القوى الأوروبية بأنهم إنما انتصروا على قوات تفوقهم عدداً بمرات كثيرة،

٣) تذكر هذه المصادر أن أنطونيو كوريا عندما وجد أن حجم القوات المدافعة كبيراً، اضطر للانتظار ثلاثة أيام أو ستة أمام الشاطىء حتى

يصله المدد من هرمز. ثم تتغافل تلك المصادر ذكر أي شيء عن هذا المدد، وعن حجم القوات التي وصلت معه. وهل هذا المدد كان يشمل قوات هرمز الثلاثة آلاف مع سفنهم المائتين أم أن هذه القوات كانت موجودة معه وأن المدد كان شيئاً آخر وخصوصاً إذا قارنا بين تاريخ انطلاق أنطونيو إلى جزر البحرين كما تذكر تلك المصادر (١٥ يوليو ١٥٢١م) وتاريخ بدء الهجوم المباشر (٢٧يوليو ١٥٢١م) أي بعد حوالي أسبوعين تقريباً.

٤) تذكر المصادر البرتغاليةأن أنطونيو كوريا كان يحمل العلم ويتنقل بين قواته يحثهم على القتال ويطلب منهم اقتحام المدينة لقتل المسلمين، ونحن نعلم بأن القائد العسكري لا يترك موقع قيادته ويتحرك وسط الجند ويلجأ إلى إثارة الحماس الوطني (باستخدام العلم) والديني (بطلبه قتل المسلمين) إلاّ إذا كانت المعركة بالغة الضراوة والعنف، وأن أولئك الجنود كانوا يمرون بفترة تخاذل وإنهزام وتدهور في معنوياتهم كما يذكر (Sousa)(١).

٥) تذكر هذه المصادر أن السلطان مقرن أصيب في ساقه وأنه مات بعد ثلاثة أو ستة أيام، وهو أمر يدعو للتحوط، فإصابة الساق لا تقتل بهذه السهولة، وخاصة إذا أصيب بها قائد متمرس وخبير كمقرن، ولذا فيبدو أنه أصيب بطلقة مدفع في ساقه فبترت، أو أنه قتل برصاصة في رأسه كما تذكر بعض تلك المصادر، فالذي كتب تلك الأنباء كان برتغالياً وأخذها عن لسان من حضر المعركة لكن تم تسجيلها بعد فترة طويلة، ولم يكن في معسكر مقرن الجبري ليعرف كيف مات بالضبط!!

---

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 258.

٦) لم تذكر المصادر البرتغالية شيئاً عن السفن السبع بمدافعها الضخمة ولا عن نوع السلاح الذي زود به مقاتلوها البرتغاليون وهو البنادق، خاصة وأن هذا النوع من السلاح كان هو الوسيلة العسكرية الحاسمة في معارك كان سلاحها الرئيسي السهام والسيوف.

٧) أيضاً لم تذكر الوثائق أو المصادر شيئاً عن أسطول مقرن الجبري الذي بدأ ببنائه في بداية الهجوم الأول ١٥٢٠م، كما يبدو أو بعد عودته من الحجان، ولا عن دور هذا الأسطول في المعركة، فهل سبق النزول البرتغالي إلى البر البحريني معركة بحرية أو مناوشات دمر خلالها الأسطول واضطر مقرن بعدها للتراجع إلى البر والدفاع من وراء الاستحكامات وأسوار القلعة، خاصة وأن سبع سفن برتغالية مزودة ضخمة بمدافع ضخمة قادرة على تحطيم أسطول يتكون من مراكب صغير كان قد تم إعداده على عجل، أو كما يقول - فروغي في كتابه جزر البحرين - حدثت عملية (كوماندوز) فدائية برتغالية سريعة سببت تدمير الأسطول البحريني قبل أن يحارب، ولكنه يعود فيقول: إن ذاك الأسطول لم يدمر كله لأن بعض سفنه استطاعت الإفلات من التدمير كلية[1].

يدعونا إلى هذه التساؤلات حول الأسطول البحريني خاصة أن سكان جزر البحرين اعتادوا على ركوب البحر، فمن المنطقي أن يبدأوا حربهم في البحر ما دام معهم أسطولهم، فماذا حدث إذن؟ هل وقعت خيانة ما وسط تلك الأحداث، لاسيما وأن هناك اسم يبرز في الوثائق البرتغالية مدموغاً بالخيانة وهو الشيخ «الكابتن إسماعيل»، الذي أرسل هدايا للبرتغاليين وبعض الخيول والذهب من الأحساء[2].

---

(١) - Abbas Faroughy, Op. Cit, P26.

(٢) أبا حسين، «صفحات من تاريخ البحرين»، مرجع سابق، ص٣٨.

كل تلك حلقات مفقودة – للأسف – قد يؤدي الكشف عن تفاصيلها إلى إعطاء صورة كاملة عن تفاصيل المعركة أو المعارك الفاصلة في تاريخ غزو البرتغاليين للبحرين عام ١٥٢١م.

خلاصة الأمر أن المعركة انتهت لصالح القوات الغازية، وقد منح ملك البرتغال (يوحنا الثالث) وسام النصر (لأنطونيو كوريا) وسمح له أن يلبس الوسام على ذراعه وأرسل رأس البطل مقرن الجبري إلى هرمز[١]، كما سمح ملك البرتغال بأمر أصدره – لأنطونيو بإضافة اسم البحرين وكانت تسمى (BAHAREM) إلى اسمه تكريماً له، ونقش صورة رأس السلطان مقرن الجبري على درع هذا القائد البرتغالي، بالإضافة لنقش أنباء المعركة والانتصار على مسلة من الحجر. وتم بعد ذلك الوقت العمل في تشييد قلعة (برتغالية) في موقع القلعة الإسلامية التي تحصّن خلفها مقرن وجنوده وبنفس حجارتها. ونعتقد أن أسباب هزيمة الجبور تكمن فيما يلي:[٢]).

لقد شهدت البحرين في حربها ضد البرتغاليين معركة أو معارك ضارية كان فيها مقرن بطل هذه المعارك، ولكن كان من أسباب هزيمة جيش الجبور فيها:

١) الدور الذي قامت به المدفعية البرتغالية التي أخذت تدك أسوار القلعة حتى فتحت فيها ثغرات، كما يبدو، فقد على أثرها جيش مقرن جانباً مهما من جوانب دفاعه. وخير دليل على ذلك ما ورد مدوناً على حجر من جبل في جزيرة (جده) البحرينية عام ٩٦٨هـ، حُفر عليه خط يفيد

(١) عبد الهادي التازي، «وثيقة لم تنشر عن البحرين»، الوثيقة، العدد ٤، السنة ٢، (البحرين، ١٩٨٤م)، ص٦٦.

(٢) نفس المرجع، ص٦٩.

بأنه «قد تم قطع ماية ألف صخرة لتجديد بروج قلعة البحرين أيام الوزير الأعظم جلال الدين بن مراد شاه[1]. فكم كان التدمير عظيماً وفادحاً في القلعة بحيث احتاج إصلاحه لمثل هذا العدد الكبير من الحجارة. أضف إلى ذلك صعوبة الحركة والمناورة لدى جيش مقرن في جزيرة صغيرة ومكشوفة كالبحرين لا تساعد التضاريس فيها على التحصن خلف ظواهر طبيعية (جبال، كهوف، غابات) ومواصلة المقاومة وإعادة تنظيم الجيش من جديد.

٢) تفوق البحرية البرتغالية بعدد السفن وإتفاقهم مع ملك هرمز بإمدادهم بقطع سفن إضافية كلما احتاجوا إليها أثناء الغزو، وإستعانتهم بأدلاء ومرشدين من الهرامزة الذين لديهم خبرة بمسالك جزر البحرين وممراتها وطبيعتها وربما تحصيناتها أيضاً.

٣) استغلال فرصة غياب السلطان مقرن في موسم الحج (٩٢٩هـ ١٥٢١م) لتوجيه الضربة الأولي ضد البحرين واختبار قدرتها الدفاعية وإحداث نوع من الإرباك لخطط مقرن الحربية والتي كانت ما تزال في طور الإعداد آنذاك قبل الغزو الرئيسي.

٤) عدم خبرة جنود مقرن وكبار قادته - رغم شجاعتهم - بأية حروب سابقة ضد الأوروبيين التي تختلف عن الحروب القبلية بالطبع. وتعتمد حروب الأوروبيين على أسس الحرب الحديثة آنذاك (بنادق ومدفعية) وجيش نظامي مدرب وجنود يرتدون دروعاً واقية[2]، لقد مثلت هذه الحرب نهاية مرحلة في العسكرية القديمة وبداية مرحلة في العسكرية الحديثة.

---

(١) أبا حسين «الجبور عرب البحرين أو عربان الشرق»، مرجع سابق، ص٩٦ .

(٢) أحمد العناني، «البرتغاليون في البحرين وحولها في القرنين السادس عشر والسابع عشر»، الوثيقة، العدد ٤، السنة ٢، (البحرين، ٤٨٩١)، ص٩٧.

٥) جرح السلطان مقرن وخروجه من ميدان المعركة مبكراً كان له وقع الصاعقة على رجاله وروحهم المعنوية لارتباطهم بزعيمهم – بسبب التكوين القبلي – روحياً وفكرياً وعاطفياً، مما جعلهم يخسرون معركتهم، وذلك بإنسحاب الشيخ حميد ببقية القوات إلى القطيف.

٦) عدم وجود العمق البشري لقوة الجبور في البحرين كي تلجأ إليه وقت الحاجة لإضافة قوات ومدد جديد للصمود والمواصلة كما كان يحدث في معارك الأحساء ونجد الداخلية. يضاف إلى ذلك استشهاد قادة جيش مقرن في بداية المعركة على يد رماة السهام الهرامزة مما أفقد الجيش القدرة على التحرك بخطة واضحة في الميدان، ولم يبقَ مع مقرن من قادته سوى الشيخ حميد.

كل تلك الأسباب وغيرها ساعدت على هزيمة السلطان مقرن بن زامل الجبري في المعركة، وانسحاب جيش الجبور من البحرين ووقوعها تحت الحماية البرتغالية.

أثر الغزو البرتغالي على تفكك إمارة الجبور في البحرين وشرق الجزيرة العربية

كان لهزيمة الجبور على يد البرتغاليين ومقتل آخر زعمائهم الأقوياء (مقرن بن زامل الجبري)، أثر كبير في ضعف الدولة وتدهورها. فقد ترك استشهاد مقرن فراغاً سياسياً كبيراً في إمارة الجبور عجز الأمراء المتنافسون الذين جاءوا بعده عن ملئه، ولذا ظهر عقب هذه الفترة في صفوف الجبور – كما يذكر الحميدان[1] – محوران متنافسان كانا السبب في انهيار الإمارة كلية، هما:

(١) الحميدان، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية»، مرجع سابق، ٨٣ .

١) محور تتركز زعامته في الأحساء في أولاد أجود بن زامل وأحفاده.

٢) محور تتركز زعامته في عمان الشمالي في واحات توام (البريمي) في أولاد هلال بن زامل بن حسين الجبري وأحفاده، وهلال هذا هو أخو أجود بن زامل حاكم البحرين ونجد في الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي[١].

أضف إلى ذلك أن أحد أسباب الإنهيار، بالإضافة لهذا التناحر الأسري، هو جمود النشاط الاقتصادي وكساد الفعاليات التجارية الذي ساد إمارة الجبور بعد هيمنة النفوذ البرتغالي في الخليج وانتزاع البحرين وثروتها من أصحاب الإمارة، مما أدى إلى سرعة إنحلالهم وسقوط الإمارة في البحرين والقطيف.

وقد حكم بعد السلطان مقرن عمه (علي بن أجود) الذي كان له نفوذ على الأحساء ونواحيها فقط، وهي المناطق التي انحسر إليها نفوذ الجبور بعد الهزيمة. وقد حكم علي هذا لأشهر فقط، ثم اغتصب الحكم منه ابن أخيه ناصر بن محمد بن أجود، فحكم حوالي ثلاث سنوات تميزت بالضعف والفوضى كما يبدو، لدرجة أنه اضطر لبيع الإمارة إلى المدعو قطن بن علي بن هلال بن زامل مقابل مبلغ من المال[٢].

وبتولي قطن بن هلال لإمارة الجبور تكون السلطة قد خرجت من بيت السلطان أجود بن زامل لتنتقل إلى بيت أخيه هلال بن زامل[٣]، وهم الذين

(١) الحميدان، «نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية (١٥٢٥م – ١٨٧١م)»، مجلة كلية الآداب جامعة البصرة، العدد ١٧، السنة ١٥، (١٩٨١م) ص ٢١٢.

(٢) محمد عبد القادر الأحسائي، تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، (الرياض، ١٩٨٢)، الجزء الأول، ص١٢١.

(٣) يطلق عليهم المؤرخون العمانيون في بعض الأحيان اسم (بني هلال)، وتغلب عليهم حالة البداوة وعدم الاستقرار.

تركز نفوذهم في عمان الشمالي. وبعد فترة حكم لم تتجاوز سبعة أشهر، اضطر قطن للتنازل عنها لعمه غصيب (قضيب بن زامل بن هلال بن زامل الجبري)(١).

لا نريد تتبع أسماء بقية الأسرة وحكامها الضعاف، إلاّ أنه لابد أن نشير إلى أن تلك الفوضى السياسية والاقتصادية التي أخذت تتخبط فيها إمارة الجبور بعد استشهاد مقرن مباشرة، وبعد انتقال السلطة إلى بيت الهلاليين، دفعت على ما يبدو ببعض الزعماء في الأحساء والقطيف من بيت السلطان أجود بن زامل إلى البحث عن زعيم قوي ينتشل البلاد من حالة الفوضى والتدهور، فاتجهت أنظارهم غالباً إلى الشمال ناحية (البصرة) حيث كان الشيخ راشد بن مغامس بن صقر من آل فضل، زعيم عشائر المنتفق القوية(٢). وكان هذا الشيخ قد نجح في انتزاع البصرة وكوّن فيها إمارة مستقلة تتمتع بقوة ذاتية بعيداً عن الصفويين.

ورأى الشيخ راشد أن الظروف مواتية جداً آنذاك لتحقيق طموحه في توسيع إمارته وضم بلاد البحرين، خصوصاً بعد أن طلب منه بعض الجبور فعلاً مساعدتهم في ضبط الأمن والنظام في إمارتهم. وهذا ما سبب نهاية إمارة الجبور في شرق شبه الجزيرة العربية، حيث يذكر لنا ذلك صاحب (تحفة المستفيد) حين يقول «كانت ولاية ابن مغامس على الشرق عام إحدى وثلاثين وتسعمائة للهجرة، فاستقل بالبصرة إلى أن استعان به بنو جبر لضعف حالهم، فقوى عليهم وأخذ منهم الحساء والقطيف وأعمالها، وذلك لما استولى الأعداء الأفرنج المخذولون على

---

(١) محمد عبد القادر الأحسائي، مرجع سابق، ج١، ص١٢١ .

(٢) لابد أن الشيخ راشد زعيم المنتفق كان يراقب ما يحدث في بلاد البحرين نظراً لعلاقة ذلك بأمن إمارته وبمصالحها الاقتصادية، وخاصة بأمن قافلة الحج الكبيرة التي كانت تنطلق من البصرة مارة بأطراف بادية بلاد البحرين.

بلادهم وقتلوا سلطانهم الشيخ مقرن بن زامل بن حسين بن ناصر الجبري في سنة سبع وعشرين وتسعمائة»[1]. ويصادف عام ٩٣١هـ بين عامي ١٥٢٤ – ١٥٢٥م. وبذلك نستطيع اعتماد هذا التاريخ كزمن محدد لزوال إمارة الجبور من البحرين والقطيف كسلطة سياسية، وحلول إمارة «آل فضل» محلها. وأصبح الشيخ راشد يلقب بعد ذلك بلقب (سلطان البصرة والحساء والقطيف)، وظل يحمل هذا اللقب لمدة عشرين عاماً. وبما أن النفوذ العثماني قد بدأ ينتشر تدريجياً في شبه الجزيرة العربية منذ عهد السلطان العثماني (سليمان القانوني) بعد عام ١٥٣٤م عندما ضم بغداد وطرد الصفويين نهائياً منها، فقد اضطر ابن مغامس أن يسلم الأحساء إلى الأتراك العثمانيين في حدود عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥١م، حيث ولى عليها الأتراك (محمد باشا) الملقب بـ(فروخ) ثم علي بن أحمد بن لاوند البريكي[2]، وبذلك دخل العثمانيون بشكل مباشر في الصراع الدائر في شبه الجزيرة والخليج وخصوصاً ضد البرتغاليين منذ ذلك التاريخ.

أما تاريخ الجبور في قسمه الآخر ونعني به الكتلة الثانية من ذرية هلال بن زمل في عمان الداخل، فبعد انهيار كتلة الجبور في الأحساء نهائياً وتفرق كلمتها، غاصت الكتلة الثانية أيضاً في صراعات القبائل العمانية وتحالفاتها المتباينة المتقلبة بين حين وآخر، بين القبائل الغافرية والهناوية والإمامة الأباضية، ولذا فعندما قام رجل عمان القوي ناصر بن مرشد اليعربي الذي بويع إماماً في ١٦٢٤ – ١٦٢٥م، بمسئولية توحيد عمان والقضاء على مصادر الاضطراب، كان لابد من أن يصطدم بالجبور. وقد بدأ بشن حرب طويلة وقاسية ضدهم بعد تثبيت نفوذه في الداخل العماني، ولم تكن تلك الحرب ضد معاقل الجبور من

(١) محمد عبد القادر الأحسائي، مرجع سابق، ج١، ص١٢١ .
(٢) أبا حسين، «الجبور عرب البحرين أو عربان الشرق»، مرجع سابق، ص٩٨ .

الأمور الهينة، نظراً لشدة بأسهم وكثرة أتباعهم في الداخل من بدو وحضر[1].

وخلاصة القول أن الجبور قد اضمحل أمرهم كقوة سياسية في المنطقة وصار شأنهم شأن بقية القبائل العمانية الكثيرة التي لا تأثير لها في الحياة السياسية في الخليج وبذلك انطوت صفحة قبائل جبور بني عامر، الذين كانوا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر أكبر قوة سياسية على امتداد شرق الجزيرة العربية..

(١) الحميدان، «نفوذ الجبور في شرق الجزيرة بعد زوال سلطتهم السياسية»، مرجع سابق، ص ص ٢١٤ - ٢١٧.

الفصل السادس

المشروعات البرتغالية لغزو الجنوب العربي والبحر الأحمر والمقاومة العربية الإسلامية لها

- أهمية البحر الأحمر الدينية والاقتصادية.
- أهمية عدن التجارية والاستراتيجية وفشل المحاولات البرتغالية في السيطرة عليها.
- مقاومة بني طاهر والمماليك للغزو البرتغالي للجنوب العربي والبحر الأحمر

المشروعات البرتغالية لغزو الجنوب العربي والبحر الأحمر والمقاومة العربية الإسلامية لها

أهمية البحر الأحمر الدينية والاقتصادية

منذ أقدم العصور والبحر الأحمر يعتبر شرياناً حيوياً للمواصلات ووسيلة للتبادل التجاري والحضاري الثقافي والتأثير الديني، بين البلدان المحيطة به من جانب وبينها وبين البلدان الأخرى من جانب آخر، وكان ذلك سبباً في إزدهار الدول والممالك الواقعة على سواحله. ومع إتساع آفاق التبادل التجاري خارج النطاق المحيط به وبخاصة بين الشرق والغرب عبر قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا، فإنّ أهمية هذا البحر إزدادت وبالتالي تطلعت العديد من الدول التجارية للسيطرة عليه باعتباره يمثل طريقاً حيوياً لنشاطها التجاري وعصب اقتصادها. وكان البحر الأحمر في فترة من الفترات يتناوب المنافسة مع الخليج العربي لكونه شرياناً رئيسياً مهماً لربط التجارة الشرقية بالغرب الأوروبي أو العكس عبر مصر واليمن(١).

وقد عرف هذا البحر في التاريخ بأسماء شتى منها (البحر الفرعوني، البحر الحبشي، بحر القلزم)(٢)، وقد سمّاه اليونانيون «البحر الأحمر Eritreae» والتصقت به هذه التسمية حتى الآن. ويبلغ طول البحر الأحمر من الشمال (رأس محمد) إلى الجنوب (باب المندب) ما يقارب ألف ومائتي ميل، وعرضه في أكبر إتساع له حوالي مائتين وخمسون ميلاً، وأقل إتساع عند باب المندب يبلغ من ١٥ – ٢٠ ميلاً، وتتولى جزيرة

(١) السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي (الاسكندرية، ١٩٣٣م) ص٨١.
(٢) ياقوت الحموي، مصدر سابق، مج٧، ص١٤٥.

«بريــــم»(١) الصخرية تقسيم باب المندب إلى ممرين مائيين(٢).

وقد واجه البحر الأحمر منذ القدم فقراً شديداً في موارد المياه العذبة على طول سواحله، بالإضافة إلى أن مياهه تُعدّ أكثر ملوحة من مياه المحيط الهندي، وهذا مما جعل سواحل هذا البحر شبه صحراوية ومقفرة تفتقر إلى عوامل الاستقرار البشري(٣).

وقد تميز البحر الأحمر أيضاً منذ أقدم العصور بصعوبة الملاحة فيه، حيث تكثر الشعاب الساحلية والحواجز المرجانية بشكل يعيق الإبحار فيه بسهولة حتى في وضح النهار كما يذكر الحموي(٤). وهذا ما جعل معظم الحملات البرتغالية التي حاولت السيطرة على البحر الأحمر وسواحله بدءاً من حملة البو كيرك عام ١٥١٣م وما تلاها تبوء بالفشل، وذلك لصعوبة إرتياد هذا البحر لمن لا يعرف أسراره وحركة رياحه ومسالكه وشعابه المرجانية(٥). ولولا تجارة الهند واليمن وشرق أفريقيا وأهميتها للغرب الأوروبي وللدول الواقعة على البحر الأحمر، وكذلك لولا الأمن الذي كان يتمتع به طريق البحر تحت القوى الإسلامية أكثر من الطرق البرية على جانبيه آنذاك، لما استخدمه التجار ولما صار ممراً ملاحياً مهماً(٦).

وجاء ثراء موانىء البحر الأحمر المعروفة مثل عدن وجدة وعيذاب

---

(١) بريم: تتكون هذه الجزيرة من تشكيلات صخرية بركانية، طولها ميل ونصف الميل وعرضها نصف ميل، تبعد عن عدن بحوالي ١٠٠ متر وعن جزيرة كمران بحوالي ٢٠٠ متر، أنظر: حمزه لقمان، تاريخ الجزر اليمنية (بيروت، ١٩٧٢) ص١١.

(٢) فاروق عثمان أباظة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٨٣٩ – ١٩١٨م)، (القاهرة، ١٩٨٧) ص١٨.

(٣) عبد المنعم عبد الحليم سيد، البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة (الاسكندرية، ١٩٣٣) ص٨.

(٤) ياقوت الحموي، مصدر سابق، مج ٧، ص١٤٦.

(٥) يوسف فضل حسن، «الصراع حول البحر الأحمر منذ أقدم العصور حتى القرن ١٨هـ»، مجلة الدارة، العدد ٣، السنة ٨ (الرياض، ١٩٨٣) ص١٠٥، وتمتد الشعاب الساحلية والحواجز المرجانية لمسافة ١٣٦٠ كم تقريباً على جانبي البحر الأحمر شرقاً وغرباً.

(٦) عاطف السيد، البحر الأحمر والعالم المعاصر (القاهرة، ١٩٨٣م) ص ص ١٣، ١٤.

والقلزم والسويس وغيرها، بسبب التجارة بشكل أساسي مع الهند والشرق الأقصى[1].

وقد ساعد على تواصل تلك التجارة والعلاقات الاقتصادية بين هذه الموانىء وتلك المناطق، طبيعة الرياح المساعدة على التجارة بين المحيط الهندي والبحر الأحمر، وإعتدالها موسمياً في المحيط ومعرفة مواقيتها وتنظيم رحلات السفن الشراعية الموسمية على أساس تلك المعرفة الملاحية بالرياح. ومن هنا تعددت وتنوعت السلع التجارية في موانىء البحر الأحمر، فهناك البخور واللبان اليمني، واللؤلؤ من الخليج العربي، والأنسجة والسيوف والتوابل من الهند، والحرير من الصين، والقرود والعاج وريش النعام والذهب من الحبشة وشرق أفريقيا وغيرها. وعليه يمكن القول بأن الرخاء الذي عاشته بلاد اليمن بالذات كان وليد النجاح لدوله في السيطرة على مرافق وطرق التجارة واحتكارها في جهات البحر الأحمر. كما كانت حالة تلك الدول المتاخمة للبحر الأحمر تسوء – كما سنرى – حين تفقد السيطرة على طرق التجارة هذه[2].

وكما هي الأهمية الاقتصادية لهذا البحر، فكذلك الأهمية الدينية التي تنبع أساساً من ذلك الصراع الديني الاقتصادي الذي خيم على سواحل هذا البحر حيناً من الزمن بين الفرس الساسانيين والبيزنطيين قبل وبعد ظهور النصرانية، وكذلك الصراع الديني العقائدي بين الديانتين اليهودية والنصرانية والتي تجلت بشكل واضح في حادثة اضطهاد «ذي نواس» الحميري لنصارى نجران وإحراقهم في حادثة الأخدود الشهيرة[3].

وظهر الإسلام خاتم الديانات السماوية في الحجاز على الساحل

(١) عبد المنعم سيد، مرجع سابق، ص٨؛ فاروق أباظة، مرجع سابق، ٢٢.

(٢) فيليب حتي، ادورد جرجي، وجبرائيل جبور، تاريخ العرب (مطول)، جزءان، (بيروت، ١٩٢٥) الجزء الأول، ص٦٣.

(٣) القرآن الكريم، سورة البروج، آية «٩».

الشرقي للبحر الأحمر، ليضيف ميزة أخرى لهذا البحر بعد قيام الدولة العربية الإسلامية. فقد أصبح العرب يتحكمون من جديد في تجارة البحر الأحمر بعد أن تركوها للرومان والأحباش فترة من الزمن. وزادت هذه الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية إثر هجرة العرب المسلمين إلى الحبشة منذ عهد الرسول الكريم (ﷺ)[1].

وتوالت الهجرات العربية الإسلامية للساحل الأفريقي من البحر بعد ذلك وارتبط المهاجرون مع الشعوب الأفريقية بالمصاهرة، فغدا انتشار الدين الإسلامي حتمياً بالإضافة لوجود التجار المسلمين وطرق التجارة داخل القارة خصوصاً حول الهضبة الأثيوبية، حيث قامت الممالك الإسلامية تدريجياً بواسطة الإسرات المهاجرة. وأحاطت المستوطنات الإسلامية بالهضبة الأثيوبية النصرانية من الجهات الشرقية على شكل حلقات دائرية، أطلق عليها الأقدمون اسم «دول الطراز الإسلامي»[2] بسبب وجودها على جوانب الهضبة بينها وبين سواحل البحر الأحمر الغربية كالطراز، كما سميت أيضاً «بلاد الزيلع»، وصارت مدناً وممالك تجارية من الدرجة الأولى.

وقد اهتمت الدول الإسلامية بعد ذلك بتجارة البحر الأحمر باعتبارها التي أصبحت تشكل عصب شريانها الاقتصادي، ونقصد بذلك تلك الدول التي قامت على شواطىء هذا البحر، كالدولة الفاطمية في مصر والشام والتي أولت رعايتها لموانىء ومدن هذا البحر حيث ربطت ما بين النيل والبحر الأحمر بشبكة من الطرق التجارية المهمة مثل:

---

(١) إبراهيم علي طرخان، «الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية، (القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥٩م) المجلد ٨ ص ص ١٦، ١٧، وكانت أول هجرة في السنة الخامسة للهجرة.

(٢) جمال زكريا قاسم، «الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوروبي في القرن الخامس عشر»، مرجع سابق ص ص، ٢٨ – ٢٩.

- طريق قوص – القصير.
- طريق قوص – عيذاب[1].
- طريق أسوان – عيذاب.

ووضع الفاطميون تنظيمات تجارية مهمة جعلت البحر الأحمر يستعيد مكانته الاقتصادية الحيوية كأهم طرق تجارة الشرق إلى أوروبا. وكذلك فعل الأيوبيون منذ عام ١١٧٤ وأقاموا أول وحدة سياسية اقتصادية للبحر الأحمر استمرت حتى عام ١٢٢٦، وساهمت في إنقاذ الأماكن المقدسة في الحجاز من مطامع الصليبيين الذين هاجموها عام ٥٧٨هـ (١١٨١م) بواسطة حملة أمير حصن الكرك بالشام[2]. وقد جعل هذا الأمر صلاح الدين يغلق البحر الأحمر في وجه التجارة الأجنبية بعد تلك الحادثة ويعتبره بحيرة إسلامية فقط. وسارت على نفس النهج دولة المماليك من بعده واحتكرت تجارة البحر الأحمر بين الشرق وأوروبا خصوصاً في عهد السلطان المملوكي الجركسي (برسباي) منذ عام ١٤٢٥م، حيث بدأ بتطبيق نظام الاحتكار للسلع الشرقية أو ما يشبه تأميم الدولة للتجارة الحرة. صار السلطان هو التاجر الأول في الدولة في عمليتي البيع والشراء، وصار «المتجر السلطاني» أحد الأجهزة الرئيسية في الدولة، وبلغت نسبة مكسب السلطان، بعد بيع الفلفل مثلاً، إلى التجار

---

(١) عيذاب: مدينة قبائل «البجاء» الأفريقية، إحدى موانيء البحر الأحمر، كانت مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، كذلك مراكب الحجاج التي تخرج إلى الحجاز، وهي في صحراء لا نبات بها ولا شيء يؤكل فيها إلا من خارجها، ويذكر ابن جبير الذي زارها عام ١١٨٢م أن أكثر ما شاهده فيها أحمال الفلفل الذي يوازي التراب في قميته لكثرته، ويكثر في بحرها مغاصات اللؤلؤ. أنظر رحلة ابن جبير، (دار بيروت ودار صادر، ١٩٥٩م) ص ص ٤٣ – ٤٩.

(٢) حول حملة أرناط صاحب حصن الكرك وتفاصيلها وتشابه خطورتها على البحر الأحمر والمقدسات الإسلامية مع حملة البو كيرك عام ١٥١٦؛ أنظر، المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، (القاهرة، ١٩٥٦) الجزء الأول، القسم الأول، ص ص ٧٥ – ٧٩؛ رحلة ابن جبير مصدر سابق، ص ص ٣٤، ٣٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، مج ١٠، حوادث عام ٥٧٨م. ص ص ١١٧، ١١٨.

الأجانب في القاهرة والاسكندرية مائة وأربعين بالمئة، وتم سن قانون يحرم فيه على جميع التجار شراء التوابل الهندية من غير المتجر السلطاني حسب مرسوم عام ٨٣٢هـ (١٤٢٨م)[١].

وقد تأثرت بتلك الإجراءات والقوانين أهم طبقة تجارية رأسمالية كان لها دور كبير في دعم اقتصاديات الدول الإسلامية في البحر الأحمر وتوسيع نطاق تجارتها، ألا وهي طبقة تجار «الكاريم أو الكانم»[٢] التي اكتسب اسمها شهرة حتى صارت التسمية تطلق على التجارة الشرقية وتجارها في البحر الأحمر منذ عهد الدولة الفاطمية.

وأجبرت تنظيمات المماليك الاقتصادية كل تجار الكاريم وتجار البندقية على شراء البضائع التي تبيعها مصر المملوكية بسعر مرتفع، فارتفعت أسعار التوابل وبقية السلع الشرقية بشكل حاد في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي[٣]، مما جعل تجار الكاريمي وتجار البندقية وأرغون وقشتالة يحتجون أكثر من مرة لدى السلطات المملوكية، كما هددت البندقية بقطع علاقاتها التجارية مع مصر[٤].

ومن هذا المنطلق أيضاً وبعد أن رأى المماليك الثروة تنهال عليهم من تجارة أفريقية الشرقية عبر مصر إلى أوروبا، حرصوا على أن يبقى سر

---

(١) ابن إياس، مصدر سابق، ج٢، ص١١١، حوادث عامي ٨٢٩هـ - ٨٣٠هـ.

(٢) الكانم والكارمية: اشتقت التسمية من منطقة بالسودان الغربي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، ثم صارت تطلق على المشتغلين بتجارة البهار، وهناك رأي يرجح أنها مقتبسة من لفظة كاراريما (Kararima) الأمهرية وتعني حب الهال، وقد صُحف هذا الاسم مع الأيام فصار (كاريمي) وتعني الأعمال المرتبطة بالبحر في ساحل الهند الغربي وتجارته. أنظر لبيب صبحي «التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٤، العدد ٢ (القاهرة، ١٩٢٥م) ص٧٠٦؛ ت نياني، مرجع سابق، مج٧، ص٦٥٢.

(٣) محمد أمين صالح «تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة»، مجلة الدارة، العدد ٢، السنة ٦، (الرياض، ١٩٨١م) ص١٣٢؛ عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ص ١٠٠، ١٠٥.

(٤) إبراهيم طرخان، «الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى»، مرجع سابق، ص ص، ٢٨٨، ٢٨٩.

هذه التجارة المربحة جداً وقفاً عليهم وحدهم كما ذُكر. كذلك سعى المماليك لكسب ود ملوك اليمن منذ عام ٦٥٨هـ، والسيطرة على الحجاز منذ عام ٦٦٧هـ[١]، والتحالف مع إمارات الطراز الإسلامي السبع على الساحل الجنوبي الغربي للبحر الأحمر لحماية سواحل البحر وطريق التجارة البحرية الهندية[٢].

ولكن – للأسف – فإن إجراءات برسباي ومن جاء بعده من حكام المماليك الجراكسة حتى سقوط الدولة عام ١٥١٧م، قضت على أهم طبقة اقتصادية في البحر الأحمر وهي «تجار الكارمية»، في وقت كانت فيه الدولة في أشد الحاجة لهذه الطبقة التي شكلت القطاع الخاص آنذاك. كانت تلك الطبقة تساعد الدولة دائماً وتنقذها في ظروف حالكة وتغنيها من أن تمد يدها للآخرين خارج حدودها في حالة مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية، أما في الدول الأوروبية الناهضة آنذاك على أكتاف الطبقة البرجوازية التي تحولت من برجوازية المدن إلى الرأسمالية الصناعية الكبرى في العصر الحديث فقد قامت تلك الرأسمالية الأوروبية وبيوتاتها الكبرى بالوقوف وراء حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية والإسبانية وغيرها، وشجعتها لتمضي قدماً لصالح الصناعة الرأسمالية، بل ساهمت بأموالها في بناء العديد من أحواض السفن وتجهيزها بالرجال والعتاد في كل من إسبانيا والبرتغال. وهكذا كان في وسع طبقة تجار الكاريم الإسلامية إذا تم تشجيعها، بدلاً من سيطرة الدولة على القطاع التجاري بعد تدهور القطاعين الزراعي والصناعي بسبب الاهمال وثورات المماليك الجلبان من جهة، واضطرابات قبائل الصعيد والنوبة من جهة أخرى، لاستطاعت هذه الطبقة أن تساعد الدولة المملوكية مادياً

(١) علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، (القاهرة، ١٩٤٤م) ص ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢) شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، مرجع سابق، ص٧٠.

ومعنوياً في الدفاع عن مصالحهما المشتركة ضد الخطر البرتغالي الاقتصادي العسكري الذي أحدق بالتجارة الشرقية وحولها عن طريق البحر الأحمر لصالح طريق رأس الرجاء الصالح. لكن قوانين (برسباي) ومن جاء بعده من المماليك الضعاف في نهاية عهد دولة الجراكسة أنهت دور طبقة تجار الكاريم في الاقتصاد المصري، وبالتالي وقفت طبقة الاقطاع العسكري - المهلهلة أساساً - وحدها في ميدان المعركة العسكرية ذات الأساس الاقتصادي ضد البرتغاليين أولاً ثم ضد العثمانيين ثانياً، فلم تقو على المواجهة الطويلة. وكانت النتيجة المحتومة هي الهزيمة على كافة المستويات وسقوط تلك الدولة نهائياً عام ١٥١٧م.

أهمية عدن التجارية والاستراتيجية وفشل المحاولات البرتغالية الأولى في السيطرة عليها

تعتبر عدن من أهم موانىء اليمن ومن أكبر المراكز التجارية الكبرى في المحيط الهندي في عصور التاريخ المختلفة قال عنها الإدريسي: «هي مرسى البحرين، البحر الأحمر والمحيط الهندي، ومنها تسافر مراكب الهند والصين، وإليها يجلب متاع الصين مثل الحديد والفرند والمسك والعود والفلفل والنارجيل والدار صيني والأبنوس والكافور والقرنفل والثياب المخملية وأنياب الفيل والرصاص والخيزران»(١). كما ذكر أبو الفداء بأنها: «بلدة حط واقلاع مراكب الهند، وهي بلدة تجارة، تبعد عن صنعاء ٦٨ فرسخاً، وهي في ذيل جبل كالسور عليها وتمامه سور إلى البحر وبها باب البر وباب البحر»(٢). أما القزويني فيضيف على ذلك «هي على ساحل بحر الهند، لا ماء بها ولا مرعى، شربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة

(١) الشريف الأدريسي، نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، (لبنان، ١٩٨٩) المجلد الأول، ص٥٤.
(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، مصدر سابق، ص٩٣.

يوم، يحمل إليها متاع السند والهند والصين والحبشة وفارس والعراق، وبها مغاص اللؤلؤ»(١). أما ابن بطوطة الذي زارها في القرن الرابع عشر فيقول عنها: «هي مدينة كبيرة، ومرسى بلاد اليمن، وبها تجار الهند ومصر أيضاً، وتجارها في ثراء واضح»(٢).

ومن الرحالة الأجانب الذين كتبوا عنها، الإيطالي فاريتما في مطلع القرن السادس عشر (١٥٠٣م) قبل غزو البرتغاليين لها بعشر سنوات فقط، حيث قال: «إن عدن أشد مدينة سهلية تحصيناً، ترتفع الجبال على جانبيها والأسوار على الجانبين الآخرين منها، تشرف عليها خمس قلاع، ويقدر عدد سكانها بخمسة أو ستة آلاف بيت، وكان الناس في عدن يشعرون بخطر البرتغاليين»(٣). وتحدث كذلك (Barbosa) عن ثراء عدن وكثرة أنواع البضائع التي ترد إليها من شتى بقاع المحيط الهندي وأفريقيا في مطلع القرن السادس عشر إبّان الدولة الطاهرية(٤).

تقع عدن في الجنوب الشرقي من مضيق باب المندب، وهي عبارة عن شبه جزيرة صخرية تتصل بالبر بأرض رملية مستطيلة الشكل وتبعد عن الساحل بنحو خمسة أميال ويفصلها عنه برزخ (خور مكسر). وتطل البلدة على تقاطع طرق التجارة العالمية مباشرة، وهذا ما جعلها، رغم قول ابن بطوطة لا زرع بها ولا شجر ولا ماء(٥)، من أهم مراكز وموانىء التجارة الرائجة بين البحر الأحمر وأوروبا وشرق أفريقيا والهند والخليج العربي. بالإضافة إلى ذلك فهي محاطة بسلسلة جبال عالية تجعل المكان كما لو كان حصناً طبيعياً. كما إن رأس عدن الداخلة في بحر العرب، عبارة عن

---

(١) زكريا بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت، ١٩٦٩) ص١٠١.
(٢) ابن بطوطة، مصدر سابق، ص١١٨.
(٣) جاكلين بيرن، اكتشاف جزيرة العرب، (بيروت، ١٩٦٣)، ص٤٨.
(٤) - The Book of D. Barbosa, Op. Cit., PP. 27, 28.
(٥) ابن بطوطة، مصدر سابق، ص١١٨.

بركان قديم يبلغ ارتفاعه حوالي ٣٣٥ متراً فوق مستوى سطح البحر ويمتد إلى داخل البحر بحيث يخلق خليجين صغيرين عميقين يشكلان بدورهما ميناءين صالحين لرسو السفن، يقع أحدهما في الشرق والآخر في الغرب. وتبلغ مساحة عدن مائتين وسبعة كيلومترات مربعة[١].

وقد وصفت الجبال المحيطة بعدن التي تحميها طبيعياً بأنها تشبه أسنان سمك القرش التي تبرز من مياه البحر. وبسبب ندرة المياه في عدن فهي تضطر لجلبها من منطقة لحج في شرق المدينة[٢].

ومدينة عدن منطقة تجارية مفتوحة أساس اقتصادها هو التجارة العالمية في المحيط الهندي والبحر الأحمر والمتوسط، وقد استوطنها عدد كبير من الأجناس. فكانت البلدة كهرمز الخليج، تضم المصريين والأحباش، الحضارمة، الزيعالة، المغاربة، الفرس، الهنود وغيرهم. ويؤكد ابن المجاور ذلك بقوله: «غالبية أهلها حبوش وبرابرة»[٣]. ويذكر أن حاكم عدن الذي صد الحملةالبرتغالية الأولى عنها عام ١٥١٣م وهو الأمير مرجان الظافري، وقد كان أساساً عبداً من مماليك السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري[٤].

ولأهمية عدن الاقتصادية فقد تم وضع عدة تنظيمات وقوانين تجارية لشئون الميناء تخص السفن القادمة من البحار العالية[٥]. وقد سميت تلك القوانين الضرائبية (بالعشور) وكانت ذات أنواع متعددة، ونعطي مثلاً واحداً فقط عليها، فقد كان «بهار»[١] الفلفل القادم من الهند إلى ميناء

(١) محمد شفيق غربال (إشراف) الموسوعة العربية الميسرة، بيروت، ١٩٨١، المجلد ٢، ص١١٩١.
(٢) فاروق أباظة، عدن والسياسة البريطانية، مرجع سابق، ص٢٥.
(٣) ابن المجاور، مصدر سابق، ج١، ص١٣٤.
(٤) عبد الرحمن بن علي الديبع، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، مخطوط، مصدر سابق، ص١٥١.
(٥) بو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، (القاهرة، ١٨٨١)، الجزء الأول، ص١٤.

عدن يؤخذ عليه عشور ثمانية دنانير ورسوم حراسة دينار، بالإضافة إلى رسوم خروجه على الفرضة (الرصيف) وتبلغ دينارين، فيصبح مجموع رسوم حمل بهار الفلفل الواحد أحد عشر ديناراً، وكان يصل إلى عدن كل عام ما بين سبعين إلى ثمانين مركباً تجارياً(٢).

ولو تعرفنا على مقدار ما تدره تجارة عدن من أرباح سنوية لأمكننا تقدير مدى أهمية التحكم فيها للدول التي تقع في الجنوب اليمني، فقد كانت تجلب تلك التجارة لحكام اليمن أربعة خزائن، يقول ابن المجاور: إنها تنقل إلى حصن تعز وهي «خزانة قدوم مراكب الهند، وخزانة دخول «الفوة»(٣) إلى عدن، وخزانة خروج الخيل من عدن إلى الهند (٤)، وخزانة سفر المراكب إلى الهند، وكل خزانة من هذه الخزائن كان مبلغها ٥٠ ألف دينار»(٥).

أي أن ستمائة ألف دينارٍ ذهباً تدخل في يد الأسر الحاكمة سنوياً في اليمن دون ضرائب التجارة البرية في عصر الرواج والاستقرار، وهذا في حد ذاته يعطينا فكرة عن مقدار النشاط التجاري الهائل في ميناء عدن، مما كان يدفع الحكام أحياناً مثل عامر بن عبد الوهاب الطاهري أنه كان يخرج بنفسه في موسم الرياح المواتية ليشرف على خروج القافلة التجارية البحرية المتوجهة إلى الهند(٦).

ولنا أن نتصور أيضاً أن كل هذا الثراء الهائل وتلك الضرائب التي تقيم

---

(١) وزن البهار: من الأوزان التجارية التي تستخدم في تجارة التوابل وأمثالها في عدن والبلاد المحيطة بالخليج العربي والمحيط الهندي، وقد اختلف في قيمته الحقيقية ما بين ٢٠٠ مَنْ، أو ٣٠٠ رطل، انظر محمد كريم إبراهيم، عدن، دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية، (جامعة البصرة، ١٩٨٥)، ص٣٤٩.

(٢) ابن المجاور، مصدر سابق، ج١، ص ص ١٤١، ١٤٢، ١٤٤.

(٣) الفوة: وهي البهارات المزروعة محلياً في اليمن.

(٤) كانت تجارة الخيول من عدن إلى الهند ذات حجم كبير وتشكل جزءاً مهماً في التجارة بين البلدين، وكانت ضريبة العشور على تصدير الخيل إلى الهند تبلغ ٧ دنانير للرأس الواحدة.

(٥) ابن المجاور، مصدر سابق، ج١، ص ص ١٤٤، ١٤٥؛ بومخرمة، مخطوط، ج١، ص٦٥.

(٦) ابن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد، مصدر سابق، ص١٨١.

أساس الدول يتدهور فجأة إما لقلاقل واضطرابات داخلية فيسبب ذلك سقوط الدولة، وإما بسبب حصار اقتصادي وتدمير السفن التجارية التي ترتاد عدن، كما حصل في فترة بدء الغزو البرتغالي للبحار الشرقية وخطة محاصرة عدن والبحر الأحمر التي جاء البو كيرك أساساً لتنفيذها، ذلك الحصار الذي أثّر على عدن وحكام الدولة الطاهرية لدرجة اضطرار السلطان عامر بن عبد الوهاب الذي كان يستلم أربع خزائن كل عام، لأن يستولي على نصف «متحصلات» الأوقاف ليستعين بها في مواجهة نقص إيراداته في حروبه ضد الزيديين مما أثار عليه سخط العلماء. ومع اشتداد الحصار المفروض على التجارة الشرقية وانخفاض ما يأتي منها إلى عدن اضطر حاكمها مرجان الظافري للاستيلاء على خراج منطقة لحج القريبة منه لسد النقص الناجم عن عجز إيراداته لمواجهة الدفاع عن مدينته ضد التهديد البرتغالي والخوف من الغزو المرتقب، ولإدارة أمور البلاد وإطعام الناس[1].

في ظل هذه الأجواء جاء الإعصار البرتغالي الأول لعدن والبحر الأحمر متمثلاً في حملة أفونسو دالبو كيرك عام ١٥١٣هـ.

محاولات البرتغاليين السيطرة على عدن في عهد البو كيرك:

يكفي للتدليل على أهمية عدن بالذات والبحر الأحمر للسياسة البرتغالية الاقتصادية والاستراتيجية في البحار الشرقية، أن نورد قول قطب الدين النهروالي عن خطورة وقوع عدن في أيدي البرتغاليين حيث قال: «إنّها إذا ما وقعت في أيدي الفرنج يصعب استردادها منهم لمعرفتهم برمي المدافع والمكاحل، وحفظ الثغور والقلاع بخلاف العرب، وأن الفرنج

---

(١) محمد عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، مرجع سابق، ص ص ٢٥٧.

الملاعين إذا تمكنوا من هذا الثغر الحصين، أضروا بالمسلمين، ومنعوا سفائن الهند من الوصول إلى بنادر الحرمين الشريفين، لأن عدن ثغر في غاية الإمتناع والتحصين»[1].

بعد العديد من المراسلات بين الملك أمانويل والبو كيرك منذ توليه منصب نيابة الهند عام ١٥٠٩م حول أهمية عدن وضرورة إحتلالها باعتبارها مفتاح البحر الأحمر وليس سوقطرة كما كان يعتقد[2]، وبعد سبع سنوات من التردد والترقب لدى البرتغاليين، قرر البوكيرك أن يعد الأسطول ويبحر بحملة عسكرية كبيرة قاصداً البحر الأحمر وذلك إثر وصول أخبار من بعض الجواسيس اليهود من القاهرة بأن السلطان قنصوه الغوري يعد حملة ثانية إلى الهند لطرد البرتغاليين منها.

وكان أسطول البو كيرك مكون من عشرين سفينة بها ألف وسبعمائة برتغالي وألف مليباري[3]، وقد تحرك في فبراير من عام ١٥١٣م تجاه عدن أولاً، وقد كان في نيته أن يحاول الاتصال بملك الحبشة النصراني أو ما كان يسميه البرتغاليون آنذاك (برسترجون)[4]، خصوصاً وأن سفارة الملكة (هيلينا) والدة الامبراطور لبنا دنجل كانت قد راسلت البوكيرك في فترة سابقة تطلب الحصول على مساعدة البرتغاليين في وقف النشاط الإسلامي والذي يمثله ملوك مملكة (عدل) الذين سيطروا على إقليم هرر وطريق التجارة بين أثيوبيا والبحر الأحمر[5].

---

(١) قطب الدين النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، مصدر سابق، ص٢٣٢.

(٢) أنظر حول هذه الرسائل، أحمد بو شرب، «مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي» مرجع سابق، ص ص ١٦٦ – ١٧٠.

(٣) هناك اختلاف في المصادر البرتغالية واليمنية المعاصرة حول عدد سفن البو كيرك، ما بين ١٧، ١٨، ٢٠ أو ٢٤ سفينة.

(٤) - Serjeant, Op. Cit., P. 16; F.G. Bell, Op. Cit., P. 115.

(٥) عبد الملك عودة (إشراف وتحرير): إرتريا، دراسة مسحية شاملة، (القاهرة، ١٩٩٦م) ص٢٩.

كان يحكم اليمن وقت وصول القوة البرتغالية الأولى السلطان عامر بن عبد الوهاب، وهو آخر سلاطين بني طاهر، أما عدن فقد كان يحكمها حينئذ الأمير مرجان الظفاري أو الظافري. وقد شاهد أهل وادي «أبين» والذي يقع إلى الشرق من عدن، طلائع الأسطول البرتغالي في البحر فهالهم المنظر وعلموا أن «الإفرنج» سيهاجمون عدن، فجهزوا زورقاً سريع الحركة، وأوفدوا فيه جماعة منهم تمكنوا من الوصول إلى عدن في منتصف الليل قبل وصول القوة البرتغالية إلى هناك. وتوجه الوفد إلى مقر الحاكم مرجان الظافري وأخبروه بأمر القوة البرتغالية، فساد الاضطراب والهلع سكان المدينة بسبب ما سمعه هؤلاء عما فعله البو كيرك في إخوتهم في منطقة الساحل من عُمان وسوقطرة قبل ذلك، فهرع ربابنة السفن الموجودة بالميناء إلى الأمير مرجان وطلبوا منه أن يسمح لهم بإفراغ حمولتهم سريعاً وترك الميناء، لكن الظافري رفض ذلك. وكانت خطته، كما يبدو، أن يبقي تلك السفن التجارية بالميناء لتشكل حاجزاً يمنع البرتغاليين من الاقتراب نحو ساحل المدينة[1]. وفي ليلة ٢٤/٣/١٥١٣م، وصلت سفن البو كيرك أمام مشارف عدن. ولاحظ البو كيرك بأن الأهالي قد أوقدوا النيران على قمم التلال والمرتفعات لتضيء المكان خوفاً من الإنزال البرتغالي ليلاً، فانتظر البو كيرك حتى الصباح[2].

علم السلطان عامر بن عبد الوهاب بنبأ وصول البرتغاليين إلى عدن وكان وقتها في مدينة زبيد فأمر بإعداد جيش لإرساله للدفاع عن ثغر كما أمر أيضاً باتخاذ الاحتياطات اللازمة لحماية سائر الموانيء الأخرى

(١) بومخرمة، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٦٧ تاريخ، عن نسخة بني جامع باستانبول، ص١١٩٤.

(٢) فالح حنظل، «الأطماع البرتغالية في المقدسات الإسلامية والمعجزة الربانية في صدهم عنها كما وردت في الوثائق البرتغالية»، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، (الإمارات العربية المتحدة - ١٩٨٧) ج١، ص ص ١٣٢، ١٣٣.

التابعة لسلطانه كما عمل أيضا على تهيئة شعبه وتعبئته وذلك من خلال المساجد وقراءة القنوت والدعاء على الغُزاة في الصلوات الجامعة وفي خطبة الجمعة[1].

وفي صباح الجمعة ١٥١٣/٣/٢٥م، انتظر البو كيرك أمام ميناء عدن ولم يقم بأية حركة عسكرية فقد ظل يراقب أسوار المدينة وتحصيناتها الطبيعية الهائلة ويفكر في كيفية اقتحامها. وكان البوكيرك قد أحضر معه بعض السلالم صنعت فيما يبدو خصيصا لهذه المهمة، وهذا يدل أنه كان على علم بأسوار المدينة وكيفية اقتحامها بعد النزول إلى البر، فوجود السلالم لم يكن صدفة طبعاً. في نفس الوقت كان الأمير مرجان يفكر في كيفية مواجهة هذه المشكلة الطارئة، وقرر أن يأخذ زمام المبادرة بشن هجوم مباغت على الأسطول البرتغالي، لكن خذله جماعة «ممن يعرف حالهم وقتالهم»، وعندها منع الناس من التعرض لهم والرمي عليهم بمدفع أو غيره كما يقول بومخرمة[2].

وعند الظهر أمر البو كيرك بعض رجاله في سفينتين (غراب) بالتقدم إلى الميناء لجس نبض قوة المدينة واختبار قوة المراكب التي تقف هناك والتحقق عما إذا كان بها مقاتلون أو أسلحة، فلم يعثروا فيها على شيء. وقامت فرقة البرتغال الاستطلاعية بسلب بعض البضائع التجارية التي بالمراكب فلم يتعرض لهم أحد[3]. قرر الأمير مرجان إرسال وفد للمفاوضة مع البو كيرك ليعرف نواياه وسبب حصاره لعدن، وأرسل مرجان مع الوفد هدية من الخراف الحية والفواكه[4].

---

(١) نجم الدين اليمني، مصدر سابق، ص٣٤٥، ويذكر المؤلف أنه لم يعلم أحد بوصول حملة البو كيرك قبل صباح يوم الجمعة.

(٢) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١١٩٤.

(٣) نجم الدين عمارة اليمني، مصدر سابق، ص٣٤٥.

(٤) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١١٩٤.

رد البو كيرك على الوفد اليمني، بأنه قائد قوات الملك إمانويل، وأنه في طريقه لاحتلال جدة لمنازلة الأسطول المصري المملوكي في السويس. وطلب البوكيرك من أمير عدن إعلان ولائه لملك البرتغال، وأن يفتح أبواب البلد ليدخلها الجيش البرتغالي ويستعرض في شوارعها رافعاً الأعلام البرتغالية. وهدد البوكيرك الأمير بأنه إذا رفض هذا الأمر فإنّه سوف يحطم السفن الراسية في الميناء ويدخل المدينة عنوة[1]. وأمهل البوكيرك المفاوضين حتى يوم السبت التالي للرد عليه. وعندما لم يصل الرد من داخل مدينة عدن التي يبدو أن زعيمها قرر الصمود والقتال، نزل الجنود البرتغاليون بواسطة الزوارق الصغيرة التي سرقوها من المرفأ أو (السنابيق) كما يقول بومخرمة، وكانت معهم سلالم كبيرة نصبوها على أسوار المدينة في تل شرشرة والشيخ عثمان[2]، وكان أكبر الأرتال المهاجمة هو الرتل الذي يقوده الضابط «دون غرسيا دي نورنها» المكون من وحدات مشاة وفرسان، الذي أمره البو كيرك بمهاجمة بوابة سور المدينة الرئيسية حيث تتواجد قوات الدفاع اليمنية الرئيسية[3]، المسلحة ببعض المدافع (المنجنيقات) كما ذكر بومخرمة. وهنا أصدر دي نورنها أوامره بالهجوم واندفعت جنود الأرتال البرتغالية إلى السلالم يضعونها على الجدران الأقصر طولاً وباشروا من هناك للوصول إلى أعلى الأسوار في المدينة، فيما راحت فصائل أخرى تهاجم سور المدينة الرئيسي المطل على الميناء وتحاول تحطيمه واقتحام المدينة من هناك ووجدت هذه القوة مقاومة من العدنيين الذي قاوموهم ومنعوهم من وضع علم

(١) - Danvers, Op. Cit., Vol. I,PP. 265, 266.

(٢) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١٩٩٥، وتل شرشرة هو نفسه تل سيرسيه وهو الجبل الأخضر، وكان (ناظور) السفن اليمني يقف عليه من طلوع الشمس إلى غروبها لمراقبة سفن الهند القادمة بالتجارة، ابن المجاور، مصدر سابق، ص١٣٨.

(٣) فالح حنظل، مرجع سابق، ص١٣٤.

البرتغال على الجدار(١)، ورموهم بالحجارة من أعلى السور. وعندما لاحظ البو كيرك أن قوات القائد نورنها قد تمكنت من الوصول إلى داخل المدينة أوعز إلى ما تبقى من قواته للالتحاق بها وتكثيف الهجوم من هناك لاقتحام المدينة تماماً بينما ظل هو ينتظر خارجها. وعندما اكتشف سكان المدينة تلك الثغرة التي صعد منها نورنها سارعوا إلى سدها بإرسال مجموعة من الرجال لطرد بقية البرتغاليين الذين كانوا لا يزالون يتدفقون إلى المدينة وقد نجحوا في ذلك(٢).

ويذكر بومخرمة موقفاً غريباً من حاكم المدينة الظافري لسنا ندري سببه وهو الذي رفض تسليم المدينة للبرتغاليين. يقول بومخرمة عندما ركب البرتغاليون ناحية حصن الخضراء وردهم المسلمون عنه برميهم بالحجارة الكثيفة حتى أنزلوهم من الجبل «كان الأمير قد همّ بترك قتالهم (أي البرتغاليين) وأن يلزم دار السعادة (بلاط الحكم في الجبل) فأشار عليه «ابن ماقرس وابن المهري» بأن دار السعادة لا تنجيه إذا أخذت البلد وعليه أن يخرج لقتالهم، فإن نصره اللّه عليهم نال بذلك عزاً عند اللّه وعند السلطان، وإنْ تكن الأخرى فاز بالشهادة ومات كريماً، فركب فرسه وخرج في جماعة قليلة من أصحابه»(٣). وعندما رأى الناس أميرهم على فرسه يقاتل البرتغاليين دبت العزيمة فيهم وقاتلوا معه وكاد البرتغاليون أن يهزموا المسلمين وهم جماعة من الرتل الذي قاده نورنها لكن الدائرة عادت ودارت عليهم(٤).

(١) Danvers, Op. Cit., Vol. I,P. 276. -

(٢) طارق نافع الحمداني، «عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٤٢، السنة ١١، (الكويت، ١٩٨٥م)، ص١٧١ كذلك أنظر.. - Danvers, Op. Cit., Vol. I,P. 267.

(٣) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١١٩٥.

(٤) ابن الديبع، قرة العيون، مخطوط، ص١٥١.

أما القسم الثالث من البرتغاليين، فقد كان بقيادة (فيدالجو) والذي أخذ موقعاً وسطاً بين رتل البو كيرك ودي نورنها، وتسلق السلالم أيضاً ولكنه لثقل الجنود ولشدة رمي أهل المدينة تحطم سلم بمن عليه، فتراجع القائد خائباً ولم ينجح في الدخول إلى المدينة كما فعل نورنها وجنوده[1]. وظل نورنها في وسط المدينة يقاتل دون بقية الجنود البرتغاليين. وجاءه الأمير مرجان ومعه حوالي مائة فارس، وقاتل أولئك البرتغاليين بشجاعة، وكان هو الفارس في عدن آنذاك كما يقول ابن الديبع وبومخرمة. فهرب نورنها وتوارى خلف جنوده، وقد أصيب في المعركة وجعلهم يتراجعون معه نحو الحائط بعد أن قتل القائد (سلفيرا) وعدد من الجنود وجرح آخرون[2]. وهنا راحت فلول البرتغاليين الهائمة على وجهها في شوارع المدينة تتراجع هاربة واعتلوا الأسوار ثانية، فتكدست جموعهم بغير نظام هناك ولم يكن لديهم سلالم ليعودوا من حيث أتوا فألقوا بأنفسهم من رأس الدرب إلى الساحل وهم مثقلون بالحديد كما يذكر بومخرمة[3]. ولكن بقي جماعة منهم محاصرون بين السورين الخارجي والداخلي فسقطت تلك الجماعة في الفخ حيث أمر الأمير مرجان أن «يؤتى بقصب وتحرق الباشورة» والمحاصرين فيها. وفعلاً احتلت قوة الفرسان العرب الأسوار التي يعرفون مداخلها ومخارجها جيداً وبأيديهم الحطب والزيت والنار. وعندما رأى الجنود البرتغاليون النار مشتعلة أدركوا هلاكهم فتراكضوا صاعدين بكل ما أمكنهم ولكن بلا فائدة فقد حوصروا وأمسكت النار بعدد كبير منهم. وقتل هناك الضابط (جارسيا دي سوزا) أحد قادة السرايا وأُبيدت سريته داخل المدينة بين السورين[4].

(١) Danvers, Op. Cit, Vol. I,P. 267. -
(٢) Ibid, -
(٣) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١١٩٥.
(٤) المصدر السابق، ص١١٩٥؛ فالح حنظل، مرجع سابق، ص١٣٥.

وتكدس بقية الجنود بقيادة البو كيرك أمام باب السور الأول الذين حاولوا الصعود منه وفشلوا في محاولاتهم لإنقاذ الموجودين بالداخل. عندها فتح المدفع اليماني نيرانه من فوق قمة جبل (صيرة)فقتل وجرح العديد من البرتغاليين أيضاً قرب سور المدينة، فأمر البو كيرك رجاله بالانسحاب السريع للسفن والابتعاد عن الساحل حالاً لتفادي الهزيمة التامة(١).

وقد غنم اليمنيون دروع وسلاح المقتولين والأسرى والهاربين التاركين أثقالهم، وقد كانت نتيجة المعركة مذبحة كبيرة لجنود البو كيرك داخل المدينة وعند الساحل أمام السور. ويذكر بومخرمة أنه «عند سور المدينة قتل نحو العشرين وأن الفقيه عبد الله بن حسين القلهاتي أخبرني أنه شاهد من مقاتيل الأفرنج تسعة، أربعة داخل البلد وخمسة على الساحل خارج البلاد»(٢)، بينما يقول(Serjeant) أنه قتل من البرتغاليين حوالي مائة جندي، ومن المسلمين حوالي خمسين فارساً(٣).

وانتقاماً من أهالي مدينة عدن قام البو كيرك مرة أخرى بإرسال جنوده لسرقة محتويات المراكب الراسية في المرفأ اليمني ثم قام بعدئذ بإحراقها كلها وكانت حوالي أربعين سفينة(٤). ثم استولى البو كيرك على دار البندر قبالة عدن وأخذ ما بها من منجنيقات وسلاح حتى يؤمن انسحابه بدون خسائر كبيرة وليضمن استغلال هذا الموقع الحيوي المطل

---

(١) Daners, Op. Cit., V.I,P. 268. -

ويدعى هذا الكاتب بأن اليمنيين لديهم مدافع كالبرتغاليين، بينما ذكرها بومخرمة في كتابه وكان يقصد بها المنجنيقات النارية، حيث أن أهل اليمن لم يعرفوا المدافع أو يشاهدوها قبل وصول الأسطول المملوكي لليمن قاصداً حرب البرتغاليين في الهند عام ١٥٠٦م، واندهشوا بعد ذلك عندما سقطت قذائف المدفعية في حملة الكردي الثانية على زبيد ولم يعرفوا سر هذا السلاح الجديد آنذاك.

(٢) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ١١٩٥.

(٣) Serjeant, Op. Cit., P.46. -

(٤) Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 190. -

على ميناء عدن حين عودته من جديد مستقبلا[١]. ثم دخل البو كيرك باب المندب بعدئذ بصعوبة بسبب كثرة عدد سفنه ولصعوبة الملاحة عند هذا المضيق كما ذكرنا، لذا أرسل في المقدمة فرقة استطلاع تشكلت من سفينة بها عشرون برتغالياً ومعهم يهودي للترجمة. وهناك عثر رجال السفينة على بحارة من عرب شرق أفريقيا أخذهم إلى المخا ومروا بها ثم إلى البقعة والمتينة والحديدة[٢]، ولم يستطع البو كيرك فعل شيء في هذه الموانىء حيث تخوف من وجود عساكر السلطان عامر بها وهم على الاستعداد، لكن السلطان عامر كان قد منعهم من التعرض للأسطول البرتغالي حتى يغادرهم بسلام بينما كانت الناس تتحرق لقتالهم[٣].

وصل البو كيرك بسفنه إلى جزيرة كمران[٤] أوائل شهر صفر ٩١٨هـ (١٥١٣م)، واستولى بطريقة القرصنة على أربع سفن محملة بالتوابل الهندية، إحداها تتبع السلطان الغوري. فأخذ السلع غصباً وقطع آذان وأنوف البحارة ثم أحرق السفن انتقاماً، ومكث في كمران بضعة أيام، وكانت تلك أول مرة يدخل فيها أسطول برتغالي البحر الأحمر[٥].

في هذه الأثناء وصلت أنباء الغزو البرتغالي للبحر الأحمر إلى السلطان قنصوه الغوري بالقاهرة، فأمر بتحصين ميناء جدة تحصينا جيداً لكن الأحوال الداخلية المضطربة منعت السلطان من إرسال حملة بحرية سريعة لمواجهة البو كيرك، ذلك لأن الأسطول المملوكي كان لايزال في مرحلة

---

(١) Danvers, Op. Cit, Vol. I,P. 268. -

(٢) المصدر السابق، ص١٥١.

(٣) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١١٩٥.

(٤) كمران: تقع على بعد مائتي ميل شمال مضيق باب المندب وعلى بعد ثلاثة أميال من ساحل اليمن، وهي مجموعة جزر تقابلها مدينة الزيدية في ساحل اليمن، والجزر تعتبر حصن لمن يملك تهامة اليمن، ومحطة بحرية مهمة بين عدن وجدة. أنظر: حمزة علي لقمان، تاريخ الجزر اليمنية، مرجع سابق، ص٩.

(٥)- Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 192.

الإعداد في السويس ولم يجهز بعد في تلك الفترة، كما كانت أنباء التحركات العدائية بين الصفويين والعثمانيين قرب الحدود الشمالية الشرقية المملوكية تقلق السلطان الغوري.

وقد كان البو كيرك يهدف من وراء دخوله البحر الأحمر إلى مهاجمة جدة، ثم الوصول إلى المدينة المنورة ونبش قبر الرسول (ﷺ) تنفيذاً لوصية ملكه أمانويل باقتلاع جذور الإسلام وضربه في عقر داره. وتركزت خطته التي أراد أن ينفذها حول خطة أرياط في عام ١١٨١م. ويلخص (Danvers)، خطة البو كيرك على النحو التالي[١]:

١) العمل على تجهيز أربعمائة من الفرسان البرتغاليين من بحارة الأسطول وإنزالهم في ميناء ينبع بعد الحصول على الخيول من الحبشة. ومن هناك يتجه هؤلاء الفرسان إلى المدينة المنورة حيث مسجد الرسول (ﷺ) لنبش القبر الشريف والاستيلاء على كل الكنوز الإسلامية الثمينة في المسجد ونقلها مع الرفاة الشريفة خارج الحجاز تماماً، على أن يبدأ ملك البرتغال بعد ذلك مساومة المسلمين بافتداء الرفاة، فيسلموا له كنيسة القيامة في القدس.

٢) الفكرة الثانية من دخول البو كيرك البحر الأحمر، أن يفتح طريقاً، أي حفر قناة بين جبال البحر الأحمر والنيل لتحويل مجرى النهر الكبير ليصب في أراضي (برسترجون) فقط وليحرم مصر منه ويجعلها تموت عطشاً. ولذا ظل البو كيرك ينتظر طويلاً في جزر كمران – كما يقول – لتصله مجموعات العمال الكبيرة التي طلبها من جزر ماديرا لقطع صخور البحر الأحمر وتحويل مجرى النيل!! ويقول بأن ملك الحبشة كان يتحرق شوقاً لرؤية هذا المشروع ينفذ على يد البو كيرك.

---

(١) - Danvers, Op. Cit., Vol. I,PP. 271, 272.

ولكن أحلام البو كيرك المبالغ فيها هذه تحطمت كلية بسبب عاصفة حطمت جزءا من سفنه وشتت الباقي، وبسبب إصابة عدد من رجاله بالأمراض، وموت بعضهم نتيجة ظروف مناخ البحر الأحمر القاسية وندرة المياه والطعام. كما يروي البوكيرك قصة ذلك التحذير السماوي الذي شاهده عياناً هو وضباطه ليلاً بينما كان يضع خطة الهجوم على جدة في صباح اليوم التالي، وكأن لمعاناً من الوهج واللهب لم يلبث أن صار كتلة من النار المخيفة في السماء فوق الحجاز والمدينة المنورة بالذات. ثم تقدم هذا اللهب، كما يقول البو كيرك، وتوقف فوق سفن البرتغاليين فترة ثم تحرك سريعاً صوب الحبشة واختفى هناك[1]. فأصيب البرتغاليون بالذعر جراء تلك المعجزة ولم يلبث البوكيرك أن أصدر أوامره بالعودة حالاً، وقفل راجعاً إلى الهند يجر أذيال الخيبة، بعد أن ذاق الأمرّين بسبب تحصينات عدن الطبيعية ومقاومة أهلها له ومقتل عدد من جنوده. فالعناية السماوية هي التي أنقذت المدينة المنورة – وإن صدق ذلك – فإنّ البو كيرك يستطيع أن يدّعي أنّ تحصينات المدن والمقاومة لم تهزمه بل العناية الإلهية هي التي قامت بهذا الدور وهذا وحده يكفي. وفي طريق عودته أرسل البوكيرك سفينتين من سفنه لاستكشاف زيلع (Zeyla)، وهناك أحرقوا سفينتين للتجار المسلمين في ميناء زيلع. ثم نزل البوكيرك بجنوده في جزيرة بريم الصخرية ولم يجد بها شيء. وهنا حاول البو كيرك مهاجمة عدن مرة أخرى ليحقق مكسباً مهماً يعوض به فشله الأول أمام عدن – والثاني أمام جدة، لكنه وجد أن الميناء قد ازدادت تحصناته عن ذي قبل. وقد حاول البوكيرك خلال أسبوعين أن يقصف الميناء من بعيد، لكن قنابل مدافعه لم تحدث ضرراً كبيراً، لذا قرر إنزال جنوده((بالسنابيق) ليلاً لمهاجمة البلدة ففطن لهم أهل عدن فخرجوا لهم

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,PP. 192, 193.

خفية، وشدوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم جماعة وجرحوا آخرين[1]. وهنا دب اليأس في نفس البو كيرك وتأكد أنه أنه لن يتمكن من تحقيق شيء في عدن واليمن مع استبسال أهاليها في الدفاع عن بلادهم وصعوبة تحصينات عدن والإبحار في البحر الأحمر. وأدرك البوكيرك عدم جدوى البقاء هناك دون طائل، فعاد أدراجه إلى الهند خائباً في أغسطس عام ١٥١٣م[2].

اعتمدت عدن على نفسها في صد الغزو البرتغالي إذ لم تصلها نجدات السلطان عامر بن عبد الوهاب التي أعلن عنها طوال وجود البو كيرك عند عدن. وكانت خطة الدفاع عن هذه المدينة قد اعتمدت في جزء كبير منها على حصانتها الطبيعية وعدم منازلة البرتغاليين في معركة بحرية مفتوحة نظراً لعدم التكافؤ بين اليمنيين والبرتغاليين، وأثبتت خطة الأمير مرجان فعاليتها ضد البرتغاليين، لا في أثناء الهجوم الأول فحسب، بل وفي أثناء معاودة البرتغاليين الهجوم عليها بعد رجوعهم من البحر الأحمر في العام نفسه. فقد وجدوا المدينة وقد أحيطت بسور جديد وأبراج عديدة تم بناؤها خلال وجود البو كيرك في البحر الأحمر من مايو إلى يوليو ١٥١٣م، وبذا شكلت عدن هزيمة قاسية للبرتغاليين والبو كيرك بالذات وللهيبة العسكرية البرتغالية في البحار الشرقية والمناطق العربية بشكل خاص. وأراد البو كيرك تعويض ذاك الفشل فأرسل ابن أخيه (بيرو) إلى الخليج عام ١٥١٤م - كما ذكرنا - لتأديب هرمز التي صارت كالشماعة في سياسة البو كيرك الخارجية، يعلق عليها أخطاءه كلما فشل في جهة ما.

وعلى الرغم من فشل البو كيرك في عدن وعدم مقدرته على فعل شيء

(١) ابن الديبع، قرة العيون، مصدر سابق، مخطوط، ص ص ١٥١، ١٥٢؛ بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١١٩٥؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ج٢، ص٦٤٠.

(٢) - Serjeant, Op. Cit., P. 46, 169; Wilson, Op.Cit., P.121.

في جدة ومكة، إلاّ أنه نجح على الأقل كعادته في مغامراته الجريئة، في وضع البصمات الأولى للوجود البرتغالي في البحر الأحمر وأن يرسم لخلفائه من بعده من نواب الهند، خطة واضحة لكيفية غزو البحر الأحمر إلى أقصى شماله والتغلب على صعوباته الملاحية(١).

وقد خرج البو كيرك كما يبدو بخبرات مفيدة من هذه التجربة وهي:

١) إمكانية قيام تعاون عسكري مع الحبشة وإعلان حرب شاملة على الكيانات السياسية الإسلامية في البحر الأحمر.

٢) زاد إعتقاده بضرورة احتلال عدن وإنشاء استحكامات حربية بها تخول البرتغاليين السيطرة على البحر الأحمر إنطلاقاً من قاعدة أسطول ضخمة في عدن. فالميناء صالح جداً لرسو السفن البرتغالية الكبيرة، كما عبر عن ذلك في الخطاب الذي أرسله للملك أمانويل في ٢٠/١٠/١٥١٤م. وأضاف البوكيرك من خلال معلوماته التي جمعها عن البحر الأحمر خلال تواجده فيه، أنه يجب إحتلال جزر «دهلك»(٢)، واتخاذها قاعدة حربية للاستيلاء على جدة. ويبدو أن البو كيرك قد جهز حملة في فبراير عام ١٥١٥م في الهند أساساً لغزو عدن والبحر الأحمر من جديد لولا أن شغلته أحداث هرمز في حينها كما رأينا ثم هلاكه بعد ذلك مباشرة(٣).

حملات البرتغاليين على عدن بعد البو كيرك:

لم يكن الفشل الذي لاقاه البرتغاليون في عدن عام ١٥١٣م ليقضي على خططهم لمحاولة السيطرة عليها مرة أخرى وعلى البحر الأحمر. وصلت في شهر جمادى الآخرة عام ٩٢٤هـ (الثامن من فبراير عام

---

(١) طارق نافع الحمداني، «عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين»، مرجع سابق، ص١٧١.

(٢) جزر دهلك: أرخبيل أرتيري يضم أكثر من مائة جزيرة، وأهمها دهلك الكبرى، وتقع قبالة مصوع على بعد ستين ميلاً، وسكانها مسلمون يتحدثون العربية والأمهرية الحبشية، وتقع بعض جزر دهلك في المجرى الدولي للملاحة في البحر الأحمر.

(٣) - Sousa, Op. Cit., Vol. 1, P. 202; The Book of D. Barbosa, P. 45; Wilson, Op. Cit., P. 121.

١٥١٧م) حملة برتغالية جديدة بقيادة (لوبو سواريز Lopo Soures) نائب الملك في الهند بعد البو كيرك بهدف السيطرة على البحر الأحمر وإغلاقه نهائياً في وجه التجارة الإسلامية. وكان معه أسطول مكون من حوالي ثلاثين سفينة وحوالي ألفين من الجنود[1]. ورسا هذا الأسطول أمام عدن في صفر عام ٩٢٣هـ (مارس ١٥١٧م)[2]. ويشير (Sousa) وبعض المصادر البرتغالية الأخرى، إلى أن حاكم المدينة الظافري قبل هذه المرة الخضوع للبرتغاليين وسلمهم مفتاح عدن[3]، ولكن بومخرمة وبعض المصادر اليمنية المعاصرة للحدث تقول: إنّ الأمير مرجان لم يسلم المدينة أو مفاتيحها لهم وأن غاية ما قام به هو مقابلة البرتغاليين عند الساحل، وموافقته على مد أسطول (سوارين) بما يحتاج إليه من مؤن ومرشدين بحريين لقيادة سفنهم إلى جدة بحسب طلبهم منه. وقد قبل الظافري أن يقوم بذلك، كما يقول يحيى بن الحسين في غاية الأماني، «لإتقاء شرهم»[4]. وهنا تجدر الاشارة إلى أنه في الفترة ما بين مغادرة البو كيرك لعدن عام ١٥١٣م وحتى مجيء (سوارين) وقعت أحداث عديدة أضرت بموقف اليمن بل وأضعفت دفاعاته خصوصاً في عدن حيث جاءت الحملة المملوكية الكبيرة بقيادة حسين الكردي وسليمان العثماني لمقاتلة البرتغاليين في الهند، لكنها غاصت في مستنقع صراعات اليمن – كما سنرى – وانتهى الأمر بقصف حسين الكردي لمدينة عدن وتحصيناتها بشكل مدمر خصوصاً أسوارها المنيعة، وحصن جبل صيرة[5].

---

(١) اختلفت المصادر في عدد السفن أيضاً بين ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٠، أو ٤٠ سفينة، اُنظر قلادة النحر، قرة العيون، المفيد في أخبار مدينة صنعاء وزبيد، كذلك Sousa; Serjeant .

(٢) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١٢٠٥.

(٣)- Sousa, Op. Cit., Vol. I,PP. 210, 211.

(٤) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١٢٠٥، يحيى بن الحسين، مصدر سابق، ج٢، ص٦٥٨.

(٥) ابن الديبع، قرة العيون، مخطوط، ص١٥٧.- Serjeant, Op. Cit., P. 50.

اضطر الأمير مرجان إلى الترحيب بحملة (سواريز) وأعطاهم ما طلبوا منه وصار صديقاً للبرتغاليين بسبب خوفه من المماليك الذين كانوا ما يزالون يعملون في شمال اليمن لمساعدة الزيديين ضد الطاهريين، ولا سيما أن سواريز قال لمرجان بأنه جاء أساساً لمقاتلة المماليك وأخذ جدة[1]، ولحسن حظ عدن فإنّ ضيافة حاكمها هذه أثرت في نفس لويو سواريز فلم يفكر في استغلال ضعف المدينة واستسلامها له للسيطرة عليها عسكرياً، فقد اكتفى، ليدخل الطمأنينة في قلب مرجان، أن قال له: يكفي أن نتعامل كحلفاء، مستهدفاً من ذلك كما يبدو أيضاً إرجاء الاستيلاء على المدينة إلى ما بعد تحطيم الأسطول المصري في جدة بجهد يمني برتغالي مشترك ثم الاستيلاء على عدن بعد ذلك. واتجه سواريز نحو جدة مباشرة وكان يعلم بأن الأسطول المصري يتمركز فيها، وأن الأوضاع قد تبدلت بعد تغير الحكم المملوكي إلى عثماني. وعلى الرغم من أن القوات المتمركزة فيها قد أعلنت بقيادة سليمان العثماني ولاءها للدولة العثمانية، إلاّ أنها لم تتلق منهم أية إمدادات أو تعزيزات جديدة، كما أن أهالي جدة كانوا يقاسون من عبء الضرائب الجديدة والفادحة التي كان حسين الكردي قد فرضها عليهم للصرف على تحصينات المدينة[2]، أضف إلى ذلك أن حملة سواريز على البحر الأحمر جاءت كأول تحدٍ مباشر

(١) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١٢٠٥. - Serjeant, Op. Cit., P. 169.
- وقد كانت جدة آنذاك ميناء لمكة والحجاز وتشهد ازدحاماً كبيراً في موسم الحج، وهي محصنة وعامرة بالتجارة، وترد إليها مراكب مصر واليمن، وهي محاطة بسور له تسعة أبواب وعدة أبراج. أنظر عبد القدوس الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، مجلدان، (القاهرة، ١٩٨٢) مج١، ص ص ١١، ١٤.

(٢) محمد عبد العال، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، مرجع سابق، ص ص ١٩٨ - ٢٠٠، وقد أصدر السلطان العثماني أمراً بقتل حسين الكردي غرقاً في البحر الأحمر بدل الاستفادة من خبرته في محاربة البرتغاليين أمام جدة، وانفرد سليمان بقيادة الجيش، أنظر، ابن إياس، مصدر سابق، ج٥، ص٩٠، حول العشور التي أخذها حسين الكردي من جدة وأضرت باقتصادها كثيراً.

لسلطة العثمانيين ووجودهم في مصر والحجاز في عهد السلطان سليم الأول الذي قاتل الصفويين والمماليك بين أعوام ١٥١٤، ١٥١٧م قتالاً شرساً، ولكنه لم يحرك ساكناً ضد البرتغاليين هنا بعد مغادرته مصر، بل إن ابن إياس يقول في حوادث شهر جمادى الآخر ٩٢٤هـ، أن خاير بك نائب السلطان سليم في مصر هو الذي بادر من فوره، حين علم بوصول البرتغاليين أمام جدة عن طريق رسول الشريف بركات، بإرسال بعض القوات العسكرية التي ما زالت مملوكية آنذاك، على وجه السرعة إلى جدة لنجدتها خوفاً من مداهمتها من قبل البرتغاليين فجأة، وكان عدد هؤلاء الجنود مئتين وخمسين جندياً فقط من المماليك الجراكسة وأولاد الناس والمغاربة، وكان من بينهم بعض التجار المغاربة أيضاً(١).

وتتدخل طبيعة البحر الأحمر ومناخاته المتقلبة التي يتميز بها هذا البحر دون غيره، في لعب دور كبير في إعاقة الحملات البرتغالية عليه وعلى جدة بالذات. فلم تلبث الرياح أن شنت هجوماً على أسطول سواريز فشتته وجعلت من الصعب السيطرة على قطعة. وساعدت صخور البحر وشعابه المرجانية أيضاً بدورها بعد الرياح في تخريب وأعطاب جزء من سفن هذا الأسطول البرتغالي. وعندما عقد سواريز مجلس حرب على ظهر ما تبقى من سفنه أمام ساحل جدة بعد أن رأى قوة تحصيناتها وأسوارها العالية والمنيعة التي بناها حسين الكردي أبان الحملة الأولى ضد البرتغاليين(٢)، بالإضافة لما حدث لسفنه بفعل مقاومة البحر الأحمر لها، تخوف من الأمر وقرر الانسحاب فوراً وعاد إلى جزيرة كمران(٣). وكان الرئيس سليمان العثماني في جدة مع الجيش المملوكي العثماني الذي جاء

---

(١) ابن إياس، مصدر سابق، ص٢٦٢.

(٢) فائق الصواف ومصطفى رمضان، «أهمية ثغر جدة في النصف الأول من القرن السادس عشر»، مجلة الدارة، العدد ٢، السنة ٦، (الرياض، ١٩٨١م)، ص ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٣) Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 213. -

معه أساساً لقتال البرتغاليين، قد أعد عدته للمواجهة. فعندما شاهد البرتغاليين وهم ينسحبون سريعاً، طاردهم على ظهر (غرابين) مملوكيين، حتى لحق بمؤخرة الأسطول البرتغالي عند ميناء «اللحية» شمال اليمن قبيل كمران، وأسر إحدى سفنهم بعد أن ضربها بالمدافع، وكان عليها سبعة عشر برتغالياً أخذهم معه إلى جدة ووضعهم في السجن كأسرى حرب ثم أرسلهم إلى القاهرة ليرسلوا بعدها إلى السلطان العثماني بالأستانة(١).

يبدو أن سواريز لم يعلم بأمر السفينة المأسورة أو ربما علم به وصمت عنه لعدم مقدرته على فعل شيء آنذاك، وقصد كمران حيث ظل بها حوالي ثلاثة أشهر انتظاراً لموسم اعتدال الرياح للخروج بسلام من هذا البحر الذي سبب له إحراجاً عسكرياً كبيراً. وهنا فقد سواريز عدداً من بحارته بسبب الأمراض ونقص المياه. وقبل أن ينسحب سواريز من كمران دمر التحصينات التي سبق وأن أقامها حسين الكردي بها، وأحرق النخيل ثم غادرها في يونيو عام ١٥١٧م، متوجهاً إلى زيلع. وصل سواريز إلي زيلع في يوليو مع اتجاه الرياح، فقصفها وقتل عدداً من أهاليها إنتقاماً مما حدث له من فشل أمام جدة، ثم قفل راجعاً إلى باب المندب ثم قصد إلى عدن(٢)، التي توقف بها لمدة خمسة أيام. ودب اليأس في نفسه مما رأى وهو الذي كان يأمل في السيطرة على المدينة بعد رجوعه ليحقق شيئاً على الأقل مما جاء من أجله. فالأمير مرجان الذي صانع البرتغاليين في البداية ليتخلص منهم، قد اغتنم الفرصة عند انشغالهم بالغزو في البحر الأحمر، فعمل جاهداً على تقوية تحصينات المدينة الدفاعية والميناء

---

(١) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١٢٠٦؛ يحيي بن الحسين، مصدر سابق، ج٢، ص٦٥٨.
- Sousa, Loc., Cit.

(٢) بومخرمة، قلادةالنحر، مخطوط، ص١٢٠٦. - Sousa, Op. Cit., Vol. I,PP. 213, 214.

وإصلاح ما خربه المماليك. وعندما أصبح مرجان واثقاً من قوة مواقعه الدفاعية لم يعد يهاب الأسطول البرتغالي. وندم (سواريز) على ما فعل في عدم السيطرة على عدن من البداية[1]، ولكنه لم يستطع القيام بأي عمل وهو الذي خسر العديد من رجاله، وأسطوله قد منى بخسائر كبيرة أثناء محاولة غزو جدة: وتخوف سواريز من الفشل هنا مرة أخرى، فطلب من الحاكم بعض الماء والطعام ثم غادر عدن إلى الهند[2].

وقد هاجم بعض الكتّاب الغربيين (سواريز) لعدم استيلائه على عدن في بداية دخوله البحر الأحمر، واتهموه بإضاعة الفرصة التي سنحت له آنذاك. وربما كان هذا ما قد شعر به الملك أمانويل تجاه (سواريز) وسوء تصرفه فعزله من منصبه بعد أقل من ثلاث سنوات من استلامه له وذلك في ديسمبر ١٥١٨م بسبب تلك القضية[3].

ولكن البرتغاليين لم ييأسوا من السيطرة على عدن خصوصاً بعد ازدياد النفوذ العثماني في البحار الأحمر وتخوفهم من وصوله إلى اليمن ومقارعة الأسطول البرتغالي في البحر الشرقية، فأعاد البرتغاليون هجومهم على عدن أكثر من مرة خلال الأعوام التالية.

ففي عام ١٥٢٠م جاءت حملة برتغالية بقيادة (ديةو لويو دي سكويرا) ضمت ست وعشرين سفينة ولكنها لم تستطع فعل شيء أمام أسوار عدن. وتشاغلت الحملة بإحراق «مصوع»[4]، وجزر دهلك، ولكنها لم تستطع التقدم نحو جدة أبداً. وقام سكويرا بإنزال أول بعثة دبلوماسية

(١) - Ibid. P. 214.

(٢) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص ص ١٢٠٩، ١٢١٠. - Serjeant,. Op. Cit., P.171.

(٣) سعد زغلوول عبد ربه، «البرتغاليون والبحر الأحمر»، مجلة الدارة، العدد ٢، السنة ٦، (الرياض، ١٩٨١)، ص ص ١١٧، ١١٨: - Serjeant, Op. Cit., PP. 170, 171.

(٤) - Ibid P.171.

برتغالية إلى السواحل الحبشية بهدف توثيق العلاقات السياسية والدينية والعسكرية مع مملكة (برسترجون) للقضاء على النفوذ الإسلامي في البحر الأحمر وشرق أفريقيا. وكان هذا المبعوث هو (دي ليما) ونزل معه رسول الحبشة إلى البرتغال «ماثيو الأرمني» أيضاً، ولكنه لم يفعل أكثر من ذلك، وعاد سكويرا إلى الهند بعد أن مر بعدن وتزود كالعادة بالماء والطعام. وافتدى الأمير مرجان من البرتغاليين بعض الأسرى المسلمين الذين كانوا على ظهر سفنهم ومن ثمة غادروا عدن(١).

ثم توالت حملات البرتغاليين على عدن بعد ذلك. ففي عام ١٥٢٥م جاءت حملة أخرى كانت تهدف لاحتلال هذا الميناء المهم، فتعرضت خلالها عدن لضرب المدفعية البرتغالية. وكانت تلك الحملة تهدف أيضاً لإعادة المبعوث البرتغالي من بلاط الحبشة. كما قامت حملة أخرى في عام ١٥٢٩م، لكنها فشلت في السيطرة على عدن. ولابد أن نشير أخيراً إلى أن عدن بين عامي ١٥٢٩ – ١٥٣٠م تعرضت لحملة برتغالية كبيرة استطاع البرتغاليون من خلالها إجبار حاكمها – الذي جاء إلى الحكم بعد موت مرجان الظافري عام ١٥٢١ وسقوط الدولة الطاهرية – على قبول التوقيع على معاهدة اعترف فيها بالسيادة البرتغالية على عدن بشرط اعتراف البرتغاليين بحق العدنيين في الملاحة في المحيط الهندي ما عدا البحر الأحمر وجدة، ومرابطة سفينة برتغالية في ميناء عدن(٢).

---

(١) يحيى بن الحسين، مصدر سابق، ج٢، ص٦٦٣؛ محمد عبد العال، البحر الأحمر، مرجع سابق، ص٢١٧.

(٢)- Serjeant, Op. Cit., P.55.

مقاومة بني طاهر والمماليك للغزو البرتغالي للجنوب والبحر الأحمر

عند دراسة موقف الدولة الطاهرية من الغزو البرتغالي للجنوب والبحر الأحمر الذي هدد مصالح هذه الدولة قياساً بموقف الدولة المملوكية نجده يتصف بالضعف والتهاون، بسبب عقلية ذاك الزمان في التفكير والحكم والتعامل مع منطق الأمور. كان تجهيز حوالي «مائة وسبعون ألف مقاتل» عام (١٥٠٥ – ١٥٠٦م) لحرب الزيدية في شمال اليمن أكثر أهمية لدى حكام تلك الدولة من مقاومة الغزو البرتغالي لعدن عام ١٥١٣م. وهذا الموقف الطاهري أقل ما يوصف به إنه لا يوازي موقف المماليك الايجابي في مصر.

ومع ذلك فقد اهتم اليمنيون بالغزو البرتغالي، ولكن إمكاناتهم البحرية كانت ضئيلة وتكاد أن تكون معدومة مقارنة بالبرتغاليين بسبب عدم وجود أسطول حربي يقارع البرتغاليين في أعالي البحار، فبالإضافة للمقاومة اليمنية التي شاهدناها أمام عدن عام ١٥١٣م، فقد كان السلطان عامر قد بدأ بإرسال حملة صغيرة لقتال البرتغاليين في الهند عام ٩١٢هـ (١٥٠٦م) تكونت من حوالي ستمائة شخص[1]. وقد تم ذلك رغم اضطراب أحوال الدولة الطاهرية مالياً، وضعف إيراداتها منذ بدء الحصار البرتغالي للبحر الأحمر، وفقد السلطان عامر تدريجياً لجزء كبير من تلك الخزانة العظيمة من المال والذهب والفضة التي كانت تُحمل إليه سنوياً من عدن قبل مجيء البرتغاليين إلى الهند، بالإضافة للمتاعب التي كانت تعاني منها الدولة بسبب الحروب الداخلية الكثيرة والمكلفة، وخسائر السيول وهجرة القبائل اليمنية من أماكنها بسبب صراعها

(١) ابن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد، مصدر سابق، ص٣٠٠، ٣٠١

المستمر مع آل طاهر. وقد أمر السلطان عامر بتجهيز تلك الحملة اليمنية بعد أن جاءته الأخبار – كما يقول ابن الديبع – من أهالي مدينة عدن بواسطة تجار الهند الذين يرتادون الميناء سنوياً «فورد أمره الشريف بالتجهيز عليهم وبذل الأموال العظيمة لمن يتوجه إليهم». ورغم وجود حوافز مادية لليمنيين المتطوعين لقتال البرتغاليين في الهند، فلم يستجب للسلطان سوى حوالي ستمائة شخص، أعد لهم السلطان عامر أربعة عشر مركباً صغيراً وكبيراً في ميناء عدن، وأرسل معهم أحد الفقهاء ليبث الحماس الديني فيهم، وجماعة من طلبة العلم للجهاد في سبيل الله.

وكان خروجهم من عدن في البحر يوم الخميس ٢٧ من شوال عام ٩١٢هـ (مارس ١٥٠٦م) واستمر القنوت عليهم في الصلوات الخمس وفي خطبة يوم الجمعة بمدينة زبيد وعدن وغيرها»[١]. ولم نعد نسمع شيئاً عن أخبار هذه الحملة بعد ذلك في كتب ابن الديبع الذي كان مؤرخ السلطان عامر بن عبد الوهاب وكان معاصراً للأحداث، وهو المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى هذه الحملة[٢]. وأغلب الظن أن الحملة وقعت فريسة سهلة للأساطيل البرتغالية التي كانت تجوب المنطقة ومنها آنذاك أسطول تريستان داكنها والبو كيرك، أو أن عواصف المحيط الهندي قد عصفت بتلك القوارب اليمنية التي حملت من الأمنيات الطيبة والنوايا الحسنة أكثر من خطط المواجهة العسكرية الحقيقية للغزو البرتغالي. ولم تتعد المشاركة اليمنية في مقاومة البرتغاليين خارج حدودهم البحرية هذه الحملة، أما فيما عدا ذلك فقد تحملت عدن وحدها وحكامها أمثال مرجان الظافري وغيره، مهمة الدفاع عن نفسها ضد غزوات البرتغاليين والتي بلغت أكثر من ست حملات بين أعوام ١٥١٣ – ١٥٣٠م.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠١.

(٢) سيد مصطفى سالم، مرجع سابق، ص ص ٣٨، ٣٩.

المماليك وخطة حماية البحر الأحمر:

إذا كانت الدولة الطاهرية قد تأثرت بالغزو البرتغالي للبحار الشرقية إثر الكشوف الجغرافية وتحويل طرق التجارة لرأس الرجاء الصالح وتدمير التجارة العربية الإسلامية في المحيط الهندي، فإن الدولة المملوكية كانت هي المعنية والمقصودة بهذا التدمير والتحويل لطرق التجارة وليس اليمن فقط. ولذا قدر للدولة المملوكية أن تقف مع الدولة الطاهرية في خندق واحد باعتبارهما أول القوى الإسلامية التي وقع عليها حتمية حماية البحار الشرقية وطرق التجارة الإسلامية من الغزو البرتغالي وإعادة تأمين تلك الطرق خاصة طريق عبر البحر الأحمر وكذلك حماية المقدسات الإسلامية في الحجاز التي كانت مستهدفة في المخططات البرتغالية. قد كانت تلك الأهداف الصليبية تختلط بالأهداف الاقتصادية بشكل مثير. ويسبب اعتماد مصر – كما رأينا – منذ منتصف القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر، بشكل أساسي في اقتصادها على التجارة الشرقية بعد تدهور الصناعة والزراعة، فقد قامت مصر بتجهيز أولى الحملات الإسلامية للدفاع عن البحر الشرقية وطرق التجارة الإسلامية. وقد استعرضنا حملة الهند الأولى عام ٩١١هـ (١٥٠٥م) وانتصارها بعدئذ في شيول عام ١٥٠٨م وهزيمتها في ديو ١٥٠٩م. ثم جاءت الحملة الثانية وكانت القيادة فيها للريس سليمان العثماني والقيادة العامة للأسطول للأمير حسين الكردي للمرة الثانية باعتباره نائب جدة. قد عُرفت هذه التجريدة بتجريدة الهند الثانية عام ٩٢١هـ (١٥١٥م)[1].

بلغ عدد جنود هذه الحملة الضخمة حوالي ستة آلاف من فرق أولاد

(١) ابن إياس، مصدر سابق، ج٤، ص٤٦٦

الناس والمماليك والتركمان والمغاربة، وبلغ عدد سفنها حوالي عشرين سفينة شحنت بالمكاحل والمؤنة وغير ذلك[1]. وكان هدف الحملة النهائي هو الهند وتأمين التحصينات العسكرية في البحر الأحمر وطرق الهند ضد الأسطول البرتغالي. وخوفاً من معاودة البرتغاليين الهجوم على البحر الأحمر وجدة على شاكلة فعلوا في عام ١٥١٣م. عمل المماليك على اتخاذ سياسة دفاعية في هذا البحر قبل التوجه إلى الهند.

إذاً فقد تغيرت خطة المماليك الحربية والاستراتيجية بعد فشل حملة البو كيرك على البحر الأحمر، فقد قرر المماليك، كما يبدو، الآتي:

١) إغلاق البحر الأحمر أمام الغزو البرتغالي من جديد.

٢) اتخاذ ميناء عدن المهم كقاعدة لنشاط المماليك البحري في المحيط الهندي لقربها من قواعد البرتغاليين مقارنة بالسويس.

ومن هنا عمل المماليك على إقامة القواعد البحرية على السواحل اليمنية في عدن وجدة و وكذلك على الجزر الاستراتيجية مثل كمران ودهلك. ولكن لا يتضح فيما إذا كانت لدى حسين الكردي تعليمات من الغوري باحتلال عدن إذا رفض حاكمها الطاعة أم أن ما حدث كان ذلك تصرفاً اجتهادياً من قبله أملته عليه الظروف. وجد القائد حسين السلطان عامر بن عبد الوهاب يتراجع عن وعوده التي بذلها للمماليك عندما استنجد بهم أثناء حملة البو كيرك عام ١٥١٣م، حينما أبدى استعداده للتعاون معهم وفتح أراضيه لإقامة قواعد بحرية لجيوش مملوكية للدفاع عن بلاده. ولما فشل هجوم البو كيرك على عدن دون مساعدة خارجية لتأخر وصول الأسطول المصري إلى اليمن، تراجع السلطان عن الوفاء

---

(١) المصدر السابق، ج٤ ص ص ٤٦٦، ٤٦٧.

بوعوده، وكان ذلك بسبب نصائح بعض مساعديه الذين قالوا له حين طلب الكردي المؤنة والميرة لمطاردة البرتغاليين في الهند، «إذا طمعوا في المال طمعوا في البلد فالأفضل للسلطان تركهم ولا يظهر لهم القول»(١). وهنا قابل الكردي هذا التراجع من سلطات عدن بالقوة المسلحة لدواعي أمنية واستراتيجية وربما لأطماع شخصية أيضاً أو ربما لرغبته في حكم اليمن والحجاز باعتباره نائب جدة الرسمي. فقام الكردي بمهاجمة السواحل اليمنية التابعة للسلطان عامر. وهنا توالت الأحداث سريعاً بشكل متواتر ومأساوي. فقد أوفد الإمام الزيدي في الشمال آنذاك وهو شرف الدين، مبعوثه إلى جزيرة كمران حيث عسكر حسين الكردي بجيشه وأسطوله وسلمه رسالة يصف فيها عامر بن عبد الوهاب بأنه «عدو الله الجائر ولابد من القيام إلى جهاده ودفاعه، ونحن نطلب الحث لكم على استدراك هذه البقعة من عترة نبيكم الزاهرة الزكية، وبذل المعاونة على استخلاص سائر البلاد من يد هذا الطاغي وأعوانه وأنصاره، ونحن نفتقر إلى المعاونة منكم بما أمكن من الرجال والعدة»(٢). وقد شجع هذا الموقف الزيدي الذي استغل الأوضاع لصالحه ضد الطاهريين للانتقام منهم لما حصل في صنعاء عام ١٥٠٥، حسين الكردي على غزو الدولة الطاهرية. فانحرفت تلك الحملة عن أهدافها الأصلية وبدأت منذ تلك اللحظة تغوص في أوحال مشكلات اليمن ورمالها بمشكلاتها القبلية والعشائرية، وكذلك بخيراتها التي تغري الفاتحين بأخذها والاستئثار بثروتها ولكنها سرعان ما تقضي عليهم وعلى أحلامهم.

وتكتل كل أعداء الطاهريين عندما علموا بعزم الأسطول المصري على مهاجمة اليمن والدولة الطاهرية فيه. وكان أمير ميناء اللحية (أبو بكر بن

---

(١) ابن الديبع، قرة العيون، مخطوط، ص١٥٥؛ بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١١٩٧.

(٢) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ج٢، ص ص ٦٤٢، ٦٤٣.

المقبول الزيلعي) أول من سارع من أمراء الساحل اليمني للاتصال بالمماليك وساعدهم بما يمكن أن تقدمه جزيرة كمران. فعندما علم بامتناع ولاة السلطان في «الحديدة» عن تزويد الكردي بالمؤنة والطعام بأمر السلطان عامر ذهب للكردي في سفنه وقال له: «لا تتعبوا أنفسكم، نحن نفتح لكم الطريق من بندر اللحية ونعينكم» فأرسلوا معه إلى اللحية بغراب فيه مائة مملوك مسلحين بالبنادق التي لم تكن معروفة في اليمن حتى ذلك الوقت[1]، فتقدم بهم الزيلعي إلى جهات (مور) التهامية، وهناك قتل المماليك أمير المنطقة من قبل السلطان واستولوا عليها[2]. وكان أمير اللحية دليلهم في الطرقات والمسالك اليمنية يمدهم بالميرة والمعونات والرجال الأدلاء[3]. ولما رأى أهالي قرية (ضحى) الزيدية ذلك الفعل من المماليك في تهامة، تقدم مندوبوهم إلى حسين الكردي في جزيرة كمران وبايعوه وطلبوا منه أن يرسل معهم من جنوده مائتي مملوك وتعهدوا له بمؤنتهم وإرسال خراج القرية إليه إذا ساعدهم في أخذها!! فتقدم المماليك مع الزيديين إلى تلك القرية واستولوا عليها، ونهب الجند المصريون والزيديون الضحى التي أحرقها المماليك فخربت على أيديهم[4].

ويذكر النهروالي أن سبب تفوق المماليك في أول نزولهم اليمن أن أهل اليمن كانوا لا يعرفون البندقيات ولا المدافع، وكان أن رمى الترك في أول حربهم مع عسكر اليمن، بمدفع في جمع كبير من عسكر عامر، يفوقون الألوف، فراعهم ذلك، وخافوا منه، وانهزموا، وأخذوا الحجر معهم إلى

---

(١) ابن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد، مصدر سابق، ص ص ٣٩، ٣٦٠. أنظر ص ٣٦١ حول تعجب اليمنيين انذاك من البنادق الحديثة يقول ابن الديبع «وهو شيء عجيب لا يصيب أحد إلا هلك أو كاد، وربما أصابت البندق شخصاً ونفذت منه إلى اخر فقتلهما معاً» أنظر أيضاً قرة العيون، مخطوط، ص١٥٥

(٢) ابن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد، مصدر سابق، ص٣٦٠

(٣) قطب الدين النهراولي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٢١

(٤) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١١٩٨، ابن الديبع، قره العيون، مخطوط، ص١٥٥

(زبـيـد) يـتـفـرجـون عـلـيـه، ويـفـرجـون عـلـيـه الـنـاس، ويـتـعـجبـون مـنـه ويستعظمون أمره[1].

وهكذا وطأت أقدام الجنود المماليك أرض اليمن، ووقعت بينهم بعدئذ وبين قوات السلطان عامر عدة معارك، وهو ينهزم فيها ويتراجع، حتى نـزل الأمير حسين الـكـردي بـنـفسـه مـن كمران بـألف فـارس من اللـوند والمغاربة والمصريين والشاميين ومن انضم إليهم من الزيديين وأهل جيزان، ودخل مدينة زبيد في شهر جمادي الأولى عام ٩٢٢هـ واستولى عليها[2]، فهرب السلطان عامر وأخوه عبد الملك وولده عبد الوهاب بعد أن كانوا يدافعون عن البلدة بكل قوة، فقام حسين الكردي وجنوده المماليك بنهب زبيد لمدة ثلاثة أيام وخربوا البيوت وسبوا النساء والصبيان، وحل بالمسلمين من ذلك بلاء عظيم[3]. وتوجه السلطان عامر وعائلته إلى مدينة (تعز)، بينما مكث الكردي بزبيد لمدة ٢٧ يوماً وهو يصادر أموالها ويسلب أهلها حتى أضعفهم. وقد بلغت غنائم زبيد وحدها حوالي عشرة آلاف أشرفي ذهباً[4]. ثم خرج الكردي منها وتقابل مع الريس سليمان الرومي على ظهر الأسطول وتوجها إلى عدن لاحتلالها، وعين على مدينة زبيد (برسباي) المملوكي، يساعده شريف جازان. وفي هذا الصدد يقول ابن الديبع: «ثم نجم النفاق من العرب ومالوا إلى الأمير حسين الكردي»[5].

وتعرضت عدن لقصف الأسطول المملوكي الذي كان قد أعد أساساً لحرب البرتغاليين في الهند. وهدم الأسطول المملوكي أجزاء كبيرة من أسوار المدينة، ومع ذلك فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها، وسقط عدد كبير

---

(١) قطب الدين النهروالي، مصدر سابق، ص ص ٢١، ٢٢.
(٢) ابن الديبع، الفضل المزيد، مصدر سابق، ص٣٦٠؛ قطب الدين النهروالي، مصدر سابق، ص٢١.
(٣) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص١١٩٩.
(٤) ابن الديبع، قرة العيون، مخطوط، ص ١٥٦.
(٥) ابن الديبع، الفضل المزيد، مصدر سابق، ص٣٦٠.

من القتلى من الجانبين اليمني والمملوكي. ووصلت نجدة طاهرية من السلطان عامر بجيش يقوده أخوه عبد الملك بن عبد الوهاب ودخل عدن. وهنا وقع اليأس في نفوس سلمان والكردي من الاستيلاء على عدن كما حدث للبو كيرك وسواريز سابقا وذلك بفضل مناعة البلدة وقوة حصونها، فتركوا عدن بعد أن سلبوا المراكب التجارية في الميناء وأخذوها معهم[١].

وفي هذه الفترة استولى السلطان سليم الأول على مصر (١٥١٧م) وسقطت بذلك دولة المماليك الجراكسة، فأسقط في يد المماليك في اليمن، وخصوصاً أن الشريف بركات كان قد بادر إلى إرسال ولده إلى السلطان سليم في مصر ليعلن خضوعه وولاءه للدولة العثمانية، فولاه سليم الأول ولاية الحجاز بكاملها بما فيها جدة. وهنا احتال الشريف بركات على الأمير حسين وطلب منه أن يأتي إليه ليتباحث في أمر جدة ويسمع منه الأحكام السلطانية. وأعلن المماليك آنذاك ولاءهم للدولة العثمانية الجديدة، وذهب حسين إلى الحجاز، وقابل الشريف بركات في المدينة المنورة، وهنا يقول النهروالي أن الشريف بركات قال لحسين الكردي: «ورد حكم السلطان بأن يجهزك إلى مصر، ورسم عليه بعض العبيد، ونزلوا به إلى جدة – التي كان نائبها – وأركبوه جلبة، فلما وصلوا به إلى البحر غرّقوه في البحر هناك وأكلته الحيتان»[٢]، وذلك انتقاماً منه لأعماله القاسية ضد أهل الحجاز وجدة أثناء ولايته عليها عندما أخذ أموالهم ليبني أسوار البلدة وحصونها. وفي الحقيقة فإنّه لولا تلك التحصينات التي يعود إليه الفضل في بنائها: لما صمدت جدة أمام الحملة البرتغالية الكبيرة بقيادة سواريز عام ١٥١٧م، وذلك باعتراف البرتغاليين أنفسهم[٣].

---

(١) ابن الديبع، قرة العيون، مخطوط، ص ١٥٧

(٢) قطب الدين النهروالي، الاعلام باعلام بلد الله الحرام، مصدر سابق، ص١٢٨

(٣) فاروق أباظة، عدن والسياسة البريطانية، مرجع سابق، ص٤٥

وهكذا انتهت حياة الأمير حسين الكردي، ولم يبقَ من قادة الحملة المملوكية الثانية سوى سليمان الرومي الذي أعلن ولاءه للدولة العثمانية وبقي في جدة مع أسطوله ثم عاد لمصر. وأما ما تم بشأن السلطان عامر بن عبد الوهاب، فقد تولى أمر المماليك في اليمن - بعد مقتل برسباي على يد اليمنيين - الأمير اسكندر. وقام هذا الأمير بمواصلة قتال الطاهريين الذين أعلنوا الولاء بدورهم للدولة العثمانية، وكان السلطان عامر ينسحب من أمام المماليك من مدينة إلى أخرى، من «تعز» إلى المقرانة مقر حكمه التي نهبها المماليك بثروتها الضخمة، ثم إلى صنعاء[1]. وأخيراً تفوق المماليك على الطاهريين وهزموهم في أكثر من موقعة ودحروهم وأخرجوهم عن معظم مدن اليمن المهمة التي كانت تحت أيديهم. وأضحى السلطان عبد الوهاب بعدئذ وحيداً مع قلة من الجنود. وتعود أسباب هذه الهزيمة إلى:

١) تفوق الأسلحة المملوكية من بنادق ومدافع وغيرها وتفوق الجيش النظامي المدرب على التجمعات الحربية القبلية والعشائرية.

٢) مساعدة الأشراف الزيديين بزعامة الإمام شرف الدين يحيى للمماليك في اليمن، بالإضافة كذلك لأشراف جيزان ومساندة كثير من القبائل اليمنية المناوئة للطاهريين مثل قبيلة «المعازبة».

٣) انحلال وتدهور معنويات الطاهريين إثر الانتصارات المتلاحقة للمماليك وصعوبة الأوضاع الاقتصادية في البلاد آنذاك.

٤) مقتل عضد عبد الوهاب في الجيش وقائده (عبد الملك) يوم الخميس ٢٢/ربيع الآخر من عام ٩٢٣هـ[2]، ونذكر هنا التاريخ بالتفصيل

---

(١) محمد يحيى الحداد، تاريخ اليمن السياسي، (د.م، ١٩٧٦)، ص٣٠٨.

(٢) فاروق أباظة، عدن والسياسة البريطانية، مرجع سابق، ص٤٤؛ محمد الحداد، مرجع سابق، ص٣٠٨.

حيث أنه في اليوم التالي أي الجمعة ٢٣/ربيع الآخر من نفس العام وبينما السلطان عبد الوهاب يهرب إلى حصن ذي مرمر في قلة من جنوده تعرف عليه رجل من قبيلة «سعوان» ودل الغزاة عليه فقبض عليه الجراكسة وقتلوه في ذاك اليوم[1]، وبذلك انتهى ملك آل طاهر في اليمن بعد أن استمر ٦٥ عاماً فقط، حيث لم يستمر حكم الطاهريين بعد عامر بن عبد الوهاب. فخلال أربع سنوات من موت السلطان عامر تفككت أسرة هذا السلطان وتنازع أفرادها الأمر بينهم، مما أدى إلى انهيار موقف الطاهريين أمام أعدائهم من المماليك والزيديين[2].

هكذا أسدل الستار على أهم فصول مقاومة الطاهريين والمماليك للغزو البرتغالي للبحار الشرقية وتهديدهم للبحر الأحمر والتجارة الإسلامية فيه، وننهي هذا الفصل بذكر الكارثتين اللتين وقعتا للدولتين الطاهرية والمملوكية، حيث يشاء القدر أن تسقط كلاهما في نفس العام ٩٢٣، (١٥١٧م) سقطت أولاً الدولة المملوكية - في مصر - تحت ضربات ومدفعية العثمانيين، ثم تلتها الدولة الطاهرية تحت عنف وقسوة الجيش المملوكي. وكانت هذه الحملة العسكرية التي عرفت بتجريدة الهند الثانية، قد قدمت لإنقاذ اليمن والبحر الأحمر وحمايته المنطقة من التهديد والغزو البرتغالي ولكنها لم تحقق من أهدافها شيئاً.

---

(١) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، مصدر سابق، ج٢، ص٦٥١· العيدروس، النور السافر، مصدر سابق، ص١١٨·

قطب الدين النهروالي، البرق اليماني، مصدر سابق، ص٢٩· ابن الديبع، قرة العيون، مخطوط، ص ص ١٥٩، ١٦٠

(٢) بومخرمة، قلادة النحر، مخطوط، ص ص ١٢١٠، ١٢١١

الفصل السابع

ثورة عام ١٥٢١م في الخليج ضد البرتغاليين ونتائجها

- أسباب الثورة.
- الثورة تنطلق من هرمز وموانىء الخليج وعمان.
- مواجهة حكومة الهند البرتغالية للثورة في الخليج العربي وعمان.
- أسباب فشل الثورة ونتائجها.

ثورة عام ١٥٢١م في الخليج
ضد البرتغاليين ونتائجها

أسـباب الثـورة

هل يمكننا عزل ما حدث بعد بضعة أشهر من استشهاد مقرن الجبري في الخليج عن تمرد وثورة أهل الخليج على البرتغاليين بعد تلك الحادثة ؟؟

في الواقع أن خضوع سكان الخليج العربي ومناطق الساحل في عُمان للسيطرة البرتغالية أمر مشكوك فيه. فمنذ وطأت أقدام البرتغاليين سواحل الخليج عام ١٥٠٧م، وذلك باعتراف المصادر البرتغالية نفسها أحياناً، ظل الوضع في المنطقة قلقاً ومضطرباً يسبب إحراجاً وتحدياً للوجود البرتغالي برمته في البحار الشرقية. وقد استمر ذلك الوضع حتى بعد احتلال هرمز عام ١٥١٥م على يد البوكيرك والقضاء على إمارة الجبور في البحرين والقطيف على يد أنطونيو كوريا عام ١٥٢١م.

لقد عاش البرتغاليون في الخليج العربي على فوهة بركان ينذر بالإنفجار في أية لحظة. وقد حدثت أولى بوادر ذاك الإنفجار عام ١٥١٩م انطلاقاً من قلهات المتمردة دائماً، لكن الغريب أنه في الوقت الذي كان فيه ملك هرمز «تورانشاه» ينتظر الفرصة المواتية للثورة على البرتغاليين والعودة إلى العصر الذهبي والإستقلال لمملكته، فإنه استعان بالغزاة البرتغاليين ضد تلك الثورة والتمرد الذي انطلق من قلهات بقيادة حاكمها شرف الدين في عام ١٥١٩م، وذلك لكبح جماحها وإعادتها إلى حظيرة هرمز وإدارتها البرتغالية الهرمزية. وأرسلت القوات البرتغالية على عجل من الهند للقضاء على التمرد في قلهات، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً كثيراً، بل وقع عدد من جنودها أسرى في يد قوات شرف الدين.

ولولا تدخل نائب الملك في الهند ديجو لوبيز دي سكويرا شخصياً عام ١٥٢٠م بحضوره إلى المنطقة الساحلية من عُمان والوصول إلى تسوية مرضية للطرفين البرتغالي والقلهاتي واطلاق سراح الأسرى البرتغاليين الخمسة عشر، لما استتبت الأمور[١].

أما ثورة عام ١٥٢١م، والتي جاءت بعد سقوط إمارة الجبور في البحرين والقطيف بعدة أشهر، فإنه يمكن قراءة بعض أسبابها فيما كتبه ملك هرمز تورانشاه باللغة العربية وأرسله في عهد لوبو سواريز نائب الملك في الهند، إلى بلاط لشبونة، حيث قال: «اليوم هرمز من توابعكم، وعمالكم فيها يتدخلون في كل الأمور الداخلية، ونحن ننتظر منكم الاهتمام بهذا الأمر والنظر إلى تعمير المنطقة حيث أن أحوال مملكة خراسان (الصفوية) مضطربة مما تسبب عنه توقف القوافل التجارية لهذه الولاية، ومن ناحية موانيء الهند فإن القوافل لا تأتي إلاّ من ثلاث موانيء فقط، بعد أن كانت تأتي من جميع موانيها من قبل!! ولهذا فقد قلّ المحصول، وبالتالي قلّ الدخل وأصبحنا لا نتعامل مع أحد، ويأتي عمالكم ومسئوليكم لدينا كل عام ويمكثون فترات طويلة ينفقون فيها ببذخ»[٢].

وسبب هذه الرسالة والشكوى الدائمة من ملك هرمز والموانيء التابعة له من البرتغاليين، أن نائب الملك في الهند (لوبو سوارين)، كان قد اتبع سياسة جديدة تختلف عن سلفه البو كيرك، في أنها لا تعتمد البطش والتنكيل، بل تستهدف إنعاش التجارة البرتغالية بالطرق السلمية. لكن هذه السياسة قامت أيضاً على تعيين ضباط عسكريين لتحصيل ضرائب المدن التجارية في عُمان والخليج وسائر المناطق البرتغالية في بحار

---

(١)- Miles, Op. Cit., P. 156.

(٢) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص ص ٢٦، ٢٧.

الشرق، وفق تعليمات لشبونة. وكان هذا الأمر مما ساعد هؤلاء العسكريين على الإنغماس في التجارة. وتحول أولئك القادة إلى تجار وسماسرة واعتبر هؤلاء العسكريون القيادة مسبة والكرامة فضيحة - كما يذكر (Wilson) وحسن السمعة مذمة ونقيصة[١].

وقد نظر سكان الخليج ومناطق سواحل عُمان إلى هذه السياسة ليس من منظور هدفها الظاهر، وهو تخفيف السيطرة الاحتكارية التقليدية على التجار، بل في هدفها الباطن، باعتبارها زيادة في التحكم والسيطرة على يد القادة العسكريين مباشرة، وقد كان معظم هؤلاء الضباط ذوي أخلاق فاسدة ومرتشين ولا يفقهون في التجارة شيئاً. ولم تلبث أن استقرت الكراهية في نفوس سكان المنطقة بسبب سوء إدارة هؤلاء ومعاملتهم للموانيء التجارية وهذا ما نلمسه في رسالة تورانشاه المذكورة. أضف إلى ذلك الرغبة في التخلص من الوجود البرتغالي برمته في الخليج العربي، لذا قامت تلك الثورة العارمة في هرمز وموانيء الخليج وعُمان ضد البرتغاليين في نوفمبر ١٥٢١م، التي يمكن أن نجمل أسبابها في التالي:

١) قرار ملك البرتغال بوضع موظفين برتغاليين في إدارة جمارك هرمز بدلاً من الهرامزة، وخضوع الملك لهذا الأمر كما نجد كذلك أن المعاملة القاسية للأهالي التي تسبب فيها مشرفو الجمارك هؤلاء، قد قللت من أرباح الحكام والتجار معاً[٢].

٢) عرقلة السلطات البرتغالية للنشاط التجاري لسكان الخليج مع موانيء الهند، وفرض ضرائب باهظة أثقلت كاهل الناس والحكام، وعدم اهتمام المسئولين البرتغاليين بالشكاوي حول هذه القضايا.

---

(١) Wilson, Op. Cit., P.122.

(٢) Sousa, Op. Cit., Vol. I, P. 263; Admiyat,, Op. Cit., P.21. -

٣) قسوة الحكم البرتغالي ونظرته العنصرية للعرب والمسلمين، وازدياد تعرضهم للحرمات والأماكن الدينية والمساجد وهدمها وانتشار حالات الاغتصاب وهتك الأعراض ونهب الأموال [١].

رغم أن الوجود البرتغالي في هرمز كان قد وافق على أن يحتفظ الملك بسلطته، لكن سلطته كانت سلطة شكلية. فقد أرغمت السلطات البرتغالية الملك على الولاء لملك البرتغال فقط، ولم يكن يسمح له شخصياً بمغادرة الجزيرة إلاّ بإذن رسمي من القائد البرتغالي[٢].

الثورة تنطلق من هرمز وموانىء الخليج وعمان

بداية الثورة:

بعد سبع سنوات فقط من سقوط هرمز تحت السيطرة البرتغالية المباشرة، بدأ التخطيط للثورة على هذه السيطرة والعمل للإطاحة بالنفوذ البرتغالي في هرمز والخليج وعُمان. وكان هذا التخطيط قد تم في السر وداخل بلاط هرمز بين الملك ووزرائه بزعامة شرف الدين. وقد وضعت الخطة بشكل بارع وناجح، وتم إرسال رسائل سرية مع بعض التجار المترددين بشكل روتيني على الموانىء الخليجية التابعة لهرمز في البحرين والقطيف وساحل عُمان. وكانت تلك الرسائل تتضمن تعليمات لحكام هذه الموانىء بالثورة للتخلص من الوجود البرتغالي في المنطقة. وتم تحديد ساعة الصفر في زمن معين وفي ليلة محددة، على أن تقوم الثورة في جميع الموانىء دفعة واحدة. حتى لا يجد البرتغاليون ملاذاً آمناً يحتمون به لضرب الثورة، وحتى لا يفلت أي عسكري برتغالي من أيدي الثوار. وتم الاتفاق على أن تكون ساعة الصفر في فجر يوم ٣٠

---

(١) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٦٢. كذلك أنظر.. - Sousa, Op. Cit., Vol. I,P. 263.

(٢)- Wilson, Op. Cit., P.122.

نوفمبر عام ١٥٢١م[1].

أما الشق الثاني من الخطة الهرمزية فتولاه تورانشاه شخصياً بأن اجتمع بقائد الأسطول البرتغالي في هرمز والخليج آنذاك المدعو «جاركيا دي كوتنيهو» قبل الثورة بفترة، وادعى تورانشاه وجود بعض القراصنة في الساحل العربي قرب عمان على بحر العرب يغيرون على السفن هناك ويشكلون مصدر قلق ومتاعب للتجار، يتصيدون قوافلهم التجارية ويسلبونها. وطالب الملك بوجوب القضاء عليهم في الحال بإرسال بعض قطع الأسطول البرتغالي إلى مناطق ساحل عمان. فصدق القائد الخدعة، وأرسل سفينتين من سفن الأسطول الأربع المتواجدة في ميناء هرمز لهذا الغرض. وبذلك استطاع تورانشاه التخلص من نصف الأسطول البرتغالي وتحاشى نيرانه في الوقت الذي تنشب فيه الثورة، حيث كان هذا الأسطول هو عصب القوة العسكرية البرتغالية في الخليج[2].

وعندما أصبح الوقت ملائماً وحان الموعد المحدد تماماً، ثار بركان الثورة في الخليج وزلزل الأرض تحت أقدام البرتغاليين فجأة وبشكل لم يكن متوقعاً من وجهة نظر البرتغاليين. وكان ذلك في أواخر ذي الحجة عام ٩٢٧هـ/ فجر ٣٠ نوفمبر (١٥٢١م). وكاد هذا البركان أن يقضي على الوجود البرتغالي في الخليج آنذاك، حيث عصفت الثورة بالحاميات العسكرية البرتغالية في كل من هرمز والبحرين وقريات وقلهات وصحار، إثر تعرضها للهجمات من البر والبحر بشكل مفاجيء وساحق، ولولا دفاع البرتغاليين عن أنفسهم بالأسلحة الحديثة لأبيدوا عن آخرهم[3].

(١) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٦٢. - Admiyat, Op. Cit., P.21.
(٢) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٦٢. - Miles, Op. Cit., p.158.
(٣)- Miles, Op. Cit., p. 157.

ففي هرمز: بدأت الثورة بهجوم مباغت قامت به مجموعة فدائية بقيادة شاهبندر التجار على السفينتين البرتغاليتين في الميناء، وأشعلوا فيهما النار. وكانت تلك إشارة – بواسطة نار السفن – للبدء بهجوم فوري على الجنود البرتغاليين الذين كانوا نائمين في بيوتهم داخل المدينة[1]، واستطاعت المجموعات المهاجمة من الجنود والجماهير الغاضبة قتل وأسر أكثر من ستين برتغالياً في هرمز وحدها أثناء الهجوم[2]، بينما تمكن بقية الجنود البرتغاليين من الهرب واللجوء للقلعة البرتغالية الحصينة في ميناء هرمز، حيث تحصنوا بها هناك وظلوا على تلك الحال لبضعة أشهر في انتظار وصول نجدات برتغالية من الهند. وقد تعرض أولئك الجنود خلال تلك الفترة لحصار الهرامزة، فقلت الأقوات لديهم وواجهوا خطر الموت جوعاً وعطشاً[3].

وكذلك نجحت خطة الثورة في بقية مدن وولايات هرمز العربية في الخليج وساحل مناطق عمان.

ففي البحرين: تم مهاجمة البرتغاليين في كل المواقع والمكاتب العسكرية في المدينة، وقتلوا عدداً من الجنود، وهرب الباقون إلى سفنهم في البحر. واستولى الثوار على مركز التجارة البرتغالية وقبضوا على رئيس دار التجارة في الجزيرة ويدعى (روى بالي Ruy Bale) وضُرب بشدة ثم شنق وعلق على إحدى أشجار النخيل قرب القلعة التي تعرضت للهجوم أيضاً[4].

صحار: انضمت صحار للثورة أيضاً، وقد استطاعت مجموعة قليلة من

---

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,p. 263.

(٢)- Ibid.

(٣) -Sousa, Op. Cit., Vol. I,p. 263.

(٤) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٦٢؛ - Miles, Op. Cit., p.159; Adiniyat.; Op. Cit., p.22.

البرتغاليين النجاة بأنفسهم والمحافظة على حياتهم، وقد وجدت القبائل العربية فرصتها في الاستيلاء على صحار وطرد الوالي الهرمزي منها، وكان ذلك بقيادة حسين بن سعيد زعيم الجبور آنذاك في الجزيرة العربية وعُمان الداخل(١).

قلهات: كانت المعلومات عن قيام الثورة قد وصلت للبرتغاليين في الوقت المناسب من قائد الحامية العسكرية البرتغالية في هرمز(٢)، ولا يتضح كيف وصلت تلك التحذيرات وبتلك السرعة الخارقة من هرمز إلى أبعد نقطة في أملاكها بالساحل العماني (قلهات)، وقد كان توقيت الثورة وقيامها في وقت محدد في كل المدن وبشكل بالغ السرية، ولكن ربما يكون هناك احتمال تسرب أنباء الثورة وتوقيتها إلى البرتغاليين في قلهات قبل غيرها إثر خيانة ما، أو أن موعد الثورة في هذه المدينة قد تأخر أو تأجل لسبب ما أيضاً. وربما كان هذا هو ما دعى إلى تغيير حاكم قلهات من قبل ملك هرمز سريعاً، حيث أننا نجد حاكماً آخر أثناء تواصل الثورة في مطلع عام ١٥٢٢م يدعى (ديلامير شاه)(٣)

ولهذا السبب تمكن عدد من البرتغاليين في قلهات من النجاة بأنفسهم وأمتعتهم الثمينة التي حملوها معهم وهم يغادرون سريعاً إلى سفنهم في الميناء، ومع ذلك فقد اعترض الأهالي الحاكم وجنوده وقتلوا منهم عدداً وأسروا الباقين(٤).

مسقط: أما في مسقط فإن الظروف كانت مختلفة، فهي المدينة الوحيدة التي وجد بها البرتغاليون بعض الأصدقاء والحماية لأرواحهم – كما

---

(١) اندرو ويليا مسون، مرجع سابق، ص٥٣؛ س. بكنجهام، مرجع سابق، ص١٩٢؛ - Miles, Loc. Cit.

(٢) - Miles, Loc. Cit.

(٣) فتح قلهات وهرمز، مرجع سابق (دون مؤلف) ص١١٨.

(٤) - Miles, Op. Cit., p. 159.

يذكر (Miles) – . وفي نفس الوقت فإننا نسمع لأول مرة هنا عن وجود وال عربي في المدن الساحلية العمانية التابعة لهرمز، وتطلق عليه المصادر البرتغالية اسم «الشيخ راشد»(١).

ويبدو أن الشيخ راشد هذا كان على خلاف مع ملك هرمز، وقد تظاهر بموافقته على إعلان الثورة دون اعتراض، إلاّ أنه بيَّت النية بخلاف ذلك. فقد انتهز فرصة قيام الثورة ضد البرتغاليين ليستغلها لصالحه ويتخلص من تبعيته لنفوذ هرمز ويعلن استقلاله بمسقط، ولذا فإنه فلم يشارك في التمرد وإعلان الثورة(٢). وهذا ما أطلق عليه بعض الكتّاب الإيرانيين المعاصرين (خيانة شيخ مسقط للثورة)(٣). وعدوا ذلك سبباً في عدم نجاحها كما كان متوقعاً. إلاّ أن الشيخ راشد، رغم عدم مشاركته في الثورة باسم مسقط، لم تكن لديه القوات العسكرية الكافية ولا الشجاعة – كما يقول جهانكير – ليبقى في المدينة، وذلك لخوفه من انتقام الهرامزة منه على يد حاكم قلهات الجديد في مطلع عام ١٥٢٢م، وهو (رئيس ديلامير شاه) بسبب موقفه من الثورة(٤). لذلك هرب هذا الشيخ من مسقط مع بعض أتباعه قبل مجيء البرتغاليين إلى قلهات لنجدة الحاميات البرتغالية وإعادة الأمور إلى وضعها السابق تحت السيطرة البرتغالية، ولكن ذلك تم بعد أن فقد البرتغاليون ما بين مائة إلى مائة وعشرين قتيلاً في تلك الثورة(٥).

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,p. 263.
(٢) - Miles. Loc, Cit.,
(٣) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٦٢؛ جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢٧؛ - Adinlyat., Op. Cit., P.22.
(٤) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢٧.
(٥) - Miles, Op. Cit., p. 159.

مواجهة حكومة الهند البرتغالية للثورة
في الخليج العربي وعمان

كان دورات دي مينزيس Dom duarte De Menezes، نائب ملك البرتغال في الهند أثناء قيام ثورة الخليج في نوفمبر ١٥٢١م قد علم بأنباء الثورة من رسول برتغالي أرسله (جوا دي ميرا) انطلق من هرمز على عجل إلى جوا بالهند. فقام نائب الملك على الفور بإرسال (دوم كونزالو – Dom Conzalo) إلى هرمز لحث رجال الحامية المحاصرين هناك على المقاومة والصمود. ريثما تصلهم نجدات سريعة من الهند. ثم جاءت نجدة فعلاً بقيادة (مانويل دي سوزا – De Souza) والوكيل التجاري في ساحل عمان (فاز دي فيجا) وقد استطاعت تلك النجدة تخليص بعض المحاصرين في قلعة هرمز ونقلهم إلى مسقط، التي وجدها دي سوزا شبه مهجورة بسبب فرار الشيخ راشد وأتباعه منها بعدما علم بخروج جيش كبير من قلهات عن طريق البر بقيادة حاكمها ديلامير شاه للهجوم على البلدة وتأديب الشيخ راشد(١).

ولذا، فعندما سمع الشيخ راشد بوصول (دي سوزا) إلى ساحل عُمان انتظر مساعدته للعودة إلى المدينة، إلاّ أن القائد البرتغالي توجه أولاً إلى قلهات، وطلب هناك من وزير ديلامير شاه الخواجة زين الدين اطلاق سراح الأسرى البرتغاليين في قلهات، لكن الوزير أخبره بأن تورانشاه ملك هرمز لديه رسالة إلى شقيق نائب الملك بالهند (دوم لويز دي منزيس – D. Luiz De Menezes) الذي يُقال بأنه في طريقه إلى ساحل عُمان، وهو في انتظار وصول الرسالة من هرمز(٢). وبما أن قوة هذا القائد البرتغالي كانت ضعيفة فقد أُضطر للانتظار أمام قلهات لحين وصول نجدة من الهند. وقد وصلت هذه النجدة في شهر فبراير ١٥٢٢م،

---

(١)- Miles, Op. Cit., 160

(٢) فتح قلهات وهرمز، مرجع سابق، ص١١٨؛ - Miles, Op. Cit., P. 160.

وكانت تتكون من ثمان سفن بتجهيزاتها الكاملة من الأسلحة والمدفعية، بقيادة شقيق نائب الملك بالهند (دوم لويز) وكان هدفه القضاء كلياً على ثورة الخليج وذيولها، والانتقام من الذين تسببوا في مقتل العديد من أفراد الجيش البرتغالي في المنطقة، ولدعم النفوذ والسيطرة البرتغالية من جديد(١).

وحين رسا الأسطول البرتغالي في قلهات، كان حاكمها ديلامير شاه في طريقه إلى مسقط للانتقام من الشيخ راشد. طلب (لويز) من الوزير خواجه زين الدين إطلاق سراح الأسرى البرتغاليين لديه والذين فاق عددهم العشرين أسيراً(٢). إلاّ أن الوزير سلم القائد البرتغالي رسالة تورانشاه التي وصلت من هرمز. وكانت الرسالة تحتوي على شكوى مريرة من أسلوب حكم البرتغاليين لهرمز وتوابعها في ساحل عُمان وتصرفاتهم التي لا يمكن السكوت عنها، ولكنه لم يأتِ في الرسالة على ذكر الأسرى أو إطلاق سراحهم، وهنا أصرّ (لويز) على إطلاق سراح الأسرى قبل بحث أي موضوع آخر، لكن الوزير زين الدين اعتذر عن ذلك بحجة أن لا صلاحية لديه بشأن هذا الموضوع، فتحديد هذا الأمر يعود إلى حاكم قلهات ديلامير شاه ولابد من انتظار عودته(٣).

وعندما كان القائد (لويز) يفكر في كيفية التغلب على هذه المشكلة وصلته رسالة من الشيخ راشد في مسقط – وقد علم بقدوم لويز من الهند – يطلب فيها مساعدته لأن قوات ديلامير شاه قد وصلت إلى مدينة مسقط براً، وكانت تستعد لمهاجمة المدينة. فقرر (لويز) تكليف إحدى السفن الحربية بالتحرك من قلهات إلى مسقط لمساعدة الشيخ راشد على أن

---

(١) - Ibid.

(٢) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٦٤؛ فتح قلهات وهرمز، مرجع سابق، ص١١٩.

(٣) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٦٤.

تقتصر المساعدة بإطلاق المدافع التي تحملها السفن ضد قوات ديلامير شاه إنْ لزم الأمر دون إنزال جنود للاشتباك على البر وذلك خوفاً من هزيمة القوات أو أسرها كما حدث في قلهات قبل ذلك. أما الشيخ راشد فقد استعان بخمسة متطوعين برتغاليين للقتال معه!! أو ربما للاستعانة ببنادقهم، وقام بجيشه المسقطي بالهجوم على جيش ديلامير شاه حاكم قلهات الهرمزي في منطقة الوادي الكبير قرب المدينة واستطاع هزيمته وقتل قائدهم ديلامير شاه أيضاً(١).

وبعد يومين من هذا الحادث وصل (دوم لوين) إلى مسقط وشكر الشيخ راشد على خدماته وولائه للبرتغاليين خلال فترة الثورة واضطراباتها، ووضع دوم لويز حامية في مسقط تتكون من عشرين جندياً برتغالياً للدفاع عن المدينة والشيخ راشد وعزز ذلك بمرابطة سفينة حربية في الميناء بصفة دائمة ثم غادر لويز مسقط بعد ذلك(٢).

أسباب فشل الثورة ونتائجها

ذكرنا أن بعض زعماء القبائل العربية في عمان الداخل والقريبين من أحداث ثورة مدن الساحل بقيادة هرمز في تلك الفترة، قد حاولوا استغلال فرصة الثورة لإعادة الحكم العربي للمدن الساحلية العمانية، ولكنهم لسوء الحظ عملوا على تحقيق ذلك بمساعدة برتغالية، مما حدا بالكاتب الإيراني عباس إقبال للقول: «وفي ميناء صحار قام أيضاً شيخان خائنان من شيوخ العرب هم سلطان بن مسعود حسين بن سعيد الجبري بحركة ضد رئيس شهاب الدين الحاكم الهرمزي لمدينة صحار»(٣)، فما هي حكاية ظهور قوة الجبور مرة أخرى في الساحل العماني والاستيلاء على صحار؟؟

---

(١) Miles, Op. Cit., p. 161.

(٢) عباس إقبال، مرجع سابق، ص ٦٤؛ جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢٧.

(٣) عباس إقبال، رجع سابق، ص٦٥.

عندما وصل (دوم لوين) في نفس العام ١٥٢٢م، إلى صحار وجد هناك قبيلتين عربيتين كانتا تحاولان انتزاع الحكم من الوالي الهرمزي رئيس شهاب الدين فعلاً. وكانت إحدى هذه القبائل بزعامة سلطان بن مسعود الذي كان يقود قوة من الفرسان قدرت بمائتين وخمسين فارساً وثلاثة آلاف من الراجلة، أما القبيلة الأخرى فقد كانت بزعامة الشيخ حسين بن سعيد زعيم قبيلة الجبور الكبيرة آنذاك، وكان نفوذه يمتد من البحرين إلى ظفار في ساحل عمان. وقد كانت معه قوة من الفرسان قوامها خمسمائة فارس وأربعة آلاف من الراجلة[١]. ويذكر دوم لويز أن هذين الزعيمين العربيين كانا دائماً في نزاع مع مملكة هرمز ويتطلعان إلى السيطرة على أملاكها في المنطقة الساحلية من عُمان[٢].

في هذه الفترة (مارس ١٥٢٢م)، كان الجبور بقيادة الشيخ حسين بن سعيد مطبقين على صحار من جهة البر، ووصل (لوين) بأسطوله البرتغالي قبالة ساحل صحار وهو يعتزم اقتحام المدينة أيضاً لإنهاء التمرد بها ضد البرتغاليين، وأدرك القائد البرتغالي بأنه لن يستطيع الوصول إلى نتيجة حاسمة مع صحار من دون أن يغري زعيم الجبور الشيخ حسين بالتعاون معه، فاتصل به لهذا الغرض، كما يبدو من الأحداث التي تلت ذلك. ورحب الشيخ حسين بذلك التعاون شريطة أن يحكم الجبور صحار بعدها. ويتضح هنا في هذا التعاون أن قيادات الجبور في تلك الفترة كانت معنية أساساً بالإنتقام من أتباع ملك هرمز، وهنا يمثلهم رئيس شرف الدين، وهو أحد كبار أعوان ملك هرمز تورانشاه، ومن المحتمل أن يكون هذا الرجل قد ساهم بقواته في الحملة البحرية التي كانت قد انتهت باحتلال البحرين واستشهاد مقرن[٣].

(١) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,pp. 265 - 267

(٢) - Miles, Op. Cit., p. 161.

(٣) الحميدان، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية»، مرجع سابق، ص٨٢.

تم الاتفاق بين البرتغاليين والجبور على هذا الأساس، وفي يوم ١١ مارس عام ١٥٢٥م، (١٢ ربيع الآخر ٩٢٨هـ) اتخذ الشيخ حسين مواقعه عند مشارف مدينة صحار تمهيداً لمهاجمتها فيما استعد الأسطول البرتغالي من البحر لضرب صحار. غير أن الوالي الهرمزي شهاب الدين تمكن من الفرار والإفلات من الكماشة والهرب إلى هرمز تاركاً وراءه رجال حامية المدينة وعددهم ثمانون جندياً بلا قيادة في قلعة صحار، وقد استسلموا في الحال بعد أن رأوا عدم جدوى الدفاع ومقاومة الأسطول البرتغالي ومدافعه(١). واضطر سكان صحار حيال هذا الأمر لطلب الحماية من الجبور خشية تنكيل البرتغاليين بهم،خاصة وأن البرتغاليين كانوا قد نزلوا المدينة من جهة الساحل وأخذوا ينهبونها ويشعلون النار في منشآتها وذبحوا بعض سكانها عمداً، فاستاء الشيخ حسين بن سعيد لذلك التصرف حين دخل المدينة من جهة البر، واحتج لدى القائد (دوم لويز) على ذلك(٢). تم تسوية الأمر بين الجانبين ودفع تعويض مناسب لزعيم الجبور، وسلموا له المدينة وعينوه والياً عليها بشرط ألاّ تكون له علاقة بهرمز، كما عينوا بجانبه مأموراً برتغالياً لإدارة شئون صحار المالية وجمع الضرائب السنوية من التجارة(٣). وبذلك تم فصل صحار رسمياً عن هرمز.

أما في هرمز فقد دب الرعب في قلب تورانشاه عندما علم بوصول الأسطول البرتغالي بقيادة (دوم لويز). عرف الملك بما حصل في مسقط وصحار. وأدرك أن خطة الثورة بدأت تفشل. وفي خضم ثورته وغضبه على شيوخ العرب في مسقط وصحار، وخشية أن تسقط هرمز في أيدي

(١) Miles, Op. Cit., p. 162. -

(٢) عبد اللطيف الحميدان، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية»، مرجع سابق، ص٨٢.

(٣) Sousa, Op. Cit., Vol. I,p. 265-

البرتغاليين مرة أخرى في عهده جمع كل ما خف وزنه وغلا ثمنه مع بعض الأموال والذهب، وقام بإحراق مدينة هرمز، وهرب إلى جزيرة قشم المجاورة التي تقع على بعد ثلاثة فراسخ من هرمز. وظلت هرمز تحترق لمدة أربعة أيام بلياليها حسب قول (Sousa)[١].

لكن تورانشاه وبعد هروبه ووزيره إلى جزيرة قشم، وجد ميتاً ذات يوم بالسم أواسط عام ٩٢٨هـ (١٥٢٣م). ويذكر عباس إقبال أن الوزير شرف الدين هو الذي دس له السم في طعامه[٢]!!، بينما يذكر جهانكير قائمقامي، أن هذا الأمر من القضايا التي مازالت غامضة ومبهمة ولا يوجد حولها مصادر كافية. فما هو السبب في مقتل تورانشاه على يد الرئيس شرف الدين بن نور الدين وزيره الذي كان يصاحبه دائماً في جهاده ضد البرتغاليين، خاصة أنه من نفس مذهبه أيضاً!!؟ كان شرف الدين هذا من أشد المعارضين لحكومة البرتغال في عهد محمد شاه ابن أخ تورانشاه المقتول، حتى أن البرتغاليين ضاقوا ذرعاً بمعارضته لهم في هرمز ونفوه إلى لشبونة عام ١٥٢٩م[٣]. إلاّ أنه يمكن إضافة رأي آخر يوضح ربما بعض جوانب هذه القضية التي تحير فيها قائمقامي، حيث أن هناك تلميحات لدى المؤرخ البرتغالي (Sousa) تقول أن للشيخ حسين بن سعيد زعيم الجبور يداً في مقتل تورانشاه في قشم[٤]، ويؤيد هذا الرأي (Wilson)، حين يذكر أن أنه أثناء وجود تورانشاه في جزيرة قشم أغتيل هناك من جانب سكان الجزيرة[٥]. فهل صمم الجبور على الإنتقام بتتبع قتلة السلطان مقرن الجبري وكل من شارك في غزو البحرين وإسقاط

---

(١) - Ibid.

(٢) عباس إقبال، مرجع سابق، ص٦٥.

(٣) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢٨.

(٤) - Sousa, Op. Cit., Vol. I,pp. 265, 266.

(٥) - Wilson, Op. Cit., p.123.

إمارة الجبور بها؟ ويبدو أنه من المرجح أن حسين بن سعيد قد قام بإرسال أحد أتباعه إلى قشم وعمل مع جماعة تورانشاه حتى توصل إلى طريقة لقتله بالسم إنتقاماً وثأراً وتصفية لحساب مع عدوهم اللدود تورانشاه. وهل كان موقف الجبور ونزاعهم المستمر ضد هرمز وهو السبب في فشل الثورة ضد البرتغاليين في الخليج وعُمان بين أعوام ١٥٢١م – ١٥٢٢م، نتيجة موقف الجبور في صحار، وكذلك نتيجة للإمدادات التي وصلت للبرتغاليين من مسقط، وعدم تحرك الجبور في عمان الداخل ضد البرتغاليين في ساحل عمان، مما جعل تورانشاه، محرض الثورة ومخططها، يفقد الأمل في نجاحها؟ هذا فعلاً ما يروج له الكتاب الايرانيون أمثال عباس إقبال وجهانكير وآدميات وفروغي، الذين وصفوا شيوخ العرب في عمان «بالخونة»، في حين أنهم تغاضوا عن تحالف الشاه إسماعيل الصفوي مع البرتغاليين ضد هرمز سابقاً من أجل السيطرة على الخليج العربي بصفة عامة، كما نجد أنهم لم يشيروا إلى سعي أمراء فارس ولار للتحالف مع البرتغاليين[1]، وتغاضوا كذلك عن موقف تورانشاه نفسه قائد ثورة ١٥٢١م، في تحريضه البرتغاليين بل ومساعدتهم بقواته العسكرية لاحتلال البحرين والقطيف وقتل السلطان مقرن وإسقاط إمارة الجبور في شرق الجزيرة، بدلاً من التحالف معها في الثورة ضد البرتغاليين وطردهم من الخليج. ويتغافل هؤلاء الكتّاب أخيراً عمداً عن الإشارة لمواقف التحدي التي وقفتها قبائل الجبور وبعض القبائل العربية عموماً طوال فترات سابقة منذ ظهور البرتغاليين على مسرح الأحداث في الخليج العربي وعمان بعد عام ١٥٠٧م، ولا يذكر أحد من هؤلاء المؤرخين حقيقة مهمة، وهي أن معظم سكان مملكة هرمز التي

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، مرجع سابق، ص٧٩؛ الحميدان، «التاريخ السياسي لإمارة الجبور»، مرجع سابق، ص٨٢.

ثارت ضد البرتغاليين على طول الساحل العربي من هرمز إلى قلهات كانوا من العرب. وكما يقول – جمال زكريا – أن الأمر لم يكن خيانة قام بها بنو جبر في عمان أو غيرها من المناطق العربي، فهم قد أبدوا صلابة وشجاعة منقطعة النظير في مقاومة الوجود البرتغالي في المنطقة منذ أول لحظة لوصوله، وإنما السبب في موقف جبور عمان يرجع أساساً إلى أن طبيعتهم البدوية التي طغت على نفوسهم واستبدت بهم الرغبة في الانتقام من ملك هرمز الذي سبق له التعاون مع البرتغاليين مما كان سبباً في إنهيار المقاومة العربية الأولى ضد هولاء بقيادة زعيم الجبور الكبير مقرن بن زامل الجبري. ولكن جاء كل ذلك على حساب القضية العامة في الخليج العربي. فقد استطاع البرتغاليون من خلال إثارة الخلافات واللعب علي المتناقضات واستغلال تطلع البعض إلى السيطرة والثراء إلي استعادة السيطرة على الخليج تماماً مرة أخرى وذلك بعد عامين (١٥٢٣م) وشددوا من قبضتهم علي كل نواحي هرمز والموانيء التابعة لها إثر توقيع معاهدة «ميناب»(١).

نتائج ثورة ١٥٢١م على الحكم الوطني في هرمز:

كان من الطبيعي أن يؤدي فشل ثورة هرمز وتداعياتها عام ١٥٢١م إلى وضع نهاية للحكم الوطني في مملكة هرمز وتشديد القبضة العسكرية والاقتصادية البرتغالية على الجزيرة. فقد قام (لويز دي مينزيس) بعد صدور الأوامر إليه من جوا، بتعيين محمد شاه سيف الدين أبا نصر حاكماً جديداً على هرمز التي عادت للسيادة البرتغالية عام ١٥٢٣م، وقد كان هذا الحاكم صبياً صغيراً لم يتعد عمره ١٣ سنة وعين هذا الصبي رئيس شرف الدين حاكم صحار السابق الذي هرب مع تورانشاه إلى قشم وعاد

---

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، مرجع سابق، ص٧٨، ٨٠.

بعد أن مات ملكه هناك وزيراً له!!(١).

في هذه الفترة، والأحداث الجسيمة تعصف بهرمز والخليج، يقوم الشاه إسماعيل مرة أخرى بتصرف غريب، ذلك أنه أرسل مندوب من قبله إلى هرمز يطالب الملك الجديد محمد شاه الأول، بالضرائب التي لم تدفعها هرمز تحت الإدارة البرتغالية طوال السنوات السابقة لما بعد اتفاق ١٥١٥م مع البوكيرك!! وهدد الشاه بأنه سيمنع مرور القوافل التجارية البرية من خراسان وكرمان وفارس إلى سواحل الخليج وهرمز. وقد اعتذر الملك محمد شاه للبرتغاليين عن دفع الضرائب متذرعاً بالحصار الاقتصادي الإيراني. وهنا رأى نائب الملك في الهند «دورات مينزيس» أن يسارع لعقد إتفاقية جديدة مع محمد شاه، حتى لا تتكرر ثورة ١٥٢١م، مرة أخرى، وكذلك عمل لإسكات مطالب الشاه إسماعيل في ضرائب هرمز من ناحية أخرى(٢)، وعقدت هذه الاتفاقية في بندر ميناب بالساحل الفارسي، فأطلق عليها «معاهدة ميناب» وذلك في ٢ مضان ٩٢٩هـ (٢٣ يوليو ١٥٢٣م). وقد وقع المعاهدة عن الجانب البرتغالي نائب الملك في الهند دورات مينزيس، وعن الجانب الهرمزي محمد شاه الأول المغلوب على أمره ووزيره رئيس شرف الدين، وقد جرت المعاهدة على غرار المعاهدة الأولى التي أبرمها والد محمد شاه، سيف الدين مع البو كيرك، وقد تضمنت بنود المعاهدة ما يلي(٣):

١) مملكة هرمز تابعة لملك البرتغال مباشرة تسلم له متى طلبها على أن يكون محمد شاه حاكماً من قبله، على هرمز.

٢) يتم زيادة مبلغ الضريبة السنوية التي تدفعها هرمز للبرتغال إلى «ستين ألف أشرفي». وفي حالة تعطل وصول القوافل التجارية البحرية

---

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠.

(٣) Sousa, Op. Cit., Vol. I,pp. 265 - 266.

من كجرات وكمباي وموانىء الهند إلى هرمز يخفض هذا المبلغ إلى ٢٥ ألف أشرفي، يدفع مقدمها بعد هذه الإتفاقية.

٣) يجب على أتباع ملك هرمز ورعاياه ألاّ يحملوا أية أسلحة باستثناء المسئولين الرسميين فقط للدفاع عن أنفسهم.

٤) يقوم ملك البرتغال بتقديم الحماية لأمير هرمز ضد أي نوع من أنواع العدوان الخارجي على مملكته.

٥) يمنع سلطان هرمز من امتلاك قوة عسكرية إلاّ للحراسة والخدمة في البلاط وقصر الحاكم فقط.

٦) يسلم سلطان هرمز جميع النصارى البرتغاليين الذين دخلوا في الدين الإسلامي إلى دولة البرتغال.

وقد كتبت الإتفاقية (المعاهدة) باللغة الفارسية وترجمت للبرتغالية، وأرسلت إلى الملك جون الثالث البرتغالي الذي بعث بدوره برسالة تفويض إلى محمد شاه لحكم هرمز نيابة عنه[1]

لم تمنع هذه الإتفاقية وغيرها من الاتفاقيات والمعاهدات والقرارات البرتغالية، إجحاف وظلم المسئولين البرتغاليين في هرمز وتوابعها، بل كانوا دائماً يطالبون بأموال إضافية وضرائب متزايدة ويقومون بضغوط أكثر من ذي قبل. كانت هذه المعاهدة وغيرها من نتائج إخفاق ثورة ١٥٢١م، حيث أُلغيت الإدارة الوطنية في هرمز، وصار تجارها يتبعون الإدارة البرتغالية الجديدة. ونتيجة للإجراءات القهرية والتنكيل والبطش بالأهالي والتجار، والإشراف على الحركة التجارية في هرمز وتحصيل الرسوم الجمركية بالقوة؛ أصبح البرتغاليون حكاماً فعليين، ولم يعد

---

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص ص، ٣٠، ٣١.

لحاكم هرمز أي أثر في توجيه دفة الحكم في بلاده. وبسبب سوء المعاملة والضغط والإرهاب الذي مارسه البرتغاليون ضد المواطنين والتجار أصبح الناس يفرون من هرمز ويغادرونها بلا رجعة إلى جزر الخليج الأخرى، مثل قشم وغيرها.

ولم يتمكن البرتغاليون بعد إلغاء الإدارة الوطنية وسقوط الحكم الوطني في هرمز. من تسيير دفة الحركة التجارية كما كانت في السابق في هرمز والخليج، وبسبب هذه القبضة العسكرية الحديدية بدأ الركود الاقتصادي يخيم على مملكة هرمز وانتهى ذاك العمران والرخاء الشامل بعد أن عاش سكان هرمز في ظلاله أكثر من قرنين من الزمان(١).

ومع هذا التسلط والقهر البرتغالي والقبضة الحديدية، إلاّ أن شعب الخليج العربي لم يهدأ أو يستكين للمستعمر وسيطرته، فسرعان ما تجددت الثورات في مناطق عمان الساحلية التي كانت تعتبر حتى عام ١٥٢٦م خاضعة لهرمز فقد ضاق الأهالي ذرعاً بما كانوا يعانونه من ظلم وتسلط في تحصيل الضرائب وابتزاز الأموال الذي كان يقوم به قائد الحامية البرتغالية (ديجو دي ميلوه – Diego de Mello)، وهنا حاول الملك الهرمزي بما تبقى له من سلطة وبتحريض من وزيره شريف الدين أن يعلن الاستقلال وناشدا كل من الملك والوزير حاكمي مسقط وقلهات أن يحذوا حذوهما، ولم تهدأ هذه الثورة الثانية إلاّ في عام ١٥٢٧م وذلك دون اللجوء إلى الوسائل القهرية البرتغالية المعروفة، بل بالتحقيق في الشكاوي المرفوعة ضد رؤساء الحاميات البرتغالية في ساحل عمان وهرمز وإقالة بعضهم(٢).

وعلى أثر اتجاه البرتغاليين في هرمز عام ١٥٢٩م إلى تغيير الوزير شرف الدين والتخلص منه نهائياً بإعتقاله وإرساله إلى لشبونة سجيناً،

---

(١) عبد العزيز الشناوي، «المراحل الأولى للوجود البرتغالي»، مرجع سابق، ص، ٦٢٨.

(٢) Miles, Op. Cl., p.163 -

بإعتباره كان يدير الأمور في هرمز بأسلوب معادٍ لمصالح البرتغاليين الاقتصادية، تم تعيين الشيخ راشد حاكم مسقط بدلاً منه. وكان الأخير يطمح منذ مدة للحصول على وزارة هرمز[1]. وبما أن شقيق شرف الدين في البحرين وهو الحاكم من قبل هرمز ويدعى (رئيس بدر الدين)، لم يقبل اعتقال أخيه ونفيه فقد قامت حركة تمرد أدت لقيام ثورة حقيقية. وبالإضافة إلى هذا العامل كانت هناك عوامل أخرى تكمن في الأسباب الداخلية في جزر البحرين نفسها، حيث يذكر - سلفا - أن البرتغاليين رفعوا مبلغ الضريبة السنوية الذي كان على هرمز أن تدفعه لهم سنوياً، إلى مائة ألف أشرفي عام ١٥٢٩م، وبالتالي زادت ضريبة البحرين التي كانت تدفعها إلى هرمز إلى الضعف تقريباً، وتجمعت كل هذه الأسباب الداخلية والخارجية مما أدى رفض بدر الدين دفع ضرائب البحرين وعصيان الأوامر البرتغالية[2].

قرر نائب الملك في الهند إرسال حملة تأديبية لإخماد ثورة البحرين الثانية، وكانت الحملة بقيادة (سيماو داكنها - Simao Dacunha) كما أرسل ست سفن أخرى لمعاونة الحملة مزودة بالمدافع يقودها (دي سوزا)، ويذكر أن بدر الدين جمع حوالي ثمانمائة مقاتل حوله وتحصن بقلعة البحرين ورفض تسليمها للبرتغاليين. ويترجم لنا أحمد بو شرب هذه الوثيقة البرتغالية التي تتحدث عن هذه الثورة البحرينية لعام ١٥٢٩م ويقول فيها قائد حامية هرمز إلى ملك البرتغال «قرر الوالي إرسال سيماو داكونها لاحتلال الحصن [قلعة البحرين][3] وأسر «بدر

---

(١) جهانكير قائمقامي، مرجع سابق، ص٣٤، وقضية الشيخ راشد وتوليه منصب الوزارة في هرمز كأول عربي تحت ظل الهيمنة البرتغالية قضية تحتاج لبحث آخر.

(٢) نونو بي. سلفا، مرجع سابق، ص١٢٨.

(٣) وهذه أول إشارة إلى قلعة البحرين في المصادر البرتغالية، وهناك وصف لها لدي باروس في هذه الثورة.

الدين»، حاكم البحرين، إنْ أمكنه ذلك، وكان مع سيماو ٤٥٠ محارباً، وبعد وصوله إلى البحرين بعث له الرئيس بدر الدين خطاباً يخبره فيه أنه يعتبر نفسه تحت حماية ملك هرمز، وأنه لا يرغب في الحرب. ولكن يبدو أن سيماو لم يستجب له، فلما نزل على البر لاحظ أن الحصن منيع جداً، وذلك بخلاف ما بلغه عنه، إذ ذكر له أنه عبارةعن ركام، ولما نزل المحاربون نصبوا مدفعيتهم التي سرعان ما شرعت في إطلاق الناروذلك حتى نفذ البارود، فأرسل داكنها يطلب المزيد، ولما وصله – تأخر المدد ١٤ يوماً – كان معظم جنوده وضباطه مرضى، لدرجة أنه انعدم من يقوى منهم على حمل المدفعية إلى المراكب. ومن مجموع ٤٥٠ محارباً ذهبوا إلى هناك، لم يبق منهم على قيد الحياة شخص لم يصبه الوباء، كما توفى منهم ما يقارب المائتين، وكان ما يقرب من هذا العدد قد أوشك على الهلاك[١].

وهكذا انتهت حملة البرتغاليين ضد ثورة البحرين الكبرى عام ١٥٢٩م، إلى ما يشبه الكارثة – كما يصفها (Wilson) – حتى أن قائد الحملة نفسه (سيماو داكنها) هلك في طريق العودة قبل الوصول إلى هرمز[٢]. إلاّ أن البرتغاليين عادوا من جديد لفرض سيطرتهم على البحرين بفضل الإمدادات التي وصلتهم من الهند.

رغم أن السيطرة البرتغالية امتدت على البحرين من عام ١٥٢٩م حتى ١٦٠٢م دونما انقطاع، إلاّ أن الحكم البرتغالي لم يكن مستقراً بها، حيث توالت حركات المقاومة ضد الوجود البرتغالي لما اتسم به من تعسف في فرض الضرائب، حتى تجد أن السنوات الفعلية التي مارس فيها

---

(١) أحمد بو شرب، «مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين»، مرجع سابق، ص ١٢٨، ١٢٩، وتاريخ هذا التقرير ١٣/٩/١٥٢٩.

(٢) - Wilson, Op. Cit., p. 124.

البرتغاليون سيطرتهم على البحرين لم تتعد أكثر من أربعين عاماً من تلك الفترة وذلك حتى تم طردهم منها نهائياً عام ١٦٠٢[١].

أما في عمان فقد بدأت أولى خطوات طرد العدو البرتغالي المحتل منذ أن تسلم الإمام الأباضي ناصر بن مرشد اليعربي السلطة عام ١٦٢٤م، بمبايعة أهل الحل والعقد، وبدأ في توحيد عمان أولاً ثم واصل بعد ذلك التخطيط لطرد البرتغاليين تدريجياً من سواحل المنطقة العُمانية حتى مضيق هرمز بعد الاستيلاء على صحار وحصنها عام ١٦٣٣م. ولم يتوقف اليعاربة عن مناهضتهم للبرتغاليين عند منطقة الخليج وعمان بل تابعوهم إلى الهند حرروا جزءاً كبيراً من الممتلكات البرتغالية في شرق أفريقيا[٢]. كما تم في عهد الشاه عباس الصفوي وبالتعاون مع الإنجليز، القضاء تماماً على السيطرة البرتغالية على هرمز في عام ١٦٢٢.

وهكذا نجد أن الحكم البرتغالي في الخليج العربي ، لم يعرف الهدوء والاستقرار أو الاستسلام أو الخضوع التام من قبل أهالي المنطقة، بل يبدو أن هذه المنطقة كانت من أكثر المناطق رفضاً للغزو والوجود البرتغالي، الذي بذل جهداً في السيطرة عليها. ولهذا كانت هذه المناطق أسبق من غيرها في الخروج من ربقة الاستعمار البرتغالي وذلك مقارنة بمناطق أخرى في آسيا وأفريقيا لم ينسحب منها البرتغاليون إلاّ في النصف الثاني من القرن العشرين.

---

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، مرجع سابق، ص٨٢.
(٢) صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي، مرجع سابق، مج٤، ص ص ٩١، ٩٣.

الخاتمة

وبعد.. فلم يكن ما سبق أن ذكرناه هو كل البداية.. ولم يكن كل النهاية.. فما زال هناك الكثير مما لم يذكر أو يكشف في تاريخ الغزو البرتغالي لمنطقة الجنوب والخليج العربي في مطلع القرن السادس عشر، تلك الفترة التي سادت فيها البرتغال العالم المستكشف آنذاك انطلاقاً من أهداف صليبية واقتصادية وسياسية بدأت تتبلور منذ تأسس كيان سياسي عسكري في شبه جزيرة إيبيريا أطلق عليه اسم «البرتغال».

رادوت حكام هذا الكيان فكرة محاولة ضرب المسلمين في عقر دارهم.. وبما أن المواجهة المباشرة في المشرق العربي إبّان الحروب الصليبية لم تأتِ بنتيجة حاسمة؛ فقد ظهر توجه آخر في القرن الخامس عشر دعمته البابوية والكنيسة الأوروبية الغربية بكل جهدها وحماسها الصليبي، وذلك من خلال التخطيط للإلتفاف حول المسلمين من الخلف وتقطيع أوصال بلادهم واحتلال منابع وطرق التجارة في مشرق العالم الإسلامي والسعي لتدمير مقدسات المسلمين الدينية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ليصبح بعدها الإسلام ودوله أثراً بعد عين.

وزاد في كل تلك الأحلام الصليبية البرتغالية الأوروبية الأطماع الاقتصادية في تجارة التوابل وذهب أفريقيا مما أشعل النار في جذوة عملية الكشوف الجغرافية البرتغالية إنْ جاز لنا التعبير فالاقتصاد المتردي والمجاعة النقدية التي عاشتها البرتغال في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت أهم محفزات الكشوف البرتغالية التي بدأت بجهود الأمير هنري الملاح في مطلع القرن الخامس عشر وتواصلها بعد ذلك ونجاحاتها في رسم الطريق لإكتشاف رأس الرجاء الصالح بواسطة بارثلمويوديان، ثم ما كان بعد هذا من عبور هذا الطريق بسفن فاسكو

داجاما، وما تبع ذلك من امتداد النفوذ البرتغالي الاستعماري «لأول مرة في العالم» إلى شرق أفريقيا والهند والخليج العربي والبحر الأحمر.. ومن هنا بدأ المشروع البرتغالي الكبير في إقامة أول إمبراطورية استعمارية بالمعنى الحديث، وقد ارتكزت هذه الامبراطورية على نقاط بحرية استراتيجية تمتد على طول سواحل المحيطات الثلاث الأهم في العالم وهي (الأطلنطي، الهندي، الهادي).. وأمسكت بتلك الأمبراطورية وربطت بين حلقاتها أساطيل برتغالية بحرية حديثة لفترة من الزمن.

ومع كل تلك الأساطيل والخبرة العسكرية البحرية البرتغالية، لم تستطع تلك الدولة السيطرة على المناطق العربية في جنوب الجزيرة والخليج العربي لأكثر من قرن، مع العلم بأن عوامل تخلخل تلك السيطرة وعدم استقرارها كانت قد بدأت تظهر في الأفق بوضوح في أقل من خمسين عاماً من بداية تلك الفترة.

إذن ما الذي ساعد ذلك الشعب البرتغالي الذي لم يتعد المليون نسمة في أحسن الأحوال، والمنكفىء على نفسه في حدود جغرافية ضيقة في أطراف أوروبا الغربية، على النجاح في غزو المنطقة بشكل سريع وخنق اقتصادها وتحويل تجارتها وثرواتها لإدارة واحتكار بلاط لشبونة والأسرة المالكة وذلك في غضون سنوات معدودة من مطلع القرن السادس عشر؟.

في الحقيقة هناك عدة عناصر أساسية ساعدت في تثبيت نفوذ البرتغاليين في المناطق الشرقية وبالذات الإسلامية منها. وهناك عدة عوامل يمكن أن نستخلص منها النتائج لأول غزو أوروبي حديث للمنطقة تحددت معه معظم سياسات الاستعمار الأوروبي بعد ذلك في هذه المنطقة من العالم وطريقة تعامل القوى والكيانات العربية الإسلامية مع هذا

النوع من التسلط الغربي على الشرق في العصور الحديثة. وتتمثل أهم تلك العناصر فيما يلي:

١) الحالة المتدهورة والفوضى السياسية وكثرةالمنازعات القبلية والمذهبية التي عاشتها الدول والممالك الإسلامية في شرق أفريقيا والهند وفارس والعراق وجنوب الجزيرة العربية والخليج العربي. بدت تلك القوى الإقليمية بخلافاتها مترنحة غير قادرة على رفع راية التحدي، فلا هي تجمعت في قوة واحدة وإرادة واحدة، ولا هي ارتفعت فوق مستوى عوامل الفرقة المحلية. ويرجع ذلك التناحر لعدم إدراكها لقيمة الوحدة وأهميتها في حركة التحرير ومجابهة أول استعمار صريح في العالم وطرد البرتغاليين من المنطقة. فقد أصبحت المصالح الآنية وقصر النظر الذي ميّز سياسات بعض تلك القوى العربية والإسلامية في المنطقة تجاه القوة الغازية البرتغالية عنصراً أساسياً في التعامل الإقليمي. وكانت تلك الخصومات من بين أهم العوامل التي مهدت للبرتغاليين في تثبيت نفوذهم. ويستدل – مثلاً – من المدونات المحلية في شرق أفريقيا ومنها «تاريخ آل المزروعي في ممباسا» أن الصراع كان قائماً بين ماليندي وممباسا عند مجيء البرتغاليين، وأن حاكم ممباسا تسلم عدة رسائل من القادة العسكريين البرتغاليين بشأن التحالف معهم ولكنه تردد في ذلك، فانصرف البرتغاليون إلى حاكم ماليندي الذي رحب بهم أيما ترحيب، وقدم لهم كل المساعدة التي مكنتهم بعدئذ من غزو الهند والسيطرة على ساحل شرق أفريقيا وكان ذلك، مما عدّه بعض الكتاب خيانة لا تغفر من قبل هذا الحاكم. كما يستدل من تلك المدونات المحلية أيضاً مدى التمزق الذي كان يعاني منه الساحل الشرقي لأفريقيا وكيف استطاع البرتغاليون، شأنهم شأن كافة القوى الاستعمارية، بعدئذ تعميق هذا الخلاف بين حكام هذا الساحل الأفريقي لصالحهم بهدف إضعاف تلك

القوى الإسلامية وشغلها بخلافاتها ثم التدخل بالتحالف مع قوة ضد قوة أخرى لتحقيق أهدافهم في الاستعمار وتحقيق الغايات الصليبية بضرب الإسلام والمسلمين.

أضف إلى ذلك موقف حاكم جزيرة (ديو) ضد الأمير حسين الكردي في الموقعة المشهورة عام ١٥٠٩، والذي تغير موقفه لصالح البرتغاليين فجأة عندما شعر بهزيمة الأسطول المملوكي. وعلى نفس المنوال جرت مساعدة حكام هرمز للبرتغاليين في غزو البحرين عام ١٥٢١م، كما يلفت النظر أيضاً موقف الشاه إسماعيل الصفوي الصامت بل والمتحالف أحياناً مع البرتغاليين في احتلالهم لمناطق الخليج العربي، وقس على ذلك كل الصراعات الأخرى بين الإمامة الأباضية وملوك الأسرة النبهانية في عمان، والصراع بين الطاهريين والزيديين في اليمن، وكذلك الإمارات الإسلامية المغولية المتصارعة في ساحل الهند الغربي عند مجيء البرتغاليين.. ألم تكن هذه الخلافات هي الأرض الخصبة لتثبيت أقدام أي استعمار جديد!؟! وأليست هذه القصة هي القصة ذاتها التي تتكرر - للأسف - في جميع مراحل مواجهة الاستعمار الدولي في المنطقة عقب القرن السادس عشر؟؟

٢) سياسة الاحتكار الاقتصادي التقليدية التي طبقتها البرتغال في بداية الكشوف وحافظت عليها قدر الإمكان طوال عهدها سواء في أفريقيا أو في بحار الشرق، وهي عدم السماح للقوى الأجنبية الأخرى، بالتدخل فيما اعتبره البلاط البرتغالي حقاً وملكاً له بحكم الأسبقية في الفتح والغزو، كما أن التجارة والربح المضاعف كان يحتل المقام الأول في مخططات البرتغاليين أثناء حركة الكشوف، لذلك اكتفوا بالإقامة في السواحل والقواعد العسكرية والقلاع الحصينة التي أقاموها في تلك المناطق، واحتكروا التجارة وجنوا الأرباح الطائلة. ورغم أن هذه السياسة

كانت قصيرة المدى وتسببت في النهاية وبشكل سريع أيضاً في إنهيار الإمبراطورية البرتغالية، إلا أن الاحتكار البرتغالي لطرق التجارة التقليدية في المنطقة كان قد كسر الاحتكار المملوكي – البندقي لتجارة الهند ذلك الاحتكار الذي كان قد قوض التجارة الداخلية لكلا البلدين، وساعد أيضاً في التدهور الاقتصادي وبالتالي إنهيار قوى المقاومة ضد الغزو البرتغالي في مملكة هرمز وساحل شرق أفريقيا والهند، مما ساعد أيضا الاستعمار البرتغالي على تثبيت أقدامه منذ البداية.

٣) تفوق البرتغاليين التقني في ميدان الأسلحة النارية الحديثة وبناء السفن وتقنية حروبهم البحرية ضد البر والساحل، وفي المياه العميقة في المحيطات، أدى لعدم جدوى ردود الفعل العربية الإسلامية الفورية الضعيفة ضد هذا الغزو، وذلك لنقص وسائل تلك المقاومة وافتقارها إلى عنصرين مهمين وهما: أسطول قوى في مستوى ما كان بيد العدو البرتغالي، وافتقار المنطقة لتلك القوة السياسية القادرة على الرد على ذلك التحدي الأوروبي. وأدى هذا الأمر إلى تأخير عملية التحرر من نير الاستعمار البرتغالي حتى الربع الأول من القرن السابع عشر.

٤) الإرهاب المتعمد الذي مارسه البرتغاليون في البحار الشرقية والمعاملة الوحشية غير المبررة،.فهؤلاء الغزاة المغتصبون الذين أعلنوا منذ البداية حرصهم على نشر النصرانية وفتح طرق جديدة للتجارة مع الهند كسراً للاحتكار وغلاء الأسعار والضرائب، سرعان ما أسفروا عن وجههم الحقيقي وعبّروا عن أهدافهم الصليبية المبيتة ضد المسلمين عندما بدأت سفنهم تجوب مياه المحيط الهندي والبحار العربية القريبة. فما حدث أن عثرت تلك السفن البرتغالية على سفينة عربية إسلامية إلاّ ونهبتها وقتلت من فيها، كما أصبحت تقوم بنفس الفعل ضد سواحل وموانىء شبه الجزيرة العربية والخليج والبحر الأحمر. وقد كانت تلك

السفن تنشر التدمير والقتل والنهب حيث حلّت ثم تلوذ بالهروب بسرعة، بالإضافة لاستخدامهم أشد أنواع القسوة والإذلال في تعاملهم مع أهالي سواحل المحيط الهندي وبالذات المسلمين منهم. ونجد أن كتب المؤرخين البرتغاليين ورسائل ربابنة الأساطيل البرتغالية ونواب الملك في الهند أمثال البوكيرك وداجاما، مشحونة بالكتابة عن مثل هذه القسوة والوحشية وبالأخص في طريقة معاملة الأسرى والمواطنين الأبرياء من المسلمين.

٥) مواصلة تعزيز التفوق البرتغالي العسكري بالأساطيل البحرية بشكل كان يثير الدهشة – كما يقول بانيكار – فقد كانت الأساطيل البرتغالية الحربية تتعاقب بلا نهاية من البرتغال عبر سواحل أفريقيا إلى بحار الشرق. كما أن رؤساء الحاميات البرتغالية في المراكز والقواعد التجارية في المياه الهندية والأفريقية والعربية كانوا يتصرفون وهم يدركون تماماً أن مدداً غير منقطع من السفن والرجال في طريقه إليهم دائماً ويحمل النجدات المتتالية لإنقاذهم في حالة الحصار، ولذلك كان بإمكانهم الصمود ضد القوى المحلية المحيطة بهم في أشد المواقف عسراً.

وساندت تلك الأساطيل الحربية البرتغالية قوة مالية ضخمة بذلها رجال الطبقة الرأسمالية الجديدة (تجار المدن البحرية) الذين أدركوا بأن الانقلاب الهائل الذي ستحدثه الكشوف الجغرافية البحرية سيكون في صالحهم بالتأكيد.

٦) كان التفوق البرتغالي واضحاً في الصناعة البحرية والحربية، فبالرغم من التجهيزات العربية الفلكية المتقدمة، إلاّ أن صناعة السفن البرتغالية كانت تتطور سريعاً بشكل فاق صناعة السفن العربية، فضلاً عن أن البرتغاليين – كما ذكرنا – قد اقتبسوا عن العرب السفن ذات الأشرعة الثلاثية، ثم طوروها واتقنوا صناعتها وزودوها بالمدافع، يضاف إلى ذلك

تمكّن هذه السفن الإبحار في أعالي المحيطات الكبرى. ومن الطريف أنْ نذكر كذلك أنْ البرتغاليين تعلموا صناعة البارود من عرب أسبانيا.

وقد كانت أول السفن الإسلامية التي وصلت للبحار الشرقية بمدفعيتها لمجابهة البرتغاليين هي السفن المصرية المملوكية التي جاءت مع الأمير حسين الكردي من مصر وقد فوجيء بها البرتغاليون، وكان ذلك في وقت متأخر لظهور البرتغاليين في المياه الشرقية أي بعد حوالي عشر سنوات (١٥٠٨م).

كذلك توفر للبرتغاليين عناصر شابة وقيادات مدربة من طبقة النبلاء الذين خاضوا حروباً عديدة في الأندلس وشمال أفريقيا ضد القوى العربية الإسلامية المتناحرة فاكتسبوا خبرة ومران شديدين في الحروب وكانوا يفضلون القيام بالمغامرات البعيدة بدلاً من البقاء تحت جناح الملوك لينالوا من وراء تلك المغامرات الفخر والكسب لهم ولبلادهم.

٧) عدم وجود جيوش نظامية مدربة بشكل جيد تتقن فنون القتال البري والبحري في الدويلات والإمارات العربية والإسلامية في شرق أفريقيا والهند والجنوب والخليج العربي. فقد كانت تلك القوى السياسية من سلطنات وممالك ومشيخات ومدن بحرية تجارية، عبارة عن تجمعات قبلية عشائرية أو مذهبية تتحمس للقتال تحت زعمائها. وسرعان ما كانت هذه التجمعات الحربيةالتي هبت للقتال من كل حدب وصوب تتفكك بمجرد عودة الزعماء إلى ثكناتهم وقبائلهم أو بمجرد الهزيمة العسكرية، بعكس الجيش البرتغالي النظامي بأساطيله الحربية المجهزة والمنظمة وبحارته المدربين تدريباً جيداً والمسلحين بالبنادق والبارود والمدافع. وقد كانت رواتب الجند والمكافآت المالية السخية تزيد في تحفيز هممهم كما كان لهم سكن ومستوطنات وقواعد ومعسكرات معدة خصيصاً للحروب والمقاومة والحصار وما شابه. فقد تميزت الغازية للمنطقة بوحدات عسكرية مدربة ومتفردة بالقوة والنظام، بينما القوى

المحلية كانت مهلهلة وغير متجانسة ويدفعها الولاء العشائري السياسي والمذهبي للدفاع عن محيطها الجغرافي فقط. ولم يستغل هذا الولاء استغلالاً موفقاً من قبل حكام وزعماء هذه المناطق لخلق قاعدة نظامية دائمة ذات تدريب وتنظيم عسكري متواصل لصد مثل هذا النوع من الغزو الجديد على بحار الشرق في القرن السادس عشر الميلادي.

٨) الحقيقة أنه كانت من أهم العوامل التي مكنت البرتغاليين من تثبيت نفوذهم في بحار الشرق، هو ذلك الصراع الإقليمي المذهبي الذي شب بين أهم القوى الإسلامية في منطقة المشرق، التي كانت تمثلها دولة المماليك في مصر والشام والحجاز، والدولة العثمانية التركية في الأناضول وشرق أوروبا والبحر المتوسط، والدولة الصفوية في إيران وأجزاء من العراق وسواحل الخليج العربي الشرقية. ومما زاد في تعقيد هذا الصراع ووصوله إلى ذروته، المعارك الحربية الطاحنة التي استنزفت قدرات هذه الدول الإسلامية الثلاث المتصارعة. وقد أثر هذا الصراع بشكل مباشر على أوضاع العالم الإسلامي آنذاك، فدخل في دهاليز متشابكة، سياسية واقتصادية ومذهبية أحياناً كثيرة، وقد فوّت الصراع المذهبي الذي كان قائماً بين العثمانيين والصفويين بشكل خاص فرصة التصدي للغزو البرتغالي للخليج العربي في وقت مبكر. ولا نريد أن نغمض حق ذلك التعاون الإسلامي الذي حدث بين أمراء المسلمين بالهند والتجار العرب مع الأسطول الملوكي قبل وأثناء معركتي «شول وديو»، لكن تلك الأحداث كانت منفردة ولم تؤدِ إلى نتائج حاسمة ضد البرتغاليين في البحار الشرقية والهند، والأهم أنها لم تكن تمثل اتجاهاً عاماً - كما يذكر ذلك زين الدين المليباري - ويضيف المليباري أن سبب تفوق البرتغاليين على المسلمين أن البرتغاليين كانوا عارفين بمصالح أمورهم وكانوا كلهم على كلمة واحدة لا يخالفون أمر كبرائهم مع بعد المسافة عن رعاتهم،

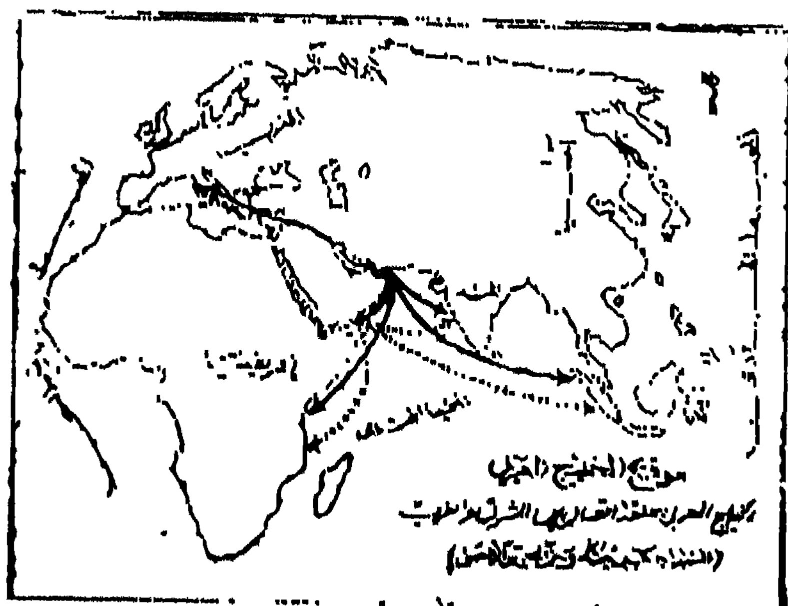
وقلما يصدر بينهم الاختلاف ولم يسمع أن أحداً منهم قتل كبيرهم لأجل الولاية، ولذا دانت لهم – مع قلتهم – رعُاة مليبار وغيرها، بخلاف ما كان عليه عساكر المسلمين وأمراؤهم من الاختلاف وطلب الاعتزال على الغير ولو بقتله!!!، فهل اقترب المليباري من لب الحقيقة حين ذكر أهم أحد أسباب تمكن البرتغاليين من التحكم في بحار وطرق وممرات التجارة العربية الإسلامية في مطلع القرن السادس عشر؟؟

على كل حال وعلى الرغم من كل ما قام به البرتغاليون من إنجازات أهلتهم للحصول على موقع بارز في التجارة العالمية مع المشرق في الربع الأول من القرن السادس عشر، إلاّ أن قواهم تعرضت للإنهاك نتيجة لصراعهم ضد قوى مختلفة، فهم في واقع الأمر لم يكونوا في نزهة بحرية، ولم يكونوا في بلاد خالية من القوى السياسية. ورغم كل ما قيل عن ضعف وتذبذب القوى العربية الإسلاميةفي مواجهة الموجات الأولى من الغزو البرتغالي، إلاّ أن البرتغاليين قد خاضوا حروباً مريرة ضد العرب والعثمانيين والمماليك والفرس والقوى الأخرى في الهند وأرخبيل الملايو، انتهت بطردهم من المنطقة في القرن السابع عشر. ولكن سرعان ما حل محلهم نوع آخر من الاستعمار الأوروبي الجديد عن طريق الشركات والوكالات التجارية وأساطيلها البحرية. وكانت أهم تلك الشركات على الإطلاق شركة الهند الشرقية البريطانية... وقد ساهمت تلك الشركات بدورها، وبدعم من دولها، في طرد البرتغاليين من بحار الشرق وبشكل خاص من منطقة الخليج والجنوب العربي لتفوز بنصيب الأسد في النهاية. وتعود الرحى تدور في امتصاص خيرات الشرق وتحويلها للغرب، ولكن بطريقة أخرى، إلاّ أنها، مع ذلك، سارت أيضاً على درب وخطى أول قوة زرعت الاستعمار الاحتكاري الاقتصادي السياسي في المنطقة ألا وهي البرتغال.

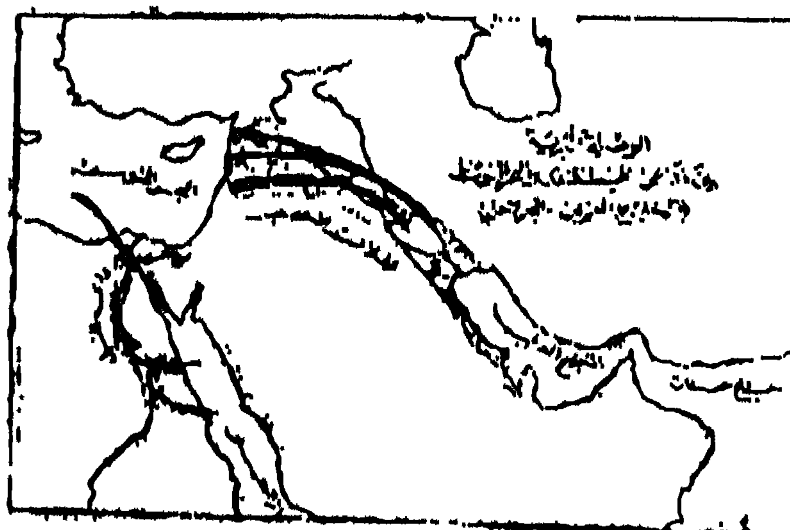
الملاحق



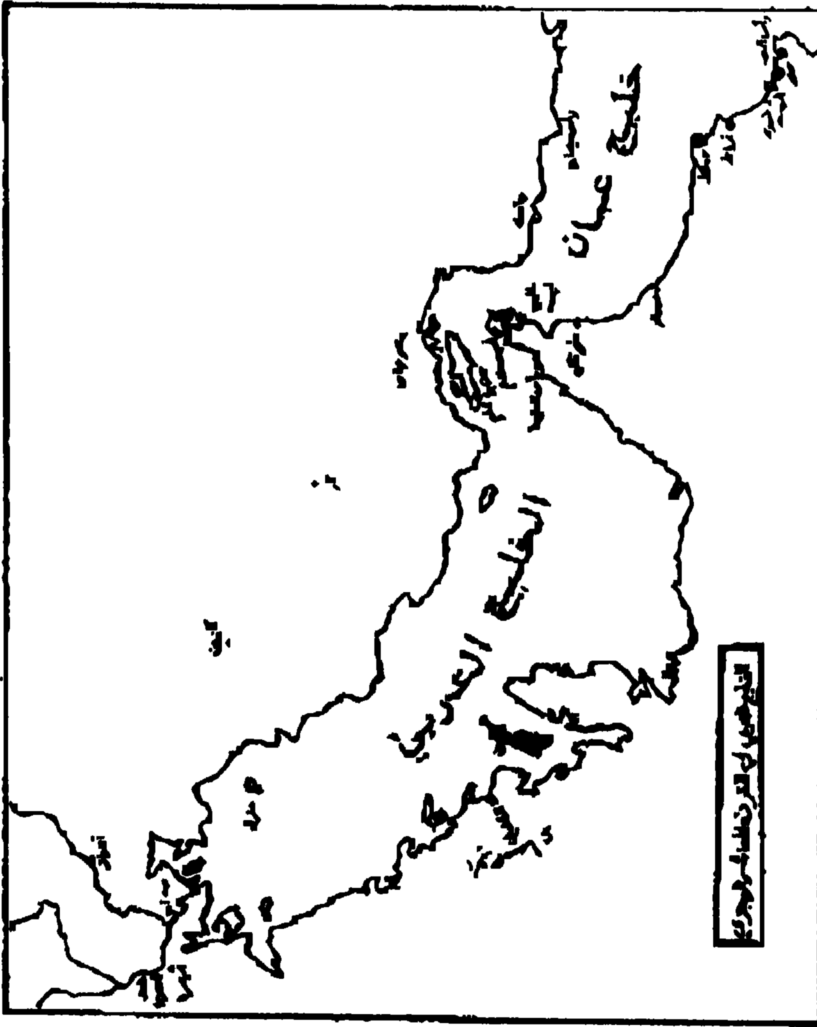
خريطة بحر الهند وجزائره لابن ماجد



موقع الخليج العربي والبحر الأحمر كحلقتي إتصال بين الشرق والغرب



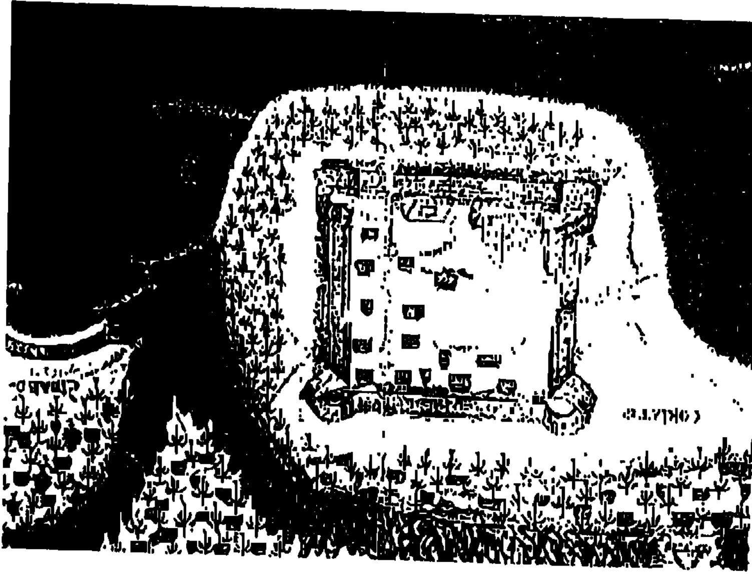
الطريق البري بين المحيط الهندي والبحر المتوسط



الخليج العربي وساحل عمان في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

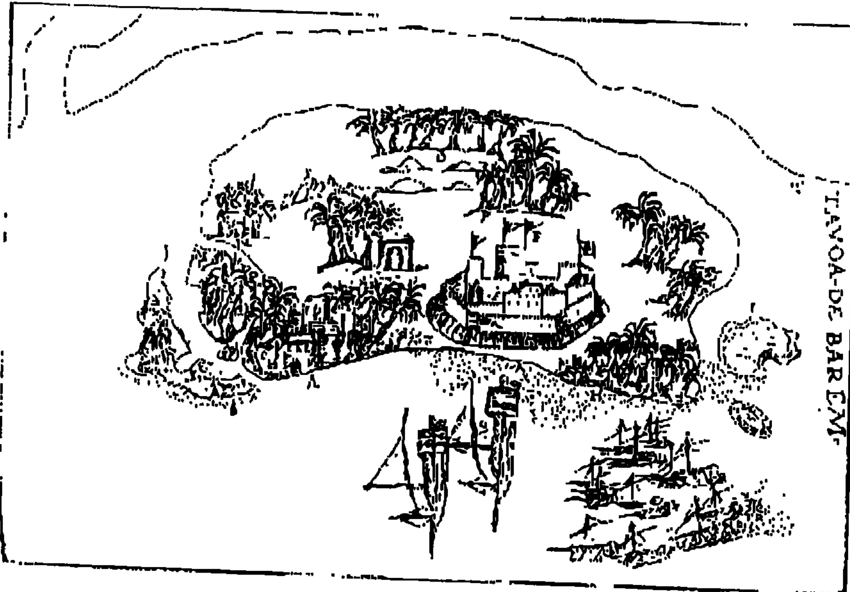


خريطة الجزيرة العربية والدول التي حكمت اليمن وعمان



مخطط لقريات في حوالي سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م. وكانت قريات أول بلدة عمانية نهبها البو كيرك في رحلته الارتيادية على طول ساحل عمان متجهاً نحو هرمز في سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م. المصدر: مخطوطة «كتاب دولة الهند» لمؤلفه (P. Barreto de Resende) تاريخ ١٠٥٦هـ/ ١٦٤٦م.

مخطط مدينة قريات الساحلية في القرن السادس عشر الميلادي

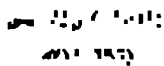


خريطة برتغالية للبحرين في القرن السادس الميلادي وتظهر فيها قلعة البحرين التي حدثت قربها معركة عام ١٥٢١م.



صورة لرأس القائد مقرن الجبري على درع القائد البرتغالي أنطونيو كوريا

شجرة ملوك هرمز
منذ التأسيس وحتى عام ٩١٢هـ

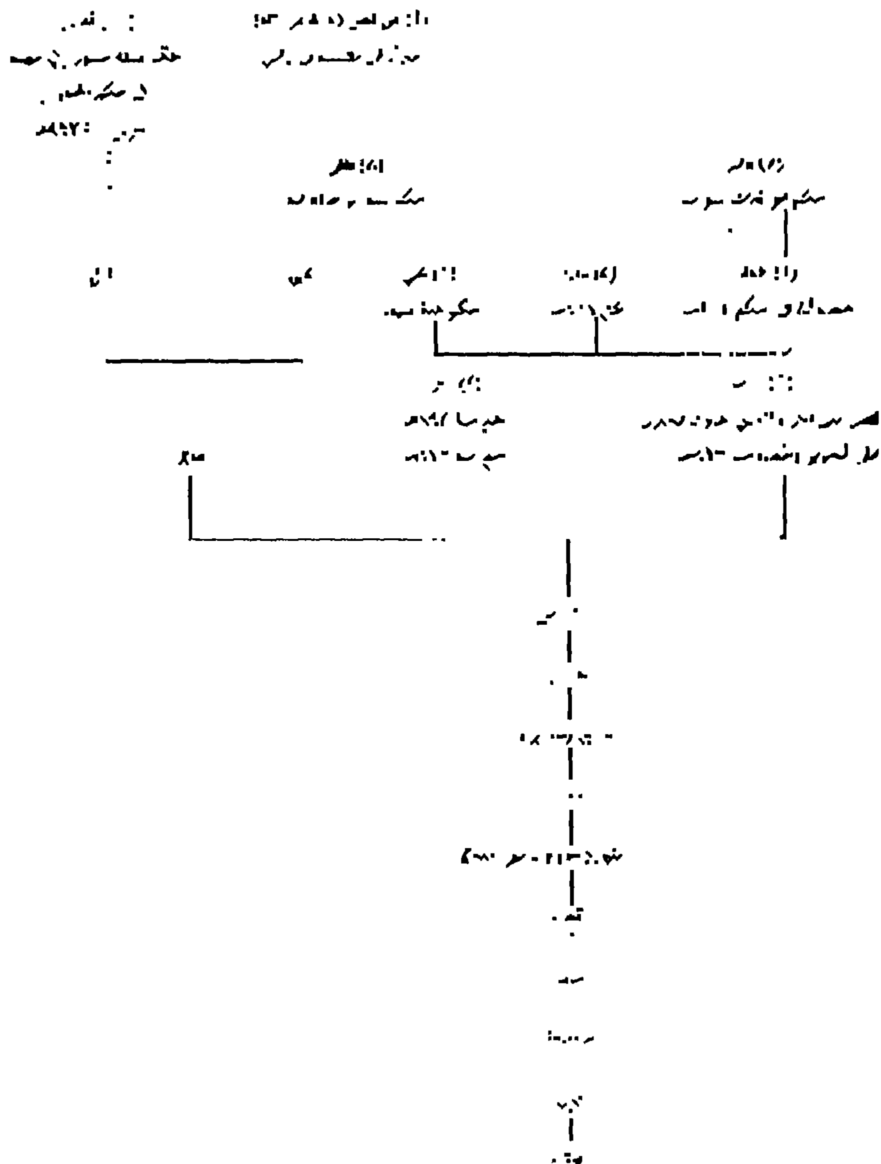


شجرة ملوك هرمز
من عام ٨٣٩ هـ وحتى عام ١٠٠٦ هـ

[illegible]

المصدر: [illegible]

شجرة حكم الجبور



المصدر [illegible]

[illegible]

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً: المخطـوطات

- ابن الديبع: وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد - قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٢٢٤ تاريخ.
- بومخرمة: أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله - قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، مخطوط رقم ٨٨ بمكتبة بني جامع باستانبول، مصور برقم ١٦٧ تاريخ، دار الكتب المصرية.
- البو كيرك: أفونسو - رسالة بتعليمات للسفراء الذين يزورون الشيخ إسماعيل، بتاريخ ١٥١٠م، طوري طومبوا ٢٧، رقم ٤٣، الأرشيف الوطني، لشبونة، عن صورة منها محفوظة بمركز الوثائق التاريخية في البحرين.

ثانياً - المصادر العربية والمعرّبة:

- ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي - بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق وتقديم: محمد مصطفى زيادة، الأجزاء ٢، ٣، ٤، ٥، القاهرة ١٩٦١.
- ابن الأثير: علي بن أحمد بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني - الكامل في التاريخ، الأجزاء ٣، ١١، بيروت ١٩٨٧.
- ابن بطوطة: محمد بن إبراهيم اللواتي - تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجايب الأسفار، بيروت ١٩٩١.
- ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن يوسف - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الأجزاء ١٥، ١٦، القاهرة ١٩٥٦.
- ابن جبير: أبو الحسين محمد بن أحمد - رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٥٩م.
- ابن حوقل: أبي القاسم النصيبي - كتاب صورة الأرض، هولندا ١٩٣٨م.
- ابن الديبع: وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد - الفضل المزيد على بغية المستفيد بأخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلحد، صنعاء د.ت.
- ابن رزيق: حميد بن محمد بن بخيت. - الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان، تحقيق عبد المنعم عامر، دمشق ١٩٧٨م. - الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد منير مرسي، القاهرة ١٩٧٧م.
- ابن ماجد: شهاب الدين أحمد السعدي النجدي - ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق تيودور شوموفسكي، ترجمة محمد منير مرسي، القاهرة ١٩٦٩م. - كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خوري وعزة حسن، دمشق ١٩٧١م.
- ابن المجاور: جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب - صفة بلاد اليمن (تأريخ المستبصر)، تصحيح وضبط أوسكار لوفغرين، هولندا ١٩٥١م.
- أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر - تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م.
- الأحسائي: محمد عبد القادر - تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، الجزء الأول، الرياض ١٩٨٢.

- الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله – نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد ١، لبنان ١٩٨٩م.
- الأزكوي: سرحان بن سعيد العُماني – كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، ط٢، عُمان ١٩٨٦م.
- الأصفهاني: أبو الفرج – مقاتل الطالبيين، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، ط٢، بيروت ١٩٨٧م
- بك: محمد فريد – تاريخ الدولة العلّية العثمانية، ط٢، القاهرة، ١٨٩٦م.
- بو مخرمة: أبو محمد عبد الله الطيب – تاريخ ثغر عدن، الجزء الأول، القاهرة ١٩٩١م.
- زين الدين المليباري: الشيخ أحمد المعبري – تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تحقيق وتقديم محمد سعيد الطريحي، بيروت د.ت.
- السالمي: محمد شيبة بن نور الدين – تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، تصحيح وتعليق أبو إسحاق إبراهيم الجزائري، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦١م. – اللمعة المرضية من أشعة الأباضية، سلسلة تراثنا، العدد ١٨، ط٢، عُمان ١٩٨٣م.
- السخاوي: محمد بن عبد الرحمن – الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، الأجزاء ١، القاهرة ١٣٥٥هـ
- السمهودي: نور الدين علي – وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، الجزء الثاني، بيروت د.ت.
- الشهرستاني: أبي الفتح محمدبن عبد الكريم – الملل والنحل، تصحيح وتعليق أحمد فهمي محمد، الجزء الأول، بيروت ١٩٤٨.
- الصوافي: عبد الله بن مصبح – كتاب السلوة في أخبار كلوة، تحقيق محمد علي الصليبي، عُمان ١٩٨٥م
- العيدروس: محيي الدين عبد القادر بن شيخ عبد الله. – النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تصحيح وضبط محمد رشيد الصفار، بغداد ١٩٣٤م
- القزويني: زكريا بن محمد بن محمد – آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٩م
- القلقشندي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي – صبح الأعشى في كتابة الإنشا، الجزء الخامس، القاهرة، ١٩١٥
- ماركو بولو: – رحلات ماركو بولو، الترجمة من الإيطالية للإنجليزية ويلم مارسدن، الترجمة للعربية عبد العزيز جاويد، ط٢، القاهرة ١٩٩٥م.
- لوريمر: ج.ج. – دليل الخليج، الجزء الأول من القسم التاريخي، الجزء السادس من القسم الجغرافي، الدوحة ١٩٦٧م.
- المقريزي: أحمد بن علي – كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٦م.
- مؤلف مجهول: – تاريخ أهل عُمان، تحقيق وشرح سعيد عبد الفتاح عاشور، عُمان ١٩٨٠
- النهروالي: قطب الدين محمد بن أحمد المكي – البرق اليماني في الفتح العثماني، الرياض ١٩٦٧م
- النهرواني: محمد بن علاء الدين أحمد بن قاضيجان – الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (تاريخ مكة المشرفة) القاهرة ١٨٨٥م.
- اليماني: يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم – غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، الجزءان الأول والثاني، القاهرة ١٩٦٨م.
- اليمني: نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي الحكمي – تاريخ اليمن، تحقيق وضبط حسن سليمان محمود، القاهرة ١٩٥٧م. – المفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق محمد بن علي الأكوع، القاهرة ١٩٦٧م.

ثالثاً: المراجع والدراسات والبحوث:

- إبراهيم علي طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٨، القاهرة ١٩٥٩م.
- أحد بو شرب: – دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفى وأزمور، الدار البيضاء ١٩٨٤. – مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، مجلة الوثيقة، العدد ٤، السنة ٢، البحرين ١٩٨٤. – مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد ١٠، السنة ٥، البحرين ١٩٨٧م.
- أحمد السعيد سليمان: التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة، القاهرة ١٩٦١.
- أحمد عبد الرحيم مصطفى: العرب في ظل الرابطة العثمانية، في كتاب محمد صفي الدين أبو العز، العلاقات العربية التركية من منظور عربي، القاهرة ١٩٩٠م.
- أحمد العناني: البرتغاليون في البحرين وحولها خلال القرنين ١٦، ١٧، الوثيقة، العدد ٤، السنة ٢، البحرين ١٩٨٤.
- أحمد فضل بن علي محسن العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، ط٢، بيروت ١٩٨٠
- أحمد فؤاد متولي: – البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجري على ضوء الوثائق التركية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٤، الرياض ١٩٨٠. – الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته، القاهرة ١٩٩٥م.
- أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٧.
- إسماعيل نور الربيعي: المرحلة الثانية من التنافس بين طريق رأس الرجاء الصالح وطرق القوافل التقليدية، مجلة الوثيقة، العدد ٢٩، السنة ١٥، البحرين ١٩٩٦.
- أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، بيروت ١٩٨٧.
- أندرو ويليامسون: صُحار عبر التاريخ، سلسلة تراثنا، العدد ٢، ط٢، عُمان ١٩٨٢.
- أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، سلسلة عالم المعرفة العدد (١٣)، الكويت ١٩٧٩
- بديع جمعة وأحمد الخولي: تاريخ الصفويين وحضارتهم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٦.
- بشير حمود كاظم: التهديد البرتغالي لتجارة البحر الأحمر، من أعمال ندوة رأس الخيمة التاريخية، الجزء الثاني، الإمارات ١٩٨٧.
- بول كوينتش: وصف البحرين لأحمد بن ماجد، مجلة الوثيقة، العدد ٤، السنة ٢، البحرين ١٩٨٤.
- ت. اليكس جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد جراد، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٢١٥)، الكويت ١٩٩٦.
- ج.ت. نياني (مشرفاً): تاريخ أفريقيا العام (مترجم)، المجلد ٤، بيروت ١٩٨٨.
- جاكلين بيرين (مترجم): اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، بيروت ١٩٦٣.
- جمال زكريا قاسم: – الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧ – ١٨٤٠، القاهرة ١٩٨٥. – الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء

حركة الاستعمار الأوروبي في القرن الخامس عشر في كتاب العلاقات العربية الأفريقية، القاهرة ١٩٧٧. – الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، القاهرة ١٩٧٥.
- جمال زكريا ويونان لبيب (محرران)، العلاقات العربية الإيرانية، معهد الدراسات والبحوث العربية، القاهرة ١٩٩٣م.
- جورج فاضلو حوراني (مترجم) العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، القاهرة ١٩٨٥.
- جوزيف نسيم يوسف. في تاريخ الحركة الصليبية، الاسكندرية ١٩٨٩
- جيمس دفي (مترجم). الاستعمار البرتغالي في أفريقيه، ترجمة الدسوقي حسنين المراكبي، القاهرة د.ت.
- حسام الخادم: ابن ماجد ودوره في اكتشاف طريق الهند البحري ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته، مجلة الوثيقة، العدد ١٢، السنة ٦، البحرين، ١٩٨٨.
- حسين المسري: تاريخ العلاقات السياسية بين العراق والخليج العربي، بيروت ١٩٨٢.
- حمزة علي لقمان: تاريخ الجزر اليمنية، بيروت ١٩٧٢.
- خالد بن محمد القاسمي: الوحدة اليمنية حاضراً ومستقبلاً، بيروت، ١٩٨٧.
- خالد الخليفة: التأثير البرتغالي على اقتصاد منطقة الخليج العربي في القرن السادس عشر، مجلة الوثيقة، العدد ١٩، السنة ١٠، البحرين ١٩٩١.
- خالد سالم محمد: ربابنة الخليج ومصنفاتهم الملاحية، الكويت ١٩٨٢.
- خير الدين الزركلي. الأعلام، الجزء الأول، ط٩، بيروت ١٩٩٠.
- درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية ١٩٧٩.
- دونالد ولبر (مترجم). إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد المنعم محمد حسنين، ط٢، القاهرة ١٩٨٥.
- رأفت غنيمي الشيخ: – أفريقيا في التاريخ المعاصر، القاهرة ١٩٨٢. – البرتغاليون بين رأس الخيمة والهند أوائل القرن السادس عشر، الوثيقة، العدد ٢٣، السنة ١١، البحرين ١٩٩٣.
- رولان موسينيه (مترجم). تاريخ الحضارات العام، (القرنان ١٦ – ١٧)، تعريب يوسف داغر وفريد داغر، الجزء الرابع، ط٢، لبنان، ١٩٨٧.
- رينيه كلوزييه (مترجم): تطور الفكر الجغرافي، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دمشق، ١٩٨٢.
- س. بكنهام (مترجم) بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عُمان، حصاد ندوة الدراسات العُمانية، المجلد ٣، عُمان ١٩٨٠.
- سالم بن حمود بن شامس السيابي: – إسعاف الأعيان في أنساب أهل عُمان، بيروت ١٩٦٥. – أصدق المناهج في تمييز الأباضية من الخوارج، تحقيق وشرح سيدة إسماعيل كاشف، القاهرة، ١٩٧٩. – عُمان عبر التاريخ، (عُمان، ١٩٩٤)، جـ٣.
- سعد زغلول عبد ربه. البرتغاليون والبحر الأحمر، مجلة الدارة، العدد ٢، السنة ٦، الرياض ١٩٨١.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: – الحركة الصليبية، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٩٠. – العصر المماليكي في مصر والشام، ط٣، القاهرة ١٩٩٤. – الدور التركي في الدفاع عن الوطن العربي، في كتاب محمد صفي الدين أبو العز (مشرفا) العلاقات العربية التركية من منظور عربي، القاهرة ١٩٩١.
- سونيا. ي. هاو (مترجم) في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، القاهرة ١٩٥٧.

■ سليمان إبراهيم العسكري: التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي، القاهرة ١٩٧٢.
■ السيد عبد العزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، الاسكندرية ١٩٩٣.
■ سيد سليمان الندوي: العلاقات التجارية بين العرب والهند، مجلة ثقافة الهند، عدد ٢، مجلد ١، بومباي ١٩٥٠.
■ سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥م، الطبعة ٤، القاهرة ١٩٩٢
■ شارل ديل (مترجم): البندقية جمهورية ارستقراطية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر، القاهرة، ١٩٤٧.
■ شوقي عطا الله الجمل: - البرتغاليون في شرق أفريقيا وطردهم منه، الوثيقة، العدد ١٦، السنة ٩، البحرين ١٩٩٠. - المراكز العربية على ساحل أفريقيا الشرقي والجزر القريبة منه، الوثيقة، العدد ٢٩، السنة ١٥، البحرين ١٩٩٦. - تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة ١٩٧١.
■ صادق حسن عبدواني: الدولة العُمانية، نشأتها وازدهارها، حصاد ندوة الدراسات العُمانية، المجلد ٢، عُمان ١٩٨٠.
■ صباح إبراهيم الشيخلي: ابن ماجد وشرق أفريقيا، مجلة الوثيقة، العدد ٢٣، السنة ١١ (البحرين، ١٩٩٣).
■ صلاح العقاد: دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج، حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد ٤، عُمان ١٩٨٠.
■ صلاح العقاد وجمال زكريا: زنجبار، القاهرة ١٩٥٩.
■ طارق نافع الحمداني: - القوى البحرية العربية ودورها في مواجهة البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي في بداية القرن العاشر الهجري (١٦م)، مجلة الدارة، العدد ٤، السنة ١٠، الرياض ١٩٨٥. - عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامح العثمانيين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٤٢، السنة ١١، الكويت ١٩٨٥. - الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة الوثيقة العدد ١٥، السنة ٨، البحرين ١٩٨٩.
■ عاطف السيد: البحر الأحمر والعالم المعاصر، القاهرة ١٩٨٣.
■ عبد الأمير محمد أمين: نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا، من أعمال ندوة رأس الخيمة التاريخية - الجزء الثاني، الإمارات العربية، ١٩٨٧.
■ عبد الحميد البطريق: من تاريخ اليمن الحديث (١٥١٧ - ١٨٤٠م)، القاهرة، ١٩٦٩م
■ عبد الرحمن عبد الله الشيخ: دور المسلمين في تشكيل اقتصاد أمبراطورية جنوة والبندقية في القرنين ١٦ - ١٧م، المجلة التاريخية المغربية، العددان ٤٣، ٤٤، السنة ١٣، تونس ١٩٨٦.
■ عبد الرحمن بن عثمان الملا: - تاريخ هجر، الجزء الثاني، ط٢، الأحساء ١٩٩١. - تاريخ الحركات الفكرية واتجاهاتها في شرق الجزيرة العربية وعُمان، الرياض ١٩٩٤.
■ عبد السلام عبد العزيز فهمي: مملكة هرمز المجد في نشأتها وازدهارها والعبرة في سقوطها واستلامها، مجلة العربي، العدد ١٨٤، الكويت ١٩٧٤.
■ عبد العزيز عوض: دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، الأردن ١٩٩١.
■ عبد العزيز محمد الشناوي: - الدولة العثمانية دولة مُفترى عليها، الجزء ٢، القاهرة ١٩٨٠. - المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، من أعمال مؤتمر دراسات شرق الجزيرة

العربية، الجزء الثاني، الدوحة ١٩٧٦. – أوروبا في مطلع العصور الحديثة، الجزء الأول، مصر ١٩٦٩.
■ عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب في القرنين الحادي عشر والخامس عشر، بيروت ١٩٦٩.
■ عبد القدوس الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، المجلد ١، القاهرة ١٩٨٢.
■ عبد اللطيف ناصر الحميدان: – إمارة العصفورين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب، العدد ١٥، جامعة البصرة ١٩٧٩. – التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية ٨٢٠ – ٩٣١هـ (١٤١٧ – ١٥٢١م)، مجلة كلية الآداب، العدد ١٦، السنة ١٤، جامعة البصرة ١٩٨٠. – مكانة أجود بن زامل الجبري في الجزيرة العربية، مجلة الدارة، العدد ٤، السنة ٧، الرياض ١٩٨٢. – نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية، مجلة كلية الآداب، العدد ١٧، السنة ١٥، جامعة البصرة ١٩٨١.
■ عبد الملك عودة: السياسة والحكم في أفريقيا، مصر ١٩٥٩.
■ عبد المنعم عبد الحليم سيد: البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة، الاسكندرية ١٩٩٣.
■ عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند، ط٣، مصر ١٩٩٠.
■ عبد الهادي التازي: وثيقة لم تنشر عن البحرين، الوثيقة، العدد ٤، السنة ٢، البحرين ١٩٨٤.
■ عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني: فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، ط ٤، صنعاء ١٩٨٤.
■ علي أبا حسين: – البحرين كما يراها الرحالة الغربيون، الوثيقة، العدد ٢١، السنة ١١، البحرين ١٩٩٢. – الجبور عرب البحرين أو عربان الشرق، الوثيقة، العدد ٣، السنة ١، البحرين، ١٩٨٣. – صفحات من تاريخ البحرين، الوثيقة، العدد ١، السنة ١، البحرين ١٩٨٢.
■ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٤٤.
■ علي التاجر: – مناقشات حول ابن ماجد، مجلة الخليج العربي، المجلد ١٣، العدد ٢، جامعة البصرة ١٩٨١. – الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي في القرن السادس عشر، مجلة العروبة، الأعداد ٥ لعام ١٩٩٢، ٧ لعام ١٩٩٤، ٨ لعام ١٩٩٥، البحرين.
■ علي غنام: – أحداث فاصلة في إحلال النفوذ الأجنبي بالخليج العربي، مجلة الخليج العربي، المجلد ١٧، العدد ٢، جامعة البصرة ١٩٨٥. – كيف نجحت دولة أوروبية صغيرة في استعمار بلدان كبيرة؟ مجلة الخليج العربي، المجلد ١٩، العدد ١، البصرة ١٩٨٧.
■ علي همت بسرلي الأقسكي (مترجم): أبو الفتح السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية وحياته العدلية تعريب محمد إحسان عبد العزيز، مصر ١٩٥٣.
■ عمر الاسكندري وسليم حسن: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبل الوقت الحاضر، القاهرة، ١٩٩٠
■ عمر الاسكندري و أ.ج. سفدج: تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، القاهرة ١٩٩٠.
■ فائق الصواف ومصطفى رمضان: أهمية ثغر جدة في النصف الأول من القرن السادس عشر، الدارة، العدد ٢، السنة ٦، الرياض ١٩٨١.
■ فاروق عثمان أباظة: – أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، القاهرة، ١٩٨٦. – عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٨٣٩ – ١٩١٨م)، القاهرة ١٩٨٧.
■ فالح حنظل: الأطماع البرتغالية في المقدسات الإسلامية والمعجزة الربانية في صدهم عنها كما وردت في

الوثائق البرتغالية، من أعمال ندوة رأس الخيمة التاريخية، الجزء الأول، الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٧.
■ فضل بن عمار العماري: ابن مقرن وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين، الرياض د ت.
■ فؤاد كوبريلي (مترجم): قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٩٣.
■ فيجي، جي، دي (مترجم): تاريخ غرب أوروبا، ترجمة وتعليق السيد يوسف نصر، القاهرة، ١٩٨٢.
■ فيليب حتى ادوارد جرجي وجبرائيل جبور: تاريخ العرب (مطول)، الجزء الأول، بيروت ١٩٢٥
■ قدري قلعجي: الخليج العربي، بيروت ١٩٦٥.
■ لدن شودري: الخليج العربي وعالم التجارة في المحيط الهندي، مجلة الوثيقة، العدد ٢٠، السنة ١٠، البحرين ١٩٩٢.
■ كارل بروكلمان (مترجم): تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارسي ومنير البعلبكي، ط٨، بيروت ١٩٧٩
■ لبيب صبحي: التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٤، العدد ٢، القاهرة ١٩٢٥.
■ محمد أبو زهرة: الإمام زيد حياته وعصره وآراؤه الفقهية، القاهرة ١٩٥٩.
■ محمد أرشيد العقيلي: الخليج العربي في العصور الإسلامية منذ فجر الإسلام حتى مطلع العصور الحديثة، بيروت ١٩٨٨.
■ محمد أمين صالح: تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة، مجلة الدارة، العدد ٢، السنة ٦، الرياض ١٩٨١.
■ محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، القاهرة ١٩٩٤.
■ محمد حسن العيدروس: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، القاهرة ١٩٩٦.
■ محمد علي الشهاري: الخروج من نفق الاغتراب وأحداث ثورة ثقافية في اليمن، بيروت ١٩٨٣
■ محمد كريم إبراهيم: عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية، جامعة البصرة ١٩٨٥.
■ مصطفى عبد القادر النجار وآخرون: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، جامعة البصرة ١٩٨٤.
■ مصطفى عقيل الخطيب: التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ – ١٧٦٣م، قطر، ١٩٩١
■ محمد عبد العال أحمد: – البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، القاهرة ١٩٨٠. – بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الاسكندرية ١٩٨٩.
■ محمد عبد الله ماضي: دولة اليمن الزيدية نشأتها وتطورها وعلاقاتها، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٣، العدد ١، القاهرة ١٩٥٠.
■ محمد عبد المحسن الحلي: عدن والمطامع البرتغالية في القرن السادس عشر، من أعمال ندوة رأس الخيمة التاريخية، الجزء الثاني، الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٧.
■ محمد محمود السروجي: المقاومة العربية الإسلامية للبرتغاليين في الخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد ١٧، السنة ٩، البحرين ١٩٩٠.
■ محمد متولي: حوض الخليج العربي، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٠.
■ محمد محمود النشار: تأسيس مملكة البرتغال، القاهرة ١٩٩٥.
■ محمود حسن: سلطنة عُمان وامتياز تأجير ميناء بندر عباس، القاهرة ١٩٩٢
■ محمد كامل المحامي: اليمن شماله وجنوبه، تاريخه وعلاقاته الدولية، بيروت ١٩٦٨.
■ محمود محمد الحويري: ساحل شرق أفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي، القاهرة ١٩٨٦.
■ محمد يحيى الحداد: تاريخ اليمن السياسي، صنعاء ١٩٧٦.

■ محيي الدين الألوائي: مليبار - كيرله، مجلة ثقافة الهند، المجلد ٧، الأعداد «الأول والثاني»، بومباي ١٩٥٩.
■ نوال حمزة الصيرفي. النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، الرياض ١٩٨٣.
■ نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطات بين الشرق والغرب، القاهرة ١٩٧٣
■ نو نويي. سلفا: صفحات عن الغزو البرتغالي للبحرين، الوثيقة، العدد ٨، السنة ٤، البحرين ١٩٨٦
■ هـ.أ.ل. فيشر (مترجم): تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة مصطفى زيادة وآخرون، مصر، ١٩٥٧
■ هـ.ج.وود (مترجم): الارتياد والكشف الجغرافي، ترجمة شاكر خصباك، بيروت د.ت
■ ول ديورانت (مترجم): قصة الحضارة، الجزء الرابع، المجلد ٤ (١٥)، عصر الإيمان، بيروت ١٩٨٨
■ وندل فيليبس (مترجم): تاريخ عُمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، عُمان ١٩٨٣
■ يلماز أوزتونا (مترجم): تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ترجمة عدنان محمود سلمان، استانبول ١٩٨٨
■ يوسف فضل حسن: الصراع حول البحر الأحمر منذ أقدم العصور حتى القرن الثامن عشر، الدارة، العدد ٣، السنة ٨، الرياض ١٩٨٣.

رابعاً: المراجع الفارسية

■ إقبال عباس. مطالعاتي درباب بحرين وجزاير وسواحل خليج فارس، طهران ١٩٣٩م
■ جهانكير قائمقامي: مسألة هرمز در روابط إيران وبرتغال، مجلة قسمت، العدد ٢، طهران، ١٣٥٢ هـ.ش
■ محمد أحمد بناهي سمناني، شاه إسماعيل صوفي (مرشد سرخ كلاهان)، (كتاب نمونه، طهران، ١٣٧١ شمسي)
■ مؤلف مجهول: فتح قلهات وهرمز، مجلة يادكار (ذكريات)، العددان ١ - ٢، طهران ١٩٤٧.
■ نصر الله فلسفي (مترجم): إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي، ترجمة وتقديم محمد فتحي يوسف الريس، القاهرة ١٩٨٩.

خامساً - رسائل ماجستير غير منشورة:

■ أحمد محمود عامر: حملات البرتغاليين الصليبية على المغرب الأقصى أواخر العصور الوسطى، جامعة أسيوط ١٩٩٣.
■ عبد الله بن ناصر الحارثي: بنو نبهان في عُمان والأوضاع الاقتصادية في عصرهم، جامعة القاهرة ١٩٩٠

سادساً: المصادر والمراجع الأجنبية:

• Adamly at, Fereydoun - Bahrein Islands, New Work 1955.
• Bell, Aubrey F.G. - Portuguese Portraits, U.S.A. 1916.
• Boxer, C.R. - The Portuguese Seaborne Empire 1415-1828, London, 1977.
• Faroughy, Abbas - Bahrein Islands, 750-1951, New York, 1951
• Chauduri, K.N. - Trade and Civiliation in the Indian Ocean, U.K. 1985.
• Hass, Williams, Iran, New York, 1964.
• Marques, A.H. De Oliveira - History of Portugal, Vol. 2, "From Lusitania to Empire", New York, 1972.
• Melville, Charles (Ed.) - Safavid Persia, London, 1996.

• Miles, Somul B. - The Countries and Tribes of the Persian Gulf, 2nd Ed. In one volume, London, 1966.
• Morse, H. Stephens - Portugal, London, 1908.
• Nowell, Charilese - Portugal, U.S.A. 1973.
• Ozbaran, Salih - Bahrain in the sixteenth Century

مجلة الوثيقة (القسم الانجليزي) ، العدد ١٥ ، السنة ٨ ، البحرين ١٩٨٩.

- The Ottoman Turks and Portuguese in the Persian Gulf 1534-1581, Journal of Asian History, Ed. by Denis Sinor, Vol. 6, No. 1, London, 1972.
• Panikkar, K.M. - Asia and Western Dominance, London, 1959.
• Penrose, Boies - Travel and Discovery in the Renaissance (1420-1620) Cambridge 1960.
• Prestige, Edgar - The Portuguese Pioneers, London, 1933.
• Senceau, Elaine - Henry the Navigator, New York, 1947.
• Serjeant, R.B. - The Portuguese, off the South Arabian Coast, London, 1963.
• Sousa, Manuel de Fariay - The History of the Discovery and Conquest of India. Trans. by John Stevens, 2nd. Vol. 1 W. Germany, 1971.
• The Book of Duarte Barbosa - Trans. by Mansel Longworthe Dames, 2nd Ed. London 1967.
• The Cambridge Medieval History - Planned by J.B. Bury, Vol. 8 (The Close of the Middle Ages) London 1936.
• The Commentaries of the Great Great Afonsod'l Boquerque - Trans. by walter Degray Brich, 4 Vols. London 1774.
• The New Cambridge Modern History, Vol. 1 (The Renaissance 1493 - 1520) U.K. 1964.
• The Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis - Trans. by A. Vambery, Pakistan, 1975.
• The Voyage of Pedro A'lvares Cabral to Brazil and India - Trans. by William Brooks Greenlee, London, 1938.
• Vasco Graca Moura (Presentation) Portugal and the Discoveries, Laspon, 1992.
• Wilber, Donald N - Iran, Past and Present, U.S.A. 1950
• Wilson, S.R. Arnold - The Persian Gulf U.K. 1928.

دوائر المعارف العامة والأطالس

▪ الحموي: شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت: معجم البلدان، الأجزاء ١، ٣، ٥، بيروت ١٩٨٤
▪ حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٨٧م.
▪ زامباور (مترجم): معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥١م.
▪ محمد شفيق غربال (مشرفاً): الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثاني، ط٢، بيروت، ١٩٩٠.

Encyclopedia Britanica, Vol. 18. London 1962. %

الغزو البرتغالي للجنوب والخليج العربي
في الفترة ما بين ١٥٠٧هـ - ١٥٢٥م

المحتــويــات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمــة	٥
الفصل الأول:	١٣
الاستعمار البرتغالي في بحار الشرق ودوافعه	
الفصل الثاني:	٦١
الأوضاع السياسية في مشرق العالم الإسلامي عند مجيء البرتغاليين	
الفصل الثالث:	٩٧
الكيانات السياسية المحلية في الخليج وجنوب الجزيرة العربية إبان الغزو البرتغالي للمنطقة	
الفصل الرابع:	١٣٧
الغزو البرتغالي لعمان والخليج العرب	
الفصل الخامس:	٣١٣
الجبور ومقاومتهم مشروعات البرتغاليين لغزو البحرين	
الفصل السادس:	٢٤٧
المخططات البرتغالية لغزو الجنوب العربي والبحر الأحمر والمقاومة العربية الإسلامية لها	
الفصل السابع:	٢٨٩
ثورة عام ١٥٢١م في الخليج العربي ضد البرتغاليين ونتائجها	
الخاتمة	٣١٣
الصور والخرائط	٣٢٣
المصادر والمراجع	٣٣٥


شركة ابوظبي للطباعة والنشر
هاتف: ٧٣٢٨٢٨ - فاكس: ٧٣٢٧٢٥

يتناول هذا الكتاب الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج وسيرة البرتغاليين في سواحل هذه المنطقة والحروب التي شنّوها وأخبار المقاومة والثورات الوطنية ضد البرتغاليين في المنطقة التي كتب لبعضها النجاح الذي أفسده في كثير من الأحيان التنافس الإقليمي على السلطة والنفوذ.

وقد امتاز هذا الكتاب باعتماده على العديد من المصادر المخطوطة والكتب والمذكرات البرتغالية المترجمة من مصادرها مباشرة إضافة إلى بعض المصادر والمراجع العربية والفارسية المهمة



مركز زايد للتراث والتاريخ

ZAYED CENTRE FOR HERITAGE AND HISTORY

ص ب ٢٣٨٨٨ العين - الإمارات العربية المتحدة - هاتف ٧٦١٥١٦٦ - ٣ - ٩٧١ ، فاكس ٧٦١٥١٧٧ - ٣ - ٩٧١

P.O Box: 23888 Al Ain - U.A.E. Tel: 971 - 3 - 7615166 Fax: 971 - 3 - 7615177